احلى الحكايا



طرائف من التراث العربي

إعداد
عبد الأمير علي مهنا

دار الفكر اللبناني

أحلى الحكايا

طرائف من التراث العربي

أحلى الحكايا

طرائف من التراث العربي

إعداد

عبد الأمير علي مهنا

دار الفكر اللبناني

بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

هذا الكتاب يهدف إلى وضع طرائف التراث العربي في متناول القرّاء على مختلف مستوياتهم وأهوائهم، وذلك بطريقة ميسَّرة تقوم على التقريب والإنتقاء والاختيار، إضافةً إلى الحرص الشديد على إعطاء صورة واضحة غير معقّدة عن تراثنا ممثلاً بأمّهات الكتب الأدبية والفكرية التي تزدان بها خزانة الثقافة العربية، ككتاب «الأغاني» للأصفهاني، و«العقد الفريد» لابن عبد ربّه، و«يتيمة الدهر» للثعالبي، و«المستطرف» للأبشيهي و«نفح الطيب» للمقري، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة، و«صبح الأعشى» للقلقشندي، وكتب الجاحظ، وكتب التراجم وغيرها من أمهات الكتب الكثيرة..

ومعلوم أن كتب التراث العربي مليئة بالقصائد والمقطوعات والقصص والروايات والنوادر والطرائف التي تجسّد بشكل فنيّ لحظات ضاحكة تستحق التوقف عندها لفائدتها الترفيهيّة، ولما تنطوي عليه أيضاً من فوائد نقدية اجتماعية وأدبية وغير ذلك.

وتراثنا العربي مليء بالكتب التي تتناول الشخصيات الطريفة التي تدخل إلى الأوساط الفنيّة المترفة والأوساط الفقيرة وقصور الملوك ومجالس الخلفاء والقادة، هذه الشخصيات التي وهبها الله البديهة والحساسيّة النقدية المرهفة التي تجعلها تلتقط أحداث الحياة وأحوالها العادية فتتحوّل على يديها إلى ضحكٍ وطرائف ونوادر مفعمة بروح النقد الاجتماعي والخلقي والأدبي والسياسي.

هـذه الطرائف تصـوّر لنا جـوانب من مظاهـر الحياة الإجتـماعية عنـد العـرب، أعددتها بأسلوب فكاهي شيّق وممتع، آملاً أن أكـون وفقت إلى بعض ما نشـدت وما اجتهدت والله الموفّق.

عبد الأمير علي مهنا

بيروت في ١/١/١٩٩٠

ذات الخمار الأسود(*)

قدم بعض التجار مدينة رسول الله (ص) ومعه حِملٌ من الخُمُرِ[1] السود، فلم يجد لها طالباً ولا شارياً، فكسدت عليه وضاق صدره. فقيل له: ما يُنفقها لك إلاّ «مسكين الدارمي»[2] وهو من مجيدي الشعراء الموصوفين بالظرف والخلاعة.

فقصده فوجده قد تزهّد وانقطع في المسجد، فأتاه وقصّ عليه القصة.

فقال: وكيف أعمل وأنا قد تركت الشعر وعكفت على هذه الحال؟

فقال له التاجر: أنا رجل غريب، وليس لي بضاعة سوى هذا الحِمل، وتضرَّع إليه، فخرج من المسجد وأعاد لباسه الأول وعمل هذه الأبيات وشهرها وهي:

قُلْ للمليحة في الخمار الأسود ... ماذا فعلتِ بناسكٍ متعبّدِ
قد كان شمّر للصلاة ثيابه ... حتى قعدتِ له بباب المسجد
ردّي عليه ثيابه وصلاته ... لا تقتليه بحقّ دين محمّد

فشاع بين الناس أن «مسكيناً الدارمي» قد رجع إلى ما كان عليه، وأحبَّ واحدة ذات خمار أسود، فلم يبقَ في المدينة ظريفة إلاّ وطلبت خماراً أسود.

فباع التاجر الحمل الذي كان معه بأضعاف ثمنه، لكثرة رغباتهم فيه، فلما فرغ منه عاد «مسكين» إلى تعبّده وانقطاعه.

* وقال أبو عبد الله الحامدي[3]:

قل للمليحة في الخمار المشمشي ... كم ذا الدلالُ عدمتُ كلَّ مُحرّشِ
يا من غدا قلبي؛ كنرجس طرفها ... في الحبّ لا صاحٍ ولا هو منتشي
هذا الربيع بصحن خدّك قد بدا ... لمقبّلٍ ومُعضّضٍ ومُخمّشِ
فمتى أبيت مُعانقاً لبهارهِ ... ولورده المستأنس المستوحش؟

(*) راجع مصادر الطرائف في فهرس هذا الكتاب.

(١) الخُمُر: جمع خِمار، وهو ما تغطي به المرأة وجهها، وهو ما تغطي به المرأة وجهها.

(٢) مسكين الدارمي: هو ربيعة بن عامر، توفي سنة ٨٩ هـ.

(٣) راجع: «اليتيمة» للثعالبي ٢ : ٣٧٢.

الملوك والخلفاء لا يؤاكلها خدمها

قال مخارق[1] المغنّي:

دخلتُ على المأمون يوماً وبين يديه طبق عليه رغيفان ودجاجة. قال: فقال لي تعال يا مخارق. قال: فصيرت بركة قبائي في منطقتي وغسلتُ يدي وجئت فجعلت أقطع بين يديه من الدجاجة وآكل حتى أتينا على الدجاجة والرغيفين جميعاً. وقمت من بين يديه فلمّا جلسنا للنبيذ قال لي: يا مخارق غنّ صوتاً كذا. فغنيته فعبّس في وجهه وقال لعلوية المغنّي: غنّني يا علويّة هذا الصوت، فغنّاه دون غنائي فضحك إليه وتبسّم ودعا له بعشرة آلاف درهم. فوضعتْ بين يديه ثم سألني أن أغنّيه لحناً آخر فغنّيته واجتهدت ففعل مثل فعله الأول وأمر علويّة فغنّاه ففعل كذلك ودعا له بعشرة آلاف درهم ثم قال: غنّني فغنّيته ففعل كفعله الأول ثم قال لعلويّة: غنّني، فغنّاه فدعا له بعشرة آلاف درهم.

ثم قام إلى الصلاة فقال لي علوية وأصحابنا: أَلَكَ ذنب؟

فقلت: لا والله إلاّ أنني دخلت فدعاني إلى الغداء فأكلت معه.

فقال لي علوية: ويلك ألم يكن في بيتك رغيف فتأكله قبل مجيئك؟ قال: ثم انصرفنا من ذلك المجلس فأمر أن أحضر الدار كل يوم حتى حضرت شهراً لا يأذن لي فلما استوفيت ثلاثين يوماً أذن لي فدخلت وهو يتغدّى وبين يديه طبق مثل ذلك الطبق وعليه دجاجة ورغيفان فسلمت فردّ عليّ السلام ثم قال: ادْنُ يا مخارق.

فقلت: يا أمير المؤمنين لا والله لا أعود لمثلها أبداً.

قال: فضحك حتى استلقى ثم قال لي: ويلك أظننت بي بخلاً على الطعام لا والله ولكني أردُت تأديبك لمن بعدي لأن الملوك والخلفاء لا يؤاكلها خدمها وأخاف أن تتعود هذا من غيري فلا يحتملك عليه. تعال الآن فكُلْ في أمان. قال: قلت لا أفعل والله.

---

(١) مخارق: هو أبو المهنأ ابن يحيى الجزار إمام عصره في فن الغناء, كان الرشيد العباسي يعجب به. توفي سنة ٢٣١ هـ.

قال: فدعا لي بطعام وحضر المغنون فقال لعلوية: غنّي، فغنّاه فأعرض عنه ثم قال لي: غنِّ فغنّيت فأمر لي بعشرة آلاف درهم ثم لم يزل يفعل كذلك حتى استوفيت ثلاثين ألفاً كما وهب لعلوية.

٣

لا يكبر الرجل عن ثلاث: تواضعه لسلطانه ووالده ومعلمه العلم

كان المأمون قد وكّل الفرّاء يلقن ابنيْه النحو، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه، فاصطلحا على أن يقدم كل واحدٍ منهما فرداً فقدماها، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر، فرفع ذلك الخبر إليه، فوجّه إلى الفرّاء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال: من أعزّ الناس؟

قال: ما أعرف أعزّ من أمير المؤمنين.

قال: بلى من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليّا عهد المسلمين حتى رضيَ كل واحد أن يقدم له فرداً.

قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعةٍ حرصا عليها، وقد روي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين ركابيهما، حين خرجا من عنده.

فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسنّ منهما؟

فقال له: اسكتْ يا جاهل، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلاَّ ذوو الفضل.

فقال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً وألزمتك ذنباً، وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما وبيّن عن جوهرهما، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه ووالده ومعلّمه العلم، وقد عوّضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما.

نوادر جاحظية

* يروي الجاحظ في كتاب الحيوان عن جماعة من أهل خراسان أنهم اجتمعوا في منزلٍ ليلاً، فأحجموا عن إنارة المصباح وصبروا على الظلمة ما أمكنهم الصبر. ولما اضطروا إلى الإنارة جمعوا النفق اللاّزم لذلك وأبى واحد منهم أن يشاركهم في النفقة، فكانوا إذا جاء المصباح شدّوا عينيه بمنديل إلى أن يناموا ويُطفئوا المصباح فيفرجون عن عينيه وذلك حتى لا يستفيد من نوره.

* وقد يدفعهم (أي لأهل خراسان) البخل إلى أعجب الحيل وأطرفها، من ذلك ما رواه الجاحظ من أن أُناساً من أهل مَرْو لا يلبسون خفافهم (أحذيتهم) إلاَّ ستة أشهر في السنة فإذا لبسوها في هذه الأشهر الستة يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر مخافة أن تنقب هذه النعال.

* ويروي الجاحظ قصة أبي عبد الرحمن الذي كان يحبّ أكل الرؤوس إلاَّ أنه لم يكن يأكل اللحم إلاَّ في عيد الأضحى.

يقول الجاحظ إن أبا عبد الرحمن هذا كان إذا اشترى رأساً لا يُقعِد ابنه الأكبر معه على الخوان (طاولة الأكل) إذ أن هذا الابن ربما رافق أباه إلى بعض الولائم فيأكل اللحم هناك. أما الابن الأصغر فكان يقعد على الخوان مع أبيه ولكن بشروط ووصايا كثيرة منها:

«إعلم يا بني أن مدمن اللحم كمدمن الخمر.

إيّاك ونهم الصبيان.

إعلم أن الشبع داعية البشم وأن البشم داعية السّقم وأن السقم داعية الموت.

ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتةً لئيمة وهو قاتل نفسه. وقاتل نفسه أَلأم من قاتل غيره. ولو سألت حُذّاق الأطباء لأخبروك أن عامة أهل القبور إنّما ماتوا بالتخمة».

* قال الجاحظ:

كان أحدهم يستعمل لإقامة الفتيلة في المسرجة عوداً مربوطاً بخيط خوفاً من أن

يضيع هذا العود لأنه تشرّب شيئاً من الدهن الذي في المسرجة. فدخل عليه شيخ من أهل مَرْو فأبدى عجبه من إسرافه وتفريطه وأشار عليه بأن يستعمل إبرة أو مسلّة لأنها لا تشرب شيئاً من الدهن ولا يعلق عليها الدهن أمّا العود فيعلق عليه الدهن وتأخذ منه الريح والشمس.

* وروى الجاحظ قال:

إن رجلاً زار قوماً فأكرموه وطيّبوه فجعلوا المسك في شاربه، فحكّته شفته العليا، فأدخل إصبعه فحكّها من باطن الشّفة مخافة أن تأخذ إصبعه من المسك شيئاً.

* وهنا قصة الشيخ الخراساني الذي كان يأكل في بعض المواضع إذ مرَّ به رجل فسلّم عليه فردّ الشيخ السلام ثم قال: هلمَّ عافاك الله. فتوجه الرجل نحوه فلما رآه الشيخ مقبلاً قال له: مكانك... فإنّ العجلة من عمل الشيطان.

فوقف الرجل، فقال له الخراساني: ماذا تريد؟

قال الرجل: أُريد أن أتغدّى.

قال الشيخ: ولِمَ ذاك؟ وكيف طمعتَ في هذا؟ ومن أباح لك مالي؟

قال الرجل: أوَليس قد دعوتني؟

قال الشيخ: ويحك، لو ظننتُ أنك هكذا أحمق ما رددتُ عليك السلام. الأمر هو أن أقول أنا: هلمَّ فتجيب أنت: هنيئاً فيكون كلامٌ بكلام. فأمّا كلامٌ بفعال وقولٌ بأكل فهذا ليس من الإنصاف.

٥

من شِعر الرجال أم النساء؟

كان أبو بكر الخوارزمي أحد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير، وكان إماماً في اللغة والأنساب، أقام بالشام مدّة وسكن بنواحي حلب، وكان مشاراً إليه في عصره.

ويُحكى أنه قصد مرّة حضرة الصاحب بن عبّاد وهو بأرّجان، فلما وصل إلى بابه

قال لأحد حجّابه: قُلْ للصاحب على الباب أحد الأدباء، وهو يستأذن في الـدخول، فدخل الحاجب وأعلمه.

فقال الصاحب: قُلْ له: قد ألزمت نفسي أن لا يـدخل عـليَّ من الأدباء إلاَّ من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب.

فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له الخـوارزمي: ارجعْ إليـه وقل لـه: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟

فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال، فقال الصاحب: هذا يريد أن يكون أبا بكر الخوارزمي، فأذن له في الدخول، فدخل عليه فعرفه وسُرَّ به كثيراً.

٦

بين عمر وعليّ

ذكـر أبو الفتـح ابن جنّي النحوي في بعض كتبـه أن الشريف الرضي أُحضِر إلى ابن السّيرافي النحوي وهـو طفل جـداً لم يبلغ عمره عشر سنـين فلقنه النحـو، وقعد معه يوماً في حلقته، فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم.

فقال له: إذا قلنا «رأيت عمر» فما علامة النصب في عمر؟.

فقال له الرضي: بُغْضُ عليّ. فعجب السيرافي والحاضرون من حدّة خاطره.

وذكر أنه تلقّن القرآن بعد أن دخل في السن فحفظه في مدة يسيرة جداً.

٧

عثرة القول وعثرة الرِّجل

قال ثعلب:

أجمـع أصحـابنـا أنـه لم يكن بعـد ابن الأعـرابي أعلم بـاللغـة من يعقـوب بن السكيت، وكان المتوكل قد ألزمه تأديب ولده المعـتز بالله. فلما جلس عنـده قال لـه: بأي شيء يحب الأمير أن نبدأ ـ يريد من العلوم ـ فقال المعتزّ: بالإنصراف.

قال يعقوب: فأقوم؟

قـال المعتز: فـأنا أخفّ نهوضـاً منك، وقـام فاستعجـل فعـثر بسراويله فسقط،

والتفت إلى يعقوب خجلاً وقد احمرّ وجهه، فأنشد يعقوب:

يُصاب الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يصاب المرءُ من عثرة الرِّجلِ
فعثرته في القول تُذهب رأسه ... وعثرته بالرِّجل تبرأ على مهلِ

فلما كان من الغدّ دخل يعقوب على المتوكل فأخبره بما جرى، فأمر له بخمسين ألف درهم وقال: قد بلغني البيتان.

٨

بشّار إن حكى

دخل يزيد بن منصور[1] الحميري على المهدي وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها، فلما فرغ منها اقبل عليه يزيد بن منصور الحميري ـ وكانت فيه غفلة ـ فقال له: يا شيخ ما صناعتك؟.

فقال: أثقب اللؤلؤ.

فضحك المهدي ثم قال لبشّار: أعزُبْ[2] ويلك، أتتنادر على خالي؟!

فقال له: وما أصنع به! يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعراً ويسأله عن صناعته!

٩

قامت القيامة

حدّث رجل من أهل البصرة ممّن كان يتزوّج بالنهاريات[3] قال:

تزوجت امرأة منهن فاجتمعت معها في عُلْوِ بيت وبشار تحتنا، أو كنا في أسفل البيت وبشّار في عُلْوه مع امرأة، فنهق حمار في الطريق فأجابه حمار في الجيران وحمار في الدار فارتجّت الناحية بنهيقها، وضرب الحمار الذي في الدار الأرض برجله وجعل

---

(١) يزيد بن منصور: خال المهدي، توفي سنة ١٦٥ هـ.

(٢) اغرب: ابتعد.

(٣) النهاريات: النساء المنسوبات إلى قبيلة بني النهاري، وهي قبيلة من الاشراف باليمن.

يدقّها بها دقاً شديداً فسمعت بشار يقول للمرأة: نفخ ـ يعلم الله ـ في الصُّوْر وقامت القيامة أما تسمعين كيف يُدَقُّ على أهل القبور حتى يخرجوا منها؟!

قال: ولم يلبث أن فزعت شاة كانت في السطح فقطعت حبلها وعَدَت فألقت طبقاً وغضارة[1] إلى الدار فانكسرت، وتطاير حمام ودجاج كنَّ في الدار لصوت الغضارة وبكى صبي في الدار، فقال بشّار: صحَّ والله الخبر ونُشِر[2] أهل القبور من قبورهم أزِفَت ـ يشهد الله ـ الآزفة[3] وزلزلت الأرض زلزالها، فعجبتُ من كلامه وغاظني ذلك، فسألتُ من المتكلّم فقيل لي: بشار، فقلت: قد علمت أنه لا يتكلّم بمثل هذا غير بشّار.

١٠

ما أكثر أسئلتهم

* كان بشّار يحشو[4] شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التي لا حقيقة لها، فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه:

غنّني للغريض يآبن قنانِ

فقيل له: مَنْ آبن قنان هذا؟ لسنا نعرفه من مغنّي البصرة؟!.

قال: وما عليكم منه! ألكم عليه دين فتطالبون به، أو ثأر تريدون أن تدركوه، أو كفلتُ لكم به فإذا غاب طالبتموني بإحضاره؟.

قالوا: ليس بيننا وبينه شيء من هذا، وإنّما أردنا أن نعرفه.

فقال: هذا رجل يغنّي لي ولا يخرج من بيتي.

فقالوا له: إلى متى؟

قال: مُذ يوم ولدت وإلى يوم يموت.

(١) الغضارة: القصعة الكبيرة (وعاء كبير واسع).
(٢) نشر: بُعِث.
(٣) الآزفة: القيامة.
(٤) يحشو شعره: يُدخل فيه ما لا حقيقة له.

* قال قدامة بن نوح:

وكنّا عند بشار يوماً فطلبنا منه أن ينشدنا فأنشدَنا قوله:

وجاريةٍ خلقت وحدها ... كأن النساء لديها خدمْ
دَسَسْتَ إليها أبا مجلزٍ ... وأيّ فتىً إن أصاب اعتزمْ

فقال له رجل: ومَنْ أبو مجلزٍ هذا يا أبا معاذ[1]؟ قال: وما حاجتك إليه!؟ أَلَكَ عليه دين أو تطالبه بثأر؟ هو رجل يتردّد بيني وبين معارفي في رسائل.

* وقالوا[2]:

جاءنا بشّار بن برد يوماً فقلنا له: ما لك مغتمٌّ؟ فقال: مات حماري فرأيته في النوم فقلت له: لِمَ متّ؟ ألم أكن أحسن إليك! فقال:

سيّدي خذ بي أتانا ... عند باب الأصبهاني
تيّمتني ببنانٍ ... وبدلٍّ قد شجاني
تيّمتني يوم رُحنا ... بثناياها الحسانِ
وبغنجٍ ودلالٍ ... سلَّ جسمي وبراني
ولها خدٌّ أسيل ... مثل خدّ الشيفران
فلذا متُّ ولو عِشْـ ... ـتُ إذاً طال هواني

فقيل له: وما الشيفران؟

قال: ما يدريني! هذا من غريب الحمار، فإذا لقيته فاسأله...

وكان بشار كثيراً ما يحشو شعره بمثل هذا.

١١

بشّار إذا تغزّل

كانت بالبصرة قينة لبعض ولد سليمان بن علي وكانت محسنة بارعة الظرف، وكان بشار صديقاً لسيّدها ومدّاحاً له، فحضر مجلسه يوماً والجارية تغني، فسرّ

---

(١) أبو معاذ: كنية بشار. (٢) راجع: «الأغاني»، ٣: ٢٢٩.

بحضوره وشرب حتى سكر ونام. ونهض بشار فقالت: يا أبا معاذ أحب أن تذكر يومنا هذا في قصيدة ولا تذكر فيها اسمي ولا اسم سيّدي وتكتب بها إليه، فانصرف وكتب إليه:

وذات دَلٍّ كأنَّ البدر صورتها ... باتت تغنّي عميد القوم سكرانا
إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ ... قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
فقلتُ أحسنت يا سؤلي ويا أملي ... فأسمعيني جزاك الله إحسانا
يا حبذا جبل الرّيان من جبلٍ ... وحبذا ساكن الريّان من كانا
قالت فهلّا فدتكَ النفس أحسن منْ ... هذا لمن كان صبّ القلب حيرانا
يا قومي أذني لبعض الحيّ عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا
فقلتُ أحسنتِ أنتِ الشمس طالعةٌ ... أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا
يا ليتني كنت تُفاحاً مفلّجةً ... أو كنتُ من قضب الريحان ريحانا
حتّى إذا وجدت ريحي فأعجبها ... ونحن في خلوةٍ مُثّلتُ إنسانا
فحرّكت عودها ثم انثنت طرباً ... تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا
أصبحت أطوع خلق الله كلّهم ... لأكثر الخلق لي في الحب عصيانا
فقلت أطربتنا يا زين مجلسنا ... فهات إنك بالاحسان أولانا
لو كنت أعلم أن الحب يقتلني ... أعددت لي قبل أن ألقاك أكفانا
لا يقتل الله من دامت مودّته ... والله يقتل أهل الغدر أحيانا

ووجه بأبيات إليها، فبعث إليه سيّدها بألفيْ دينار وسرَّ بها سروراً شديداً.

١٢

أغزل بيت قاله المولدون

ومن شعره، وهو أغزل بيت قاله المولدون:

انا والله اشتهي سحر عينيـ ... ـك وأخشى مصارع العشاق

*

١٣

أفحمته

حدث أهل البصرة، قالوا:

إنّ امرأة قالت لبشار: أي رجل أنت لو كنت أسود اللّحية والرأس! قال بشّار: أما علمتِ أن بيض البُزاة أثمن من سود الغربان؟

فقالت له: أمّا قولك فحسن في السمع، ومن لك بأن يحسن شيبك في العين كما حسن قولك في السمع!

فكان بشار يقول: ما أفحمني قط غير هذه المرأة.

١٤

كيف مات بشّار؟

حدّث عمر بن شبة قال: هجا بشّار المهدي فقال:

خليفةٌ يزني بعمّاته ... يلعب بالدبوق[1] والصولجان
أبدلنا الله به غيره ... ودس موسى في حِرِ[2] الخيزران[3]

وأنشدها في حلقة يونس النحوي. فسُعي إلى يعقوب بن داود، وكان بشار قد هجاه فقال:

بني أميّة هبّوا طال نومكُمُ ... إن الخليفة يعقوب بن داوود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الزقّ والعودِ

فدخل يعقوب على المهدي فقال له:

يا أمير المؤمنين، إن هذا الأعمى المُلحد الزنديق قد هجاك. فقال: بأي شيء؟.

(١) الدبوق: لعبة للصبيان.
(٢) الحِرُ: الفرج.
(٣) الخيزران: أم موسى وهارون الرشيد، وهي زوجة المهدي.

فقال: بما لا ينطق به لساني ولا يتوهّمه فكري.

قال له: بحياتي إلاّ أنشدتني.

فقال: والله لو خيّرتني بين إنشادي إيّاه وبين ضرب عنقي لاخترت ضرب عنقي.

فحلف عليه المهدي بالأيمان التي لا فسحة فيها أن يخبره.

فقال: أمّا لفظاً فلا، ولكني اكتب ذلك، فكتبه ودفعه إليه، فكاد ينشقّ غيظاً، وعمد على الانحدار إلى البصرة للنظر في أمرها، وما قصده غير بشّار، فانحدر، فلما بلغ إلى البطيحة[1] سمع أذاناً في وقت ضُحى النهار فقال: انظروا ما هذا الأذان؟ فإذا بشار يؤذن سكران، فقال له: يا زنديق يا عاضّ بظر أمّه[2]، عجبت أن يكون هذا غيرك، أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت سكران! ثم دعا بابن نهيك فأمره بضربه بالسّوط فضربه بين يديه على صدر الحرّاق[3] سبعين سوطاً أتلفه فيها. فكان إذا أوجعه السوط يقول: حَسّ (وهي كلمة تقولها العرب للشيء إذا أوجع).

فقال له بعضهم: أنظر إلى زندقته يا أمير المؤمنين، يقول: حَسّ ولا يقول: باسم الله.

فقال: ويلك، أطعام هو فاسمّي الله عليه!

فقال له الآخر: أفلا قلتَ: الحمد لله.

قال: أوَ نعمة هي حتى أحمد الله عليها!

فلما ضربه سبعين سوطاً بان الموت فيه، فأُلقيَ في سفينة حتى مات ثم رُمي به في البطيحة فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة فدفن بها.

قالوا: وعندما أُخرجت جنازته ما تبعها أحد إلاّ أمَة سوداء سندية عجماء ما تفصح رأيناها خلف جنازته تصيح: واسيّداه! واسيّداه.

---

(١) البطيحة: بلدة بين واسط البصرة.

(٢) يا عاضّ بظر أمّه: سبٌّ كان يجري على ألْسِنة العرب قديماً. والبظر هو اللحمة الناتئة بين شفري فرج المرأة.

(٣) الحراقة: سفينة فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو.

١٥

لا مرحباً بكما

ولما قتل المهدي بشار بن برد المقدم ذكره بالبطيحة، حُمل ودفن على حماد عجرد، فمرَّ على قبرَيهما أبو هشام الباهلي، فكتب عليهما:

قَدْ تبعَ الأعمى قَفا عَجْرَدٍ ... فأصبَحا جارَينِ في دارِ
صارا جميعاً في يَدَي مالكٍ ... في النار، والكافِرُ في النارِ
قالَتْ بقاعُ الأرض لا مَرْحَباً ... بقُرْب حَمّادٍ وبَشّار

١٦

لماذا مرَّ تسنيم في تلك اللحظة؟

حدث عاصم بن وهب قال:

نهق حمار ذات يوم بقرب بشّار، فخطر بباله بيت من الشعر فقال:

ما قام (. . .)[١] حمارٍ فامتلا شبقاً ... إلاّ تحرّك عرقٌ في آسْتِ[٢] تسنيمِ

وتسنيم هذا صديقه ولم يكن يرده بالهجاء، ولكنه لمّا بلغ إلى قوله «إلاّ تحرّك عرق» قال في نفسه: في آست من؟ ومرّ به تسنيم بن الحواري فسلّم عليه وضحك، فقال: في است تسنيم علم الله،

فقال له تسنيم: تضحك من ماذا؟ إيش ويحك!

فأنشده البيت. فقال له: عليك لعنة الله! فما عندك فرق بين صديقك وعدّوك. أيّ شيء حملك على هذا!! ألا قلت: في است حمّاد الذي هجاك وفضَحَك وأعياك وليت قافيتك على الميم فأعذرك!

قال: صدقت والله في هذا كلّه. ولكن ما زلت أقول في نفسي: في است مَنْ؟ في است مَنْ؟ ولا يخطر ببالي أحد حتى مررتَ في تلك اللحظة وسلّمتَ فرزقته.

---

(١) ما يُستقبح ذكره.

(٢) الأست: العجز والمؤخرة.

فقال له تسنيم: إذا كان هذا جواب السلام عليك فلا سلّم الله عليك ولا عليَّ حين سلَّمتُ عليك.

وجعل بشار يضحك ويصفّق بيديه وتسنيم بشتمه.

١٧

أعطيتك العامرة والغامرة

قال الجاحظ: كان أبو دُلامة[1] بين يدي المنصور واقفاً، فقال له: سلني حاجتك.

قال أبو دلامة: كلب أتصيّد به.

قال: أعطوه إيّاه.

قال: ودابة أركب عليها.

قال: اعطوه.

قال: وغلام يصيد بالكلب ويقوده.

قال: أعطوه غلاماً.

قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه.

قال: أعطوه جارية.

قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك فلا بدّ لهم من دار يسكنونها.

قال: أعطوه داراً تجمعهم.

قال: فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون:

قال: قد أعطيتك مائة جريب[2] عامرة ومائة جريب غامرة.

قال: وما الغامرة؟

قال: ما لا نبات فيه.

فقال: قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي وصحاري بني أسد.

---

(١) أبو دلامة: كان شاعراً فاسد الدين وصاحب نوادر وظرف، توفي سنة ١٦١ هـ.

(٢) الجريب من الأرض: عشرة آلاف ذراع، وقيل غير ذلك. راجع: «اللسان»، مادة: جرب.

فضحك وقال: اجعلوها كلّها عامرة.
قال: فأْذن لي أن أقبّل يديك.
قال: أمّا هذه فدعها.
قال: والله ما منعت عيالي شيئاً أقل ضرراً عليهم منها.
قال الجاحظ: فانظر الى حذقه بالمسألة ولطفه فيها: ابتدأ بكلب فسهّل القصة به، وجعل يأتي بما يليه على ترتيبٍ وفكاهة، حتى نال ما لو سأله بديهةً لما وصل إليه.

١٨

أَيقاتله دون ثأر؟

حدّث أبو دُلامة الشاعر الظريف صاحب النوادر والطرائف قال:
أُتيَ بي المنصور أو المهدي وأنا سكران فحلف ليُخرجني في بعث حرب[١]، فأخرجني مع رَوْح بن حاتم[٢] المهلبي لقتال الشراة[٣]. فلما التقى الجمعان قلت لروح: أما والله لو أن تحتي فرسك ومعي سلاحك لأثّرت في عدوّك اليوم أثراً ترتضيه.
فضحك وقال: والله العظيم لادفعنَّ ذلك إليك ولآخذنّك بالوفاء بشرطك. ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إليَّ، ودعا بغيرهما فاستبدل به. فلما حصل ذلك في يدي وزالت عنّي حلاوة الطمع، قلت له: أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، أتعفيني من هذه «الورطة»، قال: هيّا تقدمْ للمبارزة.
وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة، فقال: أخرجْ إليه يا أبا دُلامة.
فقلت: أنشدك الله أيها الأمير في دمي.
قال: والله لتخرجنَّ.

---

(١) بعث: غزو، أي سيرسله للقتال.
(٢) روح بن حاتم: أمير من الأجواد الممدوحين، كان حاجب المنصور وكان قائداً شجاعاً، توفي سنة ١٧٤ هـ.
(٣) الشراة: الخوارج.

فقلت: أيها الأمير فإنه أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا، وأنا والله جائع ما شبعتْ منّي جارحة من الجوع، فَمُرْ لي بشيء آكله ثم أخرج للمبارزة. فأمر لي برغيفين ودجاجة، فأخذت ذلك وبرزتُ عن الصفّ.

فلما رآني الشاري[1] أقبل نحوي عليه فَرْوٌ وقد أصابه المطر فابتلّ، وأصابته الشمس فتقبّض وعيناه تقدحان شرراً، فأسرع إليّ. فقلت له: على مهلك يا هذا كما أنت، فوقف.

فقلت: أتقتل من لا يقاتلك؟

قال: لا والله.

قلت: أتقتل رجلاً على دينك؟

قال: لا والله.

قلت: أفتستحلّ ذلك قبل أن تدعو من تقاتله إلى دينك؟

قال: لا. فاذهب عنّي الى لعنة الله.

قلت: لا أفعل أو تسمع منّي.

قال: قُلْ.

قلت: هل كانت بيننا قطّ عداوة أو ثأر؟ أو هل تعرفني بحالٍ تُحفظك عليَّ، أو تعلم أن بين أهلي وأهلك دم أو ثأر؟

قال: لا والله.

قلت: هل تريد أن تقاتل مَنْ لا يريد مقاتلتك أبداً.

قال: لا والله.

قلت: ولا أنا والله وإني لأحفظ لك جميلك وإنيّ لأهواك وأنتحل مذهبك وأدين دِينك وأُريد السوء لمن أراده لك.

قال: يا هذا جزاك الله خيراً فانصرف.

قلت: إن معي زاداً أُحبُّ أن آكله معك وأُحبّ مواكلتك لتتولد المودّة بيننا، ويرى أهل العسكر هوانهم علينا.

قال: فافعلْ.

---

(١) الشاري: رجل من الخوارج.

فتقدّمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا وتلاصقت وجمعنا أرجلنا على معارفها والناس قد غُلبوا ضحكاً. فلما استوفينا ودّعني. ثم قلت له: إن هذا الجاهل إن أقمت على طلب المبارزة ندبني إليك فتتعبني وتتعب. فإن رأيت ألاّ تبرز اليوم فافعل.

قال: قد فعلت.

ثم انصرف وانصرفتُ. فقلت لرَوْح: أمّا أنا فقد كفيتك قرني[1] فقلّ لغيري أن يكفيك قرنه كما كفيتك.

فضحك رَوْح حتى استلقى من الضحك وأمسك.

١٩

تخلص ببلاغته وحسن اعتذاره

قال أحمد بن أبي دؤاد:

ما رأيت رجلاً عرض للموت، ورأى النطع[2] مفروشاً والسيف مسلولاً ولم يكترث لذلك ولا عدل به عمّا أراد إلاّ تميم بن جميل.

وكان خرج على المعتصم في أيام دولته، ونزع يده عن الطاعة، وانقطع الى بعض النواحي، وقد كان عظم أمره على المعتصم، ولقد رأيته لما جيء به أسيراً مكتوفاً واجتمع الناس من الآفاق والنواحي ينظرون كيف يقتله المعتصم؟!

وكان المعتصم قد جلس له مجلساً منكراً، وأمر الناس بالدخول، ودخل تميم، وحضر السيّاف، وفُرش النطع، وكان تميم جميل الوجه تامّ الخلقة، عذب المنطق، فرآه المعتصم غير دَهِشٍ ولا مكترث لما نزل به، فأراد أن يستنطقه، ليعلم أين عقله في ذلك الوقت؟ فقال له: يا تميم، إن كان لك عذر فأْتِ به.

فقال: أمّا إذا أذن أمير المؤمنين، فالحمد لله الذي جبر بك صدع الدّين، وألمّ بك شعث المسلمين، وأنار بك سبل الحقّ، وأخمد بك شهاب الباطل.

إن الذنوب يا أمير المؤمنين، لتخرس الألسنة الفصيحة، ولتصدع الأفئدة

(١) القرن: النظر في الشجاعة.
(٢) النطع: بساط من جلد يوضع تحت المحكوم عليه بالموت.

الصحيحة، والله لقد كبر الذنب وعظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولم يبق إلاَّ عفوك، أو انتقامك، وأنت الى العفو أقرب، وهو بك أليق وأشبه وأنشد:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً يلاحظني من حيث لا أتلفّتُ
وأكبر ظنّي أنك اليوم قاتلي وأيّ امرىءٍ ممّا قضى الله يفلتُ
ومن ذا الذي يأتي بعذرٍ وحجّةٍ وسيف المنايا بين عينيه مُصلَتُ
وما جزعي أنّي أموت وإنّني لأعلم أن الموت شيء مؤقّتُ
ولكن خلفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرةٍ تتفتّتُ
كأني أراهم حين أُنعى إليهمُ وقد خمّشوا تلك الوجوه وصوّتوا
فإنْ عشتُ عاشوا سالمين بغبطةٍ أذود الردى عنهم وإن متّ مُوِّتوا

قال: فبكى المعتصم حتى ابتلّت لحيته وقال: إن من البيان لسحراً ثم قال: والله كاد السيف يسبق العفو وقد وهبتك لله تعالى ولصبيتك وعفوت عنك وعن زلّتك. ثم أمر بقناة فعقد له الولاية على الموضع الذي خرج فيه ووصله بمالٍ كثير.

٢٠

هي التي فَعَلَتْها

قرأت في كتاب «فوات الوفيات»[1] للكتبي، أن عبد الملك بن مروان كان يعبث بالشاعر الماجن حمزة بن بيض، فوجّه إليه ليلةً رسولاً وقال: جئني به على أية حالة وجدته، فهجم عليه فوجده داخلاً الى بيت الخلاء، فقال: أجب أمير المؤمنين.

فقال: ويحك! أكلت كثيراً وشربت نبيذاً حلواً وقد أخذني بطني.

فقال: لا سبيل الى مفارقتك، ثم أخذه وأتى به الى عبد الملك، فوجده قاعداً في طارمة، وعنده جارية جميلة يتحظّاها وهي تسجر العود وتبخّر أمير المؤمنين. فجلس يحادثه ويعالج ما هو فيه من داء بطنه. فعرضت له ريح فسيّبها ظناً أن يسترها البخور.

(١) راجع: «فوات الوفيات» للكتبي، ١: ٣٩٧.

قال حمزة: فوالله لقد غلب ريحها ريح البخور والندّ.

فقال: ما هذا يا حمزة؟

قال: فقلت: عليَّ عهد الله والمشي الى بيت الله والهديُ إن كنتُ فعلتها، وما فَعَلَها إلاَّ هذه الجارية.

قال: فغضب وخجلت الجارية وما قَدَرَتْ على الكلام. ثم جاءتني أخرى فسرَّحتها وسطع والله ريحها فقال: ما هذا ويلك؟ أنت والله الآفة.

فقلت: امرأتي طالق إن كنت فعلتها.

فقال: وهذه اليمين لازمة لي إن كنت فعلتها. ثم قال للجارية: ويلك ما قصتك؟ قومي الى بيت الخلاء إن كنتِ تجدين شيئاً، وطمعتُ فيها فسرّحتُ الثالثة، فسطع ريحها ما لم يكن في الحساب، فغضب عبد الملك حتى كاد أن يخرج من جلده ثم قال: يا حمزة، خذْ بيد هذه الجارية الزانية فقد وهبتها لك وامضِ فقد نغّصت عليَّ ليلتي. فأخذت بيدها وخرجت. فلقيني خادم فقال: ما تريد أن تصنع؟

فقلت: أمضي بها.

فقال: والله لئن فعلت ليبغضنّك بغضاً لا تنتفع به بعده، وهذه مائتا دينار، فخذها ودعْ هذه الجارية.

فقلت: والله لا نقصتك من خمسمائة دينار.

فقال: ليس إلاّ ما قلت لك، فأخذتها منه وأخذ الجارية.

فلما كان بعد ثلاث ليالٍ دعاني عبد الملك، فلقيني الخادم فقال: هذه مائة دينار أخرى وتقول ما لا يضرك ولعله ينفعك؟

فقلت: ما هو؟

فقال: إذا دخلت إليه تدّعي عنده أن تلك الفسوات الثلاث أنت فعلتهنَّ.

فقلت: هاتها. فلما دخلتُ وقفت بين يديه وقلت: الأمان يا أمير المؤمنين.

فقال: قُلْ.

فقلت: أرأيت تلك الليلة ما جرى من الفسوات؟

قال: نعم.

قلت: عليَّ وعليَّ إن كان فساهنَّ غيري. فضحك حتى سقط على قفاه وقال:

فلِمَ ويلك ما أخبرتني؟

فقلت: أردت خصالاً، منها أن قمت وقضيت حاجتي، ومنها أنني أخذت جاريتك، ومنها أني كافأتك على أذاك بمثله، حيث منعني رسولك من دفع أذايَ.

قال: وأين الجارية؟

قلت: ما خرجت من دارك وأخبرته الخبر. فسُرَّ بذلك وأمر لي بمائتيْ دينار أُخرى

وقال: هذه لجميل فعلك، وتركك أخذَ الجارية.

وأخبار حمزة بن بيض كثيرة وكلّها طُرَف.

٢١

سيبويه والكسائي

كان سيبويه قد ورد الى بغداد من البصرة، والكسائي يومئذٍ يعلّم الأمين بن هارون الرشيد، فجمع بينهما وتناظرا وجرى مجلس يطول شرحه، وزعم الكسائي أن العرب تقول: كنت أظن أن الزنبور أشدّ لسعاً من النحلة فاذا هو إيّاها.

فقال سيبويه: ليس المثل كذا، بل فإذا هو هي.

وتشاجرا طويلاً، واتّفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر، وكان الأمين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه، فاستدعى عربياً وسأله فقال كما قال سيبويه. فقال له الأمين: نريد أن تقول كما قال الكسائي، فقال: إن لساني لا يطاوعني على ذلك فإنه ما يسبق إلاّ إلى الصواب.

فقرّروا معه أن شخصاً يقول: قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا، فالصواب مع من منهما؟ فيقول العربي: مع الكسائي، فقال هذا يمكن.

ثم عقد لهما المجلس واجتمع أئمة هذا الشأن وحضر العربي، وقيل له ذلك فقال: الصواب مع الكسائي، وهو كلام العرب، فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصّبوا للكسائي، فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى معه، وقصد بلاد فارس فتوفي بقرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء سنة ١٨٠ هـ وقيل غير ذلك.

٢٢

بشّار المرهف الإحساس

قال محمد بن يزيد العجلي:

سمعت الأصمعي يذكر أن بشاراً كان أشدّ تبرماً بالناس، وكان يقول: الحمد لله الذي أذهب بصري، فقيل له: ولم ذاك يا أبا معاذ؟ فقال: لئلاَّ أرى من أبغض.

قال الأصمعي:

وُلد بشار أعمى فما نظر الى الدنيا قطّ، وكان يشبّه الأشياء في شعره بعضها ببعض فيأتي بما لا يقدر البصراء على أن يأتوا بمثله، فقيل له يوماً وقد أنشد قوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

ما قيل أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تَرَ الدنيا قط ولا شيئاً فيها؟

فقال: إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسّه وتذكو قريحته.

٢٣

أتراهم سرقوها؟

ومرَّ ببشار قومٌ يحملون جنازة وهم يسرعون المشي بها فقال: ما لهم مسرعين؟ أتراهم سرقوها فهم يخافون أن يُلحقوا فتؤخذ منهم؟

٢٤

لا يريد تفسير الثلاثة

وحضر بشار باب محمد بن سليمان فقال له الحاجب: اصبر، فقال: الصبر لا يكون إلاَّ عن ثلاثة. فقال الحاجب على الفور: إني أظنّ وراء قولك هذا شراً، ولن أريد تفسيراً لها ولن أتعرّض إليك، قُمْ فادخل.

٢٥

خير له من الرّفض

وقال هلال بن عطية لبشار وكان صديقاً له يمازحه:

إن الله عزّ وجلّ لم يُذهب بصر أحد إلاّ عوّضه شيئاً، فما عوّضك؟

فقال: الطويل العريض.

قال: وما هو؟

ففكر بشار وقال: لا أراك ولا أمثالك من الثقلاء.

ثم قال: يا هلال أتطيعني في نصيحة أخصّك بها؟

قال: نعم.

قال: إنك كنت تسرق الحمير زماناً، ثم تبتَ وصرت رافضياً، فَعُدْ إلى سرقة الحمير فهي والله خير لك من الرفض.

٢٦

لا تصدّق حتّى ترى

حكى أبو أيوب الجرمي قال:

قعد الى جنب بشار رجل فاستثقله، فضرط بشار ضرطة، فظن الرجل أنها أفلتت، ثم ضرط أخرى فقال: أفلتت، ثم ضرط ثالثة فقال: يا أبا معاذ ما هذا؟

فقال: مَهْ أرأيت أم سمعت؟ فقال: لا بل سمعت صوتاً قبيحاً.

قال: فلا تصدق حتى ترى.

٢٧

باع داره وأعطى ثمنها للبحتري

من أخبار البحتري[1] أنه كان بحلب شخص يقال له طاهر بن محمد الهاشمي، مات أبوه وخلف له مقدار مائة ألف دينار، فأنفقها على الشعراء والزوّار في سبيل

(١) البحتري: الشاعر المشهور.

الله. فقصده البحتري من العراق، فلما وصل الى حلب قيل له: إنه قد قعد في بيته لديون ركبته. فاغتمّ البحتري لذلك غماً شديداً وبعث المدحة اليه مع بعض مواليه، فلما وصلته ووقف عليها بكى، ودعا بغلام لـه وقال لـه: بعْ داري. فقـال له أتبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس؟

فقال: لا بدّ من بيعها. فباعها بـ ٣٠٠ دينار، فأخذ صرّة وربط فيها مائة دينار وأنفذها الى البحتري وكتب إليه معها رقعة فيها هذه الأبيات:

لـو يكون الحبـاء حسب الـذي أنْـ ... ـت لـديـنـا بـه محـلٌ وأهـلُ
لحبيت الـلّجـين والـدرّ واليـا ... قـوت حشـواً وكان ذاك يـقـلٌ
والأديبُ الأديب يسمـح بـالعـذ ... ر إذا قصرَّ الـصـديـق المـقـلٌ

فلما وصلت الرقعة الى البحتري ردّ الدنانير. وكتب اليه:

بـأبي أنـت والله لـلبرّ أهـلُ ... والمسـاعي بعـدٌ وسَعْـيَـك قبـلُ
والنـوال القـليـل يكـثر إن شـا ... ءَ مـرجّـيك والـكـثير يـقـلٌ
غـير أنّي رددت بـرّك إذ كـا ... ن ربـاً منـك والـربـا لا يحـلٌ
وإذا مـا جـزيت شعـراً بشعـرٍ ... قُضيَ الحقُّ، والـدنـانـير فضـلُ

فلما عادت الدنانير اليه حلَّ الصرة، وضم إليها خمسين ديناراً أُخرى وحلف أنـه لا يردّها عليه وسيّرها فلما وصلت الى البحتري أنشأ يقول:

شكـرتـك إن الشكـر للعبـد نعمـةٌ ... ومـن يشكـر المعـروف فـالله زائـدُهْ
لـكـل زمـانٍ واحـدٌ يـقـتـدى بـه ... وهـذا زمـانٌ أنـت لا شـكَّ واحـدُهْ

٢٨

وكما تراني يا جميل أراكَ

حدث علي بن سعيد الكاتب قال: قال لي جحظة:

إن كتمت عليَّ حدّثتك بحديث ما مرّ على مسامعك مثله قطّ.

قلت: أنا موضع سرّك والمجالس بالأمانة.

قال: اصطبحت[١] أياماً فأصبحت يوماً مخموراً، فبينا أنا جالس على باب داري إذ أقبلت جارية متنقبة راكبة على حمار وبين يديها وصائف كالغزلان يحففن بها ويمسكن عنان حمارها وقد سطعت المسكّة من روائح طيبها، فبقيت مبهوتاً متحيّراً أعجب من كمال خلقها ونور ما بدا لي من وجهها. فلما جاوزتني وقفتْ وتأملتني ساعة ثم سلمت فرددت عليها أحلى سلام وأبرّه وقمتُ على قدمي إجلالاً لها وإعظاماً فقالت: يا فتى، هل في منزلك محتمل للقايلة[٢] في هذا اليوم؟

قلت: يا سيدتي على الرحب والسعة ولك الفضل والمنّة، فما كذبت أن ثنت رجلها ونزلت وقالت:

ادخل بين يديَّ، وأمرت جواريها فدخلن بالحمار الى الدهليز، ثم دخلتْ وما أحسب جميع ما أراه إلاّ نوماً لا يقظة، وشكاً لا يقيناً. فلمّا استقرّ بها المجلس مدّت يدها الى عجارها[٣] فحلّته كما قال الشاعر:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتّقت ... بأحسن موصولين كفٍّ ومعصمِ

فتفكّرت في أمري وأنا لا أعقل من السرور فقلت: هذه جارية مغنية بلغها عنّي صوت من صنعتي فأرادت أن تأخذه عنّي فقلت: يا سيّدتي أتأذنين في أن أقرب ما حضر من طعام وشراب وأُغنيك ما لعلّه بلغك من متخير أصواتي؟

فقالت: ما على ذلك قوت، ولكن قم الآن وشأنك فاقضِ حاجتك[٤] ثم تصير الى ما تريد. فقمت إليها وقد أخذني الروع حتى ما أملك نفسي مهابة لها، فلمّا فرغت ممّا لم أكن آمله ولا تسمو همّتي إليه قلت: يا سيّدتي هل لك في الطعام وأدعو بالعود فأغنّيك ما قصدتِ له؟

قالت: عسى أن يكون هذا في يوم غير هذا، ومدّت يدها الى قناعها فاعتجرت به ونهضت مسرعة فلم أُحِر جواباً وبقيتُ متحيّراً.

---

(١) اصطبحت: شربت شراب الصباح.
(٢) القايلة: القيلولة.
(٣) عجارها: ثوبها.
(٤) اقضِ حاجتك: أي أن يجامعها.

فلما صارت الى الدهليز لتركب قلت لها: سألتك بنعمة الله عليك ما خبرك؟

قالت: لو تركت المسألة كان أحبّ إليك وأعود عليك.

قلت: لا بدّ لي من علم حالك.

قالت: أما إذا أبيت فسأصدقك. لي ابن عمّ هو بَعْلي يخالفني الى جويريّة لي مشوّهة المنظر؛ فأقسمت بالأيْمان المحرجة أن أطوف بغداد حتى أبذل نفسي لأقبح من أرى وجهاً وأوحش من أقدر عليه صورةً. فأنا أطوف من الفجر الى هذه الساعة فما رأيت بها أقبح منك، فبرّرت قسمي وإن عاد الى مثل فعله عدت إليك إن لم أجد أوحش منك، وهذا يسيرٌ في جنب ما تبلغه الغيرة بصاحبها.

ثم تولّت عنّي وبقيتُ أخزى ممن دخل النار. فوالله ما ظننت يا أبا الحسن أن إفراط القبح لينتفع به حتى كان ذلك اليوم.

قلت: هوّن عليك فإن القرد إنما يقع السرور به والضحك منه لتجاوزه في قبح الصورة.

قال: فاكتم عليّ.

قلت: نعم.

٢٩

أخرجتَ أصعب ما في الجراب

حدث محمد بن إسحاق قال:

قيل لعمر بن عبد العزيز: إن بالمدينة مخنثاً قد أفسد نساءها. فكتب الى عامله بالمدينة أن يحمله إليه. فأُدخل عليه، فاذا هو خضيب اللّحية والأطراف معتجر بسبنّيه[١] قد حمل دفاً في خريطته[٢]. فلمّا وقف بين يدي عمر صعّد بصره فيه وصوّبه وقال: سوأةً لهذه الشّيبة وهذه القامة! أتحفظ القرآن؟

قال: لا والله يا أبانا.

قال: قبحك الله! واشار إليه من حضره فقالوا: اسكُتْ فسكت.

---

(١) سبنية: بلدة ببغداد.

(٢) الخريطة: مثل الكيس تكون من الخرق والأدم.

قال له عمر: أتقرأ من المفصل شيئاً؟

قال: وما المفصَّل؟

قال: ويلك! أتقرأ من القرآن شيئاً؟

قال نعم، أقرأ ﴿الحمد لله﴾ وأخطىء فيها في موضعين أو ثلاثة. وأقرأ ﴿قُلْ أعوذ بربّ الناس﴾ واخطىء فيها، وأقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ مثل الماء الجاري.

قال: ضعوه في الحبس ووكّلوا به مُعلماً يعلّمه القرآن وما يجب عليه من حدود الطهارة والصلاة واجروا عليه في كل يوم ثلاثة دراهم وعلى معلّمه ثلاثة دراهم أخر، ولا يخرج من الحبس حتى يحفظ القرآن أجمع. فكان كلّما عُلِّم سورة نسي التي قبلها. فبعث رسولاً الى عمر: يا أمير المؤمنين، وجّه اليّ من يحمل اليك ما أتعلمه أولاً فأولاً، فإني لا أقدر على حمله جملةً واحدة. فيئس عمر من فلاحه وقال: ما أرى هذه الدراهم إلاّ ضائعة، ولو أطعمناها جائعاً أو أعطيناها محتاجاً أو كسوناها عُرياناً لكان أصلح. ثم دعا به، فلما وقف بين يديه قال له: اقرأ ﴿قُل يأيّها الكافرون﴾.

قال: أسأل الله العافية! أدخلت يدك في الجراب، فأخرجت أصعب ما فيه فأمر به فُوجئت عنقه ونفاه.

٣٠

أبو معشر المنجّم

رأيت في بعض المجاميع أن أبا معشر المشهور في علم النجامة «جعفر بن محمد بن عمر البلخي» كان متصلاً بخدمة بعض الملوك، وأن ذلك الملك طلب رجلاً من أتباعه وأكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه، فاستخفى، وعلم أن أبا معشر يدلّ عليه بالطرائق التي يستخرج بها الخبايا والأشياء الكامنة، فأراد أن يعمل شيئاً لا يهتدي إليه ويبعد عنه حسّه. فأخذ طستاً[1] وجعل فيه دماً وجعل في الدم هاون ذهب، وقعد على الهاون أياماً.

وتطلّب الملك ذلك الرجل وبالغ في التطلّب، فلما عجز عنه أحضر أبا معشر

(١) الطست: وعاء يشبه الصحن يكون من النحاس.

وقال له: تعرّفني موضعه بما جرت عادتك به، فعمل المسألة التي يستخرج بها الخبايا، وسكت زماناً حائراً. فقال له الملك: ما سبب سكوتك وحيرتك؟ قال: أرى شيئاً عجيباً، فقال: وما هو؟

قال: أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل في بحرٍ من دم ولا أعلم في العالم موضعاً من البلاد على هذه الصفة.

فقال له: أعد نظرك وغيّر المسألة وجدّد أخذ الطالع. ففعل ثم قال:

ما أراه إلاّ كما ذكرت، وهذا شيء ما وقع لي مثله. فلما أيس الملك من القدرة عليه بهذا الطريق أيضاً نادى في البلد بالأمان للرجل ولمن أخفاه، وأظهر من ذلك ما وثق به، فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين يدي الملك فسأله عن الموضع الذي كان فيه فأخبره بما اعتمده وما فعل فأعجبه حسن احتياله في إخفاء نفسه ولطافة أبي معشر في استخراجه.

٣١

الضحّاك يهوى الضرّب

ذكر أبو عبد الله حمدون قال:

قال لي الحسين بن الضحّاك[1]: ضربني الرشيد في خلافته لصحبتي إيّاه.

ثم ضربني الأمين لمماثلتي ابنه عبد الله،

ثم ضربني المأمون لميلي الى محمد[2]،

ثم ضربني المعتصم لمودّة كانت بيني وبين العباس بن المأمون،

ثم ضربني الواثق لشيء بلغه من ذهابي الى المتوكل.

وكل ذلك يجري مجرى الولع والتحذير لي، ثم أحضرني المتوكل وأمر شفيعاً أن يولع بي فتغاضب المتوكل عليّ، فقلت: يا أمير المؤمنين إن كنت تضربني كما ضربني آباؤك فاعلم أن آخر ضرب ضُربته كان بسببك، فضحك وقال: بل أصونك وأكرمك.

---

(١) هو الحسين الخليع. شاعر من ندماء الخلفاء، توفي سنة ٢٥٠ هـ.

(٢) محمد: هو محمد الأمين بن زبيدة الخليفة المعروف.

أيّهم أكرم وأعجب فعلاً؟!

لم يبلغ أحد من الوزراء منزلة بلغها جعفر البرمكي من الرشيد. قال ابراهيم بن المهدي: قال لي جعفر يوماً: إنّي استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غداً فهل أنت مساعدي؟ فقلتِ: جُعلت فداك، أنا أسعد بمساعدتك وأُسرّ بمحادثتك.

قال: فبكّر إليّ.

قال: فأتيته عند الفجر فوجدتُ الشمعة بين يديه وهو ينتظرني للميعاد، فصلّينا ثم أفضنا في الحديث، ثم قدم إلينا الطعام فأكلنا فلما غسلنا أيدينا جُعلت علينا ثياب المنادمة وبخّرنا وطيّبنا ثم ضمخنا بالخلوق[١]، ومدّت الستارة[٢]، وظللنا بأنعم يوم مرّ بنا، ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب وقال: إذا أتى عبد الملك فأْذن له ـ يعني قهرماناً[٣] له ـ.

فاتّفق أن جاء عبد الملك بن صالح عم الرشيد وهو من جلالة القدر والامتناع من منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل، وكان الرشيد قد اجتهد أن يشرب معه قدحاً فلم يقدر عليه رفعاً لنفسه. فلما رفع السّتر وطلع علينا سقط في أيدينا[٤] وعلمنا أن الحاجب قد غلط بينه وبين عبدالملك القهرمان، فأعظم جعفر ذاك وارتاع له، ثم قام إليه إجلالاً. فلما نظر إلينا على تلك الحال دعا غلامه فدفع إليه سيفه وسواده وعمامته ثم قال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم. قال: فجاء الغلمان فطرحوا عليه ثياباً وخلّقوه[٥] ودعا بالطعام فأكل وشرب ثلاثاً ثم قال: لتخفّف عنّي فإنه شيء والله ما شربته قطّ، فتهلّل وجه جعفر وفرح، ثم التفت إليه وقال: جُعلت فداك، قد تطوّلت وتفضّلت وساعدت فهل من حاجة تبلغ إليها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها مكافأة لما صنعت؟

---

(١) الخلوق: نوع من الطّيب.

(٢) الستارة: الستر الذي يكون بين الخليفة وعامة الناس.

(٣) القهرمان: الوكيل أو أمين الدخل.

(٤) سقط في أيدينا: أي تحيّرنا واضطربنا.

(٥) خلّقوه: طيّبوه.

قال: بلى إن في قلب أمير المؤمنين عليَّ هنة فاسأله الرضى عنّي.

فقال له جعفر: قد رضي أمير المؤمنين عنك، ثم قال: وعليَّ عشرة آلاف دينار فقال: هي لك حاضرة من مالي ولك من مال أمير المؤمنين ضعفها، ثم قال: وابني ابراهيم أحب أن أشدّ ظهره بصهر من أمير المؤمنين. قال: قد زوّجه أمير المؤمنين ابنته العالية، قال: وأُحب أن تخفق عليه الألوية، قال: قد ولّاه أمير المؤمنين مصر.

فانصرف عبد الملك بن صالح.

قال ابراهيم بن المهدي: فبقيت متعجباً من إقدامه على أمير المؤمنين من غير استئذان وقلت: عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضى والمال والولاية، فمتى أطلق لجعفر أو لغيره تزويج بناته؟

فلمّا كان من الغدّ بكرت إلى باب الرشيد لأرى ما يكون. فدخل جعفر فلم يلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي وابراهيم بن عبد الملك بن صالح، فخرج ابراهيم وقد عقد نكاحه بالعالية ابنة الرشيد وعقد له على مصر والرايات بين يديه وحُملت البِدَرُ(١) إلى منزل عبد الملك بن صالح، وخرج جعفر فأشار إلينا، فلما صرنا إلى منزله، التفت إلينا فقال: تعلّقت قلوبكم بحديث عبد الملك فأحببتم علم آخره:

لـمّا دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر؟ فقصصتُ عليه حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح، وكان متكئاً فاستوى جالساً وقال: إيه لله أبوك! فقلت: سألني في رضاك يا أمير المؤمنين. قال: نعم فبِمَ أجبته؟

قلت: رضي أمير المؤمنين عنك.

قال: قد أجزت، ثم ماذا؟

قلت: وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار.

قال: فبِمَ أجبته؟

قلت: وقد قضاها أمير المؤمنين عنك.

قال: قد قضيت، ثم ماذا؟

قال: قد رغب أن يشدّ أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بصهرٍ منه.

---

(١) البِدَر: جمع بدرة وهو عبارة عن كيس توضع فيه الدراهم.

قال: فبِمَ أجبته؟

قلت: قد زوّجه أمير المؤمنين ابنته العالية.

قال: قد أمضيت ذلك، ثم ماذا لله أبوك؟

قلت: وأُحبَّ أن تخفق الألوية على رأسه.

قال: فبِمَ أجبته؟

قلت: قد ولّاه أمير المؤمنين مصر.

قال: قد ولّيت، فاحضر إبراهيم والقضاة والفقهاء فحضروا وتمّم له جميع ذلك من ساعته.

قال إبراهيم بن المهدي: فوالله ما أدري أيهم أكرم وأعجب فعلاً، ما ابتدأه عبد الملك من المساعدة وشرب الخمر، ولم يكن شَربها قطّ، ولبسه ما لبس من ثياب المنادمة وكان رجل جدّ أم إقدام جعفر على الرشيد بما أقدم، أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر عليه!؟.

٣٣

المال لا يُؤكل بعينه

قالوا:

لما تمّهدت بلاد اليمن للملك المعظم شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين، واستقامت له أُمورها كره المقام بها لكونه نشأ في بلاد الشام وتربّى بها وهي كثيرة الخير، واليمن بلاد مجدبة. فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقيل منها ويسأله الإذن له في العود إلى الشام ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج إليها، فأرسل إليه صلاح الدين رسولاً مضمون رسالته ترغّبه في الإقامة وأنها كثيرة الأموال ومملكة كبيرة، فلما سمع الرسالة قال لمتولي خزانته: احضر لنا ألف دينار، فأحضرها، فقال الأستاذ داره والرسول حاضر عنده: ارسلْ هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج. فقال أستاذ الدار: يا مولانا، هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج؟ فقال: دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزي، فقال: من أين يوجد هذا النوع ههنا؟

فجعل يعدّد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يُظهر التعجّب من كلامه، وكلّما قال له عن نوع يقول له: يا مولانا من أن يوجد هذا ههنا؟.

فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول: ليت شعري ماذا أصنع بهذه الأموال إذا لم أنتفع بها في ملاذي وشهواتي؟ فإن المال لا يُؤكل بعينه، بل الفائدة فيه أن يتوصل به الإنسان إلى بلوغ أغراضه.

فعاد الرسول إلى صلاح الدين وأخبره بما جرى فأذن له في المجيء.

٣٤

زواج بوران

بوران، هي بنت الحسن بن سهل، من أكمل النساء أدباً وأخلاقاً. قيل: اسمها خديجة وعرفت ببوران، كان المأمون قد تزوجها لمكان أبيها منه. وليس في تاريخ العرب زفاف أُنفق فيه ما أُنفق في زفافها. احتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يُعهد مثله في عصر من العصور، وكان ذلك «بفم الصلح» وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقوّاد والكتاب والوجوه بنادق(١) مسكٍ فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوارٍ وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصَد لذلك فيدفعها إليه ويتسلّم ما فيها سواء كان ضيعةً أو مُلْكاً آخر أو فرساً أو جارية أو مملوكاً.

ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبَيْضَ العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه، وكانوا خلقاً لا يُحصى، حتى على الجمّالين والمكارية والملاحين وكل من ضمّه عسكره، فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه.

وذكر الطبري في تاريخه(٢) أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً، يُعدُّ له

(١) البندق: الذي يرمى به. الواحدة بندقة، والجمع بنادق.
(٢) راجع: «تاريخ الطبري»، ١٠: ٢٧٢.

في كل يوم وللجميع من معه ما يحتاج إليه. وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم، وأمر له المأمون عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرّق المال على قواده وأصحابه وحشمه.

وقال غير الطبري:

لما طلب المأمون الدخول على بوران دافعوه لعذر بها، فلم يندفع، فلمّا زفت إليه وجدها حائضاً فتركها. فلما قعد للناس من الغدّ دخل عليه أحمد بن يوسف الكاتب وقال: يا أمير المؤمنين، هنأك الله بما أخذت من الأمر باليمن والبركة وشدّة الحركة، والظفر بالمعركة، فأنشد المأمون:

فارسٌ ماضٍ بحربته صادق بالطّعن في الظُّلَمِ
رام أن يدمي فريسته فاتّقته من دمٍ بدمِ

فكنى بحيضها وهو من أحسن الكنايات. حكى ذلك أبو العباس الجرجاني في كتاب «الكنايات»[1] وقد رُويت هذه القصة على غير هذا الوجه، والله أعلم بالصواب.

وقد توفيت بوران سنة ٢٧١ هـ ـ ٨٨٤ م.

٣٥

لكل جوادٍ كبوة

كان ابن القِرِيّة ـ وهو معدود من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة ـ قد أصابته السَّنة[1]، وكان أعرابياً أميّاً، فقدم عين التمر[2] وعليها عامل للحجاج بن يوسف. وكان العامل يغدّي كل يوم ويعشّي، فوقف ابن القريّة ببابه فرأى الناس يدخلون فقال: أين يدخل هؤلاء؟ فقالوا: إلى طعام الأمير، فدخل فتغدّى وقال: أكلّ يوم يصنع الأمير ما أرى؟

فقيل: نعم.

(١) السنة: السنة التي يكون فيها جدب وقحط.

(٢) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار، غربي الكوفة.

فكان يأتي كل يومٍ بـابه للغـداء والعشاء، إلى أن ورد كتـاب من الحجاج عـلى العامل، وهو عربي غريب لا يدري ما هو، فأخّر لـذلك طعـامه، فجـاء ابن القريّـة فلم يَرَ العامل يتغدّى، فقال:

ما بال الأمير اليوم لا يأكل ولا يطعم؟

فقالوا: اغتمّ لكتابٍ ورد عليه من الحجاج عربي غريب لا يدري ما هو.

قال: ليقرئني الأمـير الكتاب وأنـا أفسّره إن شاء الله تعـالى ـ وكان خـطيباً لَسِنـاً بليغـاً. فذكـر ذلك للوالي فـدعا بـه. فلما قرىء عليـه الكتاب عـرف الكلام وفسّره للوالي حتى عرّفه جميع ما فيه فقال له:

أفتقدر على جوابه؟

قـال: لست أقرأ ولا أكتب، ولكن أقعـد عند كـاتبٍ يكتب ما أُمليـه، ففعل. فكتب جواب الكتاب، فلما قـرىء الكتاب عـلى الحجاج رأى كـلاماً عـربياً غـريباً، فعلم أنه ليس من كلام كتّاب الخراج. فدعا برسائل عامل عين التمر فنظر فيها فإذا هي ليست ككتاب ابن القريّة، فكتب الحجاج إلى العامل:

أمّا بعد، فقد أتاني كتابك بعيداً عن جوابك بمنطق غيرك، فإذا نـظرت في كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تبعث إليَّ بالرجل الذي صدّر لك الكتاب والسلام».

قال: فقرأ العامل الكتاب على ابن القريّة وقال له: تتوجّه نحوه؟.

فقال: أقلني.

قال: لا بأس عليك، وأمر له بكسوة ونفقة وحمله إلى الحجاج.

فلما دخل عليه قال:

ما اسمك؟

قال: أيوب.

قال: اسم نبيّ وأظنك أُميًّـا تحاول البلاغة ولا يستصعب عليك المقال، وأمر له بنزل ومنزل، فلم يزل يزداد به عجباً حتى أوفده على عبـد الملك بن مروان فلما خلع عبـد الرحمن بن محمـد بن الأشعث بن قيس الكندي الـطاعة بسجستـان وهي واقعة مشهورة بعثه الحجاج إليه رسولاً، فلما دخل عليه قال لـه: لتقومنَّ خـطيباً ولتخلعنّ عبد الملك ولتسُبّنَّ الحجاج أو لأضربنَّ عنقك.

قال: أيها الأمير إنما أنا رسول.

قال: هو ما أقوله له، فقام وخطب وخلع عبد الملك وشتم الحجاج، وأقام هنالك.

فلمّا انصرف ابن الأشعث مهزوماً كتب الحجاج إلى عماله بالري واصبهان وما يليهما يأمرهم أن لا يمرّ بهم أحد من فلّ ابن الأشعث إلّا بعثوا به أسيراً إليه. وأخذ ابن القريّة فيمن أُخذ، فلمّا أُدخل على الحجاج قال: أخبرني عمّا أسألك عنه، قال: سلني عمّا شئت.

قال: أخبرني عن أهل العراق.

قال: أعلم الناس بحقٍّ وباطل.

قال: فأهل الحجاز؟

قال: أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم فيها.

قال: فأهل الشام؟

قال: أطوع الناس لخلفائهم.

قال: فأهل مصر؟

قال: عبيد من غَلَبَ.

قال: فأهل البحرين؟.

قال: نبيط استعربوا.

قال: فأهل عمان؟

قال: عرب استنبطوا.

قال: فأهل الموصل؟

قال: أشجع فرسان وأقتل للأقران.

قال: فأهل اليمن؟

قال: أهل سمع وطاعة ولزوم للجماعة.

قال: فأهل اليمامة؟

قال: أهل جفاء واختلاف وأهواء، وأصبر عند اللقاء.

قال: فأهل فارس؟

قال: أهل بأس شديد، وشر عتيد، وريف كثير، وقرىً يسير.

قال: أخبرني عن العرب.

قال: سلني.

قال: قريش.

قال: أعظمها أحلاماً وأكرمها مقاماً.

قال: فبنوا عامر بن صعصعة.

قال: أطولها رماحاً، وأكرمها صباحاً.

قال: فبنوا سليم.

قال: أعظمها مجالس وأكرمها محابس.

قال: فثقيف.

قال: أكرمها جدوداً وأكثرها وفوداً.

قال: فبنوا زُبَيْد.

قال: ألزمها للرايات، وأدركها للتراث.

قال: فقضاعة.

قال: أعظمها أخطاراً، وأكرمها نجاراً وأبعدها آثاراً.

قال: فالأنصار.

قال: أثبتها مقاماً وأحسنها إسلاماً وأكرمها أياماً.

قال: فتميم.

قال: أظهرها جلداً، وأثراها عدداً.

قال: فبكر بن وائل.

قال: أثبتها صفوفاً وأحدّها سيوفاً.

قال: فعبد القيس.

قال: أسبقها إلى الغايات، وأضربها تحت الرايات.

قال: فبنوا أسد.

قال: أهل عدد وجلد وعسر ونكد.

قال: فلخم.

قال: ملوك وفيهم نوك[1].

قال: فجذام.

قال: يوقدون الحرب ويسعرونها ويلحقونها ثم يمرونها.

قال: فبنوا الحارث.

قال: رعاة للقديم وحماة عن الحريم.

قال: فعكّ.

قال: ليوث جاهدة في قلوب فاسدة.

قال: فتغلب.

قال: يصدقون إذا لقوا ضرباً ويسعرون للأعداء حرباً.

قال: فغسّان.

قال: أكرم العرب أحساناً وأثبتها أنساباً.

قال: فأي العرب في الجاهلية كانت أمنع من أن تضام؟

قال: قريش، كانوا أهل رهوة لا يستطاع ارتقاؤها وهضبة لا يرام انتزاؤها في بلدة حمى الله ذمارها ومنع جارها.

قال: فأخبرني عن مآثر العرب في الجاهلية.

قال: كانت العرب تقول حِمْيَر أرباب الملوك وكندة لباب الملوك ومذحج أهل الطعان وهمدان أحلاس الخيل والأزد آساد الناس.

قال: فأخبرني عن الأرضين.

قال: سلني.

قال: الهند.

قال: بحرها درٌ وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر وأهلها طغام كقطع الحمام.

قال: فخراسان.

قال: ماؤها جامد وعدوّها جاحد.

قال: نعمان.

---

(١) نوك: حُمق.

قال: حرّها شديد، وصيدها عتيد.

قال: فالبحرين

قال: كناسة بين المصرين[1].

قال: فاليمن.

قال: أصل العرب وأهل البيوتات والحسب.

قال: فمكة.

قال: رجالها علماء جفاة ونساؤها كساة عراة.

قال: فالمدينة.

قال: رسخ العلم فيها وظهر منها.

قال: فالبصرة.

قال: شتاؤها جليد ومرّها شديد وماؤها ملح وحربها صلح.

قال: فالكوفة.

قال: ارتفعت عن حرِّ البحر وسفلت عن برد الشام فطاب ليلها وكثر خيرها.

قال: فواسط.

قال: جنة بين حماة وكَنّة.

قال: وما حماتها وكنّتها؟

قال: البصرة والكوفة تحسدانها وما ضرّها ودجلة والزاب يتجاريان بإفاضة الخير عليها.

قال: فالشام.

قال: عروس بين نسوة جلوس.

قال: ثكلتك أمّك يا ابن القريّة! لولا اتّباعك لأهل العراق وقد كنت أنهاك عنهم أن تتبعهم فتأخذ من نفاقهم، ثم دعا بالسيف والنطع[2] وأومأ إلى السيّاف أن أمسك. فقال ابن القريّة: ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن ركبٌ وقوف يكنّ مثلاً بعدي.

---

(١) المصران: الكوفة والبصرة.

(٢) النطع: بساط من جلد يوضع تحت المحكوم عليه بالموت.

قال: هات.

قال: لكل جوادٍ كبوة ولكل صارم نبوة ولكل حليم هفوة.

قال الحجاج: ليس هذا وقت المزاح. يا غلام أوجب جرحه، فضرب عنقه.

وقيل: إنه لما أراد قتله قال له: العرب تزعم أن لكل شيء آفة، قال: صدقَتِ العرب، أصلح الله الأمير!

قال: فما آفة الحلم؟

قال: الغضب.

قال: فما آفة العقل؟

قال: العجب.

قال: فما آفة العلم؟

قال: النسيان.

قال: فما آفة السخاء؟

قال: المنّ عند البلاء.

قال: فما آفة الكرام؟

قال: مجاورة اللئام.

قال: فما آفة الشجاعة.

قال: البغي.

قال: فما آفة العبادة؟

قال: الفترة.

قال: فما آفة الذهن؟

قال: حديث النفس.

قال: فما آفة الحديث؟

قال: الكذب.

قال: فما آفة المال؟

قال: سوء التدبير.

قال: فما آفة الكامل من الرجال؟

قال: العدم.

قال: فما آفة الحجاج بن يوسف؟

قال: أصلح الله الأمير، لا آفة لمن كرم حسبه وطاب نسبه وزكا فرعه.

قال: امتلأت شقاقاً وأظهرت نفاقاً. اضربوا عنقه، فلـمّا رآه قتيلاً ندم.

٣٦

الأعرابي والامام

صلّى أعرابي خلف إمام، فقرأ الإمـام: ﴿ألم نهلك الأولين﴾[١] وكـان في الصف الأول، فتأخر إلى الصف الآخر، فقر الإمام ﴿ثم نُتبعهم الآخرين﴾[٢] فتأخر، فقـرأ الإمام ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾[٣] وكان اسم البدوي مُجرمـاً. فترك الصـلاة وخرج هارباً وهو يقول: والله ما المطلوب غيري.

فلقيه بعض الأعراب فقال له: مَا لَكَ يا مجرم؟

فقال: إن الإمام أهلك الأولين والآخرين، وأراد أن يهلكني في الجملة، والله ما رأيته بعد اليوم.

٣٧

عليّ بن أبي طالب وشريح واليهودي

عن إبراهيم التيمي قال:

عرف عليّ رضي الله عنه درعاً له مع يهـودي فقال: يـا يهودي، درعي سقـطت منّي يوم كذا وكذا.

فقـال اليهـودي: مــا أدري مـا تقــول درعي وفي يـدي، بيني وبينــك قـاضي المسلمين.

فانطلقا إلى القاضي شريح، فلما رآه شريح قـام له عن مجلسـه، فقال لـه عليّ: اجلس. فجلس شريح ثم قال:

---

(١)، (٢) و (٣): سورة المرسلات: الآيات ١٦، ١٧ و ١٨.

إن خصمي لـو كان مسلماً لجلست معه بين يديك، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تساؤوهم في المجلس، ولا تعودوا مرضاهم، ولا تشيّعوا جنائزهم، واضطروهم إلى أضيق الطرق وإن سبُّوكم فاضربوهم، وإن ضربوكم فاقتلوهم، ثم قال: درعي عرفتها مع هذا اليهودي.

فقال شريح لليهودي: ما تقول؟

قال: درعي وفي يدي.

قال شريح: صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك كما قلت، ولكن لا بدّ من شاهد، فدعا قنبراً[1] فشهد له ودعا الحسن بن عليّ فشهد له.

فقال شريح: أمّا شهادة مولاك فقد قبلتها، وأما شهادة ابنك لك فلا.

فقال عليّ: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة.

قال: اللهمّ نعم.

قال: أفلا تجيز شهادة أحد سيّدي شباب أهل الجنة! والله لتخرجنّ إلى بانقيا[2] فلتقضينَّ بين أهلها أربعين يوماً. ثم سلّم الدرع إلى اليهودي.

فقال اليهودي: أمير المؤمنين مشى معي إلى قاضيه فقضى عليه، فرضي به، صدقتَ إنها لدرعك سقطت منك يوم كذا وكذا عن جمل أورق فالتقطتّها، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله.

فقال علي رضي الله عنه: هذه الدرع لك، وهذه الفَرَس لك، وفرض له في تسعمائة فلم يزل معه حتى قتل يوم صفّين.

٣٨

ردّوا إليه عشرين ألف درهم

امتدح المؤمل المحاربي الشاعر المعروف، المهدي وهو ولي العهد، فأعطاه عشرين ألف درهم، فبلغ المنصور ذلك فكتب إليه يلومه ويقول: إنما كان ينبغي أن

---

(١) قنبر: مولى عليّ.

(٢) بانقيا: تقدم تحديدها.

تعطيه أربعة آلاف درهم بعد أن يقيم ببابك سنة. وأجلس قائداً من قواده على جسر النهروان يتصفَّح وجوه الناس حتى مرّ به المؤمّل، فأخذه ودخل به على المنصور فسلّم فقال: من أنت؟

قال: المؤمل بن أميل المحاربي.

فقال: أتيت إلى غلام غرٍّ خدعته؟!

فقال: نعم، أصلح الله أمير المؤمنين، أتيت غلاماً كريماً فخدعته فانخدع، فكأنَّ ذلك أعجب المنصور، فقال: أنشدني ما قلت فيه فأنشده القصيدة ومنها:

هو المهديّ إلّا أن فيه ... مشابهةً من القمر المنيرِ
تشابه ذا وذا فهما إذا ما ... أنارا مشكلان على البصيرِ
فهذا في الظلام سراج ليلٍ ... وهذا في النهار ضياء نورِ
ولكن فضّل الرحمن هذا ... على ذا بالمنابر والسريرِ
وبالملك العزيز فذا أميرٌ ... وما ذا بالأمير ولا الوزيرِ
وبعض الشهر ينقص ذا وهذا ... منيرٌ عند نقصان الشهورِ
فيا ابن خليفة الله المصفًّى ... به تعلو مفاخرة الفخورِ
لئن فُتّ الملوك وقد توافوا ... إليك من السهولة والوعورِ
لقد سبق الملوك أبوك حتى ... بقوا من بين كابٍ أو حسيرِ
وجئت مصلياً تجري حثيثاً ... وما بك حين تجري من فتورِ
فقال الناس ما هذان إلّا ... كما بين الخليق إلى الجديرِ
لئن سبق الكبير فأهل سبقٍ ... له فضل الكبير على الصغيرِ
وإن بلغ الصبيُّ مدى كبير ... فقد خلق الصغير من الكبيرِ

فقال: والله لقد أحسنت ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم، فأين المال؟

قال: هذا هوذا.

فقال: يا ربيع، امضِ معه فاعطِه أربعة آلاف درهم وخذ الباقي منه، ففعل. فلما وليَ الخلافة المهدي، ولىَّ أبا ثوبان المظالم. فكان يجلس بالرصافة، فإذا ملأَ كساءه رقاعاً دفعها إلى المهدي. فرفع المؤمّل المحاربي رقعةً ذكر فيها واقعته. فلمّا نظر المهدي إليها ضحك وقال: ردُّوا إليه عشرين ألف درهم، فردّت إليه.

تضعيف رقعة الشطرنج

كان الناس يعتقدون خطأً أن أبا بكر الصولي هو الذي وضع الشطرنج، لكن الصحيح أن الذي وضعه هو صِصَّة بن داهر الهندي، واسم الملك الذي وضعه له شِهرام.

ويقال إن صِصَّة لما وضع الشطرنج وعرضه على الملك شهرام المذكور أعجبه وفرح به كثيراً، وأمر أن يكون في بيوت الديانة، ورآه أفضل ما علم لأنه آلة للحرب وعزّ للدين والدنيا وأساس لكل عدل، وأظهر الشكر والسرور على ما أنعم عليه في ملكه منه وقال لصصّه: اقترحْ عليَّ ما تشتهي، فقال له: اقترحتُ أن تضع حبة قمح في البيت الأول، ولا تزال تضعفها حتى تنتهي إلى آخرها، فمهما بلغ تعطيني..

فاستصغر الملك ذلك، وأنكر عليه كونه قابله بالنزر اليسير، وكان قد أضمر له شيئاً كثيراً. فقال: ما أُريد إلاّ هذا. فرادَّه فيه وهو مصرٌ عليه فأجابه إلى مطلوبه، وتقدم له به، فلما قيل لأرباب الديوان حسبوه فقالوا ما عندنا قمح يفي بهذا ولا بما يقاربه، فلما قيل للملك استنكر هذه المقالة، وأحضر أرباب الديوان وسألهم فقالوا له: لو جُمع كل قمح في الدنيا ما بلغ هذا القدر. فطالبهم بإقامة البرهان على ذلك، فقعدوا وحسبوه فظهر له صدق ذلك فقال الملك لصصّه: أنت في اقتراحك ما اقترحت أعجب حالاً من وضعك الشطرنج.

وطريق هذا التضعيف أن يضع الحاسب في البيت الأول حبة وفي الثاني حبتين وفي الثالث أربع حبات وفي الرابع ثماني حبات، وهكذا إلى آخره، كلما انتقل إلى بيت ضاعف ما قبله وأثبته فيه.

وهذه الطريقة غريبة أثبتناها ليقف عليها من يستنكر ما قالوه في تضعيف رقعة الشطرنج ويعلم أن ذلك حقّ، وأن هذه الطريقة سهلة الإطّلاع على حقيقة ما ذكر عن تضعيف الرقعة.

*

٤٠

ابن السّراج ينظم وابن طاهر يقبض

قال ابن خلكان:

رأيت في بعض الكتب أبياتاً منسوبة إلى أبي بكر السراج النحوي ولا أتحقق صحتها، وهي سائرة بين الناس في جارية كان يهواها، وهي:

ميّزت بين جمالها وفعالها ... فإذا الملاحةُ بالخيانة لا تفي
خَلَفَتْ لنا أن لا تخون عهودنا ... فكأنما خَلَفَتْ لنا أن لا تفي
والله لا كلَّمتُها ولو أنها ... كالبدرِ أو كالشمس أو كالمكتفي

وبعد الفراغ من هذه الترجمة وجدت هذه الأبيات له، ولها قصة عجيبة، وهي أن أبا بكر المذكور كان يهوى جارية فجفته، فاتّفق وصول الإمام المكتفي في تلك الأيام من الرقة، فاجتمع الناس لرؤيته، فلما رآه أبو بكر استحسنه، وأنشد لأصحابه الأبيات المذكورة، ثم إن عبد الله محمد بن اسماعيل بن زنجي الكاتب أنشدها لأبي العباس ابن الفرات، وقال: هي لابن المعتز، وأنشدها أبو العباس للقاسم بن عبيد الله الوزير. فاجتمع الوزير بالمكتفي وأنشده إياها فقال لمن هي: فقال: لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، فأمر له بألف دينار، فوصلت إليه فقال ابن زنجي: ما أعجب هذه القصة! يعمل أبو بكر ابن السرّاج أبياتاً تكون سبباً لوصول الرزق إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر؟!

٤١

المودّة وبطلان التكاليف

حكى عبد العزيز بن الفضل قال:

خرج القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن سُريج، وأبو بكر محمد بن داود الظاهري، وأبو عبد الله نِفطويه إلى وليمة دُعوا لها، فأفضى بهم الطريق إلى مكان ضيّق، فأراد كل واحد منهم أن يتقدم صاحبه عليه. فقال ابن سُريج:

ضيق الطريق يورث سوء الأدب.

وقال ابن داود: لكنه يُعرِّف مقادير الرجال.
فقال نفطويه: إذا استحكمت المودّة بطلت التكاليف.

٤٢

افتدى نفسه منه على ١٠٠ ألف درهم

شكا أبو محمد اليزيدي إلى المأمون حاجة أصابته وديناً لحقه، فقال: ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تريد.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأمر قد ضاق عليّ، وإن غرمائي قد أرهقوني، فاحتل لي، ففكَّر المأمون طويلاً واستقرّ الأمر على أن يحضر اليزيدي إلى الباب إذا جلس المأمون في مجلس الأنس وعنده ندماؤه، ويكتب رقعة يطلب فيها الدخول أو إخراج بعض الندماء إليه، فلمّا جلس المأمون حضر اليزيدي إلى الباب ودفع للخادم رقعة مختومة فأدخلها إلى المأمون ففضّها فإذا فيها مكتوب:

يا خير اخوانٍ وأصحابِ ... هذا الطفيليّ على البابِ
فصيروني واحداً منكمُ ... أو اخرجوا لي بعض أصحابي

فقرأها المأمون على من حضر وقال: ما ينبغي أن يدخل مثل هذا الطفيلي على مثل هذا الحال، فأرسل إليه المأمون يقول له: دخولك في مثل هذا الوقت متعذّر، فاختر لنفسك مَنْ أحببت أن تنادمه، فلّما وقف على الرسالة قال: ما أرى لنفسي اختياراً سوى عبد الله بن طاهر فقال له المأمون: قد وقع الإختيار عليك فصر إليه.

فقال: يا أمير المؤمنين، فأكون شريك الطفيلي؟

فقال: ما يمكنني ردّ أبي محمد عن أمره فإن أحببتَ أن تخرج إليه وإلاّ فافتدِ نفسك منه، فقال: على عشرة آلاف درهم.

فقال: لا أحسب ذلك يقنعه منك ومن مجالستك، فلم يزل يزيده عشرة آلاف على عشرة آلاف والمأمون يقول: لا أرضى له بذلك، حتى بلغ مائة ألف درهم.

فقال له المأمون: فعجّلها له. فكتب له بها إلى وكيله ووجه رسولاً، وأرسل إليه المأمون وهو يقول: قَبْضُ هذا المبلغ في مثل هذه الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله. فقبل ذلك منه، وكان اليزيدي ظريفاً في جميع أحواله.

عُمر أول من دُعي أمير المؤمنين

نقلت من كتاب «المفوات النادرة. . .[١]» لمحمد بن هلال أن أعرابياً شهد الموقف مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال الأعرابي: فصاح به صائح من خلفه: يا خليفة رسول الله ثم قال: يا أمير المؤمنين، فقال رجل من خلفي: دعاه باسم ميت، مات والله أمير المؤمنين، فالتفت إليه، فإذا هو رجل من بني لهب.

قال الأعرابي: فلما وقفنا لرمي الجمار إذا حصاة قد صكّت صلعة عمر رضي الله عنه فأدمته، فقال قائل: أشعر[٢] والله أمير المؤمنين، والله لا يقف هذا الموقف بعدها، فالتفت إليه فإذا هو اللّهبي بعينه، فقتل عمر قبل الحول.

وهذه الحكاية في كتاب «الكامل»[٣] أيضاً.

وقوله «دعاه باسم ميت» إنما قال ذلك لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقال له «خليفة رسول الله» فلما توفي وتولّى عمر قيل له: «خليفة رسول الله» فقال للصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: هذا أمر يطول شرحه، فإن كل من يتولى يقال له خليفة مَنْ كان قبله حتى يتصل برسول الله (ص) وإنما أنتم المؤمنون، وأنا أميركم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، فهو أول من دُعي بهذا الاسم، وكان لفظ الخليفة مختصاً بأبي بكر الصديق فلهذا قال «دعاه باسم ميت».

وقال عوانه: أول من سمّاه أمير المؤمنين عديّ بن حاتم الطائي، وأول من سلّم عليه بها المغيرة بن شعبة. وقال غيره: جلس عمر يوماً فقال: والله ما ندري كيف نقول: أبو بكر خليفة رسول الله (ص) وأنا خليفة أبي بكر، فأنا خليفة خليفة رسول الله (ص) فمن جاء بعدي يقال له: خليفة خليفة خليفة رسول الله (ص) فهل هذا اسم؟ قالوا: الأمير، قال: كلّكم أمير، قال المغيرة: نحن المؤمنون، وأنت أميرنا، فأنت أمير المؤمنين، قال: فأنا أمير المؤمنين، والله أعلم.

---

(١) راجع: المفوات النادرة، ص ٣٦١.

(٢) أشعر: مات.

(٣) راجع: «الكامل»، ١: ١٤٥.

٤٤

بين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم

ذكرت مجلة الهلال أن أحمد شوقي كان قد بعث بأبياتٍ ثلاثة وهو في منفاه بالأندلس إلى حافظ ابراهيم وهي:

يا ساكني مصر إنَّا لا نزال على ... عهد الوفاء - وإن غبنا - مقيمينا
هلاَّ بعثتم لنا من ماء نهركُمُ ... شيئاً نبلُّ به أحشاء صادينا؟
كلّ المناهل بعد النيل آسنةٌ ... ما أبعد النيل إلاَّ عن أمانينا

فأجابه حافظ بهذه الأبيات:

عجبت للنيل يدري أنَّ بلبلهُ ... صادٍ، ويسقي ربا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب موردهُ ... ولا ارتضَوْا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئهُ ... وقد نأينا وإنْ كنّا مقيمينا

٤٥

نتيجة الأمر والإكراه

كان أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابىء، صاحب الرسائل المشهورة، والنظم البديع، متشدّداً في دينه، وقد جهد عليه عزّ الدولة الديلمي أن يُسلم فلم يفعل. وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة بن بويه بما يؤلمه، فحقد عليه. فلما قُتل عزّ الدولة ومَلَك عضُد الدولة بغداد اعتقله في سنة ٣٦٧ وعزم على إلقائه تحت أيدي الفيلة، فشفعوا فيه، ثم أطلقه في سنة ٣٧١، وأمره مكرهاً أن يؤلف له كتاباً في أخبار الدولة الديلميّة، فألّف الكتاب «التاجي».

وقيل لعضد الدولة: إنَّ صديقاً للصابىء دخل عليه فرآه في شغل شاغلٍ من التعليق والتسويد والتبيض، فسأله عمّا يعمل، فقال: أباطيل أُنمّقها، وأكاذيب أُلفّقها، وأخبار أخترعها، وأحاديث غير صحيحة أُرتّبها و. . . فحرّكت ساكنه وهيّجت حقده، فطلبه فإذا به قد هرب، ولم يزل مبعداً في أيامه.

إريحيّة ابن أبي دؤاد

حدث الجاحظ قال:

إن المعتصم غضب على رجلٍ من أهل الجزيرة الفراتية وأحضر السيف والنّطع[1]، فقال له المعتصم: فعلتَ وصنعتَ. . ، وأمر بضرب عنقه. فقال له ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين، سبق السيف العَذَل، فتأنَّ في أمره فإنه مظلوم.

قال: فسكن قليلاً.

قال ابن أبي دؤاد: وغمرني البول فلم أقدر على حبسه، وعلمت أني إنْ قمتُ قُتل الرجل، فجعلت ثيابي تحتي وبُلْتُ فيها حتى خلّصتُ الرجل.

قال: فلما قمت نظر المعتصم إلى ثيابي رطبة فقال: يا أبا عبد الله كان تحتك ماء؟ فقلت: لا يا أمير المئمنين، ولكنه كان كذا، فضحك المعتصم ودعا لي وقال: أحسنت بارك الله عليك.

وخلع، عليه وأمر له بمائة ألف درهم.

ومن حديث أريحيته أيضاً ما قاله أبو العيناء. . قال:

كان الأفشين يحسد الشاعر أبا دُلَف القاسم بن عيسى العِجلي للعربية والشجاعة، فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل، فأخذه ببعض أسبابه، فجلس له وأحضره وأحضر السيّاف ليقتله. وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر، فركب في وقته مع من حضر من عدوله، فدخل على الأفشين وقد جيء بأبي دُلَف لِيُقتَل، فوقف ثم قال:

إنّي رسول أمير المؤمنين إليك، وقد أمرك أن لا تُحدِث في القاسم بن عيسى حَدَثاً حتى تُسلّمه إليّ، ثم التفت إلى العدول وقال: اشهدوا أنّي قد أدّيت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حيّ معافىً، فقالوا: قد شهدنا، وخرج، فلم يقدر الأفشين عليه، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته، وقال: يا أمير المؤمنين، قد أدّيت عنك رسالة لم تقلها لي، ما أعتدُّ بعملِ خيرٍ خيراً منها، وإني لأرجو لك الجنّة بها، ثم أخبره الخبر، فصوّب رأيه ووجّه من أحضر القاسم فأطلقه ووهب له وعنّف

(١) النطع: البساط الذي يوضع تحت المحكوم عليه بالموت ويكون من الجلد.

الأفشين فيما عزم عليه.

ومن أحاديث أريحيته أيضاً ما ذكره المرزباني عن أبي العيناء أن المعتصم غضب على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وأشخصه من ولايته لعجزٍ لحقه في مال طُلب منه وأسبابٍ غير ذلك. فجلس المعتصم لعقوبته، وكان قد طرح نفسه على القاضي أحمد بن أبي دؤاد[1]، فتكلّم فيه فلم يجبه المعتصم. فلما جلس لعقوبته حضر القاضي أحمد فجلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك، فقال: ما ينبغي لي أن أجلس إلاّ دون مجلسي هذا، فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فَيُشَفَّع، قال: فارجع إلى مجلسك.

قال: مشفَّعاً أو غير مشفَّع؟

قال: بل مشفّعاً، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال:

إن الناس لا يعلمون رضى أمير المؤمنين عنه إن لم يخلع عليه، فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحقّ هو وأصحابه رِزق ستة أشهر لا بدَّ أن يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال: قد أمرت بها، فخرج خالد وعليه الخلف والمال بين يديه، وإن الناس في الطريق ينتظرون الإيقاع به، فصاح به رجل: الحمد لله على خلاصك يا سيّد العرب، فقال له: اسكتْ، سيّد العرب والله أحمد بن أبي دؤاد.

* وقالوا[2]: عندما قدم يحي بن أكثم قاضياً على البصرة من خراسان من قبل المأمون في آخر سنة اثنتين ومائتين وهو حَدَثٌ سنُّهُ نيّفٌ وعشرون سنة، استصحب جماعة من أهل العلم والمروءات منهم ابن أبي دؤاد، فلما قدم المأمون بغداد في سنة أربع ومائتين قال ليحي: اخترْ لي من أصحابك جماعة يجالسونني ويكثرون الدخول إليّ، فاختار منهم عشرين فيهم ابن أبي دؤاد، فكثروا على المأمون، فقال: اخترْ منهم، فاختار عشرة فيهم ابن أبي دؤاد، ثم قال: اخترْ منهم، فاختار خمسة فيهم ابن

---

(١) كان قد ولي المظالم.

(٢) راجع: «وفيات الأعيان»، ١ : ٨٤.

أبي دؤاد، واتصل أمره، وأسند المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم، وقال فيها:

وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لايفارقك الشركة في المشورة في كلّ أمرك، فإنه موضع ذلك، ولا تتخذن بعدي وزيراً.

ولّما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دؤاد قاضي القضاة، وعزل يحي بن أكثم وخُصَّ به أحمد حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً أو ظاهراً إلّا برأيه...

٤٧

حيلة أبي دُلامة وأمّ دلامة

دخل أبو دُلامة الشاعر المشهور بطرائفه اللطيفة على المهدي وهو يبكي. فقال له: مالك:

قال: ماتت أمّ دلامة وأنشده لنفسه فيها:

وكنّا كزوجٍ من قطا(١) في مفازةٍ(٢) لدى خفض عيشٍ ناعمٍ مُؤنقٍ رغدِ
فأفردني ريبُ الزمان بصرفهِ ولم أرَ شيئاً قطّ أوحش من فردِ

فأمر له بثياب وطيب ودنانير، وخرج.

فدخلت أمّ دلامة على الخيزران زوجة المهدي فأعلمتها أن أبا دُلامة قد مات، فأعطتها مثل ذلك وخرجت.

فلما التقى المهدي والخيزران عرفا حيلتيهما فجعلا يضحكان لذلك ويعجبان منه.

*

(١) القطا: نوع من الطير.
(٢) المفازة: الصحراء الواسعة.

٤٨

أبو دُلامة يهجو نفسه

قال المدائني:

دخل أبو دُلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعبّاس بن محمد ومحمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم. فقال له: أنا أعطي الله لئن لم تهجُ واحداً ممّن في البيت لأقطعنّ لسانك. فنظر إلى القوم، فكلّما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رِضاه.

قال أبو دُلامة: فعلمتُ أني قد وقعت، وأنها عزمة من عزماته لا بدّ منها، فلم أرَ أحداً أحقّ بالهجاء منيّ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي، فقلت:

ألا أبلغْ إليك أبا دُلامةْ ... فليس من الكرام ولا كرامةْ
إذا لبسَ العمامة كان قرداً ... وخنزيراً إذا نزع العمامةْ
جمعتَ دمامةً وجمعت لؤماً ... كذاك اللُّؤم تتبعه الدّمامةْ[1]
فإنْ تكُ قد أصبتَ نعيم دُنيا ... فلا تفرح فقد دنت القيامةْ

فضحك القوم ولم يبقَ منهم أحدٌ إلّا أجازه.

٤٩

جمع بين المصلحتين وتحمّل الغرم

ومن أخباره: أنه مرض ولدُهُ، فاستدعى طبيباً ليداويه وشرط له جُعْلاً معلوماً، فلما برىء قال له: والله ما عندنا شيء نعطيك، ولكن ادَّع على فلان اليهودي - وكان ذا مال كثير - بمقدار الجعل، وأنا وولدي نشهد لك بذلك، فمضى الطبيب إلى القاضي بالكوفة - وكان يومئذ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وقيل: عبد الله بن شبرمة - وحمل إليه اليهودي المذكور، وادّعى عليه بذلك المبلغ، فأنكر اليهودي المذكور، فقال: لي بيِّنةٌ، وخرج لإحضارها، فأحضر أبا دلامة وولده، فدخلا إلى

(١) الدمامة: الحقارة وقبح المنظر.

المجلس، وخاف أبو دلامة أن يطالبه القاضي بالتزكية فأنشد في الدهليز قبل دخوله بحيث يسمع القاضي:

إنِ الناسُ غَطّوْني تغطَّيتُ عنهمُ ... وإنْ بَحَثُوا عَنّي ففيهم مباحثُ
وإنْ نبشوا بئري نبشتُ بئارهم ... ليعلم قوم كيف تلك النبائث

ثم حضرا بين يدي القاضي، وأدّيا الشهادة، فقال له: كلامك مسموع وشهادتك مقبولة، ثم غرم المبلغ من عنده وأطلق اليهودي، وما أمكنه أن يردّ شهادتهما خوفاً من لسانه، فجمع بين المصلحتين وتحمّل الغرم من ماله.

٥٠

بيت من الشعر بـ ٣٠٠ ألف درهم

ذكر أبو العباس ابن المعتزّ في كتاب «طبقات الشعراء» فقال في حق مروان بن أبي حفصة (الشاعر الملهم):

«وأجود ما قاله مروان قصيدته الغرّاء اللّامية وهي التي فضل بها على شعراء زمانه، يمدح فيها معن بن زائدة الشيباني. ويُقال إنه أخذ منه عليها مالاً كثيراً لا يقدّر قدره، ولم ينل أحد من الشعراء الماضين ما ناله مروان بشعره، فممّا ناله ضربة واحدة ٣٠٠ ألف درهم من بعض الخلفاء بسبب بيت واحد.

والقصيدة اللّامية طويلة تناهز الستين بيتاً، ولولا خوف الإطالة لذكرتها، ولكن نأتي ببعض مديحها وهو في أثنائها:

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم ... أُسودٌ لهم في بطن خفَّان أشبُلُ
هُمُ يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهُمُ بين السماكين منزلُ
تجنّب «لا» في القول حتى كأنه ... حرامٌ عليه قول «لا» حين يُسأَلُ
تشابه يوماه علينا فأشكلا ... فلا نحن ندري أيّ يوميه أفضلُ
بهاليلُ في الاسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم في الجاهلية أولُ
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا ... أجابوا، وإن أعطوا أصابوا وأجزلوا
وما يستطيع الفاعلون فعالهم ... وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

ثلاث بأمثال الجبال حُباهُمُ وأحلامهم منها لدى الوزن أثقلُ

وهذا لعمري من السحر الحلال المنقّح لفظاً ومعنىً وحقّه أن يفضّل على شعراء عصره وغيرهم . . .

٥١

أعطاه شراحيل قنطاراً من الذهب

يُحكى أن ولداً لمروان بن أبي حفصة الذي تقدم ذكره دخل على شراحيل بن معن بن زائدة فأنشده:

أيا شراحيل من معن بن زائدة يا أكرم الناس من عجم ومن عربِ
أعطى أبوك أبي مالاً فعاش به فأعطني مثل ما أعطى أبوك أبي
ما حلَّ قط أبي أرضاً أبوك بها إلاَّ وأعطاه قنطاراً من الذهب

فأعطاه شراحيل قنطاراً من الذهب.

٥٢

الأب كريم والابن أكرم

ومما يقارب الحكاية التي تقدّمت ما يُروى عن أبي مليكة جرول بن أوس المعروف بالحطيئة الشاعر المشهور لما اعتقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبذاءة لسانه وكثرة هجوه الناس كتب إليه من الاعتقال قصيدته التي يقول فيها:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ حمر الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مُظلمةٍ فارحم عليك سلام الله يا عمرُ
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقت إليك مقاليد النهى البشرُ
ما آثروك بها إذ قدّموك لها لكن لأنفسهم قد كانت الأثرُ

فأطلقه وشرط عليه أن يكف لسانه عن الناس، فقال له: يا أمير المؤمنين اكتب لي كتاباً إلى علقمة بن عُلاثة لأقصده به، فقد منعتني التكسب بشعري. وكان علقمة مقيماً بحوران، وهو من الأجواد المشهورين.

قال ابن الكلبي في كتاب «جمهرة النسب»: هو علقمة بن عُلاثة بن عوف بن ربيعة، وكان عمر، رضي الله عنه، قد استعمله على حوران، فامتنع عمر من ذلك. فقيل له: يا أمير المؤمنين وما عليك من ذلك؟ علقمة ليس من عمالك فتخشى من ذلك أن تأثم وإنما هو رجل من المسلمين تشفّع بك إليك. فكتب له ما أراد، فمضى الحطيئة بالكتاب، فصادف علقمة قد مات والناس منصرفون من قبره، وابنه حاضر، فوقف عليه ثم أنشد:

لعمري لنعم المرء من آل جعفر ... بحوران أمسى علقتهُ الحبائلُ
فإن تَحْيَ لا أملَلْ حياتي وإن تمتْ ... فما في حياةٍ بعد موتك طائلُ
وما كان بيني لو لقيتك سالماً ... وبين الغنى إلاّ ليالٍ قلائلُ

فقال له ابنه: كم ظننتَ أن علقمة كان يعطيك لو وجدته حياً؟

فقال: مائة ناقة يتبعها مائة من أولادها، فأعطاه ابنه إيّاها.

٥٣

نصيب اليتامى في وصية الحطيئة

لـمّا حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة: أوصِ.

فقال: ويل للشعر من راوية السوء.

قالوا: أوصِ رحمك الله يا حطيئة، ألك حاجة؟

قال: لا والله ولكن أجزع على المديح الجيّد يُمدح به من ليس أهلاً له.

قالوا: فمن أشعر الناس؟ فأومأ بيده إلى فمه وقال: هذا الحُجَيْر إذا طمع في خير (يعني فمه) واستعبر باكياً فقالوا له: قلْ لا إله إلاّ الله، وقالوا له: ما تقول في عبيدك وإمائك؟

فقال: هم عبيد قِنٌ ما عاقب الليلُ والنهارَ.

قالوا: فأوصِ للفقراء بشيء.

قال: أُوصيهم بالإلحاح في المسألة فإنها تجارة لا تبور واسْتُ[1] المسؤول أضيق.

---

(١) الإست: المؤخرة، العجز.

قالوا: فما تقول في مالك؟

قال: للأنثى من ولدي مثل حظّ الذكر.

قالوا: ليس هكذا قضى الله جلّ وعزّ لهنّ.

قال: لكنّي هكذا قضيت.

قالوا: فما توصي لليتامى؟

قال: كُلوا أموالهم ونيكوا أمّهاتهم.

قالوا: فهل شيء تعهد فيه غير هذا؟.

قال: نعم، تحملوني على أتانٍ[1] وتتركوني راكبها حتى أموت فإن الكريم لا يموت على فراشه، والأتان مركب لم يمت عليه كريم قطّ، فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول:

لا أحدٌ أَلأَمُ من حطيّةْ هجا بنيهِ وهجا المريّةْ
من لؤمه مات على فُرَيَّهْ[2]

٥٤

مرحباً بك مرحباً

يُحكى عن أبي عطاء السندي الشاعر المشهور، واسمه مرزوق، وهو من موالي أسد بن خزيمة، أنه كان في لسانه عجمة[3]. فاجتمع حمّاد الراوية، وحمّاد عجرد، وحمّاد بن الزبرقان النحوي وبكر بن مصعب المزني، في بعض الليالي ليتذاكروا فقالوا: ما بقي شيء إلّا وقد تهيأ لنا في مجلسنا هذا، فلو بعثنا إلى أبي عطاء السندي ليحضر عندنا ويكمل به المجلس. فأرسلوا إليه، فقال حمّاد بن الزبرقان: أيّكم يحتال لأبي عطاء حتى يقول: جرادة، وزج، وشيطان؟ وإنما اختار له هذه الألفاظ لأنه كان يُبْدِلُ من الجيم زاياً، ومن الشين سيناً، فقال حمّاد الراوية: أنا أحتال في

(١) الأتان: أنثى الحمار.

(٢) الفرية: الأتان.

(٣) في لسانه عجمة: أي لا يفصح.

ذلك، فلم يلبثوا أن جاءهم أبو عطاء فقال لهم: هيّاكم الله، يريد القول حيّاكم الله، فقالوا له: مرهباً بك مرهباً، يريدون القول مرحباً بك مرحباً على لغته.

قالوا له: ألا تتعشّى؟

فقال: قد تعسّيت، فهل عندكم نبيذ نسرب؟

فقالوا: نعم، فأتوا له بنبيذ فشرب حتى استرخى، فقال له حماد الراوية: يا أبا عطاء، كيف معرفتك باللغز؟

فقال: هسن، يريد القول: حسن، فقال له ملغزاً في جرادة:

فما صفراء تُكنى أمّ عوفٍ كأن رجيلتيها منجلانِ؟

فقال: زرادة [يريد القول: جرادة] فقال: صدقت، ثم قال ملغزاً في زُجّ:

فما اسم حديدةٍ في الرمح ترسى دُوَيْنَ الصدرِ ليستْ بالسنانِ

فقال أبو عطاء: ززّ [يريد القول: زُجّ] فقال حماد: أصبت، ثم قال ملغزاً في مسجد بجوار بني شيطان، وهو بالبصرة:

أتعرف مسجداً لبني تميمٍ فويق الميل دون بني أبانِ

فقال: هو في بني سيطان، فقال: أحسنت. ثم تنادموا وتفاكهوا إلى سحرةٍ في أرغد عيش.

«وأبو عطاء هذا من الشعراء المجيدين، كان عبداً أخرب، مشقوق الأذن، وله في كتاب الحماسة مقاطع نادرة ولولا خشية التطويل والخروج عن المقصود لذكرت جملة من نوادره وشعره».

٥٥

ظننتُك تستفهم

صلّى الدلّال المخنّث الظريف يوماً خلف الإمام بمكة، فقرأ الإمام: ﴿وما ليَ لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجعون﴾(١). فقال الدلّال: لا أدري والله! فضحك كل

(١) سورة يس: الآية ٢٢.

الناس وقطعوا الصلاة. فلما قضى الوالي صلاته دعا به وقال له: ويلك ألا تَدَعُ هذا المجون والسَّفَهَ! فقال له: قد كان عندي أنك تعبد الله، فلمّا سمعتك تستفهم، ظننت أنك تشككتَ في ربّك فثبّتُّك.

فقال له: أنا شككتُ في ربّي وأنت ثبّتّني!!! إذهب لعنك الله! ولا تعاود فأبالغ والله في عقوبتك.

٥٦

خلقه ليذل به الجبابرة

رُوي أنّ أبا جعفر المنصور كان جالساً، فسقط عليه الذباب، فطيّره، فعاد إليه وألحَّ عليه، وجعل يقع على وجهه، وأكثر من السقوط عليه مراراً حتى أضجره، فقال المنصور: انظروا مَنْ بالباب، فقيل له: مقاتل بن سليمان.

فقال: عليَّ به، فأذن له، فلـمّا دخل عليه قال له: هل تعلم لماذا خلق الله تعالى الذباب؟

قال: نعم ليذلّ الله عزّ وجل به الجبابرة. فسكت المنصور.

٥٧

يا قصر

حكى أبو الهيجاء ابن عمران بن شاهين قال: كنت أُساير معتمد الدولة أبا المنيع قرواش بن المقلّد ما بين سنجار ونصيبين، فنزلنا، ثم استدعاني بعد الزوال، وقد نزل بقصر هناك يُعرف بقصر العباس بن عمرو الغنوي، وكان مطلاً على بساتين ومياه كثيرة، فدخلت عليه فوجدته قائماً يتأمل كتابة على الحائط، فقرأتها فاذا هي:

يا قصر عباس بن عَمْـ ... رو كيف فارقك ابن عمركْ
قد كنت تغتال الدهو ... رِ فكيف غالك ريب دهركْ
واهاً لعزّك بل لجو ... دك بل لمجدك بل لفخركْ

وتحتها مكتوب «وكتبها علي بن عبد الله بن حمدان بخطه في سنة ٣٣١ هـ».
قلت: وهذا الكاتب هو سيف الدولة بن حمدان ممدوح المتنبّي.
قال الراوي: وكان تحت ذلك مكتوب:

يا قصرُ ضعضعك الزّما نُ وحَطَّ من علياء فخرِكْ
ومحا محاسن أسطرٍ شرفت بهنّ متون جُدْرِكْ
واهاً لكاتبها الكريْـ مِ وقدره الموفي بقدرِكْ

وتحت الأبيات مكتوب «وكتبها الغضنفر بن الحسن بن علي بن حمدان بخطّه في سنة ٣٦٢ هـ.

قلت: وهذا الكاتب هو عدّة الدولة بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ابن أخي سيف الدولة. وتحت ذلك مكتوب:

يا قصرُ ما فَعَلَ الأُولى ضُرِبت قبابُهُمُ بعقرِكْ
أخنى الزمانُ عليهُمُ وطواهُمُ بطويل نشرِكْ
واهاً لقاصر عمر مَنْ يختال فيك وطول عمرِكْ

وتحته مكتوب «وكتبه المقلد بن المسيب بن رافع بخطّه في سنة ٣٨٨ هـ».
قلت: وهذا الكاتب هو المقلد بن المسيب بن رافع بن المقلد بن جعفر بن عمرو العقيلي أبو حسان. وتحت ذلك مكتوب:

يا قصر ما صنع الكرا م الساكنون قديم عصرِكْ
عاصرتهم فبذذتهم وشأوتهم طراً بصبرِكْ
ولقد أثار تفجّعي يا ابن المسيب رقم سطرِكْ
وعلمت أني لاحق بك دائبٌ في قفو أثرِكْ

وتحته مكتوب «وكتبها قرواش بن المقلد بن المسيب بخطه في سنة ٤٠١ هـ.»
قال الراوي: فعجبتُ من ذلك، وقلت لقرواش: الساعة كتبت هذا؟
فقال: نعم، وقد هممت بهدم القصر فإنه مشؤوم قد دفن الجماعة، فدعوت له بالسلامة وانصرفت، ورحلت بعد ثلاثة أيام، ولم يهدم القصر.

*

٥٨

كثرة الشموس وشدّة الظلمة

قيل:

اجتمع في دمشق على القضاء «ثلاثة» شموس: شمس الدين عبد الرحمن الحنبلي، وشمس الدين محمد بن عطاء الحنفي، وشمس الدين ابن خلّكان. وحدث أن عيّن ابن خلكان له نائباً لقبه شمس الدين أيضاً، فأثار ذلك بعض الظرفاء إلى التهكّم من كثرة تلك الشموس، بينما يعيش الناس في ظلام:

أهل دمشق استرابوا من كثرة الحكّامِ
إذ هم جميعاً شموسٌ وحالهم في ظلامِ

٥٩

صحيفة المتلمّس

كان المتلمّس الشاعر (اسمه جرير بن عبد المسيح) قد هجا عمرو بن هند اللخمي ملك الحيرة، وهجاهُ أيضاً طرفة بن العبد البكري الشاعر المشهور، وهو ابن أخت المتلمّس المذكور، فاتّصل هجوهما بعمرو بن هند المذكور، فلم يظهر لهما شيئاً من التغيّر، ثم مدحاه بعد ذلك فكتب لكل واحد منهما كتاباً إلى عامله بالحيرة، وأمره بقتلهما إذا وصلا إليه، وأوهمهما أنه قد كتب لهما بصلة، فلما وصلا إلى الحيرة قال المتلمّس لطرفة: كل واحد منّا قد هجا الملك، ولو أراد أن يعطينا لأعطانا ولم يكتب لنا إلى الحيرة، فهلمَّ ندفع كتبنا إلى من يقرأها فإن كان فيهاخير دخلنا الحيرة وإن كان فيها شرٌّ فررنا قبل أن يعلم بمكاننا. فقال طرفة بن العبد: ما كنت لأفتح كتاب الملك، فقال المتلمّس: والله لأفتحنّ كتابي ولأعلمن ما فيه ولا أكون كمن يحمل حتفه بيده. فنظر المتلمس فاذا غلام قد خرج من الحيرة، فقال له: أتقرأ يا غلام؟ فقال: نعم. فقال: هلمَّ فاقرأ هذا الكتاب.

فلما نظر إليه الغلام قال: ثكلت المتلمّس أُمّه، فقال لطرفة: افتح كتابك فما فيه إلاّ مثل ما في كتابي، فقال: إن كان اجترأ عليك فلم يكن ليجترىء عليَّ ويوغر

صدور قومي بقتلي. فألقى المتلمّس صحيفته في نهر الحيرة وفرَّ إلى الشام، ودخل طرفة الحيرة فقتل. وقصّته في ذلك مشهورة، فصار يضرب المثل بصحيفة المتلمّس لكل من قرأ صحيفة فيها قتله.

٦٠

المحمدون الثلاثة

كان محمد بن سفيان أحد الثلاثة الذين سُموا بمحمد في الجاهلية، وذكرهم ابن قتيبة في كتاب المعارف[١]. وقال السهيلي في كتاب «الروض الأُنُف»[٢]: لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله (ص) إلاّ ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد (ص) وبقرب زمانه وأنه يبعث في الحجاز، أن يكون ولداً لهم، وذكرهم ابن فورك في كتاب «الفصول» وهم: محمد بن سفيان بن مجاشع جدّ جدّ الفرزدق الشاعر، والآخر محمد بن أُحيحة بن الجلاح، وهو أخو عبد المطلب جدّ رسول الله (ص) لأمه، والآخر محمد بن حمدان من ربيعة، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك، وكان عنده علم الكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث رسول الله (ص) وباسمه، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً، فنذر كل واحد منهم إن وُلد له ذكر أن يسمّيه محمداً، ففعلوا ذلك.

٦١

كرم يزيد بن المهلّب وسخاؤه

قال الأصمعي: إن الحجاج بن يوسف قبض على يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وأخذه بسوء العذاب، فسأله أن يخفف عنه العذاب على أنه يعطيه كل يوم مائة ألف درهم، فإن أداها وإلاّ عذبه إلى الليل. قال: فجمع يوماً مائة ألف درهم ليشتري بها عذابه في يومه، فدخل عليه الأخطل الشاعر فقال:

---

(١) «المعارف»: ٥٦٦. وانظر: «ابن رسته»، ٢٠١.

(٢) «الروض الأنف»، ٢: ١٥٠.

أبا خالد بادت خراسانُ بعدكم وصاح ذوو الحاجات أين يزيدُ
فلا مُطِر المروان بعدك مطرةً ولا اخضرّ بالمروين بعدك عودُ(١)
فما لسرير الملك بعدك بهجةٌ ولا لجوادٍ بعد جودك جودُ

قال: فأعطاه مائة الألف، فبلغ ذلك الحجاج، فدعا به وقال: يا مروزي، أكلُّ هذا الكرم وأنت بهذه الحالة؟ قد وهبت لك عذاب اليوم وما بعده.

قلت: هكذا ذكر ابن عساكر في تاريخه الكبير، والمشهور أن صاحب هذه الواقعة والأبيات هو الفرزدق، ثم إني رأيت هذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم، والله أعلم بالصواب.

وذكر الحافظ ابن عساكر أيضاً أن يزيد لما هرب من الحجاج قاصداً سليمان بن عبد الملك، وهو يومئذٍ بالرملة، اجتاز في طريقه بالشام على أبيات عرب، فقال لغلامه: استسقنا هؤلاء لبناً، فأتاه بلبن فشربه، فقال: أعطهم ألف درهم.

فقال الغلام: إن هؤلاء لا يعرفونك.

قال: لكني أعرف نفسي، أعطهم ألف درهم، فأعطاهم.

وقال ابن عساكر أيضاً: حجّ يزيد بن المهلب فطلب حلّاقاً، فجاء فحلق رأسه، فأمر له بألف درهم، فتحيّر ودُهش وقال: هذا الألف أمضي إلى أمي فلانة أشتريها. فقال: أعطوه ألفاً آخر. فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك. فقال: أعطوه ألفين آخرين.

وقال المدائني: وكان سعيد بن عمرو بن العاص مؤاخياً ليزيد بن المهلب، فلما حبس عمرُ بن عبد العزيز يزيدَ منع الناس من الدخول إليه، فأتاه سعيد فقال: يا أمير المؤمنين، لي على يزيد خمسون ألف درهم، وقد حُلت بيني وبينه، فإن رأيت أن تأذن لي فأقتضيه، فأذن له فدخل عليه، فسُرّ به يزيد وقال: كيف دخلت إليّ؟ فأخبره سعيد، فقال: والله لا تخرج إلّا وهي معك، فامتنع سعيد، فحلف يزيد ليقبضنّها، فوجه إلى منزله، حتى حُمل إلى سعيد خمسون ألف درهم.

---

(١) المروان والمروين: هما تثنية مرو: أحداهما مرو الشاهجان وهي العظمى، والأخرى مرو الروذ وهي الصغرى، وكلتاهما مدينتان مشهورتان بخراسان.

وزاد ابن عساكر فقال: وفي ذلك قال بعضهم:

فلم أرَ محبوساً من الناس ماجداً حبا زائراً في السّجن غير يزيدِ
سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازهُ بخمسين ألفاً عُجّلتْ لسعيدِ

وأجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن في دولة بني أميّة أكرم من بني المهلّب، كما لم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة والله أعلم.

٦٢

اشترِ نفسك ثم عُدْ إلينا

قال نصيب بن رباح، مولى عبد العزيز بن مروان، وكان شاعراً فحلاً:

كنتُ أرعى إبلاً فضلَّ منها بعير فخرجت في طلبه حتى قدمت مصر وبها عبد العزيز بن مروان فقلت: ما بعد عبد العزيز أحد أعتمده، ولم أكن بعد قد مدحتُ أحداً، فحضرت بابه مع الناس فرأيت رجلاً على بغلة، حسن البزّة يؤذن له إذا جاء، فلـمّا انصرف إلى منزله اتبعته أماشي بغلته فقال: ما شأنك؟

فقلت: أنا رجل شاعر من أهل الحجاز، وقد مدحتُ الأمير وأتيت إليه راجياً معروفه.

قال: فأنشدني، فأنشدته، فأعجبه وقال: ويحك هذا شعرك؟ إيّاك أن تنتحل فإن الأمير راوية عالم بالشعر وعنده رواة، فلا تفضحني وتفضح نفسك.

فقلت: والله ما هو إلاّ شعري.

فقال: ويحك، قلْ أبياتاً تذكر فيها حوف مصر وفضلها على غيرها وألقني بها غداً، فغدوت عليه وأنشدته:

سرى الهمّ حتى بيّتتني طلائعهْ بمصر وبالحوف اعترتني روائعهْ
وبات وسادي ساعدٌ قلّ لحمه عن العظم حتى كان تبدو أشاجعهْ

قال: أنت والله شاعر، احضر الباب فإني أذكرك.

قال: فجلست على الباب ودخل فدعاني فدخلت فسلّمت على عبد العزيز

فصعَّد فيَّ بصره وصوّب وقال: أشاعر أيها الأمير.

قال: فأنشدني، فأنشدته:

لعبد العزيز على قومه وغيرهم نعمٌ غامرهْ
فبابك ألينُ أبوابهم ودارك مأهولة عامرهْ
وكلبك آنس بالمعتفين من الأُم بالابنة الزائرهْ
وكفك حين ترى السائلين أندي من الليلة الماطرهْ
فمنك العطاء ومنّا الثناء كلّ محبَّرةٍ سائرهْ

فقال: أعطوه، أعطوه.

قلت: إني مملوك. فدعا الحاجب وقال: أُخرجْ فابلغ قيمته.

فدعا المقوّمين فقال: قوّموا غلاماً أسود ليس له عيب، فقالوا: مائة دينار.

قال: إنه راعي إبل يحسن القيام بها.

قالوا: مائتا دينار.

قال: إنه يبري القسيّ والنبل ويريشها.

قالوا: أربعمائة دينار.

قال: إنه راوية للشعر.

قالوا: ستمائة دينار.

قال: إنه شاعر لا يلحن.

قالوا: ألف دينار.

قال عبد العزيز: ادفعها إليه.

فقلت له: أصلح الله الأمير، ثمن بعيري الذي ضَلَّ.

قال: كم ثمنه؟

قلت: خمسة وعشرون ديناراً.

قال: ادفعوها إليه.

قلت: فجائزتي لنفسي عن مديحي إيّاك؟

قال: اشترِ نفسك ثم عُدْ إلينا.

*

٦٣

عشرون سنة من الحبّ العفيف

ذكر الزبير بن بكار عن عباس بن سهل الساعدي قال:

بينا أنا بالشام إذ لقيني رجل من أصحابي فقال: هل لك في جميل[1] نعوده فإنه يعتلّ؟ فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه، فنظر إليّ وقال: يا ابن سهل، ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قطّ ولم يزنِ ولم يقتل النفس ولم يسرق، ويشهد أن لا إله إلاّ الله؟

قلت: أظنه قد نجا وأرجو له الجنّة، فَمَنْ هذا الرجل؟

قال: أنا.

قلت له: والله ما أحسبك سلمت وأنت تشبّب منذ عشرين سنة ببثينة.

قال: لا نالتني شفاعة محمد (ص) وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدي عليها لريبة، فما برحنا حتى مات.

٦٤

لم يسلم من لسانه شريف

كان أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري النحوي جبّاهاً، لم يكن بالبصرة أحد إلاّ وهو يداجيه ويتقيه ويتجنّبه على عرضه. وخرج إلى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالي. فلما قدم عليه قال لغلمانه: احترزوا من أبي عبيدة، فإنّ كلامه كلّه دقّ. ثم حضر الطعام فصبّ بعض الغلمان على ذيله مرقة. فقال له موسى: قد أصاب ثوبك مرقٌ، وأنا أعطيك عوضه عشر ثياب. فقال أبو عبيدة: لا عليك، فإنّ مرقكم لا يؤذي، أي ما فيه دهن، ففطن لها موسى وسكت.

وكان الأصمعي إذا أراد دخول المسجد قال: انظروا لا يكون فيه ذاك، يعني أبا

(١) جميل: هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري، شاعر من عشاق العرب. افتتن ببثينة من فتيات قومه، وتوفي سنة ٨٢ هـ.

عبيدة، خوفاً من لسانه، فلما مات لم يحضر جنازته أحد، لأنه لم يكن يسلم من لسانه شريف ولا غيره.

٦٥

بقيت «الطاء» وبقي «لوط»

ومن أخبار أبي عبيدة الذي تقدم ذكره أنه كان لا يقبل شهادته أحد من الحكام لأنه كان متهماً بالميل إلى الغلمان.

قال الأصمعي: دخلت أنا وأبو عبيدة يوماً المسجد، فاذا على الاسطوانة[1] التي يجلس إليها أبو عبيدة مكتوب على نحو من سبعة أذرع.

صلّى الإله على لوطٍ وشيعته أبا عبيدة قلْ بالله آمينا

فقال لي: يا أصمعي، امحُ هذا، فركبتُ على ظهره ومحوته بعد أن أثقلته إلى أن قال: أثقلتني وقطعت ظهري.

فقلت له: قد بقي حرف «الطاء».

فقال: هو شرّ حروف هذا البيت.

وقيل إنه لما ركب ظهره وأثقله قال له: عجّلْ، فقال: قد بقي «لوط» فقال: من هذا نَفِرّ.

وكان الذي كتب البيت أبو نواس الحسن بن هانىء.

٦٦

كان من أمرهم ما قد ذكَرَ

قال عزّ الدين بن الأثير:

كان ابتداء دولة بني بويه وهم عماد الدولة أبو الحسن علي وركن الدولة أبو علي الحسن ومعزّ الدولة أبو الحسين أحمد أولاد أبي شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام.

---

(١) الأسطوانة: العمود.

وقال ابن مسكويه إنهم يزعمون أنهم من ولد يزدجرد بن شهريار[1] وأن والدهم أبا شجاع بويه كان متوسط الحال وماتت زوجته وخلفت له هؤلاء البنين الثلاثة، فلمّا ماتت اشتدّ حزنه عليها، فحكى شهربان[2] بن رستم الديلمي قال: كنت صديقاً لأبي شجاع بويه فدخلت إليه يوماً فعذلته على كثرة حزنه فقلت له: أنت رجل تحتمل الحزن وهؤلاء المساكين أولادك يهلكهم الحزن، وربما مات أحدهم فيتجدّد لك من الأحزان ما ينسيك المرأة، وسلّيته بجهدي وأدخلته وأولاده الى منزلي ليأكلوا طعاماً وشغلته عن حزنه.

فبينما هم كذلك إذ بنا رجل منجّم معبّر للمنامات ويكتب الرقى والطّلسمات وغير ذلك. فأحضره أبو شجاع وقال له: رأيت في منامي كأنني أبول فخرج من ذَكَري نار عظيمة استطالتْ وعلتْ حتى كادت تبلغ السماء، ثم انفرجت فصارت ثلاث شعب وتولّد من تلك الشعب عدة شعب، فأضاءت الدنيا بتلك النيران ورأيت البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران.

فقال المنجّم: هذا المنام عظيم لا أفسّره إلّا بخلعة وفرس وحمار.

فقال أبو شجاع: والله ما أملك إلّا الثياب التي على جسدي فإن أخذتها بقيتُ عرياناً.

فقال المنجّم: فعشرة دنانير.

قال: والله ما أملك دينارين فكيف عشرة؟ فأعطاه شيئاً.

فقال المنجم: أعلم أنك يولد ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها ويعلو ذكرهم في الآفاق كما علت تلك النار، ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب.

فقال أبو شجاع: أما تستحي، تسخر منّا؟ أنا رجل فقير وأولادي فقراء مساكين كيف يصيرون ملوكاً؟

قال المنجم: أخبرني توقيت ميلادهم، فأخبره، فجعل يحسب ثم قبض على يد أبي الحسن علي فقبّلها وقال: هذا والله الذي يملك البلاد، ثم هذا بعده، وقبض

---

(١) يزدجرد بن شهريار: آخر ملوك الفرس.

(٢) في نسخة شهريار.

على يد أخيه أبي علي الحسن، فاغتاظ منه أبو شجاع وقال لأولاده: اصفعوا هذا الحكيم فقد أفرط في السخرية بنا، فصفعوه وهو يستغيث ونحن نضحك منه، ثم قال لهم: اذكروا لي هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك، فضحكنا منه، وكان من أمرهم ما قد ذكر.

٦٧

كذا فلتكن مفاكهة الأدباء

حكى أبو الفتح عبدوس بن محمد الهمزاني حين قدم البصرة حاجاً سنة ٤٦٥، أن الصاحب بن عباد رأى أحد ندمائه متغير السحنة فقال له:

ما الذي بك؟

قال: حما.

قال له الصاحب: قَهْ.

فقال له النديم: وه. فاستحسن الصاحب ذلك منه وخلع عليه. فلقد أحسن الصاحب في تعقيب لفظة حما بما صارت به «حماقة» ولطف النديم في صلة تعقيبه بما جعلت «قهوة». وكذا فلتكن مداعبة الفضلاء ومفاكهة الأدباء الأذكياء.

٦٨

إذاً قُمْ

وأطال شاب المكث عند الصاحب بن عباد ولم يغيره في القيام، فقال للفتى: من أين؟ قال: من قُمْ، قال الصاحب: فإذاً قُمْ.

٦٩

خجل وانقطع عن المجلس

حكى الهمذاني قال:

كان واحد من الفقهاء يُعرف بان الحصيريّ يحضر مجلس الصاحب بن عبّاد

بالليالي فغلبته عيناه مرّة وخرجت منه ريح لها صوت، فخجل وانقطع عن المجلس، فقال الصاحب بن عباد: ابلغوه عنّي.

يا ابن الحصيريّ لا تذهبْ على خجلٍ   لحادث كان مثل النّادي والعودِ
كأنها الريح لا تستطيع تحبسها   إذ أنت لست سلمانَ بن داوودِ

وعرض مثل ذلك لبعض حاضري مجلسه فقال: إنه صرير التخت. فقال الصاحب بن عبّاد: أخشى أن يكون صرير التحت.

٧٠

أخجله ثلاثة فقط

قال الصاحب بن عبّاد:

ما أخجلني قطّ غير ثلاثة: منهم أبو الحسن البديهي، فإنه كان في نفرٍ من جلسائي فقلت له وقد أكثر من أكل المشمش: لا تأكله فإنه يلطّخ المعدة، فقال: ما يعجبني مَنْ يطبّ على مائدته.

وآخر قال لي وقد خرجت من دار السلطان وأنا ضجر من أمر عرض لي: من أين أقبلت يا مولانا؟

فقلت: من لعنة الله.

فقال: ردَّ الله غربتك وأحسن على إساءته الأدب.

وصبي مستحسن داعبته فقلت: ليتك تحتي. فقال: مع ثلاثة آخرين، يعني في الجنازة، فأخجلني.

٧١

هديّته أملح من كل الهدايا

حكى جعفر بن قدامة عن ميّة البرمكية قالت:

كانت لأم علي بنت الراس جارية مغنية يقال لها مكر، وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً، وكان لها رفقاء من الكتّاب ووجوه التجّار، كان أبو يحيى الكيبخي

يعاشرها، فافتصدت[1] يوماً فأهدى إليها رفقاؤها صنوف الهدايا، وبعث إليها أبو يحيى ثلاث سلال مختومة، فإذا سلّة فيها ماش[2] ومعه رقعة فيها: الماش خير من لاش، وفي الأخرى عصافير بأجنحتها، فلما فتحت طارت ومعها رقعة فيها: يا سيّدتي اعتقت عنك هؤلاء المساكين ولو كان بدلها عبيداً لأعتقتهم، وفتحت الأخرى فإذا هي فارغة وفيها رقعة مكتوب فيها: يا مولاتي لو كان عندي شيء لبعثت إليك بشيء، ولكن ليس عندي شيء فلم أبعث اليك بشيء. فضحكوا وبعثوا إليه بنصيب وافر من كل ما أُهدي إليها، وكتبتْ إليه أم عليّ: أعطي الله عهداً إن لم تكن هديتك أملح من كل هدية وردت إلينا، وفي هداياي متّسع والإنجار أمثل.

٧٢

٣٦٠ يوماً على ٣٦٠ جارية

قالوا:

إن أحمد بن مروان الكردي الحميدي الملقّب نصر الدولة، صاحب ميّافارقين وديار بكر، ملك البلاد بعد أن قُتل أخوه منصور، وكان رجلاً مسعوداً قضى من اللذّات وبلغ من السعادة ما يقصر الوصف عن شرحه.

وحكى ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أنه لم ينقل أن نصر الدولة المذكور صادر أحداً في أيّامه سوى شخص واحد، وقصّ قصّته ولا حاجة الى ذكرها، وأنه لم تفته صلاة الصبح عن وقتها مع انهماكه في اللّذات، وأنه كان له ثلاث مائة وستون جارية يخلو كلّ ليلة من ليالي السنة بواحدة، فلا تعود النوبة إليها إلاّ في مثل تلك الليلة من العام الثاني، وقصده شعراء عصره ومدحوه وخلّدوا مدائحه في دواوينهم.

*

(١) فصد المريض: شقّ عرقه.

(٢) الماش: نوع من الحبوب.

القاضي إياس الفطن الذكيّ

كان أبو واثلة إياس بن معاوية المزني يعدّ مثلاً في الذكاء والفطنة، ورأساً لأهل الفصاحة والرجاحة. وكان صادق الظنّ.

يحكى من فطنته أنه كان في موضعٍ فحدث فيه ما أوجب الخوف، وهناك ثلاث نسوة لا يعرفهن، فقال: هذه ينبغي أن تكون حاملاً، وهذه مُرضعاً، وهذه عذراء.

فكشف عن ذلك فكان كما تفرس[1]، فقيل له: من أين لك هذا؟ فقال:

عند الخوف لا يضع الإنسان يده إلّا على اعزّ ما له ويخاف عليه، ورأيت الحامل قد وضعت يدها على جوفها، فاستدللت بذلك على حملها، ورأيت المرضع قد وضعت يدها على ثدييها، فعلمت أنها مرضع، والعذراء وضعت يدها على فرجها، فعلمت أنها بكر.

ونظر يوماً الى آجُرّة بالرحبة وهي بمدينة واسط، فقال:

تحت هذه الآجُرّة دابة، فنزعوا الآجرّة فإذا تحتها حيّة منطوية، فسألوه عن ذلك فقال:

إني رأيت ما بين الآجرّتين نَديّا من بين جميع تلك الرحبة، فعلمت أن تحتها شيئاً يتنفَّس. ومرّ يوماً بمكان فقال:

أَسمع صوت كلبٍ غريب، فقيل له: كيف عرفت ذلك؟ قال:

بخضوع صوته وشدّة نُباح غيره من الكلاب، فكشفوا عن ذلك فإذا كلب غريب مربوط والكلاب تنبحه.

ونظر يوماً الى صدع في الأرض فقال:

في هذا الصدع دابة، فنظروا فإذا فيه دابة، فسألوه عنه فقال:

إن الأرض لا تنصدع إلّا عن دابة أو نبات.

وقديماً قال الجاحظ: إذا نظر الإنسان الى موضع منفتح في أرض مستوية فليتأمّله فإن رآه يتصدع في تهيّل وكان تفتّحه مستوياً علم أنها كمأة، وإن خلط في

---

(١) تفرّس: اعتقد وعلم. والفراسة: أن يعلم الباطن من خلال الظاهر.

التصدع والحركة علم أنها دابة.

وروى عن إياس أنه قال:

ما غلبني أحد قط سوى رجل واحد، وذلك أني كنت في مجلس القضاء بالبصرة، فدخل عليَّ رجل شهد عندي أن البستان الفلاني ـ وذكر حدوده ـ هو ملك فلان. فقلت له: كم عدد شجره؟ فسكت ثم قال: منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس؟

فقلت: منذ كذا، فقال: كم عدد خشب سقفه؟ فقلت له: الحقّ معك، وأجزت شهادته. وكان يوماً في بريّة فأعوزهم الماء، فسمع نُباح كلب فقال: هذا على رأس بئر، فاستقروْا النباح فوجدوه كما قال. فقيل له في ذلك فقال: لأني سمعت الصوت كالذي يخرج من بئر. وكان له في ذلك غرائب.

٧٤

من أجل هذا نكب الرشيد البرامكة؟

كان هارون الرشيد شديد المحبة لأخته العباسة ابنة المهدي، وهي من أعزّ النساء عليه، ولا يقدر على مفارقتها، فكان متى غاب أحد من جعفر والعباسة لا يتم له سرور، فقال: يا جعفر، إنه لا يتمّ لي سرور إلاّ بك وبالعباسة، وإني سأزوّجها منك ليحلّ لكما أن تجتمعا، ولكن إيّاكما أن تجتمعا وأنا دونكما، فتزوّجها على هذا الشرط.

ثم تغيّر الرشيد عليه وعلى البرامكة كلّهم آخر الأمر ونكبهم وقتل جعفراً واعتقل أخاه الفضل وأباه يحيى إلى أن ماتا.

وقد اختلف أهل التاريخ في سبب تغيّر الرشيد عليهم: فمنهم من ذهب إلى أن الرشيد لما زوّج أخته العباسة من جعفر على الشرط الذي ذكرناه بقيا مدّة على تلك الحالة، ثم اتّفق أن أحبّت العباسة جعفراً وراودته عن نفسها فأبى وخاف، فلما أعيتها الحيلة عدلت الى الخديعة فبعثت الى عتابة أم جعفر أن ارسليني الى جعفر كأني جارية من جواريك اللاّتي ترسلين إليه، وكانت أمّه ترسل إليه كل يوم جمعة

جارية بكراً عذراء، وكان لا يطأ[1] الجارية حتى يأخذ شيئاً من النبيذ، فأبت عليها أم جعفر، فقالت: لئن لم تفعلي لأذكرن لأخي أنك خاطبتني بكَيْتَ وكَيْتَ، ولئن اشتملت من ابنك على ولد ليكونَنّ لكم الشرف، وما عسى أخي يفعل لو علم أمرنا؟

فأجابتها أم جعفر وجعلت تعدُ ابنها أن ستهدي إليه جارية عندها حسناء من هيئتها ومن صفتها كَيْتَ وكَيْت، وهو يطالبها بالعِدَةِ المرّة بعد المرّة، فلما علمت أنه قد اشتاق اليها أرسلت الى العباسة أن تهيّئي الليلة. ففعلت العبّاسة وأُدخلت على جعفر، وكان لم يتثّبت صورتها لأنه لم يكن يراها إلاّ عند الرشيد، وكان لا يرفع طرفه إليها مخافةً.

فلما قضى منها وطره[2] قالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك؟

فقال: وأي بنت ملك أنتِ؟

فقالت: أنا مولاتك العباسة، فطار السكر من رأسه. وذهب إلى أُمه فقال: يا أمّاه بعتني والله رخيصاً. واشتملت العباسة منه على ولد، ولمّا ولدته وكلّت به غلاماً اسمه رياش وحاضنة يقال لها برّة، ولما خافت ظهور الأمر بعثتهم الى مكة.

وكان يحيى بن خالد البرمكي ينظر الى قصر الرشيد وحرمه، ويغلق أبواب القصر وينصرف ومعه المفاتيح، حتى ضيّق على حرم الرشيد، فشكته زبيدة[3] الى الرشيد فقال له: يا أبتِ ـ وكان يدعوه بذلك ـ ما لزبيدة تشكوك؟

فقال: أمُتَّهمٌ أنا في حرمك يا أمير المؤمنين؟.

قال: لا.

قال: فلا تقبل قولها فيَّ، وازداد يحيى عليها غلظة وتشديداً، فقالت زبيدة للرشيد مرّة أخرى في شكوى يحيى. فقال الرشيد لها: يحيى عندي غير مُتّهم في حرمي. فقالت: فلِمَ لم يحفظ ابنه ممّا ارتكبه؟

قال: وما هو؟

---

(١) يطأ الجارية: ينكحها.
(٢) الوطر: الحاجة.
(٣) زبيدة: بنت جعفر المنصور، أم جعفر وهي زوجة هارون الرشيد، توفيت سنة ٢١٦ هـ.

فخبّرته بخبر العباسة.

قال: وهل على هذا دليل؟

قالت: وأيّ دليل أدلّ من الولد؟

قال: وأين هو؟

قالت: كان هنا فلما خافت ظهوره وجّهت به الى مكة.

قال: وعلم بهذا سواك؟

قالت: ليس بالقصر جارية إلاّ وعلمت به، فسكت عنها، وأظهر إرادة الحج، فخرج له ومعه جعفر، فكتبت العباسة الى الخادم والداية بالخروج بالصبي الى اليمن، ووصل الرشيد مكة فوكل من يثق به بالبحث عن أمر الصبي حتى وجده صحيحاً فأضمر السوء للبرامكة ونكبهم النكبة المشهورة.

٧٥

كيف مات جعفر البرمكي؟

لما تغيَّر الرشيد على جعفر البرمكي قال جعفر لابراهيم بن المهدي، وكان يحبه حباً شديداً: إني أرى من أمير المؤمنين تغيّراً، ومن الصواب أن أبعد عنه شخصي، أفترى لي الرأي أن أطلب منه أن يوليني خراسان وأخرج إليها وأقيم بها مدّة أطري بها نفسي وأجدّد حرمتي؟

وقد كان أخوه الفضل وليها قبله. فقال له ابراهيم بن المهدي: يا حبيبي، أمَّا تغيّره عليك فإني تفطّنت له قبلك. أما كنت تراه يجدّ إذا هزلت ويهزل إذا جددت؟ وأمّا خروجك الى خراسان فهو عين الصواب. فخاطبه فيه ولك منّي المساعدة. فخاطب الرشيد في ذلك فأجابه إليه ليستريح من تحكّمه في دولته وتسحبه[1] عليها.

وحين استقرّ الأمر في مسيره جرى بين جعفر وبين مسرور السيّاف[2] ملاحاة[3] في أمرٍ فقال له جعفر: يا حجّام، يا مخنّث. فقال مسرور: لو لم أكن كما قلت ما

(١) تسحبه عليها: تدلّله.

(٢) السَّيّاف: الذي يضرب بالسيف، وكان خادم الرشيد.

(٣) ملاحاة: مهاجاة ومشاجرة في الكلام.

خنتُ مولاي منذ عشر سنين تقرباً اليك. وعلم جعفر مقصوده فليّن له الكلام واعتذر إليه وطيّب نفسه ووعده بمائتي ألف دينار يوصلها إليه قبل خروجه. ثم دسّ عليه من وقته من يغتاله ويقتله.

وفطن مسرور لذلك من بعض الجهات فدخل على الرشيد وطلب خلوة وقال: يا مولاي أنا صاحب سيفك قد جعلتني أميناً على حرمك، وقد حدث في دارك حادث ولا بدَّ لي من إعلامك به إن أذنت.

قال: قُلْ.

قال: أختك العباسة تزوّج بها جعفر من عشر سنين وولدت له بنين نفذ بهم إلى مكة وهم ينتظرون بك الدوائر. وما أبقى في دارك جارية ولا خادماً إلاّ وارتكب معه المعصية. وكلما ذُكرتَ له قال: أراحنا الله من نذالة بني هاشم. وقد بذل لي مائتيْ ألف دينار وسألني كتمان ذلك عليك. وقد كان من سبيلي إطلاعك على هذه الأمور حال تجدّدها إلاّ أني كنت أخاف أن ألقاك بمثل ذلك وأقول لعلّك تطّلع عليه من جهة غير جهتي وإلاّ فحيث صمّم العزم على خروجه الى خراسان فأخاف أن يحدث منه في الدولة حادث يعسر تلافيه.

فقال له الرشيد: امضِ اليه برسالتي وقل له يتوقف أياماً حتى يصل البريد من خراسان ونرى ما يتجدّد من الأخبار هناك.

فمضى اليه برسالة الرشيد يأمره بالتوقّف. فتوقف واستشعر وأرجف الناس به حتى إن إسحاق بن ابراهيم الموصلي قال: دخلت يوماً على الرشيد فقال لي: يا إسحاق بماذا يتحدث العامة؟ قلت: أراهم يتحدّثون بإرجاف الفضل بن الربيع بالبرامكة وأنه يلي مكانهم. فقال لي: أبَلَغ من أمرك أن تدخل فيما بين هؤلاء؟ وغضب ثم قال: إياك وما أشبه هذا، وصرف وجهه عنّي وأنا أعلم يقيناً أنه ما سألني إلاّ لأخبره بمثل ذلك فعملت هذين البيتين في الحال وغنيته بهما:

إذا نحن صدقناك فضرَّ عندك الصدقُ
طلبنا النفع بالباطل إذا لم ينفع الحقّ

فضحك وقال لي: صرت حقوداً يا ابن الخبيثة؟

ثم إن جعفر بن يحيى البرمكي جمع المنجّمين وأخذوا له الطالع للخروج الى

خراسان واتفقوا على اختيار يوم السبت السابع والعشرين من المحرم سنة سبعٍ وثمانين ومائة.

ولمّا كان في ليلة السبت كان عند الرشيد ينادمه. وكان إذا ركب يركب معه أربعة آلاف، ومن عسكر الرشيد أكثر منهم، ومن عسكر خراسان الذين كانوا مقيمين بالحضرة خلق عظيم.

ولما سكر خرج من دار الرشيد عائداً الى داره وهم معه، فلمّا دخل داره تفرّقوا وجلس في داره مع خواصّه وجماعته ممّن كان ينادمهم في الخلوة. وجمع وكلاءه ونوّابه وكان يوصيهم بما يعتمدونه بعد خروجه في أملاكه وأسبابه والرشيد قد وكّل به من يُعلمه بخبره، فأُخبر الرشيد أنه قد بقي وحده وتفرّق الجند عنه فأمر الرشيد خادمه مسروراً السيّاف بضرب خيمة كبيرة في وسط صحن الدار ففعل. ثم أمره باختيار أربعمائة غلام من خواص مماليكه فاختارهم ثم أمرهم بحمل السلاح وإدخالهم الخيمة ثم قال لمسرور: امضِ الآن الى جعفر وقل له عنّي قد وصل البريد وفيه أخبار بني «رافع» الخوارج وما جرى منهم في أعمال ما وراء النهر، وكنت قد ودّعتني وما شبعت من توديعك فأحبّ أن تصير إليَّ حتى أودّعك ثانياً وأُوقفك على الكتب الواصلة. فإذا جاء معك فاعدل به الى الخيمة وخذ رأسه وجئني به ولا تراجعني فيه.

قال مسرور: فمضيتُ الى دار جعفر ولم يبقَ فيها سوى الخواص من خدمه والخصيان وعدّة من المماليك الصغار. فسألت عنه أنائم هو؟ قيل: لا، لكنه جالس في البيت الفلاني وعنده أبو زكّار الأعمى القوّال يغنّيه. فقصدت البيت الذي كان فيه. فحين حصلت على باب البيت سمعت أبا زكّار الأعمى يغنّيه:

يا راقد الليل مسروراً بأوّله   إن الحوادث قد يطرقنَ أسحارا

وهو يقول له: يا بارد إيْش، هذا ممّا يتغنّى به؟ وأبو زكار يقول له: وكان منبسطاً عليه، البارد والله من قد قتلنا منذ شهرين بهذا الاستشعار الفاسد، بقي لك أمر تخاف أن تستشعر منه وقد ودّعت الخليفة وأنت بكرة على رأس الطريق؟

قال: فتوقّفت بقدر ما فرغوا من الكلام وابتدأ أبو زكّار في الغناء ثم هجمت عليه وسلّمت فقال لي: ما الذي جاء بك؟ فأدّيت إليه رسالة الرشيد فقال لي: الآن

جئت وأنا والله تعبان وسكران وقد اختاروا لي الطالع الفلاني وركوبي يكون وقت السحر وبيني وبين الخليفة شقّة بعيدة وأحتاج الى عبور دجلة ولي أيضاً مهمات لخاصتي أحتاج الى تحريرها.

قال مسرور: فقلت له: يا سيدّي دَعْ عنك هذه الأعذار فإن الذي يستدعيك مولاك الخليفة، ولا بدَّ من الانتهاء الى أمره، وأراك تخاطبه بمثل ما تخاطب به الأمثال.

فقال لي: يا أسود، يا حجّام، وبَلَغَ من أمرك أن تخاطبني بهذا؟

فقلت له: يا سيّدي أنتْ تعلم أن الخليفة لا يفرّق بينك وبين أعزّ أُخوته، بل ربما فضّلك عليهم وقد استدعيتك الى داره دفعات ليلاً نهاراً، فبادر مسرعاً من غير عذر وبعد هذا فأنت أخبر وإنّما عليَّ البلاغ.

قال مسرور: وأخذت أُلينّ له في الكلام لئلاّ يفطن، وأبو زكّار يعاونني إلى أن أجاب. وقال لأبي زكّار: تم على ما أنت عليه حتى أعود اليك.

ونهض وخرج من باب الدار وركب فرس النوبة وليس معه أحد سوى ثلاثة خدم صغار وأنا. ومضى وأنا معه فلما انتهينا الى صحن الدار أخذ في صوب باب الحجرة التي يكون فيها الرشيد. فقلت له: يا سيدّي على يمينك قليلاً. فقال لي: وما الذي أصنع هناك؟ ثم التفت فرأى الخيمة مضروبة ونظر إليَّ وتغيّر وجهه وندم على ركوبه، ثم قال لي: يا أخي مسرور هل فيك موضع لاصطناعي؟ فقلت له: أنت ما كنت ترفعني وتخفضني إلاّ بالأسود الحجّام والآن أنا أخوك؟! ولكن يا جعفر ما غيّر الله نعمةً على عبدٍ إلاّ باستحقاق وليس الله بظلام للعبيد وإن الله يمهل ولا يهمل. ولقد أملى الله لك ولأهل بيتك لا رضىً بفعلك ولكن ليزيد إثمك وعقابك، وأنا أقول له ما أقول ونحن نمشي نحو الخيمة وهو ينصتُ الى كلامي ولا يجيب بشيء حتى إذا صرنا الى الخيمة وأحسَّ بنا القوم الذين بها نهضوا فأحسَّ بقعقعة السلاح فبكى وبكى الجماعة لبكائه حتى أبكاني مع انحرافي عنه وعداوتي له.

ودخل الخيمة فرأى النطع[1] مبسوطاً وسيفي ملفوفاً في منديل فأخذت سيفي وجذبته من غمده وأمرت خادماً كان معي بأن ينزع ثياب جعفر فنزعها عنه وتركه

(١) النطع: البساط الذي يوضع تحت المحكوم عيه بالموت ويكون من الجلد.

بغلالة كتّان وهو ينتحب وينوح على نفسه ثم قال لي: يا حبيبي لو عاودته في أمري وأكبَّ على يدي يقبلها. فقلت له: قد أمرني أن لا أعاوده، فتشفّع إليَّ الغلمان بأسرهم أن أعاوده. فقمت وقصدت الحجرة التي فيها الرشيد فحين أحسَّ بوطء قدمي في الدهليز قال: مسرور؟

قلت لبّيك يا أمير المؤمنين.

قال: جئت برأس جعفر.

قلت: لا، ولكني جئت لاستأذنك مرّة أخرى، فصاح بأعلى صوته: لا تريني وجهك وعُدْ من حيث جئت وآتني برأسه، وأنا نفيٌّ من المهدي إن لم تجئني برأسه نفذت في ساعتي هذه من يجيئني برأسك.

فعدتُ الى جعفر وأخبرته الخبر فتشاهد وقال: امهلني أُصلّي ركعتين فإذا سجدتُ السجود الأخير فشأنك وما تريده.

فقلت: ذاك لك.

فقام وصلَّى فلما بلغ الى السجود الأخير كان يبكي والجماعة يبكون لبكائه فضربت عنقه ضربةً أبَنْتُ بها رأسه عن بدنه وأخذت رأسه ووضعته في طشت من ذهب ووضعته بين يدي الرشيد فحين رآه قال: قرّبه مني فقرّبته منه، فكان يقول له:

يا جعفر أما فعلت بك كذا، أما صنعت كذا، وأنت قابلتني بكذا، وأنا واقف وهو هكذا يعاتب الرأس لم تنم عينه الى الفجر....

٧٦

كيف مات الفضل بن يحيى البرمكي؟

إن هارون الرشيد لما قتل جعفر البرمكي، على ما تقدم، قبض على أبيه يحيى وأخيه الفضل، وكان عنده، ثم توجّه الرشيد الى الرقة وهما معه وجميع البرامكة في التوكيل غير يحيى، فلما وصلوا إليها وجه الرشيد الى يحيى أن أقم بالرقة أو حيث شئت، فوجه إليه: أترضى بالحبس؟ فذكر أنه يرضى به، فحبس معهم ووسع عليهم، ثم كانوا حيناً يوسع عليهم وحيناً يضيّق عليهم حسبما يُنقل اليه عنهم.

واستصفى أموال البرامكة.

ويقال: إن الرشيد سيّر مسروراً الخادم الى السجن فجاءه فقال للمتوكل بهما: أخرج إليَّ الفضل، فأخرجه، فقال له: إن أمير المؤمنين يقول لك: إني قد أمرتك أن تصدقني عن أموالهم، فزعمت أنك قد فعلت، وقد صحَّ عندي أنك بقّيت لك أموالاً كثيرة، وقد أمرني إن لم تطلعني على المال أن أضربك مائتيْ سوط، وأرى لك أن لا تؤثر مالك على نفسك.

فرفع الفضل رأسه وقال: والله ما كذبت فيما أخبرت به، ولو خيّرت بين الخروج من ملك الدنيا وأن أُضرب سوطاً واحداً لاخترت الخروج وأمير المؤمنين يعلم ذلك، وأنت تعلم أنّا كنّا نصون أعراضنا بأموالنا، فكيف صرنا نصون أموالنا بأنفسنا؟ فإن كنت قد امرت بشيء فامضِ له.

فأخرج مسرور أسواطاً كانت معه في منديل وضربه مائتي سوط، وتولّى ضربه الخدم فضربوه أشدّ الضرب، وهم لا يحسنون الضرب فكادوا أن يتلفوه، وتركوه.

وكان هناك رجل بصير بالعلاج فطلبوه لمعالجته، فلما رآه قال: يكون قد ضربوه خمسين سوطاً، فقيل: بل مائتي سوط، فقال: ما هذا إلاّ أثر خمسين سوطاً لا غير، ولكن يحتاج أن ينام على ظهره على لوح من الخشب أو حصير وأدوس صدره، فجزع الفضل من ذلك ثم أجاب إليه فألقاه على ظهره وداسه ثم أخذ بيده وجذبه عن الحصير فتعلّق بها من لحم ظهره شيء كثير ثم أقبل يعالجه الى أن نظر يوماً الى ظهره فخرّ المعالج ساجدا لله تعالى.

فقيل له: ما بالك؟

فقال: قد برىء وقد نَبَتَ في ظهره لحم حيّ، ثم قال: ألست قلت هذا ضرب خمسين سوطاً، أما والله لو ضرب ألف سوط ما كان أثرها بأشدّ من هذا الأثر وإنما قلت ذلك حتى تقوّى نفسه فيعينني على علاجه.

*

٧٧

الفضل كثير البر بأبيه

كان الفضل بن يحيى البرمكي كثير البر بأبيه، وكان أبوه يتأذى من استعمال الماء البارد في زمن الشتاء. فيحكى أنهما لما كانا في السجن لم يقدرا على تسخين الماء، فكان الفضل يأخذ الأبريق النحاسي وفيه الماء فيلصقه إلى بطنه زماناً طويلاً عساه تنكسر برودته بحرارة بطنه حتى يستعمله أبوه بعد ذلك.

٧٨

يا زيد بن مزيد

رأيت في بعض الكتب والمجاميع حكاية عن بعضهم أنه قال:

كنت مع يزيد بن مزيد، فإذا صائح في الليل يقول: يا يزيد بن مزيد.

فقال يزيد: عليّ بهذا الصائح، فلما جيء به قال له: ما حملك على أن ناديت بهذا الاسم؟

فقال: نفقت دابتي ونفدت نفقتي وسمعت قول الشاعر فتيمّنت به، فقال: وما قال الشاعر؟ فأنشد:

إذا قيل مَنْ للمجد والجود والندى   منادٍ بصوتٍ يا يزيد بن مزيدِ

فلما سمع يزيد مقالته هشّ له وقال له: أتعرف يزيد بن مزيد؟

قال: لا والله.

قال: أنا هو، وأمر له بفرس أبلق كان معجباً به وبمائة دينار.

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني»[1] في ترجمة مسلم بن الوليد بإسناد متصل إلى أحمد بن أبي سعد قال: أُهدِيتْ إلى يزيد بن مزيد جارية وهو يأكل، فلما رفع يده من الطعام وطئها فلم ينزل عنها إلاّ ميتاً، وهو ببردعة فدفن في مقابر بردعة

(١) راجع: «الأغاني»، ١٨: ٣٢٥.

وكان مسلم بن الوليد معه في جملة أصحابه فرثاه بقصيدة مطلعها:

قـبرٌ بـبردعـةَ استـسرَّ ضريحـه ... خـطراً تـقـاصر دونـه الأخـطارُ

٧٩

أحقيقة أم نسج خيال؟

حدّث الحسن بن الحضر قال:

لـمّا أفضت الخلافة إلى بني العباس اختفت رجال من بني أميـة، وكان في جملة من اختفى إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك ولم يزل مختفياً حتى مضّه الاختفاء وأخذ له داود أماناً من أبي العباس السفّاح.

وكان إبراهيم رجلًا أديباً، جميلًا، بليغاً حسن المحاضرة محظياً عند أمير المؤمنين السفاح.

فقال له يوماً: لقد مكثت زماناً طويلًا مختفياً فحدّثني بأعجب ما رأيت في اختفائك، فإنها كانت أيام تكدير.

فقال: يا أمير المؤمنين، وهل يسمع بأعجب من حديثي! لقد كنت مختفياً في منزل أنظر إلى البطحاء، فبينما أنا على مثل ذلك وإذا بأعلام سود خرجت من الكوفة تريد الحيرة، فوقع في ذهني أنها تطلبني فخرجت متنكراً، ووالله لا أعرف إلى أين أذهب؟

فأتيت الكوفة من غير الطريق المعروفة، وأنا لا أعرف بها أحداً، فصرت متحيراً من ذلك، وإذا بباب كبير في رحبة متّسعة فدخلت إليها ووقفت قريباً من الباب، وإذا رجل حسن الهيئة وهو راكب فرساً ومعه جماعة من غلمانه وأصحابه، فدخل الرحبة فرآني واقفاً مرتاباً.

فقال لي: ألك حاجة؟

فقلت: غريب خائف من القتل.

قال: أدخل.

فأدخلني إلى حجرة في داره وقال: هذه لك ولا تخف، ثم هيّأ لي ما كنت محتاجاً إليه، من فرشٍ وآنية ولباس وطعام.

فأقمت عنده مدّة، ووالله يا أمير المؤمنين، ما سألني قطّ من أنا؟ ولا ممّن أخاف؟

وصار يركب في كل يوم ويعود متعباً متأسفاً كأنه يطلب شيئاً لم يجده. فقلت له يوماً: أراك في تعب كبير، كأنك تطلب شيئاً فاتك.

فقال: إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل أبي صبراً[1] واختفى وأنا أركب كل يوم في طلبه لعلّي أجده فآخذ بثأري منه.

فتعجبت والله يا أمير المؤمنين من هربي وشؤم بختي الذي ساقني إلى منزل رجلٍ يريد قتلي، ويأخذ ثأره منّي، فكرهت الحياة واستعجلت الموت لما نالني من الشدّة. فسألت الرجل عن اسم أبيه وما سبب قتله؟ فاعلمني. فعرفت بالخبر، وهو صحيح.

فقلت: يا هذا قد وجب عليّ حقّك، ومن حقّك عليّ أن أدلّك على قاتل أبيك، وأهوّن عليك المشقة والتعب.

فقال: أتعلم من هو، وبأي مكان؟

قلت: نعم.

قال: أين هو؟

قلت: أنا غريمك فخذ بثأرك منّي.

فقال لي: أظنّك مضَّك الإختفاء وكرهت الحياة.

قلت: والله أنا قتلته يوم كذا وكذا.

فلما علم صدقي تغيّر وجهه واحمرّت عيناه وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: أمّا أبي فإنه سيلقاك غداً يوم القيامة يحاكمك عند مَنْ لا تخفى عليه خافية. وأمّا أنا فلست بمخفرٍ ذمتي ولا مضيّع نزيلي، ولكن أخرج عنّي مع السلامة فإني لا آمن عليك نفسي بعد اليوم.

ثم وثب إلى صندوق، فأخرج صرّة فيها خمسمائة دينار وقال: خذْ هذه واستعن بها على سفرك. فكرهت أخذها ثم خرجت من عنده يا أمير المؤمنين وهو أكرم رجل رأيته.

قال: فبقي السفّاح يهتز طرباً ويتعجّب من حلمه وإكرامه.

---

(١) المصبور: كل ذي روح يُصبّر حيّا ثم يُرمى حتى يُقتل، المعدّ للقتل.

كذب عليه فحبسه في المطبق

أراد المهدي أن يمتحن يعقوب بن داود في ميله إلى العلوية، فدعا به يوماً وهو في مجلسٍ فُرشُهُ مورَّدة وعليه ثياب مورّدة وعلى رأسه جارية على رأسها ثياب مورّدة وهو مشرف على بستان فيه شجر وفيه صنوف الورود، فقال له: يا يعقوب، كيف ترى مجلسنا هذا؟ قال: على غاية الحسن فمتّع الله أمير المؤمنين به.

فقال له: جميع ما فيك لك وهذه الجارية لك ليتم سرورك، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فدعا له.

فقال له المهدي: ولي إليك حاجة، فقام يعقوب قائماً وقال: يا أمير المؤمنين ما هذا القول إلاّ لموجدة وأنا استعيذ بالله من سخطك.

فقال: أحبّ أن تضمن لي قضاءها.

فقال: السمع والطاعة.

فقال له: والله.

فقال: والله، ثلاثاً.

فقال له: ضع يدك على رأسي واحلف به، ففعل ذلك. فلما استوثق منه قال له: هذا فلان بن فلان رجل من العلوية، أحب أن تكفيني مؤونته، وتريحني منه فخذه إليك. فحوّله إليه وحوّل إليه الجارية وما كان في المجلس والمال. فلشدّة سروره بالجارية جعلها في مجلس تقرب منه ليصل إليها، ووجّه فأحضر العلوي فوجده لبيباً فهماً فقال له: ويحك يا يعقوب تلقى الله تعالى بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة رضي الله عنها بنت محمد (ص) فقال له يعقوب: يا هذا أفيك خير؟

فقال: إن فعلت خيراً معي شكرت ودعوت لك.

فقال له: خذ هذا المال وخذ أي طريقٍ شئت.

فقال: طريق كذا وكذا آمن لي.

امضِ مصاحباً.

وسمعت الجارية الكلام كلّه، فوجّهت مع بعض خدمها به وقالت: قُلْ له: هذا فعل الذي آثرته على نفسك بي وهذا جزاؤك منه.

فوجه المهدي فشحن الطريق حتى ظفر بالعلوي وبالمال ثم وجه إلى يعقوب فأحضره فلما رآه قال: ما حال الرجل؟

قال: قد أراحك الله منه.

قال: مات؟

قال: نعم.

قال: والله؟

قال: والله.

قال: فضع يدك على رأسي، فوضع يده على رأسه وحلف له به.

فقال: يا غلام أخرجِ إلينا مَنْ في هذا البيت. ففتح بابه عن العلوي والمال بعينه. فبقي يعقوب متحيراً وامتنع الكلام عليه مما درى ما يقول.

فقال له المهدي: لقد حلَّ دمك، ولو آثرت إراقته لأرقته ولكن احبسوه في المطبق، فحبسوه. وأمر بأن يُطوى عنه خبره وعن كل أحد. فأقام فيه سنتين وشهوراً في أيام المهدي وجميع أيام الهادي موسى بن المهدي وخمس سنين وشهوراً من أيام هارون الرشيد.

ثم ذكر يحيى بن خالد البرمكي أمره وشفع فيه فأمر بإخراجه، فأُخرج وقد ذهب بصره، فأحسن إليه الرشيد وردَّ ماله وخيّره المقام حيث يريد فاختار مكة فأذن له في ذلك فأقام بها حتى مات في سنة ١٨٧ هـ.

ولما أُطلق يعقوب سأل عن جماعة من إخوانه فأُخبر بموتهم فقال:

لكل أُناسٍ مقبرٌ بفنائهم فهم ينقصون والقبورُ تزيدُ
هم جيرةُ الأحياء أمّا محلّهم فدانٍ، وأمّا الملتقى فبعيدُ

قلت: هذان البيتان في باب المراثي في كتاب الحماسة.

*

هو أجود منه وقد ابتلعته الأرض

حكى مروان بن أبي حفصة الشاعر قال:

أخبرني معن بن زائدة، وهو يومئذٍ متولي بلاد اليمن، «أن المنصور جدَّ في طلبي وجعل لمن يحملني إليه مالاً، قال: فاضطررتُ لشدّة الطلب إلى أن تعرّضتُ للشمس حتى لوّحت وجهي وخففتُ عارضي ولبستُ جبة صوف، وركبتُ جملاً وخرجت متوجهاً إلى البادية لأقيم بها، قال: فلما خرجتُ من باب حرب، وهو أحد أبواب بغداد، تبعني أسود متقلد بسيف حتى إذا غبتُ عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض على يدي، فقلت له: ما بك؟

فقال: أنت طلبة أمير المؤمنين؟

فقلت: ومن أنا حتى أُطلب؟

فقال: أنت معن بن زائدة.

فقلت له: يا هذا اتّقِ الله عزّ وجلّ وأين أنا من معن؟

فقال: دعْ هذا، فوالله إني لأعرف بك منك، فلما رأيت منه الجدّ قلت له: هذا جوهر قد حملته معي بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بي، فخذه ولا تكن سبباً في سفك دمي.

قال: هاته، فأخرجته إليه، فنظر فيه ساعة وقال: صدقت في قيمته، ولست قابله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك.

فقلت: قُلْ.

قال: إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كلّه قطّ؟

قلت: لا.

قال: فنصفه؟

قلت: لا.

قال: فثلثه؟

قلت: لا. حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت: أظن أني قد فعلت هذا.

قال: ما ذاك بعظيم، أنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر المنصور كل شهر

عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألوف الدنانير من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جودٍ فعلته ولا تتوقف عن مكرمة.

ثم رمى العقد في حجري وترك خطام الجمل وولى منصرفاً. فقلت: يا هذا، قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون عليّ مما فعلت. فخذ ما دفعته لك فاني غنيٌّ عنه. فضحك وقال:

أردت أن تكذبني في مقالي هذا، والله لا أخذته ولا آخذ لمعروفك ثمناً أبداً، ومضى لسبيله، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت، وبذلك لمن يجيء به ما شاء، فما عرفت له خبراً، وكأن الأرض ابتلعته.

٨٢

ما ترك لربّه شيئاً

ويحكى عن معن بن زائدة ـ الذي تقدم ذكره ـ أنه لما أمنه المنصور أكرمه وكساه وزيّنه وصار من خواصه فدخل عليه يوماً وقد أسن فقال له:

كبرت يا معن.

فقال: في طاعتك يا أمير المؤمنين, .

فقال: وإنك لجلْد.

فقال: على أعدائك يا أمير المؤمنين.

فقال: وفيك بقية.

فقال: هي لك يا أمير المؤمنين.

وعُرض هذا الكلام على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة، فقال: ويح هذا، ما ترك لربّه شيئاً.

*

أول مائة ألف أُعطيها شاعر

حدّث الفضل بن الربيع قال:

رأيت مروان بن أبي حفصة وقد دخل على المهدي بعد موت معن بن زائدة في جماعة من الشعراء فيهم سلم الخاسر[١] وغيره، فأنشده مديحاً، فقال له: من أنت؟

فقال: شاعرك مروان بن أبي حفصة.

فقال له المهدي: ألست القائل:

وقلنا أين نرحلُ بعد معنٍ؟

وأنشده البيت المذكور[٢]، وقد جئت تطلب نوالنا وقد ذهب النوال[٣]؟ لا شيء لك عندنا، جروا برجله. قال: فجروا برجله حتى أخرجوه.

فلما كان في العام المقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في ذلك الحين في كل عامٍ مرّة. قال: فمثل بين يديه وأنشده قصيدته التي أولها:

طَرَقَتْكَ زائرةً فحيّي خيالها ... بيضاء تخلط بالحياء دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها ... قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

فأنصت له حتى بلغ إلى قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفّكم أو تسترون هلالها

قال: فأنصت له المهدي، ولم يزل يزحف كلما سمع شيئاً فشيئاً منها حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع. ثم قال له: كم بيت هي؟ فقال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم.

ويُقال إنها أول مائة ألف درهم أُعطيها شاعر في خلافة بني العباس.

---

(١) سلم الخاسر: من الشعراء المعروفين.

(٢) البيت هو:

وقلنا أين نرحل بعد معنٍ ... وقد ذهب النوال فلا نوالاً

(٣) النوال: العطاء.

٨٤

لنقل كتبه يحتاج إلى أربعمائة جمل

للصاحب بن عباد رسائل بديعة وطرائف حلوة ونظم جيّد، فمنه قوله[١]:

وشادن جمالُه تقصر عنه صفتي
أهوى لتقبيل يدي فقلتُ قبّل شفتي

وله في رقّة الخمر[٢]:

رقّ الزجاجُ ورقّتِ الخمرُ وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قَدَحٌ وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

وحكى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي أن نوح بن منصور أحد ملوك بني سامان كتب إليه ورقة في السرّ يستدعيه ليفوّض إليه وزارته وتدبير أمر مملكته، من جملة أعذاره إليه أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل، فما الظنّ بما يليق بها منه التجمّل.

ورأيت في اخباره أنه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان في حياته. فلما توفّي الصاحب بن عبّاد أُغلقت له مدينة الريّ واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته، وحضر مخدومه فخر الدولة أولاً وسائر القوّاد وقد غيّروا لباسهم، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحةً واحدةً وقبّلوا الأرض، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياماً.

٨٥

هل طار الخليفة عن عرشه؟

قال أشجع السلمي الشاعر المشهور:

أذِن الخليفة المهدي للناس في الدخول عليه فدخلنا، فأَمَرَنا بالجلوس، فاتفق أن

---

(١) راجع: «اليتيمة» للثعالبي، ص ٢٥٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

جلس بجنبي بشّار بن بُرد وسكت المهدي فسكت الناس. فسمع بشّار حسّاً فقال لي: من هذا؟

فقلت: أبو العتاهية.

فقال: أتراه ينشد في هذا المحفل؟

فقلت: أحسبه سيفعل.

قال: فأمره المهدي أن ينشد فأنشد:

ألا ما لسيدتي ما لها أدلّتْ فأحمل إدلالها

قال: فنخسني بشار بمرفقه وقال: ويحك! أرأيت أجسر من هذا؟ ينشد مثل هذا الشعر ي مثل هذا الموضع، حتى بلغ إلى قوله:

أتته الخلافةُ منقادةً إليه تجرّرُ أذيالها
فلم تكُ تصلح إلاّ لهُ ولم يك يصلح إلاَّ لها
ولو رامها أحد غيرهُ لزلزلتِ الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

فقال لي بشَّار: انظر ويحك يا أشجع، هل طار الخليفة عن عرشه؟

قال أشجع: فوالله ما انصرف أحد عن هذا المجلس بجائزة غير أبي العتاهية.

ولأبي العتاهية طرائف حلوة، فلمّا حضرته الوفاة قال: أشتهي أن يجيء مخارق المغنّي، ويغني عند رأسي، والبيتان له من جملة أبيات:

إذا ما انقضت عنّي من الدهر مدّتي فإن عزاء الباكيات قليلُ
سيعرض عن ذكري وتُنسى مودّتي ويحدث بعدي للخليل خليلُ

وأوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

إن عيشاً يكون آخره الموتُ لعيشٌ معجّلُ التنغيصِ.

ويحكى أنه لقي يوماً أبا نواس فقال له:

كم تعمل في يومك من الشعر؟

فقال له: البيت والبيتين.

فقال أبو العتاهية: لكنني أعمل المائة والمائتين في اليوم.

فقال أبو نواس: لأنك تعمل مثل قولك:

يا عتبَ مالي ولكِ يا ليتني لم أرَكِ

ولو أردت مثل هذا الألف والألفين لقدرتُ عليه. وأنا أعمل مثل قولي:

من كفّ ذاتِ حِرٍ في زيّ ذي ذكَرٍ لها محبَّانِ: لوطيٌّ وزنّاءُ

ولو أردت مثل هذا لأعجزك الدهر.

ومن لطيف شعره قوله:

ولقد صبوتُ إليك حتّى صار من فرط التصابي
يجدُ الجليسُ إذا دنا ريحَ التّصابي في ثيابي

٨٦

حبسه المنصور مع الدجاج

شرب أبو دُلامة الشاعر المشهور صاحب النوادر والطرائف، في بعض الحانات فسكر وانصرف وهو يميل فلقيه العَسَسُ(١) فأخذوه وقالوا له: من أنت وما دينك؟ فقال:

ديني على دين بني العباسِ ما خُتم الطين على القرطاسِ
إني اصطبحت(٢) أربعاً بالكاس فقد أدار شربها براسي
فهل بما قلت لكم من باسِ؟

فأخذوه ومضوْا. وخرقوا ثيابه وساجه وأُتي به أبو جعفر ـ وكان يُؤتى بكل من أخذه العسس ـ فحبسه مع الدجاج في بيت.

فلمّا أفاق جعل ينادي غلامه مرّةً وجاريته أُخرى فلا يجيبه أحد، وهو في ذلك يسمع صوت الدجاج وزقاء الديوك. فلما أكثر قال له السجّان. ما شأنك؟

قال: ويلك من أنت وأين أنا؟

---

(١) العسس: رجال الأمن الذين يطوفون بالليل بحثاً عن المخلّين بالأمن.
(٢) اصطبحت: شربت شراب الصباح.

قال: في الحبس وأنا فلان السجّان.

قال: ومن حبسني؟

قال: أمير المؤمنين.

قال: ومن خرق طيلساني؟

قال: الحرس. فطلب منه أن يأتيه بداوة وقرطاس ففعل. فكتب إلى أبي جعفر:

أمير المؤمنين فدتك نفسي ... علامَ حبستني وخرقت ساجي؟
أمِنْ صفراء صافية المزاج ... كأن شعاعها لهب السّراج
وقد طُبخت بنار الله حتّى ... لقد صارت من النّطف[1]، النضاج
تهش لها القلوب وتشتهيها ... إذا برزت ترقرق[2] في الزجاج
أُقاد إلى السجون بغير جرمٍ ... كأني بعض عمّال الخراج
ولو معهم حُبستُ لكان سهلاً ... ولكني حُبستُ مع الدجاج
وقد كانت تخبّرني ذنوبي ... بأنّي من عقابك غير ناجي
على أنّي وإن لاقيتُ شراً ... لخيرك بعد ذاك الشّر راجي

فدعا به وقال: أين حُبستَ يا أبا دُلامة؟

قال: مع الدجاج.

قال: فما كنت تصنع؟

قال: أقوقي معهنّ حتى أصبحتُ. فضحك وخلّى سبيله وأمر له بجائزة. فلما خرج قال له الربيع: إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين. أما سمعت قوله «وقد طبخت بنار الله» (يعني الشمس). فأمر بردّه ثم قال: يا خبيث شربت الخمر؟.

قال: لا.

قال: أفَلَمْ تقل «طُبخت بنار الله» تعني الشمس.

قال: لا والله ما عنيتُ إلاّ نار الله الموقَدة التي تطلع على فؤاد الربيع. فضحك وقال: خذها يا ربيع ولا تعاود التعرُّض.

---

(١) النطف: الماء الصافي.

(٢) ترقرق: أي تترقرق وتتلألأ.

٨٧

الدّية أو التشهير

حدث عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال:

صلّى أشعب يوماً إلى جانب مروان بن أبان بن عثمان، وكان مروان عظيم الخلق والعجيزة، فأفلتت منه ريح عند نهوضه، لها صوت، فانصرف أشعب من الصلاة، فَوَهِمَ الناس أنه هو الذي خرجت منه الريح.

فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب فقال له: الدّية.

فقال: دية ماذا؟

فقال: دية الضرطة التي تحملتها عنك، والله وإلاّ شهرّتك. فلم يدعه حتى أخذ منه شيئاً صالحاً.

٨٨

أشعب يرضع جدياً لبن زوجته

غذا أشعب جدياً بلبن زوجته وغيرها حتى بلغ الغاية. قال: ومن مبالغته في ذلك أن قال لزوجته: أي ابنه وردان، إنّي أحبّ أن ترضعيه بلبنك، قال: ففعلت. قال: ثم جاء به إلى اسماعيل بن جعفر بن محمد فقال: بالله إنه لابني، قد رضع بلبن زوجتي وقد حبوتك به، فلم أرَ أحداً يستأهله سواك. قال: فنظر اسماعيل إلى فتنة من الفتن فأمر به فذُبح وسُمط، فأقبل عليه أشعب. فقال: المكافأة، فقال: ما عندي والله اليوم شيء، ونحن من تعرف، وذلك غير فائت لك.

فلما يئس منه قام من عنده فدخل على أبيه جعفر بن محمد، ثم اندفع يشهق حتى التقت أضلاعه، ثم قال: أخْلِني. قال: ما معنا أحد يسمع ولا عين عليك. قال: وثب ابنك اسماعيل على ابني فذبحه وأنا أنظر إليه. قال: فارتاع جعفر وصاح: ويلك! ولماذا؟ وتريد ماذا؟ قال؛ أمّا ما أريد فوالله مالي في اسماعيل حيلة ولا يسمع هذا سامع أبداً بعدك.

فجزاه خيراً وأدخله منزله وأخرج إليه مائتي دينار وقال له: خذ هذه ولك عندنا ما تُحب.

قال: وخرج إلى اسماعيل لا يبصر ما يطأ عليه، فإذا بـه مترسّـل في مجلسه، فلما رأى وجه أبيه نكره وقام إليه فقال: يا اسماعيل أوَ فعلتها بأشعب؟ قتلت ولده؟!

قال: فاستضحك وقال: جـاءني بجدي من صفتـه كذا، وخـبّره الخبر، فـأخبره أبوه ما كان منه وصار إليه.

قال: فكان جعفـر يقول لأشعب: رعبتني رعبـك الله فيقول: روعـةُ ابنك والله إياي في الجدي أكبر من روعتك أنت في المائتي الدينار.

٨٩

أراد أن يسلح عليه فأخذه القولنج

قال المدائني:

دخل أشعب يوماً على الحسين بن علي وعنده أعرابي قبيح المنظر مختلف الخلقـة، فسبّـح أشعب حين رآه وقـال للحسين عليـه السلام: بـأبي أنت وأمي، أتأذن لي أن أسلح عليه؟

فقال الأعرابي: ما شئت، ومع الأعرابي قوس وكنانة، ففـوّق[1] له سهـماً وقال: والله لئن فعلت لتكوننَّ آخر سلحة سلحتها.

قال أشعب للحسين: جُعلتُ فداءك، قد أخذني القولنج[2].

٩٠

تقويم أشعب

روى ابن هرمة عن أبيه قال:

كـان أبان بن عثـمان من أهزل النـاس وأعبثهم، وبلغ من عبثه أنـه كان يجـيء بالليل إلى منزل رجل في أعـلى المدينـة له لقبٌ يغضـب منـه فيقول لـه: أنا فـلان بن فلان، ثم يهتف بلقبه فيشتمه أقبح شتم وأبان يضحك. فبينما نحن ذات يوم عنده،

---

(١) فوّق السهم: ركّبه ووضعه في رأس الحربة.

(٢) القولنج: مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح.

وعنده أشعب إذ أقبل أعرابي ومعه جمل له، والأعـرابي أشقر أزرق أزعـر سيء الخلق غضوب يتلظّى كأنه أفعى، ويتبينّ الشرّ في وجهه ما يدنو منه أحد إلاَّ شتمه ونهره.

فقـال أشعب لأبان: هـذا والله من الباديـة ادعوه، فـدُعي وقيل لـه: إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك، فأتاه فسلّم عليه، فسأله أبان عن نسبـه فانتسب لـه، فقال: حياك الله يا خالي، حبيب ازداد حباً فجلس.

فقال له: إني في طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما أشتهي بهذه الصفة، وهذه القامة واللون والصّدر، والورك، والأخفاف، فالحمد لله الذي جعـل ظَفَري به من عند من أحبّه، أتبيعه؟

فقال: نعم أيها الأمير.

فقال: فإني قد بذلت لـك به مـائة دينـار ـ وكان الجمـل يساوي عشرة دنـانير ـ فطمع الأعرابي وسُرّ وانتفخ، وبان السرور والطّمع في وجهه، فأقبل أبان على أشعب ثم قال له: ويلك يا أشعب! إن خالي هـذا من أهلك وأقاربـك ـ يعني في الطمـع ـ فأوسع له مـمّا عندك.

فقال له: نعم بأبي أنت وزيادة.

فقال له أبان: يا خالي إنما زدتك في الثمن على بصيرة وإنما الجمل يساوي ستين ديناراً ولكن بذلت لك مائة لقلة النقد عندنا. وإن أُعطيك به عروضاً تساوي مـائة، فزاد طمع الأعرابي وقال: قد قبلت ذلك أيها الأمير. فأسرَّ إلى أشعب، فأخـرج شيئاً مغطّى فقال له: اخرجْ ما جئت به، فأخرج جَـرْد عمامـة خزٍّ خلقٍ لا تسـاوي أربعة دراهم، فقال له: قوّمها يا أشعب.

فقال أشعب: عمامة الأمير، تُعرف به ويشهـد فيها الأعيـاد والجُمَع ويلقى فيهـا الخلفاء، خمسون ديناراً.

فقـال: ضعهـا بـين يـديـه. وقـال لابن زبنـج، أثبت قيمتهـا. فكتب ذلـك، ووُضعت العمامة بين يدي الأعـرابي، فكاد يـدخل بعضـه في بعضٍ غيضاً ولم يقـدر على الكلام، ثم قال:

هات قلنسوتي، فأخرج قلسنوة طويلة خلقة قد علاها الـوسخ والـدّهن وتخرّقت تساوي نصف درهم، فقال: قوّم يا أشعب. فقال أشعب:

قلنسوة الأمير تعلو هامته ويصلي فيها الصلوات الخمس، ويجلس للحكم، ثلاثون ديناراً.

قال: أثبت يا ابن زبنج، فأثبت ذلك، ووُضعت القلنسوة بين يدي الأعرابي فتربّد وجهه وتغيّر لونه من الغضب وجحظت عيناه وهمّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل. ثم قال لأشعب: هات ما عندك، فأخرج خفين خَلَقَيْن قد نقبا وتخرّقا وتقشّرا وتفتّقا.

فقال له: قوّم.

فقال أشعب: خُفّا الأخير يطأ بهما الروضة ويعلو بهما منبر النبي (ص) أربعون ديناراً.

فقال: ضعهما بين يديه فوضعهما ثم قال للأعرابي: أضمم إليك متاعك، وقال لبعض الأعوان: اذهبْ فخذ الجمل، وقال لآخر: امضِ مع الأعرابي فاقبض منه ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع وهو عشرون ديناراً.

فوثب الأعرابي فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم لا يألو في شدة الرمي به، ثم قال له: أتدري أصلحك الله من أي شيء أموت؟

قال: لا.

قال: لم أدرك أباك عثمان فاشترك والله في دمه إذ ولد مثلك، ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره، وضحك أبان حتى سقط وضحك كل من كان معه.

وكان الأعرابي بعد ذلك إذا لقي أشعب يقول له: هلمّ إليّ يا ابن الخبيثة حتى أكافئك على تقويمك المتاع يوم قُوّم، فيهرب أشعب منه.

٩١

اشتهى كبده

دعا رجل جليل أشعب فأقام عنده، فقال لأشعب يوماً: أنا أشتهي كبد هذه الشاة ـ لشاة عنده عزيزة عليه نشيطة ـ.

فقال له أشعب: بأبي أنت وأمي أعطنيها وأنا أذبح لك أسمن شاةٍ بالمدينة.

فقال: أخبرك أني أشتهي كبدها وتقول لي: أسمن شاةٍ بالمدينة؟!! اذبحْ يا

غلام، فذبحها وشوى له كبدها فأكل حتى شبع.

ثم قال لأشعب من الغد: يا أشعب أنا أشتهي من كبد نجيبي (أكرم الإبل) - لنجيبٍ كان عنده ثمنه ألوف الدراهم.

فقال له أشعب: يا سيدي في ثمن هذا والله غناي، فأعطِنيه وأنا والله أُطعمك من كبد كل جزورٍ بالمدينة. فقال: أخبرك اني اشتهي من كبد هذا النجيب وتطعمني من غيره؟!! يا غلام إنحرْ، فنُحِر النجيب وشوى كبده فأكل حتى شبع.

فلما كان اليوم الثالث قال له: يا أشعب، أنا والله أشتهي أن آكل من كبدك، فقال له: سبحان الله أتأكل من أكباد الناس!

قال: قد أخبرتك، فوثب أشعب فرمى بنفسه من درجة عالية فانكسرت رجله، فقيل له: ويلك أظننت أنه يذبحك؟

فقال: والله لو أن كبدي وجميع أكباد العالمين جميعاً اشتهاها لأكلها.

قال: وإنما فعل الرجل بالشاة والنجيب ما فعل توطئه للعبث بأشعب.

٩٢

كن في زيارته كالشمس

كان للبهاء السنجاري الفقيه الشاعر صاحب وبينهما مودّة أكيدة واجتماع كثير، ثم جرى بينهما في بعض الأيام عتاب وانقطع ذلك الصاحب عنه، فسيّر إليه يعتبه لانقطاعه، فكتب إليه بيتيْ الحريري اللذين ذكرهما في المقامة الخامسة عشرة وهما:

لا تزرْ مَنْ تحبُّ في كل شهر غير يومٍ ولا تزدْهُ عليهِ
فاجتلاء الهلاء في الشهر يوم ثم لا تنظر العيون إليه

فكتب إليه البهاء من نظمه:

إذا حقَّقتَ في خلٍّ وداداً فزرهُ ولا تخف منه مَلالا
وكن كالشمس تطلع كل يومٍ ولا تكُ في زيارته هلالا

*

قطعوا رجله والوليد غير مكترث

قالوا:

أصابت الأكلة[1] رجل عروة بن الزبير وهو بالشام عند الوليد بن عبد الملك، فقُطعت رجله في مجلس الوليد، والوليد مشغول عنه بمن يحدّثه، فلم يتحرّك ولم يشعر الوليد أنها قُطعت حتى كُويت فشم رائحة الكيّ.

هكذا قال ابن قتيبة في كتابه «المعارف»[2].

وفي رواية أخرى أن عروة بن الزبير قدم على الوليد بن عبد الملك ومعه ولده محمد بن عروة، فدخل محمد دار الدواب فضربته دابة فخرّ ميتاً، ووقعت في رجل عروة الأكلة ولم يَدَعْ ورده تلك الليلة فقال له الوليد: اقطعها، فقال: لا، فسرت إلى ساقه، فقال له الوليد: اقطعها وإلاّ أفسدت عليك جسدك، فقطعها بالمنشار وهو شيخ كبير ولم يمسكه أحد وقال: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾.

وقدم تلك السنة قوم من بني عبس فيهم رجل ضرير فسأله الوليد عن عينيه فقال: يا أمير المؤمنين بتّ ليلةً في بطن وادٍ، ولا أعلم عبسياً يزيد ماله على مالي، فطرقنا سيلٌ فذهب بما كان لي من أهل وولد ومال غير بعير وصبي مولود، وكان البعير صعباً فندَّ، فوضعت الصبيّ وأتبعت البعير، فلم أُجاوز إلاَّ قليلاً حتى سمعت صيحة ابني ورأسه في فم الذئب وهو يأكله، فلحقتُ البعير لأحبسه فنفحني برجله على وجهي فحطمه وذهب بعيني، فأصبحتُ لا مال ولا أهل ولا ولد ولا بصر، فقال الوليد: انطلقوا به إلى عروة ليعلم أن في الناس من هو أعظم منه بلاءً.

وقال ابن قتيبة وغيره:

لما دُعي الجزار ليقطع رجله قال له: نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً فقال: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية.

قالوا: فنسقيك المُرقِد.

---

(١) الأكلة: داء يصيب الرجل.

(٢) راجع: «المعارف»، ص ٢٢٢.

قال: ما أحب أن أُسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه.

قال: ودخل عليه قوم أنكرهم، فقال: ما هؤلاء؟

قالوا: يمسكونك فإن الألم ربما عَزَب معه الصبر.

قال: أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي، فقُطعت كعبه بالسكين حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار فقُطعت وهو يهلّل ويكبّر. ثم إنه أُغلي له الزيت في مغارف الحديد فحسم به، فغشيَ عليه فأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه. ولـمّا رأى القدم بأيديهم دعا بها فقلبها في يده ثم قال:

أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام، أو قال معصية، ولـمّا دخل ابنه إصطبل الوليد بن عبد الملك وقتلته الدابة كما تقدّم لم يسمع في ذلك منه شيء، حتى قدم المدينة فقال:

اللهمَّ، إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة، فلك الحمد، وأيم الله لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لطالما عافيت.

٩٤

المستحمّة

بينما كان أحد الخلفاء يدخل أحد حمامات جارياته، صدف أن كانت إحداهن تجفّف جسدها من الماء، وبصرت به فجأة وكانت عارية، فأسبلت شعرها حياءً على جسدها العاري حيث غطاها من أعلى رأسها حتى أسفل قدميها. فدهش الخليفة من هذا المنظر العجيب. فعاد إلى إيوانه وسأل من كان هناك من الشعراء أن يقول ما في نفسه فلم يستطع أحد أن يدرك ذلك إلاّ أبو نواس حيث قال:

نضتْ عنها القميصَ لصب ماءٍ ... فورّد وجهها فرط الحياءِ
وقابلتِ الهواء وقد تعرّتْ ... بمعتدلٍ أرقّ من الهواءِ
ومدّتْ راحةً كالماء منها ... إلى ماءٍ مُعَدٍّ في إناءِ
فلـمّا أنْ قضتْ وطراً وهمّتْ ... على عجلٍ إلى أخذِ الرداءِ
رأت شخص الرقيب على التداني ... فأسبلتِ الظلام على الضياءِ
وغاب الصبح منها تحت ليلٍ ... وظلّ الماء يقطر فوق ماءِ

٩٥

سبق السيف العذل

كان لرجلٍ من الأعراب ـ اسمه ضبّة ـ ابن يقال له سعيد، فلقيه الحارث بن كعب وكان على الغلام بردان، فسأله الحارث إياهما فأبى عليه فقتله وأخذ برديه. وكان أن حجّ ضبّة فوافى عكاظ فلقي بها الحارث بن كعب ورأى عليه بردَيْ ابنه سعيد. فعرفهما فقال له: هل أنت مخبري ما هذان البردان اللذان عليك؟

قال: لقيت غلاماً وهما عليه، فسألته إياهما فأبى عليَّ فقتلته وأخذتهما.

فقال ضبّة: بسيفك هذا؟

قال: نعم.

قال: أرنيه فاني أظنه صارماً، فأعطاه الحارث سيفه، فلما أخذه هزّه وقال: الحديث دون شجون. ثم ضربه به فقتله. فقيل له: يا ضبّة، أفي الشهر الحرام؟

قال: سبق السيف العذل.

٩٦

نظنُّهُ لم يقتنع

عن إسحاق بن إبراهيم التمار البصري قال:

دخل المهدي إلى بعض حُجَر الحرم فنظر إلى جارية منهنّ تغتسل، فلما رأته خجلت واستحت ووضعت يدها على فرجها، فأنشأ يقول:

* نظرتْ عيني لِحَيْني(١) *

ثم ارتجّ(٢) عليه الشعر وامتنع عنه فقال: مَنْ بالباب من الشعراء؟

قالوا: بشار، فأذن له فدخل. فقال له: أجِزْ:

* نظرت عيني لحيني *

---

(١) الحين: الهلاك.

(٢) ارتجّ عليه الشعر: لم يستطع أن يشعر.

فقال بشّار:

نظرت عيني لحيني نظراً وافق شَيْني[1]
سترتْ لمّا رأتْني دونه بالرّاحتينِ
فضلتْ منه فضولٌ تحت طيِّ العُكْنتينِ

فقال له المهدي: قبحك الله ويحك! أكنتَ ثالثنا! ثم ماذا؟ فقال:

فتمنيتُ وقلبي للهوى في زفرتينِ
أنّني كنت عليهِ ساعةً أو ساعتينِ

فضحك المهدي وأمر له بجائزة، فقال: يا أمير المؤمنين أَقَنِعْتَ من هذه الصفة بساعة أو ساعتين؟

فقال: أُخرجْ عنّي قبحك الله! فخرجَ بالجائزة.

٩٧

الفصاحة عند العرب

دخلت امرأة على هارون الرشيد، وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقال: يا أمير المؤمنين أقرّ الله عينك، وفرّحك بما آتاك، وأتمّ سعدك... لقد حكمت فقسطت.

فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟

فقالت: من آل برمك، ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم.

فقال: أمّا الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأمّا المال فمردّه إليك. ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟

فقالوا: ما نراها قالت إلّا خيراً.

قال: ما أظنّكم فهمتهم شيئاً. أمّا قولها: «أقرّ الله عينك» أي أسكنها، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت.

---

(١) الشين: العيب.

وأمّا قولها: «فرّحك بما آتاك» فأخذته من قوله تعالى: ﴿حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً﴾.

وأمّا قولها: «وأتمّ الله سعدك» فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمّ أمرٌ بدا نقصه ... ترقّب زوالاً إذا قيل تمّ

وأمّا قولها: «لقد حكمت فقسطت» فأخذته من قوله تعالى: ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً﴾.

٩٨

هكذا عطاسه

حدّث الزبير بن بكار عن عمه قال:

كان الدارمي عند عبد الصمد بن عليّ يحدثه، فأغفى عبد الصمد فعطس الدارميّ عطسةً هائلة، ففزع عبد الصمد فزعاً شديداً واضطرب وغضب غضباً شديداً، ثم استوى جالساً وقال: يا عاض[1] كذا من أُمّه أتفزعني!؟

قال: لا والله و لكن هكذا عُطاسي!

قال: والله لأنقعنّك في دمك أو تأتيني ببيّنة على ذلك.

قال: فخرج ومعه حارس لا يدري أين يذهب به. فلقيه ابن الريّان المكّي فسأله، فقال: أنا أشهد لك، فمضى حتى دخل على عبد الصمد فقال له: بِمَ تشهد لهذا؟ قال: أشهد أني رأيته مرّةً عطس عطسةً فسقط ضرسه. فضحك عبد الصمد وخلّى سبيله.

❁

(١) يا عاض كذا من أمه: سبٌّ كان يجري على ألْسنة العرب قديماً.

٩٩

وَلَـوّ. . .

رفع غلامُ بشار إليه في حساب نفقته جلاءَ مرآةٍ عشرة دراهم، فصاح به بشّار، وقال: والله ما في الدنيا أعجب من جلاء مرآه أعمى بعشرة دارهم. والله لو صَدِئَتْ عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة، ما بلغتْ أُجرةُ من يجلوها عشرة دراهم.

١٠٠

الشعر لا يحسن إلاّ بالتشبيب

عن عمرو بن أبي عمرو قال:

بلغني أن الحسن بن زيد دعا بابن المولى الشاعر الظريف العفيف فأغلظ له وقال: أتُشبب بحُرَمِ المسلمين وتنشد ذلك في مسجد رسول الله (ص) وفي الأسواق والمحافل ظاهراً! فحلف له بالطلاق أنه ما تعرَّض لمحرَّمٍ قطّ ولا شبّب بامرأة مسلم ولا معاهد أو ذمّي قطّ. قال: فَمَنْ ليلى هذه التي تقول فيها:

وأبكي فلا ليلى بكتْ من صبابةٍ إليَّ ولا ليلى لذي الودّ تبذل

فقال له: امرأتي طالق إن كانت إلاّ قوسي هذه، سمّيتها ليلى لأذكرها في شعري، فإن الشعر لا يحسن إلاّ بالتشبيب. فضحك الحسن ثم قال: إذا كانت القصّة هذه فقل ما شئت.

١٠١

كان المنع لضآلة المعروف

ذكر الخطيب في «تاريخ بغداد» في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي أنه قال:

كنت حنّاطاً(١) بالمدينة في يدي مائة ألف درهم للناس أُضارب بها، فتلفتِ

(١) الحنّاط: الذي يتاجر بالحنطة ويبيعها.

الدراهم، فشخصتُ إلى العراق فقصدت يحيى بن خالد البرمكي فجلست في دهليزه وأنست بالخدم والحجاب وسألتهم أن يوصلون إليه، فقالوا: إذا قدم الطعام إليه لم يحجب عنه أحد، ونحن ندخلك عليه ذلك الوقت، فلما حضر طعامه أدخلوني فأجلسوني معه على المائدة، فسألني: من أنت وما قصّتك؟ فأخبرته، فلما رفع الطعام وغسلنا أيدينا دنوت منه لأقبّل رأسه، فاشمأزّ من ذلك، فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال: الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك: استعن بهذا على أمرك وعد إلينا في اليوم الثاني.

فأخذته وانصرفت، وعدت في اليوم الثاني فجلست معه على المائدة، فأنشأ يسألني كما سألني في اليوم الأول، فلما رفع الطعام دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز منّي، فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال لي: الوزير يقرأ عليك السلام، ويقول لك: استعن بهذا على أمرك وعُدْ إلينا في غد، فأخذته وانصرفت، وعدت في اليوم الثالث كما أمر فأُعطيت مثل الذي أُعطيت في اليوم الأول والثاني.

فلما كان في اليوم الرابع أُعطيت الكيس كما أُعطيت قبل ذلك، وتركني بعد ذلك أقبّل رأسه وقال: إنما منعتك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفي ما يوجب هذا، فالآن قد لحقك بعض النفع مني، يا غلام أعطه الدار الفلانية، يا غلام افرش له الفرش الفلاني، يا غلام أعطه مائتيْ ألف درهم يقضي دينه بمائة ألف ويصلح شأنه بمائة ألف ثم قال لي: الزمني وكن في داري، فقلت: أعزّ الله الوزير، لو أذنت لي بالشخوص إلى المدينة لأقضي الناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق بي.

قال: قد فعلت، وأمر بتجهيزي فشخصت إلى المدينة فقضيت ديني ثم رجعت إليه فلم أزل في ناحيته.

*

المناقب لذي المنقبتين

كان عبد المحسن الصوري الشاعر حسن المعاني رائق الكلام، له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان فمن محاسنه قوله:

أترى بثأرٍ أم بدَينِ علقتْ محاسنها بعيني
في لحظها وقوامها ما في المهنّد والرُّدَيْني
وبوجهها ماء الشبا ب خليط نار الوجنتينِ
بكرتْ عليَّ وقالت آخْـ ـتَرْ خصلةً من خصلتينِ
إمّا الصدود أو الفرا قُ فليس عندي غير ذَيْنِ
فأجبتها ومدامعي تنهلُّ مثل المأزمين
لا تفعلي، إن حان صـ ـدُّكِ أو فراقكِ حان حَيْني
فكأنما قلت انهضي فمضت مسارعةً لبيني
ثم استقلّت أين حَلَّـ ـتْ عِيسُها رُمِيَتْ بأَيْنِ
ونوائب أظهرن أيَّا مي إليَّ بصورتينِ
سوَّدْنها وأطلنها فرأيت يوماً ليلتين

ومنها:

هل بعد ذلك من يُعَـ ـرّفني النُّضار من اللُّجين
فلقد جهلتهما لبُعْـ ـدِ العهد بينهما وبيني
متكسّباً بالشعر يا بئس الصناعة في اليدين
كانت كذلك قبل أن يأتي عليُّ بن الحسين
فاليوم حال الشعر ثا لثة لحال الشعرتين
أغنى وأعفى مدحه الـ ـعافين عن كذب ومين(١)

وهذه القصيدة عملها عبد المحسن في عليّ بن الحسين والد الوزير أبي

---

(١) المين: الكذب.

القاسم بن المغربي، وهي قصيدة طويلة جيّدة ولها حكاية ظريفة، وهي أنه كان بمدينة عسقلان رئيس يقال له ذو المنقبتين، فجاءه بعض الشعراء وامتدحه بهذه القصيدة وجاء في مديحها:

ولك المناقب كلُّها ... فلِمَ اقتصرت على اثنتينِ؟

فأصغى الرئيس إلى إنشاده واستحسنها وأجزل جائزته.

فلما خرج من عنده قال له بعض الحاضرين: هذه القصيدة لعبد المحسن الصوري. فقال: أعلم هذا وأحفظ القصيدة، ثم أنشدها. فقال له ذلك الرجل: فكيف حتى عملت معه هذا العمل من الإقبال عليه والجائزة السنيّة؟

فقال: لم أفعل ذلك إلاّ لأجل البيت الذي ضمّنها، وهو قوله:

ولك المناقب كلّها...

فإن هذا البيت ليس لعبد المحسن، وأنا ذو المنقبتين، فعلمت قطعاً أن هذا البيت ما عمل إلاّ فيَّ، وهو في نهاية الحسن.

١٠٣

أحلى ما قرأت من شعر

وذكر صاحب «اليتيمة» لعبد المحسن الصوري هذين البيتين:

عندي حدائق شكرٍ غرسُ جودكُمُ ... قد مسَّها عطشٌ فَلْيَسْقِ مَنْ غَرَسا
تداركوها وفي أغصانها رَمَقٌ ... فلن يعودَ اخضرارُ العود إن يَبِسا

واجتاز يوماً بقبر صديقٍ له فأنشد:

عجباً لي وقد مررتُ على قبـ ... ـرك كيف اهتديت قَصْدَ الطريقِ
أتراني نسيتُ عهدك يوماً؟ ... صدقوا ما لميّتٍ من صديقِ

*

١٠٤

إن كان سَلَمَةُ وصيفاً فهذا مُهر

دخل أبو دُلامة الشاعر الظريف المعروف بنوادره وطرائفه على المهدي وبين يديه «سَلَمَةُ» الوصيف واقفاً «الوصيف: الخادم الرشيق» فقال: إني أهديت إليك يا أمير المؤمنين مهراً رشيقاً ليس لأحدٍ مثله. فإن رأيت أن تُشرّفني بقبوله. فأمره بإدخاله إليه. فخرج وأدخل إليه دابته التي كانت تحته، فإذا به حمار محطّم أعجف هرم يسير بصعوبة.

فقال له المهدي: أي شيء هذا وَيْلك!!! ألم تزعم أنه مهر؟!.

فقال له: أوَليس هذا سَلَمَة الوصيف بين يديك قائماً تسمّيه الوصيف وله ثمانون سنة، وهو عندك وصيف؟!! فإن كان سَلَمَةُ وصيفاً فهذا مُهر.

فجعل سَلَمَةُ يشتمه والمهدي يضحك.

١٠٥

قال كلٌ منهما: أنا

قال أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في كتاب «أخبار الوزراء»[(١)]:

وجدت بخط أبي علي أحمد بن اسماعيل: حدّثني العباس بن جعفر الأصبهاني قال:

طُلب عبد الحميد بن يحي الكاتب وكان صديقاً لابن المقفّع، ففاجأهما الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحدٍ منهما: أنا، خوفاً من أن ينال صاحبه مكروه. وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفّع فقال: ترفقوا بنا، فإنّ كلاً منّا له علامات، فوكلوا بنا بعضكم ويمضي البعض الآخر ويذكر العلامات لمن وجّهكم، ففعلوا، وأُخذ عبد الحميد.

---

(١) راجع: «أخبار الوزراء»، ٧٩ ـ ٨٠.

استبقى اثنين وقتل الثالث

روى محمد بن العباس اليزيدي بإسناد ذكره قال:

أُتيَ أبو جعفر المنصور أخو السفاح ـ وهو ثاني خلفاء بني العباس بعد قتل مروان بن محمد الجعدي ـ بعبد الحميد الكاتب والبعلبكي المؤذن وسلام الحادي، فهمّ المنصور بقتلهم جميعاً لكونهم من أصحاب مروان، فقال سلام: استبقني يا أمير المؤمنين فإني أحسن الناس حداءً، فقال: وما بلغ من حدائك؟

فقال: تعمد إلى إبلٍ فتظمئها ثلاثاً ثم توردها الماء، فإذا وردت رفعت صوتي بالحداء فترفع رؤوسها وتدع الشرب ثم لا تشرب حتى أسكت.

قال: فأمر المنصور بإبل فأُظمئت ثلاثة أيام، ثم أُوردت الماء، فلمّا بدأت بالشرب رفع سلام صوته بالحداء فامتنعت من الشرب ثم لم تشرب حتى سكت، فاستبقى سلاماً وأجازه وأجرى عليه رزقه.

وقال له البعلبكي المؤذن: استبقني يا أمير المؤمنين.

قال: وما عندك؟

قال: أنا مؤذن.

قال: وما بلغ من أذانك؟

قال: تأمر جارية تقدّم إليك طستاً وتأخذ بيدها إبريقاً وتصب عليك، وأبتدىء الأذان فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني حتى تلقي الإبريق من يدها وهي لا تعلم، فأمر جارية فأعدّت إبريقاً فيه ماء وقدّمت إليه طستاً وجعلت تصب عليه، ورفع البعلبكي صوته بالأذان فبقيت الجارية شاخصة وألقت الإبريق من يدها، فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه الرزق وصيّر أمر الجامع إليه. وقال له عبد الحميد الكاتب: استبقني يا أمير المؤمنين قال: وما عندك؟

قال: أنا أبلغ أهل زماني في الكتابة.

فقال له المنصور: أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل وعملت بنا الدواهي. فأمر به فقُطعت يداه ورجلاه ثم ضربت عنقه، والله أعلم أيّ ذلك كان.

من أخبار ديك الجنّ

كانت لديك الجن[١] جارية يهواها اسمها دنيا، فاتّهمها بغلامه «وصيف» فقتلها ثم ندم على ذلك فأكثر من التغزّل فيها، فمن ذلك قوله[٢]:

يا طلعةً طلع الحمام عليها ... وجنى لها ثمر الرّدى بيديها
روّيت من دمها الثرى ولطالما ... روّى الهوى شفتيّ من شفتيها
مكّنت سيفي من مجال خناقها ... ومدامعي تجري على خدّيها
فوحقِّ نعليها وما وطىء الحصى ... شيءٌ أعزّ عليَّ من نعليها
ما كان قتليها لأنيَ لم أكنْ ... أبكي إذا سقط الغبارُ عليها
لكن بخلتُ على سواي بحبّها ... وأنفت من نظر الغلام إليها

ويُروى أن المتّهم بالجارية غلام كان يهواه فقتله أيضاً، ونظم فيه أبياتاً وهي[٣]:

أشفقتُ أن يرد الزمانَ بغدرهِ ... أو أُبتلى بعد الوصال بهجرهِ
فقتلته وله عليَّ كرامةٌ ... ملءُ الحشا وله الفؤاد بأسرهِ
قمر أنا استخرجته من دَجنهِ ... لبليّتي ورفعتهُ من خدرهِ
عهدي به ميتاً كأحسن نائمٍ ... والحزن ينحر مقلتي في نحرهِ
لو كان يدري المَيْتُ ماذا بعدهُ ... بالحيّ منه بكى له في قبرهِ
غصصٌ تكاد تفيض منها نفسُهُ ... ويكاد يخرج قلبُهُ من صدرهِ

فصنعت أُخت الغلام:

يا ويحَ ديكِ الجنّ يا تبّاً لهُ ... ممّا تضمّن صدرُهُ من غدرهِ
قتل الذي يهوى وعُمّر بعدهُ ... يا ربّ لا تَمْدُدْ لهُ في عمرهِ

---

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان اللكبي الملقّب بديك الجن.
(٢) راجع: «أخبار الوزراء»، ص ١٠٢.
(٣) ديوانه ص ٩٢.

١٠٨

سليمان بن عبد الملك الأكول

قال الأصمعي:

ذكرت يوماً للرشيد نهم سليمان بن عبد الملك، وقلت: إنه كان يجلس ويحضر بين يديه الخراف المشوية وهي كما أخرجت من تنانيرها، فيزيد أخذ كُلاها فتمنعه الحرارة، فيجعل يده على طرف جبّته ويدخلها في جوف الخروف فيأخذ كُلاه، فقال لي: قاتلك الله، ما أعلمك بأخبارهم!

اعلمْ أنه عُرضت عليّ ذخائر بني أُميّة، فنظرت إلى ثيابٍ مذهّبة ثمينة وأكمامها ودكة(١) بالدهن، فلم أدرِ ما ذلك حتى حدّثتني بالحديث ثم قال: عليَّ بثياب سليمان، فأُتيَ بها، فنظر إلى تلك الآثار فيها ظاهرة فكساني منها حلّة.

وكان الأصمعي ربما خرج فيها أحياناً فيقول: هذه جبّة سليمان التي كسا فيها الرشيد.

وحكي عنه قال:

رأيت بعض الأعراب يغلي ثيابه، فيقتل البراغيث ويدع القمل، فقلت: يا أعرابي، ولِمَ تصنع هذا؟

فقال: أقتل الفرسان ثم أعطف على الرجّالة.

١٠٩

أرادت زيارته في الليل

كان الملك العزيز بن صلاح الدين يميل إلى القاضي الفاضل في حياة أبيه، فاتّفق أن العزيز هويَ قينة(٢) شغلته عن مصالحه، وبلغ ذلك والده، فأمره بتركها ومنعها من صحبته، فشقّ ذلك عليه، وضاق صدره، ولم يجسر أن يجتمع بها، فلما طال ذلك بينهما سيّرت له مع بعض الخدم كرة عنبر، فكسرها فوجد في وسطها زرّ

(١) ودكة: ملطّخة.

(٢) القينة: المغنية.

ذهب، ففكّر بكفيه ملياً فلم يعرف معناه. واتّفق حضور القاضي الفاضل، فعرّفه الصورة ونظم القاضي في ذلك بيتين من الشعر وأرسلهما إليه وهما:

أهدت لك العنبر في وسطه زرٌ من القبر دقيق اللحامْ
فالزرُّ في العنبر معناهما زُرْ هكذا مستتراً في الظلامْ

فعلم الملك العزيز أنها أرادت زيارته في الليل.

١١٠

هدمه لأنه موضع شؤم

من أخبار عبد الملك بن عمير أنه قال:

كنت عند عبد الملك بن مروان بقصر الكوفة حين جيء برأس مصعب بن الزبير فوضع بين يديه، فرآني قد ارتعت، فقال لي: ما لك؟

فقلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين، كنت بهذ القصر بهذا الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بين يديه في هذا المكان.

ثم كنت فيه مع المختار بن أبي عبيد الثقفي فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه.

ثم كنت فيه مصعب بن الزبير هذا فرأيت رأس المختار فيه بين يديه.

ثم هذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك.

قال: فقام عبد الملك من موضعه، وأمر بهدم ذلك الطاق الذي كنّا فيه(١).

١١١

لغز ابن الجوزي

من أحسن ما يُحكى عن ابن الجوزي أنه وقع نزاع ببغداد بين أهل السنة والشيعة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي، رضي الله عنهما، فرضي الكل بما يجيب به

---

(١) راجع القصة في «الغيث المنسجم»، ٢: ١٣٢.

الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي فأقاما شخصاً سأله عن ذلك وهو على الكرسي في مجلس وعظه، فقال: أفضلهما من كانت ابنته تحته. ونزل في الحال حتى لا يُراجع في ذلك.

فقالت السّنة: هو أبو بكر لأن ابنته عائشة رضي الله عنها تحت رسول الله (ص).

وقالت الشيعة: هو عليّ لأن فاطمة ابنة رسول الله (ص) تحته.

وهذا من لطائف الأجوبة، ولو حصل بعد الفكر التام وإمعان النظر كان في غاية الحسن فضلاً عن البديهة.

١١٢

«تدمر» سبب زوال ملكه

قيل:

من أعجب أحاديث مروان بن محمد(١) ما رواه المدائني قال:

لما حاصر مروان تدمر فظفر بها وهدم دورها أفضى إلى جرن طويل، فلم يشك مروان والحاضرون أن تحته كنزاً، فنبشوه فإذا امرأة مسجّاة عظيمة الخلق على قفاها فوق سريرٍ من حجارة عليها سبعون حلّةً منسوجة بالذهب جربّاناتها، لها غدائر من رأسها إلى رجليها، فذرع قدمها فكانت عظيمة الساق، وكان طولها سبعة أذرع، وإذا عند رأسها صفيحة من نحاس مكتوب عليها بالحميرية، فطلب من قرأها فإذا فيها: أنا تدمر بنت حسان بن أُذينة بن السميدع بن هرم العماليقي. من دخل عليَّ بيتي هذا فأزعجني منه حتى يراني أدخل الله عليه المهانة والذل والصَّغار.

فلما قرىء المكتوب على مروان بن محمد عظم عليه وندم على ما كان منه وتطيَّر بذلك وجعل يسترجع ثم أمر بطبق الجرن أن يردّ إلى موضعه، وما كان بين ذلك وبين الظفر به وزوال الـمُلك واستباحة حريمه إلاّ قليل.

---

(١) مروان بن محمد: هو آخر خلفاء بني أمية، ويسمى مروان الحمار.

١١٣

اعتبروا

رُوي أن أبا بكر الصدّيق خرج بعد البيعة ومعه ميزان ورزمة ثياب تحت يده، وخرج إلى السوق فقيل له:

ما هذا؟

فقال: أكتسب لنفسي وعيالي، فأجمعوا رأيهم وفرضوا له في كل يومٍ درهماً وثلثي درهم من بيت مال المسلمين.

١١٤

عنقاء مغرب

حكى الشيخ أبو البقاء المذكور في كتاب «شرح المقامات» عند ذكر العنقاء أن أهل الرسّ كان بأرضهم جبل يقال له «رمخ»(١) صاعد في السماء قدر ميل، وكان به طيور كثيرة، وكانت العنقاء طائرة عظيمة الخلق، طويلة العنق، لها وجه إنسان وفيها من كل حيوان شَبَه، من أحسن الطير، وكانت تأتي في السنة مرّة هذا الجبل فتلتقط طيره، فجاعت في بعض السنين وأعوزها الطير فانقضّت على صبي فذهبت به، فسميت «عنقاء مغرباً» لإبعادها بما تذهب به، ثم ذهبت بجارية أخرى، فشكا أهل الرسّ إلى نبيّهم حنظلة بن صفوان فدعا عليها فأصابتها صاعقة فاحترقت، والله أعلم.

ووجدت في أواخر كتاب «ربيع الأبرار» للعلامة أبي القاسم الزمخشري في باب الطير عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الله تعالى خلق في زمن موسى عليه السلام طائرة اسمها العنقاء لها أربعة أجنحة من كل جانب، ووجهها كوجه الإنسان، وأعطاها من كل شيءٍ حسنٍ قسطاً، وخلق لها ذكراً مثلها، وأوحى إليه إنّي خلقت طائرين عجيبين وجعلتُ رزقهما في الوحوش التي حول بيت المقدس وآنستك بهما وجعلتهما زيادة فيما فضَّلتُ به بني إسرائيل، فتناسلا وكثر نسلهما، فلمّا توفي موسى

(١) رمخ: في بعض الروايات: دمخ.

عليه السلام، انتقلتْ فوقعتْ بنجد والحجاز، فلم تزل تأكل الوحش وتختطف الصبيان إلى أن نُبِّىء خالد بن سنان العبسي بين عيسى ومحمد عليهما السلام فشكوها إليه، فدعا الله فقطع نسلها وانقرضت والله أعلم.

١١٥

الفرق شاسع بين عطاء اليقين وعطاء التجربة

قال عبد الله بن وهب المصري:

كان حيوة بن شريح يأخذ عطاءه في كل سنة ستين ديناراً. قال: وكان إذا أخذه لم يطلع إلى منزله حتى يتصدّق به. قال: ثم يجيء إلى منزله فيجدها تحت فراشه. قال: وكان له ابن عم، فلما بلغه ذلك أخذ عطاءه فتصدّق به، ثم جاء يطلبه تحت فراشه فلم يجد شيئاً. قال: فشكا إلى حيوة، فقال له حيوة: أنا أعطيت ربي بيقين، وأنت أعطيت ربك تجربة.

١١٦

أربعة لا أقدر على مكافأتهم

قال ابن عباس رضي الله عنه:

ما رأيت رجلاً لي عنده معروف إلاَّ أضاء ما بيني وبينه.

وقال رضي الله عنه: أربعة لا أقدر على مكافأتهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل اغبرّت قدماه في المشي في حاجتي، فأما الرابع فما يكافئه عني إلاَّ الله عزّ وجلّ. قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر فيمن يقصد ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي.

*

١١٧

لا يرضاه لها

قال رجل لعبد الله بن عباس:

زوّجني من فلانة ـ وكانت يتيمة في حجره ـ.

فقال: لا أرضاها لك لأنها تسرف.

فقال الرجل: قد رضيتُ.

فقال ابن عباس: الآن لا أرضاك لها.

١١٨

لم يأذن له بأكله

يحكى عن والد عبد الله بن المبارك أنه كان يعمل في بستان لمولاه، وأقام فيه زماناً، ثم إن مولاه جاءه يوماً وقال له: أريد رماناً حلواً، فمضى إلى بعض الشجر وأحضر منها رماناً فكسره فوجده حامضاً، فحرد عليه وقال: اطلب الحلو فتحضر لي الحامض؟ هات حلواً، فمضى وقطع من شجرة أخرى، فلما كسره وجده أيضاً حامضاً فاشتدّ حرده عليه، وفعل كذلك مرّة ثالثة، فقال له بعد ذلك:

أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟

فقال: لا.

فقال: كيف ذلك؟

فقال: لأنني ما أكلت منه شيئاً حتى أعرفه.

فقال: ولِمَ لم تأكل؟

قال: لأنك ما أذنت لي، فكشف عن ذلك فوجد قوله حقاً، فعظم في عينه وزوّجه ابنته.

ويُقال: إن عبد الله رُزقه من تلك الإبنة، فنمت عليه بركة أبيه. ورأيت في بعض التواريخ هذه القضية منسوبة إلى إبراهيم بن أدهم العبد الصالح رضي الله عنه. وكذا ذكرها الطرطوشي في أول «سراج الملوك» لابن أدهم.

سألوا حاجتهم فأُجيبت

حكى سفيان الثوري عن طارق بن عبد العزيز عن الشعبي قال:

لقد رأيت عجباً، كنّا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان، فقال القوم بعدما فرغوا من صلاتهم:

ليقم رجلٌ رجلٌ منكم فليأخذ الركن اليماني وليسأل الله حاجته، فإنه يُعطي من ساعته، قمْ يا عبد الله بن الزبير، فإنك أول مولود في الهجرة، فقام وأخذ بالركن اليماني ثم قال: اللهمَّ إنك عظيم ترجى لكل عظيم، أسألك بحرمة عرشك وحرمة وجهك وحرمة نبيّك عليه الصلاة والسلام، أن لا تميتني حتى توليني الحجاز ويسلَّم عليَّ بالخلافة، وجاء حتى جلس، فقال: قمْ يا مصعب، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، فقال:

اللهمَّ إنك ربّ كل شيء، وإليك يصير كل شيء، أسألك بقدرتك على كل شيء، أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق، وتزوجني سكينة بنت الحسين. وجاء حتى جلس، فقال: قمْ يا عبد الملك، فقام وأخذ بالركن اليماني، وقال:

اللهمَّ رب السماوات السبع، ورب الأرض ذات القفر، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحقّ الطائفين حول بيتك، أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني شرق الأرض وغربها ولا ينازعني أحد إلاَّ أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس. فقال: قمْ يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، ثم قال:

اللهمَّ إنك رحمان رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك، أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.

قال الشعبي: فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت لكل رجل ما سأل وبُشّر عبد الله بن عمر بالجنة ورؤيت له.

*

120

الرسول (ص) إذا مزح

سئلت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله (ص) يمزح؟

قالت: نعم، كان عندي عجوز فدخل رسول الله (ص) فقالت: ادعُ الله أن تجعلني من أهل الجنة.

قال: إن الجنّة لا يدخلها العجائز. وسمع النداء فخرج وهي تبكي فقال: ما لها؟

قالوا: إنك حدّثتها أن الجنة لا يدخلها العجائز.

قال: إن الله سبحانه وتعالى يحولهن أبكاراً عُرُباً أتراباً.

121

ألا يكفي يوم الجمل؟

قيل:

وقعت بين حيّين من قريش منازعة فخرجت عائشة على بغلة تصلح بينهما، فلقيها ابن أبي عتيق فقال: إلى أين جُعلتُ فداك؟

فقالت: أُصلح بين هذين الحيّين.

فقال: والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل بعد، فكيف إذا قيل يوم البغل؟ فضحكت وانصرفت.

122

ما أراد إلاَّ قتله

حكى الشعبي قال:

أنفذني عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم، فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلاَّ أجبته، وكانت الرسُل لا تطيل الإقامة عنده، فحبسني أياماً كثيرة حتى استحثثت خروجي، فلمّا أردت الإنصراف قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟

فقلت: لا، ولكني رجل من العرب في الجملة، فهمس بشيء فدُفِعَتْ إليَّ رقعة وقال لي: إذا أدّيت الرسائل إلى صاحبك فأوصل إليه هذه الرقعة. قال: فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك وأُنسيت الرقعة، فلما صرتُ في بعض الدار أريد الخروج تذكرتها، فرجعت فأوصلتها إليه، فلمّا قرأها قال لي: أقال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك؟

قلت: نعم.

قال لي: مِنْ أهل بيت المملكة أنت؟

قلت: لا، ولكني من العرب في الجملة.

ثم خرجت من عنده، فلما بلغت الباب رُددتُ، فلمّا مثلت بين يديه قال لي: أتدري ما في الرقعة؟

قلت: لا.

قال: أقرأها، فقرأتها فإذا فيها «عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملّكوا غيره» فقلت له: والله لو علمت ما حملتها، وإنما قال هذا لأنه لم يَرَكَ.

قال: أفتدري لِمَ كتبها؟

قلت: لا.

قال: حسدني عليك، وأراد أن يغريني بقتلك.

قال: فتأدى ذلك إلى ملك الروم فقال: ما أردتُ إلاَّ ما قال.

١٢٣

أمنت عندنا يا شعبي

قالوا:

أُحضر الشعبي بين يدي الحجاج ـ وكان قد خرج مع ابن الأشعث ـ فسلّم على الحجاج بالإمرة ثم قال: أيّها الأمير إن الناس قد أمروني أن اعتذر إليك لغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلاّ حقاً: قد والله خرجنا عليك وجهدنا كل الجهد فما كنّا بالفجرة الأقوياء ولا البررة الأتقياء، قد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرّت إلينا أيدينا، وإن عفوتَ عنّا فبحلمك،

وبعد، فالحجة لك علينا.

فقال الحجاج: أنت والله أحبّ إليَّ ممن يدخل عليَّ يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: ما فعلت وما شهدت، قد أمنت عندنا يا شعبي، فانصرف.

١٢٤

أيلحن الأمير ويعرب هو؟!

يُقال إن الحجاج بن يوسف الثقفي قال للشعبي يوماً: كم عطاءَك في السنة؟

فقال: ألفين.

فقال: ويحك! كم عطاؤُك؟

فقال: ألفان.

قال: كيف لحنت[١] أولاً؟

قال: لحن الأمير فلحنت، فلما أعرب أعربت، وما أمكن أن يلحن الأمير وأعرب أنا. فاستحسن ذلك منه وأجازه.

قالوا:

وكان الشعبي مزّاحاً، يُحكى أن رجلاً دخل عليه ومعه امرأة في البيت فقال: أيّكما الشعبي؟ فقال: هذه.

١٢٥

ابرزْها ترَ قمرا

قيل:

إن هارون الرشيد عمل في الليل بيتاً ورام أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه، فقال: عليَّ بالعباس بن الأحنف، فلما طرق عليه ذعر وفزع أهله، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له: وجهت إليك بسبب بيت قلته ورمت أن أشفعه بمثله فامتنع القولُ عليَّ، فقال: يا أمير المؤمنين، دعني حتى ترجع إليَّ نفسي فإني تركت عيالي

---

(١) لحنت: أخطأت في الاعراب.

على حال من القلق عظيمة، ونالني من الخوف ما يتجاوز الحدّ والوصف، فانتظر هنيهة ثم أنشده:

جنان قد رأيناها ولم نَرَ مثلها بَشَرا

فقال العباس بن الأحنف:

يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نَظَرا

فقال: زدني، فقال:

إذا ما الليل سال عليك بالإظلام واعتكرا
وَدَجَّ فلم تَرَ قمراً فأبرزْها تَرَ قمرا

فقال له الرشيد: قد ذعرناك وأفزعنا عيالك وأقلُّ الواجب أن نعطيك دينك، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

١٢٦

قدّمه لبيتين قالهما ولشاعريته

حكى عمر بن شبة قال:

مات ابراهيم الموصلي المعروف بالنديم سنة ١٨٨ هـ، ومات في ذلك اليوم الكسائي النحوي والعباس بن الأحنف وهُشَيمة الخمارة، فرفع ذلك إلى الرشيد فأمر المأمون أن يصلي عليهم، فخرج فصفوا بين يديه فقال: من هذا الأول؟

فقالوا: ابراهيم الموصلي.

فقال: أخّروه وقدّموا العباس بن الأحنف، فقدم فصلى عليه، فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال:

يا سيّدي، كيف آثرت العباس بن الأحنف بالتقدمة على من حضر؟ فأنشد[1]:

وسعى بها ناس فقالوا: إنها هي التي تشقى بها وتكابدُ
فجحدتهم ليكونَ غيرك ظنّهم إني ليعجبني المحبُّ الجاحدُ

(١) ديوانه، ص ٨١.

ثم قال: أتحفظها؟

فقلت: نعم، وأنشدته.

فقال لي المأمون: أليس مَنْ قال هذا الشعر أولى بالتقدمة؟

فقلت: بلى والله يا سيّدي.

١٢٧

كلّنا يبكي على سَكَنه

حكى المسعودي في كتاب «مروج الذهب»[١] عن جماعة من أهل البصرة قالوا:

خرجنا نريد الحج، فلمّا كنّا ببعض الطريق إذا غلام واقف على المحجّة وهو ينادي: أيّها الناس هل فيكم أحد من أهل البصرة؟

قال: فعدلنا إليه وقلنا له: ما تريد؟

قال: إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم، فملنا معه، فإذا بشخص ملقى على بعد من الطريق تحت شجرة لا يُحير جواباً، فجلسنا حوله فأحس بنا فرفع طرفه وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً، وأنشأ يقول[٢]:

يا غريب الدار عن وطنهْ مُفرداً يبكي على شَجَنِهْ
كلّما جدَّ البكاءُ بهِ دبَّتِ الأسقام في بدنهْ

ثم أُغمي عليه طويلاً ونحن جلوس حوله، إذ أقبل طائر فوقع على أعلى الشجرة وجعل يغرّد ففتح عينيه وجعل يسمع تغريد الطائر، ثم أنشأ الفتى يقول:

ولقد زاد الفؤاد شجًى طائرٌ يبكي على فننِهْ
شفَّهُ ما شفَّني فبكى كلّنا يبكي على سَكَنِهْ

قال: ثم تنفّس تنفّساً فاضت نفسه منه، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفّناه وتولّينا الصلاة عليه، فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه، فقال: هذا العباس بن الأحنف، رحمه الله تعالى، والله أعلم أيّ ذلك كان.

---

(١) «مروج الذهب»، ٤: ١٠٩.

(٢) ديوان العباس بن الأحنف، ص ٢٧٨.

استظرف رسالته فأجازه

كان ليحي بن خالد البرمكي كاتب يختص بخدمته ويقرب من حضرتـه، فعزم على حتان ولـده، فاحتفـل له النـاس على طبقـاتهم، وهاداه أعيـان الدولـة ووجوه الكتاب والرؤساء على اختلاف منازلهم، وكان له صديق قد اختلّت أحواله وضـاقت يده عمّا يريده لذلك ممّا دخل فيه غيره، فعمد إلى كيسين كبيرين نظيفـين، فجعل في أحدهما ملحاً وفي الآخر أشناناً مكفراً، وكتب معهما رقعة نسختها:

لو تمّت الإرادة لأسعفت بالعادة، ولو سـاعدت المكنـة على بلوغ الهمّـة لاتبعت السابقين إلى بـرّك وتقدمت المجتهـدين في كرامتـك، لكن قعدت القـدرة عن البغية وقصرت الجدة عن مباراة أهل النعمة، وخفت أن تـطوى صحائف الـبرّ وليس لي فيها ذكر فأنفذت المبتدأ بيمنه وبركته والمختتم بطيبـه ونظافتـه، صابـراً على ألم التقصـير، ومتجرعاً غصص الاقتصار على اليسير، فأمّا ما لم أجـد إليه السبيـل في قضاء حقّـك فالقائم فيه بعذري قول الله عزّ وجلّ: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما يُنفقون حرج﴾(١) والسلام.

فلما حضر يحي بن خالد البرمكي الوليمة عرض عليه كاتبه الهدايا جميعها، حتى الكيسين والرقعة فاستظرفها وأمر أن يُملأ الكيسان مالاً ويردّا عليه فكـان ذلك أربعـة آلاف دينار.

*

(١) سورة التوبة: آية ٩١.

في الكنيف

كان الطبيب أبو يعقوب إسحاق بن حُنين بن إسحاق العبادي أوحد عصره في علم الطبّ، وكان يلحق بأبيه في النقل، وفي معرفته باللغات وفصاحته فيها.

وكان يعرِّبُ كتب الحكمة التي بلغة اليونانيين إلى اللغة العربية كما كان يفعل أبوه.

وكان قد خدم من الخلفاء والرؤساء مَنْ خدمه أبوه، ثم انقطع إلى القاسم بن عبيد الله وزير الإمام المعتضد بالله واختصّ به، حتى أن الوزير المذكور كان يطلعه على أسراره، ويفضي إليه بما يكتمه من غيره.

وذكر ابن بطلان في كتاب «دعوة الأطباء» أن الوزير المذكور بلغه أن إسحاق المذكور استعمل دواءً مسهلاً، فأحبَّ مداعبته، فكتب إليه:

ابنْ لي كيف أمسيتَ وما كان من الحالِ
وكم سارت بك الناقة نحو المنزل الخالي

فكتب إليه جوابه:

بخيرٍ بتُّ مسروراً رضيّ البالِ والحالِ
فأما السّير والناقة والمرتبعُ الخالي
فإجلالُك أنسانيه يا غاية آمالي

وكنت قد وقفت في كتاب «الكنايات» على مثل هذه القضيّة فذكر أن الأول كتب البيتين الأوّلين وأنّ الثاني كتب الجواب.

كتبتُ إليك والنعلان ما إن أقِلُّهما من المشي العنيف
فإن رمت الجواب اليَّ فاكتبْ على العنوان يُوصَلُ في الكنيف(1)

---

(١) الكنيف: بيت الخلاء.

يا قاطعي: لمن نويت بعد أن تصل؟

حدّث أبو هفان قال:

أُهديت إلى الرشيد جارية في غاية الجمال والكمال، فخلا معها يوماً وأخرج كل قينة في داره واصطبح[1]، فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات والخدمة في الشراب زهاء ألفيْ جارية في أحسن زيّ من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر.

واتّصل الخبر بأم جعفر فغلُظ عليها ذلك، فأرسلت إلى عُلّية بنت المهدي تشكو إليها.

فأرسلت إليها عُليّة: لا يهولنّك هذا، فوالله لأردنّه إليك، قد عزمت أن أصنع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جواريّ، فلا تبقى عندك جارية إلّا بعثت بها إليّ وألبسيهنّ ألوان الثياب ليأخذن الصوت مع جواريّ. ففعلت أم جعفر ما أمرتها به عُليّة.

فلما جاء وقت صلاة العصر لم يشعر الرشيد إلّا وعُليّة قد خرجت عليه من حُجرتها، وأم جعفر من حجرتها معها زُهاء ألفيْ جارية من جواريها وسائر جواري القصر عليهنّ غرائب اللباس، وكلّهنّ في لحنٍ واحدٍ هزجٍ صنعته عُليّة.

منفصلٌ عني وما قلبي عنه منفصل
يا قاطعي اليوم لمن نويت بعدي أن تصل

فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل أُمّ جعفر وعُليّة وهو على غاية السرور، وقال: لم أرَ كاليوم قطّ. يا مسرور لا تُبقِينّ في بيت المال درهماً إلّا نثرته. فكان مبلغ ما نثره يومئذٍ ستة آلاف درهم. وما سُمع بمثل ذلك اليوم قط.

*

(١) اصطبح: شرب شراب الصباح.

مكرمة أحمد بن أبي دؤاد

حدث علي بن عيسى قال: حدثني عبد الله بن سليمان قال:

كنت وأبو العباس أحمد بن الخطيب مع خلق كثير من العمال والكتّاب وأصحاب الدواوين في الترسيم[1] مع محمد بن عبد الملك الزيّات وكان وزير الواثق بالله. وكان ابن الزيات يطالبنا ببقايا ومحاسبات ونحن في أعظم ما يكون من المصادرات والشدّة.

قال: فمرض الواثق بالله، واشتد مرضه وحجب ستة أيام عن الناس، فدخل عليه أحمد بن أبي دؤاد يعوده وكان قاضي القضاة.

فقال له الواثق بالله: يا أبا عبد الله ذهبت مني الدنيا والآخرة وقد أيقنت بالموت، فهل عندك من خير تدلّني عليه؟

فقال له أحمد: يا أمير المؤمنين إن وزيرك ابن الزيات قد غرّك في جماعة من الكتاب وأصحاب الدواوين، وقد ملأ بهم الحبوس، وأنكاهم بالمصادرة، ولم يحصل لأمير المؤمنين على طائل. وهم خلق وراءهم ألف يدٍ ترفع إلى الله عزّ وجلّ بالدعاء على أمير المؤمنين فيأمر أمير المؤمنين بإطلاقهم لترفع تلك الأيادي بالدعاء لأمير المؤمنين فلعلّ الله سبحانه وتعالى أن يهب لك العافية، فإنك محتاج في هذا الوقت إلى أن تقلّ خصومته عند الله تعالى.

فقال الواثق بالله: إن هذا لنعم الرأي! وقّع لهم يا أبا عبد الله بإطلاقهم والفكّ عنهم.

فقال أحمد: يا أمير المؤمنين إن رأى خطّي الوزير عاند وتغافل ولجّ عليهم، ولكن يغنم أمير المؤمنين الأجر والثواب، ويحمل على نفسه المضض ويشتد ويوقّع لهم بخطه.

ففعل الواثق ما أشار إليه أحمد ووقع لهم بخطّه - وهو يضطرب - إلى ابن الزيات: «اطلقْ كل مَنْ في السجن من غير مراجعة ولا مرادة في ذلك». ودفع التوقيع إلى رجل من خاصته، وسيّر معه جماعة إلى ابن الزيات من مماليكه وأمرهم

(١) الترسيم: مصلحة صك النقود والأختام.

أن يأخذوا بامتثال الأمر عاجلاً، ويمنعونه من الحضور بين يدي الواثق بالله قبل إطلاقهم.

فتوجّهوا إلى ابن الزيات بالتوقيع فوجدوه راكباً يريد دار الواثق بالله، فمنعوه ومسكوا بغلته فارتاع لذلك، وظنّ أن الحادثة وقعت به فنزل عن دابته وجلس على غاشيته وقال: مَنْ تحدّث في أمرهم مع أمير المؤمنين؟؟

قالوا: أحمد، قاضي القضاة.

قال: إذا أطلقت هؤلاء فمن أين أجمع المال للأجناد؟ حتى أراجع أمير المؤمنين.

قالوا: لا سبيل إلى ذلك.

ثم إنهم لم يدعوه حتى أطلق الجميع.

قال عبيد الله وأحمد: فلما دخل علينا الحاجب السجن أيسنا من أنفسنا.

فقال: البشارة، فإن أمير المؤمنين أطلقكم أجمعين، وحكى لنا السبب وما فعل القاضي أحمد بن أبي دؤاد معنا. فخرجنا من السجن ووقفنا لأحمد في الطريق التي يمرّ فيها. فلما رأيناه دعونا له وشكرناه فَكَرِهَ ذلك منّا وأراد أن ينزل عن دابته فمنعناه، وجعل يخبرنا بالخبر ونحن ندعو له وهو يستصغر فعله ويقول: هذا بعض ما يجب لكم علينا. وستعلمون ما أفعل وقت عودي إلى أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى.

ثم انه رجع إلى الواثق بالله عشية النهار فوجده قد خفَّ من مرضه وأكل الخبز فلما رآه الواثق بالله قال: هذا بركة رأيك يا أبا عبد الله.

فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، أما علمت أن الأيدي التي كانت تدعو عليك صارت تدعو لك، ويدعو لك خلق كثير من رعيّتك بسببهم، ولكنه قد صاروا إلى دور خراب وأحوال قبيحة، لا فرش ولا كسوة، ولا دواب وأمير المؤمنين إن رغب أن يستكمل الأجر ويستديم نعمة الله تعالى عليه فيكمل نعمته عليهم.

قال: بماذا؟

قال: بالذي في خزائنك من آثارهم، وفي إصطبلاتك من دوابهم، وفي قصرك من جواريهم. فإن أمرت بردّ ذلك عليهم، وتفرج لهم عن ضياعهم ليعيشوا وتقوى العافية ويتضاعف الدعاء.

فوقّع لهم بذلك.

قال: فأخذنا جميع ما كان أُخذ لنا.

ومات الواثق بالله بعد ذلك بثلاثة أيام، وبقيتْ هذه المكرمة مؤرّخة لأحمد بن أبي دؤاد.

١٣٢

أنت في غيره دون سائر أهله

قال محمد بن عطية العطوي الشاعر:

كنت في مجلس القاضي يحي بن أكثم، فوافى إسحاق بن ابراهيم الموصلي، وأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلّم في الفقه، فأحسن وقاس واحتجّ، وتكلّم في الشعر واللغة، ففاق من حضر، ثم أقبل على القاضي يحي فقال له: اعزّ الله القاضي! أفي شيء ممّا ناظرت فيه وحكيته نقص أو مطعن؟.

قال: لا،

قال: فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها وأُنسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه؟ يعني الغناء,

قال العطوي: فالتفت إليَّ القاضي يحي وقال لي: الجواب في هذا عليك. وكان العطوي من أهل الجدل. فقال للقاضي يحي: نعم، أعزَّ الله القاضي! الجواب عليَّ.

ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أبا محمد، أنت كالفراء والأخفش في النحو؟

فقال: لا.

فقال: فأنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعي وأبي عبيدة؟ قال: لا.

قال: فأنت في علم الكلام كأبي الهذيل العلاّف والنظّام البلخي؟ قال: لا.

قال: فأنت في الفقه كالقاضي؟ وأشار إلى القاضي يحي، قال: لا.

قال: فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية وأبي نواس؟ قال: لا.

قال: فمن ههنا نُسبت إلى ما نُسبت إليه لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره دون رؤساء أهله.

فضحك وقام وانصرف. فقال القاضي يحي للعطوي: لقد وفيت الحجة حقّها، وفيها ظلم قليل لإسحاق، وإنه ممّن يقلُّ في الزمان نظيره.

١٣٣

يشكو تلوّن أهل ودّه

أسامة بن منقذ شاعر معروف، له أبيات رقيقة أرسلها لوالده رداً على أبيات منه وهي:

ومـا أشـكـو تـلوّن أهـل ودّي ... ولـو أجـدت شكيتهُمُ شكـوتُ
مـللتُ عـتـابهم ويئست منهم ... فـما أرجـوهـمُ فـيمـن رجـوتُ
إذا أدمـت قـوارصـهـم فـؤادي ... كـظمتُ عـلى أذاهم وانـطويتُ
ورحتُ عـليـهمُ طلق المحـيّـا ... كـأنّي مـا سـمعت ومـا رأيتُ
تجنّـوْا لي ذنـوبـاً مـا جنتهـا ... يـدايَ ولا أمـرتُ ولا نهيتُ
ولا والله مـا أضـمـرتُ غـدراً ... كـما قـد أظـهـروه ولا نـويتُ
ويـوم الحشر مـوعـدنـا وتبـدو ... صحيفـة مـا جَنَـوْهُ ومـا جنيتُ

وقال عندما قلع ضرسه ـ وهو معنىً غريب يصلح أن يكون لغزاً في الضرس:

وصـاحب لا أملّ الـدهـر صحبتـه ... يشقى لنفعي ويسعى سعيَ مجتهـدِ
لم ألقَـهُ مُـذْ تصـاحبنـا فحـين بـدا ... لنـاظـريَّ افـترقـنـا فـرقـةَ الأبـدِ

١٣٤

يا هذا، دعائي غير مُستجاب

روى أهل العراق أن أبا بكر أزهر بن سعد السمّان كان يصحب أبا جعفر المنصور قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جاءه أزهر مهنئاً، فحجبه المنصور فترصّد له يوم جلوسه العام وسلّم عليه، فقال له المنصور:

ما جاء بك؟

قال: جئت مهنئاً بالأمر.

فقال المنصور: أعطوه ألف دينار وقولوا له: قد قضيت وظيفة العيادة، فلا تعد إليّ.

فمضى وعاد في قابل[1]، فحجبه، فدخل عليه في مثل ذلك المجلس وسلّم عليه، فقال له:

ما جاء بك؟

فقال له: سمعت أنك مرضت فجئتك عائداً.

فقال: اعطوه ألف دينار وقولوا له: قد قضيت وظيفة العيادة فلا تعد إليّ، فإني قليل الأمراض.

فمضى وعاد في قابل، فقال له في مثل ذلك المجلس: ما جاء بك؟

فقال: سمعتُ منك دعاءً مستجاباً فجئتُ لأتعلّمه منك.

فقال له: يا هذا، إنه غير مستجاب، إني في كلّ سنة أدعو الله به أن لا تأتيني وأنت تأتي.

وله وقائع وحكايات مشهورة.

١٣٥

اتّقتهُ من دمٍ بدمِ

حكى الشيخ أبو علي الفارسي النحوي قال:

دخلتُ مع شيخنا أبي إسحاق الزجّاج على القاسم بن عبيد الله الوزير، فورد إليه الخادم فسارّه بسرٍّ استبشر له، ثم نهض، فلم يكن بأسرع من أن عاد وفي وجهه أثر الوجوم، فسأله شيخنا عن ذلك لأنسٍ كان بينهما، فقال له:

كانت تختلف إلينا جارية لإحدى القينات فسُمْتُها أن تبيعني إياها، فامتنعت من ذلك، ثم أشار عليها أحد من ينصحها بأن تهديها إليّ رجاءَ أن أُضاعف لها ثمنها. فلما جاءت أعلمني الخادم بذلك، فنهضتُ مستبشراً لافتضاضها فوجدتها قد حاضت، فكان مني ما ترى، فأخذ شيخنا الدواة من بين يديه، وكتب:

فارسٌ ماضٍ بحربتهِ ... حاذقٌ بالطَّعن في الظُّلَمِ
رامَ أن يُدمي فريستَهُ ... فاتَّقَتْهُ من دمٍ بدمِ

---

(١) قابل: أي في العام القادم.

الخفاف بدل الجعاب

قالوا:

كان بالدينور شيخ يتشيّع ويميل إلى مذهب أهل الإمامة، وكان له أصحاب يجتمعون إليه ويأخذون عنه ويدرسون عنده، يُقال له بشر الجعاب، فرفع صاحب الخبر بالدينور إلى المتوكل أن بالدينور رجلاً رافضياً يحضره جماعة من الرافضة ويتدارسون الرفض ويسبّون الصحابة ويشتمون السلف، فلما وقف المتوكل على كتابه أمر وزيره عبيد الله بن يحي بالكتاب إلى عامله على الدينور بإشخاص بشر هذا والفرقة التي تجالسه، فكتب عبيد الله بن يحي بذلك فلما وصل إلى العامل كتابه ـ وكان صديقاً لبشر الجعاب حسن المصافاة له شديد الإشفاق عليه ـ همّه ذلك وشقّ عليه فاستدعى بشراً وأقرأه ما كُوتب به في أمره وأمر أصحابه، فقال له بشر: عندي من هذا رأي إن استعملته كنت غير مستبطأٍ فيما أُمرت به وكنت بمنجاة ممّا أنت خائف عليَّ منه، قال: وما هو؟ قال:

بالدينور شيخ خفاف اسمه بشر ومن الممكن المتيسّر أن تجعل مكان الجعاب الخفاف وليس بمحفوظ عنده ما نسبت إليه من الحرفة والصناعة. فسرّ العامل بقوله وعمد إلى حرف العين من «الجعاب» فغيَّر عينها وغيّر استواء خطّها وانبساطه ووصل الباء بما صارت به فاء، فكان أخبره عن بشر الخفاف أنه أبله في غاية البلَه والغفلة وأنه هزأة عند أهل بلده وضحكة، وذلك أن أهل سواد البلد يأخذون منه الخفاف التامة والمقطوعة بنسيئة(١) ويعدونه بأثمانها عند حصول الغلّة، فإذا حصلت وحازوا مالهم منها ما طلوه بدينه ولووه بحقّه واعتلّوا بأنواع الباطل عليه، فإذا انقضى وقت السادر ودنا الشتاء واحتاجوا إلى الخفاف وما جرى مجراها، وافوا بشراً هذا واعتذروا إليه وخدعوه وابتدروا يعدونه الوفاء ويؤكدون مواعيدهم بالأيمان الكاذبة والمعاهدة الباطلة ويضمنون له أداء الديون الماضية والمستأنفة، فيحسن ظنّه بهم وسكونه ويستسلم إليهم ويستأنف إعطاءهم من الخفاف وغيرها ما يريدونه، فإذا خضرت

---

(١) النسيئة: التأجيل.

الغلّة أجروه على العادة وحملوه على ما تقدم من السنّة.

ثم لا يزالون على هذه الوتيرة من أخذ سلعة في وقت حاجتهم ودفعه عن حقّه في إبّان غلّاتهم فلا يتنبّه من رقدته ولا يفيق من سكرته.

فأنفذ صاحب الخبر كتابه وأشار بتقدم الخفاف أمام القوم والإقبال عليه بالمخاطبة وتخصيصه بالمسألة ساكناً. . . فلما ورد كتاب صاحب الخبر أعلم عبيد الله بن يحي المتوكل به وبحضور القوم فأمر أن يجلس ويستحضرهم ويخاطبهم فيما حُكي عنهم، وأمر فعلق بينه وبينهم سببية ليقف على ما يجري ويسمعه ويشاهده، ففعل ذلك.

وجلس عبيد الله واستدعى المحضرين فقدموا إليه يقدمهم بشر الخفاف، فلما جلسوا أقبل عبيد الله على بشر فقال له: أنت بشر الخفاف؟

فقال: نعم.

فسكنت نفوس الحاضرين معه إلى تمام الحيلة وإتمام هذه المدالسة وجواز هذه المغالطة، فقال له: إنه رفع إلى أمير المؤمنين من أمركم شيء أنكره وأمر بالكشف عنه وسؤالكم بعد إحضاركم عن حقيقته.

فقال له بشر: نحن حاضرون فما الذي تأمرنا به؟

قال: بلغ أمير المؤمنين أنه يجتمع إليك قوم فيخوضون معك في الترفّض وشتم الصحابة.

فقال بشر: ما أعرف من هذا شيئاً.

قال: قد أمرت بامتحانكم والفحص عن مذاهبكم. فقال: ما تقول في السّلف؟

فقال بشر: لعن الله السّلف.

فقال له عبيد الله: ويلك أتدري ما تقول؟

قال: نعم لعن الله السّلف، فخرج خادم من بين يدي المتوكل فقال لعبيد الله: يقول لك أمير المؤمنين: سله الثالثة فإن أقام على هذا فاضرب عنقه. فقال له: إني أسألك هذه المرّة فإن لم تتب وترجع عمّا قلت أمرت بقتلك، فما تقول الآن في السّلف؟ فقال: لعن الله السّلف، قد خرب بيتي وأبطل معيشتي وأتلف مالي وأفقرني

وأهلك عيالي.

قال: وكيف؟

قال: أنا رجل أسلّف الأكرة[1] وأهل الدستان الخفاف والتمسكات على أن يوفوني الثمن، ممّا يحصل من غلاّتهم، فأصير إليهم عند حصول الغلّة في بيادرهم، فإذا أحرزوا الغلات دفعوني عن حقّي وامتنعوا من توفيتي مالي، ثم يعودون عند دخول الشتاء فيعتذرون إليّ ويحلفون بالله لا يعاودون مطلي وظلمي، فإنهم يؤدون إليّ المتقدّم والمتأخر من مالي، فأجيبهم إلى ما يلتمسونه وأعطيهم ما يطلبونه، فإذا جاء وقت الغلّة عادوا إلى مثل ما كانوا عليه من ظلمي وكسر مالي، فقد اختلّت حالي وافتقرت عيالي.

قال: فسمع ضحك عالٍ من وراء الستارة وخرج الخادم فقال: استحلل هؤلاء القوم وخلّ سبيلهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين في حلٍّ وسعة، فصرفهم فلما توسطوا صحن الدار قال بعض الحاضرين: هؤلاء قوم مجان محتالون وصاحب الخبر متيقظ لا يكتب إلاّ بما يعلمه ويثق بصحّته، وينبغي أن يستقصى الفحص عن هذا والنظر فيه، فأمر بردّهم، فلما أُمروا بالرجوع قال بعض الجماعة التابعة لبعض: ليس هذا من ذلك الذي تقدّم، فينبغي أن نتولّى الكلام نحن ونسلك طريق الجدّ والديانة، فرجعوا فأُمروا بالجلوس، ثم أقبل عبيد الله على القوم فقال: إن الذي كتب في أمركم ليس ممّن يقدم على الكتب بما لا يقبله علماً ويحيط به خبراً وقد أخذ أمير المؤمنين باستئناف امتحانكم وانعام التفتيش عن أمركم، فقالوا: افعل ما أُمرت به، فقال: من خير الناس بعد رسول الله (ص)؟

قلنا: علي بن أبي طالب.

فقال الخادم بين يديه: قد سمعت ما قالوا، فأخبر أمير المؤمنين به، فمضى ثم عاد فقال: يقول لكم أمير المؤمنين هذا مذهبي. فقلنا: الحمد لله الذي وفق أمير المؤمنين في دينه ووفقنا لاتباعه وموافقته على مذهبه، ثم قال لهم: ما تقولون في أبي بكر رضي الله عنه؟

فقالوا: رحمة الله على أبي بكر نقول فيه خيراً.

---

(١) الأكرة: الفلاحون.

قال: فما تقولون في عمر؟

قلنا: رحمة الله عليه ولا نحبّه.

قال: ولِمَ؟

قلنا: لأنه أخرج مولانا العباس من الشورى.

قال: فسمعنا من وراء الستارة ضحكاً أعلى من الضحك الأول.

ثم أتى الخادم فقال لعبيد الله عن المتوكل: اتبعهم صلة فقد لزمتهم في طريقهم مؤونه واصرفه.

فقالوا: نحن في غنىً وفي المسلمين من هو أحقّ بهذه الصلة وإليها أحوج، وانصرفوا.

١٣٧

انقطع حسّه ومات

قال مؤلف كتاب «وفيات الأعيان»:

قد جرى في زمني شيء يليق أن أحكيه عن «ذي النون» المصري. وذاك أنه كان عندنا بمدينة إربل مغنٍ موصوف بالحذق والإجادة في صنعة الغناء يقال له: الشجاع جبريل بن الأواني، فحضر سماعاً قبل سنة ٦٢٠ فإنني أذكر الواقعة وأنا صغير، وأهلي وغيرهم يتحدّثون بها في وقتها. فغنّى الشجاع المذكور القصيدة الطنّانة البديعة التي لسبط ابن التعاويذي وأوّلها[١].

سقاك سارٍ من الوسميّ[٢] هتّانُ ولا رَقَتْ[٣] للغوادي فيك أجفان

إلى أن وصل إلى قوله منها:

ولي إلى البان من رمل الحمى وَطَرٌ فاليوم لا الرّمل يُصيبني ولا البانُ[٤]

---

(١) راجع: «ديوان سبط بن التعاويذي»، ص ٤١٢.

(٢) الوسمي: مطر الربيع الأول.

(٣) رقت العيون: هدأ دمعها.

(٤) البان: نوع من الشجر. والوطر: الحاجة.

وما عسى يدرك المشتاق من وَطَرٍ ... إذا بكى الربع والأحباب قد بانوا
كانوا معاني المغاني والمنازلُ أمو ... ات إذا لم يكن فيهنَّ سكّانُ[1]
لله كم قمرت لُبّي بجوّك أقمار، ... وكم غازلتني فيك غزلان[2]
وليلة بات يجلو الراح من يده ... فيها أغنُّ خفيف الروح جذلانُ
خالٍ من الهمّ في خلخاله حرجٌ ... فقلبه فارغ والقلب ملآنُ
يذكي الجوى بارد من ثغره شبمٌ ... ويوقظ الوجد طرفٌ منه وسنانُ
إن يُمس ريّان من ماء الشباب فلي ... قلبٌ إلى ريقه المعسول ظمآنُ
بين السيوف وعينيه مُشارَكَةٌ ... من أجلها قيل للأغماد أجفانُ

فلما انتهى إلى هذا البيت قام بعض الحاضرين وقال له: يا شجاع، أعِدْ ما قلته، فأعاده مرّتين أو ثلاثاً وذو النون الشيخ الصالح متواجد، ثم صرخ صرخة هائلة ووقع. فظنّوه قد أُغمي عليه، فافتقدوه بعد أن انقطع حسّه فوجدوه قد مات.

١٣٨

المقنّع الخراساني

المقنّع الخراساني، اسمه عطاء، ولا يعرف اسم أبيه وقيل اسمه حكيم والأول أشهر.

كان قصاراً من أهل مرو وكان يعرف شيئاً من السحر والنيرجات[3] فادعى الربوبية من طريق المناسخة، وقال لأشياعه والذين اتّبعوه: إن الله سبحانه وتعالى تحوَّل إلى صورة آدم، ولذلك قال للملائكة: اسجدوا له فسجدوا إلاّ إبليس فاستحقّ بذلك السخط، ثم تحول من آدم إلى صورة نوح عليه السلام، ثم إلى صورة واحدٍ فواحدٍ من الأنبياء عليهم السلام والحكماء حتى حصل في صورة أبي مسلم الخراساني.

---

(١) المغاني: المنازل.
(٢) قمرت: غلبتْ.
(٣) النيرجات: ما يشبه السحر.

ثم زعم أنه انتقل إليه منه فقبل قوم دعواه وعبدوه وقاتلوا دونه، مع ما عاينوا من عظيم ادعائه وقبح صورته، لأنه كان مشوّه الخلق أعور ألكن قصيراً، وكان لا يُسفر عن وجهه بل اتخذ وجهاً من ذهب فتقنّع به فلذلك قيل له «المقنّع».

وإنما غُلب على عقولهم بالتمويهات التي أظهرها لهم بالسحر والنيرجات. وكان في جملة ما أظهر لهم صورة قمر يطلع ويراه الناس من مسافة شهرين من موضعه ثم يغيب، فعظم اعتقادهم فيه، وقد ذكر أبو العلاء المعرّي هذا القمر في قوله[1]:

أفق إنّما البدر المقنّعُ رأسُهُ ضلال وغيٌّ مثلُ بدر المقنّع

وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة وإليه أشار أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك الشاعر في جملة قصيدة طويلة بقوله[2]:

إليك فما بدر المقنّع طالعاً بأسحر من ألحاظ بدر المعمّمِ

ولما اشتهر أمر المقنع وانتشر ذكره ثار عليه الناس، وقصدوه في قلعته التي اعتصم بها وحصروه، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وسقاهنّ سماً فمتنَ منه، ثم تناول شربة من ذلك السم فمات، ودخل المسلمون قلعته فقتلوا من فيها من أشياعه وأتباعه وذلك في سنة ١٦٣ هـ.

١٣٩

أبو الحسن العسكري

هو أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن عليّ الرضا ويعرف بالعسكري، وهو أحد الأئمة الإثني عشر عند الإمامية. كان قد سُعي به إلى المتوكل، وقيل إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته، وأوهموه أنه يطلب الأمر لنفسه، فوجّه إليه بعدّة من الأتراك ليلاً فهجموا عليه في منزله على غفلة، فوجدوه وحده في بيتٍ مغلقٍ وعليه مِدرعة[3] من شعر، وعلى رأسه ملحفة من صوف، وهو مستقبل القبلة يترنم

---

(١) راجع: «شروط السقط، ١٥٤٤.

(٢) ديوانه، ص ٦٩٨.

(٣) المدرعة: الثوب، وقيل جبة مشقوقة المقدمَ.

بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، ليس بينه وبين الأرض بساط إلّا الرمل والحصى، فأخذ على الصورة التي وُجد عليها وحُمل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه والمتوكل يستعمل الشراب وفي يده كأس، فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء ممّا قيل عنه ولا حالة يُتعلّق عليه بها، فناوله المتوكل الكأس الذي كان بيده، فقال: يا أمير المؤمنين، ما خامر لحمي ودمي قطّ فأعفني منه، فأعفاه وقال: أنشدني شعراً أستحسنه، فقال: إني لقليل الرواية للشعر. قال: لا بدَّ أن تنشدني فأنشده:

باتوا على قُلل الأجبال تحرسهم ... غُلْبُ الرجال فما أغنتهم القُلَلُ[1]
واستُنزلوا بعد عزٍّ من معاقلهم ... فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهُمُ صارخٌ من بعد ما قُبروا ... أين الأسرَّةُ والتيجان والحُلَلُ
أين الوجوهُ التي كانت منعّمةً ... من دونها تُضرب الأستار والكلَلُ[2]
فأفصح القبرُ عنهم حين ساء لهم ... تلك الوجوه عليها الدّود يَقْتَتِلُ
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا

قال: فأشفق من حضر على عليّ وظنّ أن بادرة تبدر إليه. فبكى المتوكل بكاءً كثيراً حتى بلّت دموعه لحيته وبكى من حضره، ثم أمر برفع الشراب ثم قال: يا أبا الحسن، أعليك دين؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار، فأمر بدفعها إليه وردّه إلى منزله مكرماً.

١٤٠

الكسائي

الكسائي هو أبو الحسن علي بن حمزة أحد القرّاء السبعة، كان إماماً في النحو واللغة والقراءات، ولم تكن له في الشعر يد، حتى قيل: ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر، وكان يؤدّب الأمين بن هارون الرشيد ويعلمه الأدب، ولم

---

(١) قلل الجبال: أعلاها. وراجع: «البصائر والذخائر»، ٤: ٢٢٣.

(٢) الكلل: جمع كلة، وهي بيت صغير يزيّن وتكون فيه العروس.

يكن له زوجة ولا جارية، فكتب إلى الرشيد يشكو العزبة في هذه الأبيات:

قُـلْ لـلخليفـة مـا تـقـول لمـن ... أمسى إلـيـك بـحـرمـةٍ يُـدلي
مـا زلت مـذ صـار الأمـين معي ... عـبـدي يـدي ومـطـيّـتي رجـلي
وعـلى فـراشي مـن يـنـبّـهـني ... مـن نـومـتي وقـيـامـه قـبـلي
أسعى بـرجـلٍ منـه ثـالـثـةٍ ... مـوفـورةٍ مـنّي بـلا رجـل
وإذا ركـبـتُ أكـون مـرتـدفـاً ... قـدّام سرجـي راكـب مـثـلي
فـامـنـنْ عـليَّ بمـا يـسـكّـنـه ... عـنّي وأهـدِ الـغـمـد لـلنـصـلِ

فأمر له الرشيد بعشرة آلاف درهم وجارية حسناء بجميع آلاتها وخادم وبرذون بجميع آلته.

١٤١

إرادة الله أقوى

ذكر الحميدي في كتاب «حذوة المقتبس»[(١)] قال:

كان الوزير أبو عمر أحمد والد ابن حزم جالساً بين يدي مخدومه المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر في بعض مجالسه العامة، فرفعت إليه رقعة استعطاف لأم رجل مسجون كان المنصور اعتقله حنقاً عليه لجرم استعظمه منه، فلمّا قرأها اشتدّ غضبه وقال: ذكّرتني والله به، وأخذ القلم وأراد أن يكتب: يُصلب، فكتب: يُطلق. ورمى الورقة إلى وزيره المذكور، وأخذ الوزير القلم وتناول الورقة وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرطة، فقال له المنصور: ما هذا الذي تكتب؟

قال: بإطلاق فلان، فحرد وقال: من أمر بهذا؟

فناوله التوقيع، فلما رآه قال: وهمت والله، ليصلبن، ثم خط على التوقع، وأراد أن يكتب «يُصلب» فكتب «يطلق».

فأخذ الوزير الورقة، وأراد أن يكتب إلى الوالي بالاطلاق، فنظر إليه المنصور وغضب أشدّ من الأول وقال: من أمر بهذا؟

---

(١) راجع: «الجذوة»، ص ١١٨.

فناوله التوقيع، فرأى خطّه، فخطّ عليه، وأراد أن يكتب «يُصلب» فكتب «يطلق». وأخذ الوزير التوقيع وشرع في الكتابة إلى الوالي، فرآه المنصور فأنكر أكثر من المرّتين الأوليين، فأراه خطّه بالإطلاق، فلما رآه عجب من ذلك، وقال: نعم يُطلق على رغمي، فمن أراد الله سبحانه إطلاقه لا أقدر أنا على منعه.

١٤٢

نعرف من عفا عن عمّه

كان لابن حزم الظاهري محمد بن أحمد... ولد نبيه سريّ فاضل يقال له أبو رافع الفضل بن أبي محمد علي، وكان في خدمة المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس، وكان المعتمد قد غضب على عمّه أبي طالب عبد الجبّار بن محمد بن إسماعيل بن عباد وهمَّ بقتله لأمرٍ رابه منه، فاستحضر وزراءه وقال لهم: من يعرف منكم من الخلفاء أو ملوك الطوائف من قتل عمّه عندما همَّ بالقيام عليه؟.

فتقدّم أبو رافع المذكور وقال: ما نعرف أيّدك الله إلاّ من عفا عن عمّه بعد قيامه عليه، وهو إبراهيم بن عمّ المأمون من بني العباس، فقبّله المعتمد بين عينيه وشكره، ثم أحضر وبسطه وأحسن إليه.

١٤٣

العَكَوَّك الذي أخرجوا لسانه من قفاه

العَكَوَّك، هو علي بن جبلة الشاعر المشهور، وُلد أعمى وله في أبي دُلَف العجلي وأبي غانم حُميد بن عبد الحميد الطوسي غرّ المدائح، فمن قصائده الفائقة في أبي دُلف القصيدة التي أوّلها:

ذاد وِرْدَ الغيّ عن صَدَرِهْ فارعوى واللهوُ من وَطَرِهْ

يقول في مدحها:

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ بين مغزاهُ ومحتضرِهْ

فـإذا ولّى أبـو دلـفٍ ولّـت الـدنـيـا عـلى أثـرِهْ

ومنها:

كـل مـن في الأرض مـن عـربٍ بـيـن بـاديـه إلى حَـضَـرِهْ
مـسـتـعـيـرٌ مـنـك مـكـرمـةً يـكـتـسـبـهـا يـوم مُـفْـتَـخَـرِهْ

وهي طويلة عددها ثمانية وخمسون بيتاً، ولولا خوف الإطالة لأثبتّها كلّها لأجل حسنها. ولقد سئل شرف الدين بن عنين وكان بأخبر الناس بنقد الشعر، عن هذه القصيدة وقصيدة أبي نُواس الموازنة لها التي أوّلها:

أيّـهـا الـمـنـتـاب مـن عُـفُـرِهْ لـسـتَ مـن لـيـلـي ولا سَـمَـرِهْ

وهي من نوادر الشعر أيضاً، فلم يفضّل إحداهما على الأخرى، وقال: ما يصلح أن يفاضل بين هاتين إلاّ شخص يكون في درجة هذين الشاعرين.

ويُحكى أن العكوّك مدح حميد بن عبد الحميد الطوسي بعد مدحه لأبي دُلَف بهذه القصيدة فقال له حميد: ما عسى أن تقول فينا وما أبقيت لنا بعد قولك في أبي دلف: إنما الدنيا أبو دلف... وأنشد البيتين، فقال: أصلح الله الأمير، قد قلت فيك ما هو أحسن من هذا، قال: وما هو؟ فأنشد:

إنـمـا الـدنـيـا حُـمـيـد وأديـاديـه الـجـسـامُ
فـاذا ولّى حـمـيـد فـعـلى الـدنـيـا الـسّـلامُ

قال: فتبسّم ولم يحر جواباً، فأجمع من حضر المجلس من أهل المعرفة والعلم بالشعر أنّ هذا أحسن مما قاله في أبي دلف، فأعطاه وأحسن جائزته.

وحُكي أنه مدح المأمون بقصيدة أجاد فيها، وتوسل بحميد الطوسي في إيصالها إليه، فقال له المأمون: خيّره بين أن نجمع بين قوله هذا وبين قوله فيك وفي أبي دلف، فإن وجدنا قوله فينا خيراً منه أجزناه عشرة آلاف، وإلاّ ضربناه مائة سوط، فخيّره حميد فاختار الإعفاء.

وقال ابن المعتزّ في «طبقات الشعراء»[1]: ولما بلغ المأمون خبر هذه القصيدة

---

(١) راجع: «طبقات ابن المعتز»، ص ١٧٢. وفي الرواية بعض الأختلاف.

غضب غضباً شديداً وقال: اطلبوهُ حيثما كان وائتوني بـه، فطلبـوه فلم يقدروا عليـه لأنه كان مقيماً بالجبل، فلما اتصل به الخبر هرب إلى الجزيرة الفراتية، وقد كانوا كتبوا إلى الآفاق أن يُؤخذ حيث كان، فهرب من الجزيرة حتى توسط الشامات، فظفروا به فأخذوه وحملوه مقيّداً إلى المأمون، فلما صار بين يديه قال له: يا ابن اللخناء[1]، أنت القائل في قصيدتك للقاسم بن عيسى، وهو أبو دُلَف:

كلّ من في الأرض من عربٍ. . .

وأنشد البيتين، جعلتنـا مـمّن يستعير المكـارم منه والافتخـار به، قـال: يا أمير المؤمنـين: أنتم أهل بيت لا يُقـاس بكم لأن الله اختصّكم لنفسه عن عبـاده وآتـاكم الكتـاب والحكم وآتـاكم ملكـاً عـظيـماً، وإنمـا ذهبت في قـولي إلى أقـران وأشكـال القـاسم بن عيسى من هذا النـاس، فقال: والله مـا أبقيت أحداً، ولقـد أدخلتنـا في الكل، وما استحلّ دمك بكلمتك هذه، ولكنّي أستحلّه بكفرك في شعرك حيث قلت في عبدٍ ذليلٍ مهين فأشركت بالله العظيم وجعلت معه مالكاً قادراً، وهو:

أنـت الـذي تُنـزل الأيـامَ مـنـزلهـا ... وتنقـل الـدهـرَ من حـال إلى حـالِ
ومـا مـددت مـدى طـرف إلى أحـدٍ ... إلاّ قـضـيـت بـأرزاقٍ وآجـالِ

ذاك الله عزّ وجلّ يفعله، أخرجوا لسانه من قفاه. فأخرجوا لسانه من قفاه فمات وكان ذلك في سنة ٢١٣ هـ في بغداد.

١٤٤

تطيّر ابن الرومي

رووا من ألـوان وساوسـه أنه كـان ربما لـزم بيته ثـلاثة أيـام لا يخرج منـه، وقد حدّثت زوجته مرّة أن باب بيتهم مقفل من ثلاثـة أيام وذلـك أن ابن الرومي، كـان يلبس ثيابه كل يوم ويتعوّذ ثم يصير إلى الباب والمفتاح معـه فيضع عينـه على ثقبٍ في خشب الباب فتقع عينه على جارٍ له وكان أحدب، فاذا نظر ابن الـرومي وراه تشاءم

(١) اللخناء: المنتنة.

وتطيّر ورجع فخلع ثيابه ومنع أحداً من فتح الباب.

ورووا أن بعض أصحابه افتقده فأرسل إليه خادمه واسمه إقبال، لعلمه أن ابن الرومي يتطيّر بالأسماء. فلمّا سمع ابن الرومي اسم هذا الخادم تشاءم بدلاً من أن يتفاءل وسبب تشاؤمه أنه قلب الاسم فأصبح: لا بقاء.

ورووا أن بعض أصحابه أرسل إليه يوماً بغلام اسمه: حسن. فلما طرق عليه الباب قال: من؟ أجاب الغلام: حسن. فتفاءل ابن الرومي وخرج وإذا على باب داره حانوت خيّاط مقفل وعلى بابه درفتان كهيئة اللاّم ألف «لا» وتحت الباب نوى تمر فتطيّر ابن الرومي إذ فسَّر المشهد بأنه يعني: لا تمرّ ورجع ولم يذهب.

ورووا أيضاً أن أصحابه كانوا يعابثونه فكان أحدهم يقرع عليه الباب في الصباح، فاذا سأل ابن الرومي من الطارق، أجابه: مرّة بن حنظلة، أو الشيطان، أو الموت أو غير ذلك من الأسماء التي يتطيّر بذكرها فيحبس نفسه في بيته ولا يخرج طيلة يومه.

١٤٥

ما طريقه على النار

قيل: إن سبب موت ابن الرومي الشاعر المشهور أن الوزير أبا الحسن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش، فدسّ عليه ابن فراس، فأطعمه خشكنانجة[1] مسمومة وهو في مجلسه، فلما أكلها ابن الرومي أحسّ بالسمّ فقام، فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟ فقال: إلى الموضع الذي بعثتني إليه، فقال له: سلّم على والدي، فقال: ما طريقي على النار، وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياماً ومات.

*

(١) خشكنانجة: نوع من الفطير.

١٤٦

قواتل الأحداق

حكى أبو بكر عبد الله بن أبي الدنيا أنه حضر مجلس محمد بن داود الظاهري قال:

فجاءه رجل فوقف عليه ورفع له رقعة، فأخذها وتأملها طويلاً وظن تلامذته أنها مسألة، ثم قلبها وكتب على ظهرها وردّها إلى صاحبها، فنظرنا فإذا الرجل عليّ بن العباس المعروف بابن الرومي الشاعر المشهور وإذا في الرقعة:

يا ابن داودَ يا فقيه العراق أفتِنا في قواتل الأحداقِ
هل عليهن في الجروح قصاصٌ أم مباحٌ لها دمُ العشّاقِ

وإذا الجواب:

كيف يفتيكم قتيل صريعٌ بسهام الفراق والإشتياق
وقتيل التلاقِ أحسن حالاً عند داودَ من قتيل الفراق

١٤٧

العادل الجائر

كان علي بن السلَّار، المنعوت بالملك العادل سيف الدين شهماً مقداماً مائلاً إلى أرباب الفضل والصلاح، وكان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة وسطوة قاطعة يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقرات.

ومـمّا يحكى عنه أنه قبل وزارته بزمان وهو يومئذٍ من أفراد الأجناد، دخل يوماً على الموفق أبي الكرم ابن معصوم التنيسي، وكان يتولّى الديوان، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية. فلما أطال عليه الكلام قال له أبو الكرم: والله إن كلامك ما يدخل في أذنيّ، فحقد عليه.

فلما ترقّى إلى درجة الوزارة طلبه، فخاف منه واستتر مدّة، فنادى عليه في البلد، وأهدر دم من يخفيه، فأخرجه الذي خبأه عنده، فخرج في زي امرأة بإزار وحفّ، فَعُرف فأُخذ وحمل إلى العادل، فأمر بإحضار لوح خشب ومسمار طويل وأمر

بـه فأُلقي عـلى جنبه وطُـرح اللوح تحت أُذنه، ثم ضرب المسمار في الأذن الأخرى، وصار كلّما صرخ يقول له: دخل كلامي في أُذنك بعد أم لا؟

ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الأذن التي على اللوح، ثم عطف المسمار على اللوح.

ويقال: إنه شنقه بعد ذلك.

١٤٨

الجاحظ ومحمد بن ابراهيم

من أخبار الجاحظ أنه قال:

ذُكرتُ للمتوكل لتأديب بعض ولـده، فلما رآني استشبع منـظري فأمـر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني، فخـرجت من عنـده فلقيت محمـد بن ابـراهيم وهـو يـريـد الإنصراف إلى مدينة السلام[1]، فعرض عليَّ الخروج معه والإنحدار في حرّاقته[2] وكنا بسرّ من رأى[3]، فركبنا في الحرّاقة، فلما انتهينا إلى فم نهر القاطول نصب ستارةً وأمر بالغناء، فاندفعت عوّادة فغنّت:

كـلّ يـومٍ قـطيـعـةٌ وعـتـابُ ينقضي دهـرنـا ونـحن غـضـابُ
ليت شعـري أنـا خُصصت بهـذا دون ذا الخـلق أم كـذا الأحبـاب

وسكتت فأمر الطنبورية فغنّت:

وارحمـتـا لـلعـاشـقـيـنـا مـا إن أرى لهُـمُ مـعـيـنـا
كـم يُهـجـرون ويُصرمـو نَ ويُـقـطعـون فـيـصـبرونـا

قـال: فقالت لهـا العوّادة: فيصنعـون ماذا؟ قـالت: هكذا يصنعـون، وضربت بيدها إلى الستارة فهتكتها وبرزت كأنها فلقة قمر، فألقت نفسها في الماء، وعلى رأس محمد غُلام يضاهيها في الجمال، وبيده مِذَبَّة، فـأتى الموضـع ونظر إليهـا وهي تمرّ بـين

---

(١) مدينة السلام: بغداد.

(٢) الحراقة: سفينة فيها مضارب نيران العدو.

(٣) سرّ من رأى: أي سامرّاء.

الماء، وأنشد:

أنــت الــتي غـرَّقـتــني بـعــد الـقـضـا لـو تـعـلـمـيـنـا

وألقى نفسه في أثرها فأدار الملّاح الحرّاقة فإذا بهما معتنقان ثم غاصا فلم يريا، فاستعظم محمد ذلك وهاله أمره ثم قال: يا عمرو، لتحدّثني حديثاً يسليني عن فعل هذين وإلاّ ألحقتك بهما، قال: فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك، وقد قعد للمظالم يوماً وعُرضت عليه القصص، فمرّت به قصة فيها:

«إن رأى أمير المؤمنين أن يُخرج إليّ جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة أصوات فعل»، فاغتاظ يزيد من ذلك، وأمر من يخرج إليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسول برسول آخره يأمره أن يدخل إليه الرجل، فأدخله، فلما وقف بين يديه قال له: ما الذي حملك على ما صنعت؟

قال: الثقة بحلمك والإتكال على عفوك، فأمره بالجلوس حتى لم يبقَ أحد من بني أميّة إلاّ خرج، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها، فقال لها الفتى غنيّ:

أفــاطم مهــلاً بـعض هــذا التــدلّــل وإن كنتِ قــد ازمعتِ صرمي فــأجملي

فغنّته، فقال له يزيد: قل، فقال: غنيّ:

تــألّق البـرقُ نجــديــاً فقلتُ لــه يـا أيّها الـبرق إنّي عنـك مشغـولُ

فغنّته، فقال له يزيد: قل، قال: تأمر لي برطل شراب، فأمر له، فما استتمّ شربه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات.

فقال يزيد: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أتراه الأحمق الجاهل ظن أني أخرج إليه جاريتي وأردها إلى ملكي. يا غلمان خذوا بيدها واحملوها إلى أهله إن كان له أهل، وإلاّ فبيعوها وتصدّقوا بثمنها عنه.

فانطلقوا بها إلى أهله، فلما توسطت الدار نظرت إلى حُفيرة في وسط دار يزيد قد أُعدّت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم وأنشدت:

من مــات عشقــاً فليمتْ هكــذا لا خــير في عــشــقٍ بــلا مــوتِ

وألقت نفسها في الحفيرة على دماغها فماتت. فسُرّي عن محمد وأجزل صلتي.

١٤٩

خلع له يده وتحيّر في أمره

حكى بعض فقهاء العجم أنه كان في صحبة السهروردي[١] وقد خرجوا من دمشق. قال: فلما وصلنا إلى القابون، القرية التي على باب دمشق في طريق من يتوجّه إلى حلب، لقينا قطيع غنم مع تركماني. فقلنا للشيخ: يا مولانا نريد من هذه الغنم رأساً نأكله.

فقال: معي عشرة دراهم خذوها واشتروا بها رأس غنم. وكان هناك تركماني فاشترينا منه رأساً بها، ومشينا قليلاً فلحقنا رفيق له وقال: ردّوا هذا الرأس، خذوا أصغر منه، فإن هذا ما عرف يبيعكم، يساوي هذا الرأس أكثر من ذلك، وتقاولنا نحن وإياه، فلما عرف الشيخ ذلك قال لنا: خذوا الرأس وامشوا وأنا أقف معه وأرضيه، فتقدمنا نحن، وبقي الشيخ يتحدث معه ويطيب قلبه، فلما أبعدنا قليلاً تركه وتبعنا، وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به وهو لا يلتفت إليه، فلمّا لم يكلّمه لحقه بغيظ وجذب يده اليسرى وقال: أين تروح وتخلّيني؟ وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من كتفه وبقيتْ في يد التركماني ودمها يجري. فبهت التركماني وتحيّر في أمره، فرمى اليد وخاف، فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا.

وبقي التركماني راجعاً وهو يلتفت إليه حتى غاب عنه.

ولما وصل الشيخ إلينا رأينا في يده اليمنى منديلاً لا غير.

قلت: ويحكى عنه مثل هذا أشياء كثيرة، والله أعلم بصحّتها.

١٥٠

أمر للجند وللكاتب معاً

قال أحمد بن يوسف الكاتب:

دخلت على المأمون وهو يمسك كتاباً بيده، وقد أطال النظر فيه زماناً وأنا ملتفت

(١) السهروردي: اسمه أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، الملقّب شهاب الدين السهروردي الحكيم المقتول بحلب، وقيل اسمه أحمد وقيل كنيته اسمه.

إليه، فقال: يا أحمد، أراك مفكراً فيما تراه منّي. قلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه من المخاوف.

قال: فإنه لا مكروه فيه، ولكنني قرأت كلاماً وجدته نظير ما سمعته من الرشيد يقوله في البلاغة. كان يقول: البلاغة التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليلِ من اللفظ على المعنى، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على المبالغة في هذا المعنى، حتى قرأت هذا الكتاب، ورمى به إليَّ وقال: هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إليه.

قال: فقرأته فإذا فيه: «كتابي إلى أمير المؤمنين ومَن قِبَلي من قوّاده وسائر أجناده في الإنقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جندٍ تأخّرت أرزاقهم، وانقياد كُفاة تراخت أعطياتهم، واختلّت لذلك أحوالهم، والتاثت معه أمورهم».

فلمّا قرأته قال: إن استحساني إيّاه بعثني على أن أمرت للجند قِبله بعطائهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقّه مَنْ حلَّ محلّه في صناعته.

١٥١

من عجائب الاتفاقات

يُقال: أشأم من طُوَيْس المغنيّ. وطويس هو عيسى بن عبد الله يضرب به المثل في الشؤم لأنه ولد في اليوم الذي مات فيه رسول الله (ص) وفطم في اليوم الذي مات فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وخُتِن في اليوم الذي قتل فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل بل بلغ الحلم في ذلك اليوم. وتزوّج في اليوم الذي قُتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه، ووُلد له مولود في اليوم الذي قتل فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل بل في يوم مات فيه الحسن بن علي، رضي الله عنهما، فلذلك تشاءموا به. وهذا من عجائب الاتفاقات.

*

١٥٢

اسمه غازي

يُحكى عن غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب الملك الظاهر أنه كان ملكاً مهيباً حازماً متيقظاً كثير الاطّلاع على أحوال رعيّته وأخبار الملوك.

ويُحكى عن سرعة إدراكه أشياء حسنة: منها أنه جلس يوماً لعرض العسكر، وديوان الجيش بين يديه، فكان كلما حضر واحد من الأجناد سأله الديوان عن اسمه ليزكوه وينزلوه، حتى حضر واحد فسألوه عن اسمه فقبَّل الأرض، فلم يفطن أحد من أرباب الديوان لما أراد، فعاودوا سؤاله، فقال الملك الظاهر: اسمه غازي، وكان كذلك، وتأدّب الجندي أن يذكر اسمه لما كان موافقاً لاسم السلطان، وعرف هو مقصوده.

١٥٣

تذوق الموت قبل أن تذوقه

قال ابن قتيبة في كتاب «طبقات الشعراء»: قال أبو ضرار الغنوي:

رأيت ميّة المنقرية وإذا معها بنون لها فقلت: صفها لي، قال: مسنونة الوجه طويلة الخدّ شمّاء الأنف، عليها وسم جمال.

قلت: أكانت تنشدك شيئاً مّما قال فيها ذو الرمّة؟

قال: نعم.

ومكثت ميّة زماناً تسمع شعر ذي الرمة ولا تراه، فجعلت لله تعالى عليها أن تنحر بَدَنة[1] يوم تراه، فلما رأته رأت رجلاً دميماً أسود، وكانت من أهل الجمال، فقالت: واسوأتاه، وابؤساه، فقال ذو الرمّة:

على وجه ميٍّ مسحةٌ من مَلاحةٍ وتحت الثياب العار لو كان باديا

---

(١) البدنة: واحدة من الضأن.

ألم تَـرَ أن المـاء يخـبـث طـعـمـهُ   وإن كـان لـون المـاء أبيض صـافيـا
فـواضيعـة الشعـر الـذي لـجَّ فـانقضى   بمـيٍّ ولم أمـلكْ ضـلال فُـؤاديـا

ويُروى أن ذا الرمّة لم يَرَ ميّة قط إلّا في برقع، فأحبَّ أن ينظر إلى وجهها فقال:

جـزى الله الـبراقـعَ مـن ثـيـابٍ   عـن الـفـتـيـان شـرّاً مـا بـقـيـنـا
يـواريـن المـلاح فـلا نـراهـا   ويخـفـين الـقـبـاحَ فـيـزدهـيـنـا

فنزعت البرقع عن وجهها، وكانت باهرة الحسن، فلما رآها مسفرة قال:

على وجه مـيٍّ مسحة من ملاحةٍ. . .

البيت المقدّم، فنزعت ثيابها وقامت عريانة، فقال:

ألم تَرَ أن الماء يخبث طعمه

البيت المذكور، فقالت له: أتحب أن تذوق طعمه؟

قال: إي والله.

فقالت له: تذوق الموت قبل أن تذوقه، والله أعلم.

١٥٤

يحيى البرمكي وابنه الفضل

كان هارون الرشيد قد جعل ولده محمداً في حجر الفضل بن يحيى البرمكي، والمأمون في حجر جعفر البرمكي، فاختص كلّ واحد منهما بمن في حجره.

ثم إن الرشيد قلّد الفضل بعمل خراسان، فتوجّه إليها وأقام بها مدّة، فوصل كتاب صاحب البريد بخراسان إلى الرشيد ويحيى جالس بين يديه ومضمون الكتاب: أن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد وإدمان اللذّات عن النظر في أمور الرعيّة، فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى، وقال له: يا أبَتِ ـ وكان يدعوه هكذا ـ اقرأ هذا الكتاب واكتب إليه بما يردعه عن هذا، فكتب يحيى على ظهر كتاب صاحب البريد:

«حفظك الله يا بني وامتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ممّا أنت عليه من

التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعيّة ما أنكره، فعاوِدْ ما هو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلّا به، والسلام».

وكتب في أسفله هذه الأبيات:

انصَبْ نهاراً في طِلاب العُلا ... واصبرْ على فقد لقاء الحبيبْ
حتى إذ الليل أتى مقبلاً ... واستترتْ فيه وجوهُ العيوبْ
فكابد الليلَ بما تشتهي ... فإنّما الليل نهار الأريبْ
كم من فتىً تحسبهُ ناسكاً ... يستقبل الليل بأمرٍ عجيبْ
غطّى عليه الليل أستاره ... فبات في لهوٍ وعيشٍ خصيبْ
ولذّةُ الأحمق مكشوفةٌ ... يسعى بها كلُّ عدوٍ رقيبْ

وكان الرشيد ينظر إلى ما يكتب، فلمّا فرغ قال: أبلغتَ يا أبَتِ.

فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهاراً إلى أن انصرف من عمله[1].

١٥٥

تعلّم من عمارة الكرم والتّيه

قيل للفضل بن يحيى:

ما أحسن كرمك لولا تِيْهٌ فيك.

فقال: تعلّمتُ الكرم والتّيه من عمارة بن حمزة.

فقيل له: وكيف ذلك؟

فقال: كان أبي عاملاً على بعض كُوَر بلاد فارس، فانكسرت عليه جملة مستكثرة، فحُمل إلى بغداد وطولب بالمال، فدفع جميع ما يملكه، وبقيت عليه ثلاثة آلاف ألف درهم لا يعرف لها وجهاً، والطّلب عليه حثيث، فبقي حائراً في أمره، وكانت بينه وبين عمارة بن حمزة منافرة ومواحشة لكنه علم أنه ما يقدر على مساعدته إلّا هو، فقال لي يوماً وأنا صبيّ: امضِ إلى عمارة وسلّم عليه عنّي وعرّفه الضرورة

(١) راجع هذه القصة أيضاً في كتاب: «سرور النفس» للتيفاشي، ص ٤٥ ـ ٨٤٦

التي قد صرنا إليها واطلب منه هذا المبلغ على سبيل القرض إلى أن يسهّل الله تعالى باليسرة، فقلت له: أنت تعلم ما بينكما، وكيف أمضي إلى عدوّك بهذه الرسالة، وأنا أعلم أنه لو قدر على إتلافك لأتلفك؟

فقال: لا بدَّ أن تمضي إليه لعلَّ الله يسخّره ويوقع في قلبه الرحمة.

قال الفضل: فلم يمكنّي معاودته، وخرجت وأنا أُقدّم رجلًا وأُؤخّر أُخرى، حتى أتيت داره واستأذنت في الدخول عليه، فأذن لي، فلما دخلت وجدته في صدر إيوانه متكئاً على مفارش وتيرة وقد غلّف شعر رأسه ولحيته بالمسك، ووجهه إلى الحائط، وكان من شدّة تيهه لا يقعد إلاَّ كذلك.

قال الفضل: فوقفت أسفل الإيوان، وسلمت عليه فلم يردّ السلام، فسلمت عليه عن أبي وقصصت عليه القصة، فسكت ساعة ثم قال: حتى ننظر.

فخرجت من عنده نادماً على نقل خُطاي إليه، موقناً بالحرمان عاتباً على أبي كونه كلّفني إذلال نفسي بما لا فائدة فيه، وعزمت على أن لا أعود إليه غيظاً منه. فغبت عنه ساعة ثم جئته وقد سكن ما عندي، فلما وصلت إلى الباب وجدت أبغالاً محمّلة. فقلت: ما هذه؟

فقيل: إن عمارة قد سيَّر المال، فدخلت على أبي ولم أُخبره بشيء ممّا جرى لي معه كيلا أُكدّر عليه إحسانه. فمكثنا قليلاً، وعاد أبي إلى الولاية وحصلتْ له أموال كثيرة فدفع إليَّ ذلك المبلغ وقال: تحمله إليه.

فجئت به ودخلت عليه، فوجدته على الهيئة الأولى، فسلمت عليه فلم يرد، فسلمت عليه عن أبي وشكرت إحسانه وعرّفته بوصول المال، فقال لي بحرَدٍ: ويحك أقسطاراً[1] كنت لأبيك؟ اخرجْ عنّي لا بارك الله فيك، وهو لك.

فخرجت ورددت المال إلى أبي وعجبنا من حاله، فقال لي: يا بني، والله ما تسمح نفسي لك بذلك، ولكن خذ ألف ألف درهم واترك لأبيك ألفي ألف درهم، فتعلّمت منه الكرم والتيه.

وحكى الجهشياري في «أخبار الوزراء» هذه الحكاية، لكن بين الحكايتين

(١) القسطار: الصيرفي.

اختـلاف قليل، وذكـر أن جملة المال ألف ألف درهم، وكـان ذلك في أيـام المهدي، وكان يحيى قد ضمن فارس فانكسر عليـه المال، وقـال المهدي لمن يـطالبه بـالمال: إن أدّى لك المال قبـل المغرب من يـومنا هـذا وإلاّ فأتني بـرأسه، وكـان المهدي مغضبـاً عليه.

١٥٦

من فضائل الفضل بن يحيـى

يُحكى أن الفضل بن يحيى البرمكي دخل عليه حاجبه يوماً فقـال له: إن بـالباب رجلاً زعم أن له سبباً يمتّ به إليـك. فقال: ادخله، فـأدخله فإذا هـو شاب حسن الـوجه رث الهيئـة، فسلم، فأومـأ إليه بـالجلوس فجلس فقال لـه بعد سـاعـة: مـا حاجتك؟ قال، أعلمتك بها رثاثة ملبسي. قال: نعم، فما الذي تمتّ به إليَّ؟

قـال: ولادة تقرب من ولادتـك، وجـوارٍ يـدنـو من جـوارك، واسم مشتق من اسمك.

قال الفضل: أمّا الجوار فيمكن، وقـد يوافق الاسم الاسم، ولكن مـن أعلمك بالولادة؟

قال: أخبرتني أمي أنها لما ولدتني قيل لها: قـد ولد هـذه الليلة ليحيى بن خالـد غلام وسمي الفضل، فسمّتني أمي فضيـلاً إكباراً لإسمـك أن تلحقني به، وصغـرته لقصور قدري عن قدرك، فتبسّم الفضل وقال له: كم أتى عليك من السنين؟

قال: خمس وثلاثون سنة.

قال: صدقت، هذا المقدار الذي أعُدُّ.

قال: فما فعلت أمّك؟

قال: ماتت.

قال: فما منعك من اللحاق بنا متقدماً؟

قال: لم أرضَ نفسي للقائك، لأنها كانت في عامية معها حداثة تقعدني عن لقاء الملوك، وعلق هذا بقلبي منذ أعـوام، فشغلت نفسي بما يصلح للقـائك حتى رضيت نفسي.

قال: فما تصلح له؟

قال: الكبير من الأمر والصغير.

قال: يا غلام، أعطه لكل عام مضى من سنّه ألف درهم، وأعطه عشرة آلاف درهم يجمل بها نفسه إلى وقت استعماله واشتغاله.

١٥٧

لو طابت لأولئك لطابت لي

كان الفضيل بن عياض الزاهد المشهور من كبار السادات. حدث سفيان بن عينيه قال:

دعانا هارون الرشيد فدخلنا عليه، ودخل الفضيل آخرنا مقنعاً رأسه بردائه، فقال لي: يا سفيان، وأيّهم أمير المؤمنين؟

فقلت: هذا، وأومأت إلى الرشيد.

فقال له: يا حسن الوجه، أنت الذي أمْرُ هذه الأمّة في يدك وعنقك؟ لقد تقلدت أمراً عظيماً، فبكى الرشيد، ثم أُتيَ كلُّ رجلٍ منا ببدرة(١)، فكلٌّ قبلها إلّا الفضيل.

فقال الرشيد: يا أبا علي - كنية الفضيل - إن لم تستحلّ أخذها فاعطها ذا دَيْنٍ أو اشبع بها جائعاً أو أكسُ بها عارياً، فاستعفاه منها.

فلما خرجنا قلت: يا أبا علي، أخطأت، ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البرّ؟ فأخذ بلحيتي ثم قال: يا أبا محمد، أنت فقيه البلد والمنظور إليه وتغلط مثل هذا الغلط؟ لو طابت لأولئك لطابت لي.

*

---

(١) البدرة: كمية من الدراهم موضوعة في كيس، قيل تساوي عشرة آلاف درهم.

١٥٨

أم البنين وعزّة الميلاء

يقال إن عزّة الميلاء صاحبة كثيِّر دخلت على أم البنين ابنة عبد العزيز، وهي أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك، فقالت لها: أرأيت قول كثّير:

قضى كل ذي دينٍ فوفَّى غريمهُ وعزّه ممطول مُعَنىً غريمُها

ما كان ذلك الدين؟

قالت: وعدته قبلة فحرِجتُ منها.

فقالت أم البنين: انجزيها وعليَّ إثمها.

قالوا: ثمّ ندمت أم البنين فاستغفرت الله تعالى وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة.

١٥٩

العتّابي والمأمون وإسحاق الموصليّ

لما قدم كلثوم بن عمرو المعروف بالعتّابي، الشاعر المشهور مدينة السلام[1] على المأمون أذن له فدخل وعنده إسحاق الموصليّ، وكان العتّابي شيخاً جليلاً نبيلاً، فسلّم فردّ عليه وأدناه وقرّبه حتى قرب منه فقبّل يده، ثم أمره بالجلوس فجلس، ثم أقبل عليه يسأله عن حاله وهو يجيبه بلسان طلق، فاستطرف المأمون ذلك منه فأقبل عليه بالمداعبة والمزح، فظن الشيخ أنه استخفّ به فقال: يا أمير المؤمنين الإيناس قبل الابساس[2]، فاشتبه على المأمون قوله فنظر إلى إسحاق مبتسماً فأومأ إليه بعينه وغمزه على معناه حتى فهمه ثم قال: يا غلام، ألف دينار، فأتى بذلك فوضعه بين يدي العتابي وأخذوا في الحديث، ثم غمز المأمون إسحاق بن ابراهيم الموصليّ عليه،

---

(١) مدينة السلام: بغداد.

(٢) الإبساس: ضد الإيناس.

فجعل العتّابي لا يأخذ في شيء إلاّ عارضه فيه إسحاق بن ابراهيم، فبقي العتابي متعجباً ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في مسألة هذا الشيخ عن اسمه؟

قال: نعم سلهُ.

فقال إسحاق: يا شيخ، من أنت وما اسمك؟

قال: أنا من الناس واسمي كُلْ بَصَلْ. فتبسّم العتابي ثم قال: أما النسب فمعروف وأما الاسم فمنكر.

فقال له إسحاق: ما أقلّ انصافك! أتنكر أن يكون اسمي كُلْ بَصَل واسمك كُلْ ثُوْم؟ وما كلثوم من الأسماء؟ أو ليس البصل أطيب من الثوم؟

فقال له العتابي: لله درّك ما أحجك، أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أصله بما وصلتني به؟

فقال له المأمون: بل ذلك موفّر عليك ونأمر له بمثله.

فقال إسحاق الموصليّ: أما إذا أقررت بهذه فتوهمني تجدني.

فقال له: ما أظنّك إلاّ إسحاق الموصلي الذي تناهى إلينا خبره.

فقال: أنا حيث ظننت. فأقبل عليه بالتحية والسلام.

فقال المأمون وقد طال الحديث بينهما: أمّا إذا اتفقتما على المودّة فانصرفا.

فانصرف العتّابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

١٦٠

القليل محمود

قال الأصمعي: كتب كلثوم بن عمرو العتّابي إلى رجل:

إن الكريمَ ليخفي عنك عسرته   حتى تراهُ غنياً وهو مجهودُ

وللبخيل على أمواله عِلَلٌ   زرق العيون عليها أوجه سودُ

بُثَّ النوال ولا يمنعك قلّتهُ   فكل ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

قال: فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفرد نعله.

*

١٦١

اشترينا لسانه وقبلنا هديّته

قرأت في كتاب فوات الوفيات أن المهدي جلس جلوساً عاماً فدخل عليه رجل من العامة وبيده منديل فيه نعل، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه نعل رسول الله (ص) قد أهديتها لك، فأخذها منه وقبّلها ووضعها على عينيه وأعطاه عشرة آلاف درهم.

فلما خرج قال المهدي لجلسائه: ما ترون؟ إني أعلم أن رسول الله (ص) لم يرها ولم يلبسها وهي ليست له، لكن لو كذبناه لقال للناس: أتيتُ أمير المؤمنين بنعل رسول الله (ص) فردّها عليَّ، وكان من يصدّقه أكثر ممّن يكذبه، إذ كان من شأن العامة الميل إلى أشكالها، والنصرة للضعيف على القويّ وإن كان ظالماً. ولهذا فقد اشترينا لسانه وقبلنا هديّته وصدَّقنا قوله، وكان الذي فعلناه أرجح وأنجح.

١٦٢

باعه عرضه برغيف

كان مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني أحد فحول الشعراء، مدح الرشيد فأمر له بأموال طائلة ومدح يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني فأجازه مرّة بمائة وتسعين ألف درهم وأقطعه إقطاعات تبلغ مائتيْ ألف درهم.

قال مسلم: ثم أفضت الأمور بعد ذلك إلى أن أغضبني يزيد المذكور فهجوته، فشكاني إلى الرشيد، فدعاني وقال: أتبيعني عِرض يزيد؟

قلت: نعم.

قال: بكم؟

قلت: برغيف. فغضب الرشيد حتى خفته على نفسي وقال: قد كان رأيي أن أشتريه منك بمالٍ جسيم، ولست أفعل ولا كرامة، وأنا بريء من أبي، ووالله، إن بلغني أنك هجوته لأنزعنَّ لسانك من بين فكّيك. قال: فأمسكت عنه بعد ذلك ولم أذكره.

١٦٣

المعتصم ذاك المثمن القويّ

كان المعتصم أبيض أصهب اللحية، ربع القامة، ذا شجاعة وقوة وهمّة عالية، وكان يقال له «المثمن» لأنه ثامن خلفاء بني العباس، وملك ثماني سنين وثمانية أشهر وخلف ثمانية أولاد وثماني بنات وعمره ٤٨ سنة، وفتح ثمانية فتوح وقتل ثمانية أعداء وهم: بابك وباطيش، ومازيار، والأفشين، وعجيف، وقاروت، وقائد الرافضة ورئيس الزنادقة. وخلّف من الذهب ثمانية آلاف ألف دينار، ومن الدراهم مثلها، ومن الخيل ثمانين ألف فارس، وثمانية آلاف مملوك، وثمانية آلاف جارية، وبنى ثمانية قصور وتوفي سنة ثمانمائة وواحد وأربعين م.

قال أحمد بن أبي دُواد:

كان المعتصم يخرج يده إليَّ ويقول: عضّ ساعدي بأكبر قوّتك، فأقول: ما تطيب نفسي، فيقول: إنه لا يضرّني، فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنان.

وقبض يوماً على جندي أخذ ابناً لامرأة فأمره بردّه فأبى، فقبض عليه، فسمعت صوت عظامه، ثم أطلقه فسقط، وكان ذلك في حياة المأمون. وجعل زند رجلٍ بين إصبعيه فكسره.

١٦٤

لم تنزل بالرَّها

* كان مزبد المدني كثير المجون حلو النادرة له أخبار كثيرة في البخل. رآه إنسان وهو بالرُّها وعليه جبّة خزّ فقال: هبْ لي هذه الجبة، فقال: ما أملك غيرها. فقال الرجل: فإن الله تعالى يقول: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1].

فقال: الله أرحم بعباده من أن ينزل هذه الآية بالرُّها في كانون، وإنما أُنزلتْ بالحجاز في حزيران وتموز وآب.

---

(١) سورة الحشر: آية ٩.

* وباع جارية على أنها تحسن الطبخ جيداً، فلم تحسن شيئاً، فطُلب إلى القاضي وطُولب بأن يحلف على أنها تحسن الطبيخ، فاندفع وحلف أيماناً مُغلّظة أنه دفع إليها مرّة جرادة فعملت منها خمسة ألوان من الطعام وفضل منها شريحة للقديد، سوى الجنب فإنها عملته جوذابة. فضحك من حضر ويئس الخصم من الوصول إلى شيء منه فخلّى سبيله.

١٦٥

ما وجدتِ تاريخاً غيره؟!

كان علي بن المحسن بن علي، أبو القاسم التنوخي ظريفاً نبيلاً، تقلّد قضاء عدة نواحٍ منها المدائن واذربيجان وغيرهما، وكان جيّد النادرة.

اجتاز يوماً في بعض الدروب فسمع امرأة تقول لأخرى: كم عمر بنتكِ يا أختي؟

فقالت: رزقتها يوم صُفع القاضي التنوخي وضرب بالسياط.

فرفع رأسه إليها وقال: يا بظراء[1]، صار صفعي تاريخك؟! ما وجدتِ تاريخاً غيره!!

١٦٦

أتوب ولا أعود

وكان أبو القاسم التنوخي، الذي سبق ذكره، نائماً في أحد الأيام فاجتاز واحد غثّ وأزعجه مما يصيح: شراك النعال، شراك النعال. فقال لغلامه: أجمع كل نعل في البيت وأعطها لهذا يصلحها ويشتغل بها حتى لا نسمع مرّة ثانية صوته المزعج، ثم نام.

وأصلحها الإسكافي واشتغل بها إلى آخر النهار ومضى لشأنه. فلما كان في اليوم الثاني فعل كما فعل في المرّة الأولى فلم يدعه ينام. فقال للغلام: ادخله، فأدخله

(١) البظراء: ذات البظر، وهو اللحمة الناتئة بين شفرتي فرج المرأة.

فقال له: يا ماصَّ بظر أمّه[1]، أمس أصلحت كل نعلٍ عندنا، واليوم تصيح على بابنا، هل بلغك أننا نتصافح بالنعال ونقطعها؟! قفاه، قفاه. فقال: يا سيّدي أتوب ولا أعود أدخل إلى هذا الدرب أبداً.

قلت: وهذا أبو القاسم من أهل بيت كلّهم فضلاء، ذكر ابن خلّكان أباه المحسن وجدّه القاضي التنوخي الكبير.

١٦٧

كافور الأخشيدي وابن جابار

ذكر المسبحي في تاريخه قال:

حدّثني أبو الدابة كاتب أبي بكر القمي عن أبي الحسن البغدادي قال:

وردت إلى مصر مع والدي وأنا صبيّ دون البلوغ في أيام كافور، وكان أبو بكر المحلي يتولى نفقات مصالحه وخواص خدمه. وقد نتجت بينه وبين أبي مودّة، وكان يزوره ويصله.

قال: فجاءه ذات يوم فتذاكرا أخبار كافور وطريقته وما هو عليه من الخشوع، فقال أبو بكر لأبي وأنا أسمع: هذا الأستاذ كافور له في كل عيد أضحى عادة، وهي أن يسلّم إليَّ بغلاً محملاً ذهباً وورِقاً[2] وجريدة تتضمّن أسماء قوم من حدّ القرافة إلى المنامة وما بينهما، ويمضي معي صاحب الشرطة ونقيب[3] يعرف المنازل، وأطوف من بعد العشاء الآخرة إلى آخر الليل حتى أسلّم ذلك إلى من جعل له وتتضمّن اسمه الجريدة، وأطوف منزل كل إنسان ما بين رجلٍ وامرأة وأقول: الأستاذ أبو المسك كافور يهنيك بعيدك ويقول: اصرف هذا في منفعتك، فأدفع إليه ما جُعل له.

فلمّا كان في هذا العيد جريتُ على العادة ورأيته زادني في الجريدة الشيخ أبا عبد الله بن جابار مائة دينار. فأنفقتُ المال في أربابه ولم يبقَ إلاّ الصرّة، فجعلتها في كميّ وسرتُ مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة، فطرقت الباب فنزل إلينا

(١) هو سبٌّ كان يجري على ألسنة العرب قديماً.
(٢) الورق: الفضة.
(٣) النقيب: بمعنى الرئيس.

شيخ عليه أثر السهر فسلمت عليه فلم يردّ عليّ وقال:
ما حاجتك؟

قلت: الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام.

فقال: والي بلدنا؟

قلت: نعم.

قال: حفظه الله، الله يعلم أنني أدعو له في الخلوات وأدبار الصلوات وللمسلمين بما الله سامعه ومجيبه.

قلت: وقد أنفذ معي هذه الصرّة وهو يسألك قبولها لتصرفها في مؤونه هذا العيد المبارك.

فقال: نحن رعيته ونحن نحبه في الله تعالى وما نفسد هذا بعلّة.

فراجعته القول فتبينّ لي الضجر في وجهه والقلق والتلهف واستحييت من الله تعالى أن أقطعه عمّا هو عليه فتركته وانصرفت.

قال: فجئت فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب وهو ينتظرني فلما رآني قال: هيه يا أبا بكر، فقلت له: أرجو أن يستجيب الله تعالى فيك كل دعوة صالحة دعيت لك في هذه الليلة وفي هذا اليوم الشريف.

فقال: الحمد لله الذي جعلني سبباً لإيصال الراحة إلى عياله، ثم أخبرته بامتناع ابن جابار ـ وكان صوفياً زاهداً ـ.

فقال: نعم هو بذلك جدير، لم يجرِ بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم.

ثم قال لي: عُدْ إليه واركب دابة من دواب النوبة فلست أشكك فيما لقيت في هذه الليلة من التعب، ثم امضِ إليه وأطرق بابه فإذا نزل إليك فإنه سيقول:

ألم تكن عندنا؟ فلا ترد عليه جواباً ثم استفتح واقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ... أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرةً لمن يخشى. تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى، الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾[1].

(1) ...ه: الآيات ١ ـ ٦.

يا ابن جابار، يقول لك كافور: ومن كافور العبد الأسود ومن مولاه ومن الخلق؟ أبقي لأحد مع الله تعالى ملكة أو شركة؟ تلاشى الناس كلّهم، ها هنا تدري من معطيك وعلى من رددت أنت ما سألت، هو أرسل إليك يا ابن جابار، ما تفرق بين السبب والمسبب!

قال: فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل إليّ وقال لي مثل لفظ كافور، فأضربت عن الجواب وقرأت طه ثم قلت له ما قال كافور. فبكى ابن جابار وقال: أين ما حملت؟ فأخرجت له الصرّة فأخذها وقال: علّمنا الأستاذ كيف التصوّف. قل له: أحسن الله جزاءك.

قال: فعدت إليه فأخبرته فسُرّ بذلك ثم سجد لله تعالى شكراً وقال: الحمد لله الذي جعلني سبباً لإيصال الراحة إلى عباده ثم ركب حينئذٍ.

١٦٨

أتريد أن يكون عسكرك العشرين؟!

عن عبد الله بن محمد عن أبيه قال:

لما تُوفّي أبو العباس السفاح[1] دخل أبو دُلامة الشاعر المشهور بنوادره وطرائفه على المنصور والناس عنده يعزّونه فأنشأ يقول:

ويلي عليك وويل أهلي كلّهم ... ويلاً وعَوْلاً في الحياة طويلا
فَلْتبكينَّ لك النساء بعبرةٍ ... وليبكينّ لك الرجال عويلا
مات الندى إذ متّ يا بن محمدٍ ... فجعلته لك في الثراء عديلا
إني سألت الناس بعدك كلّهم ... فوجدت أسمح من سألت بخيلا...

قال: فأبكى الناس قوله. فغضب المنصور غضباً شديداً وقال: لئن سمعتك تُنشد هذه القصيدة لأقطعنَّ لسانك.

فقال أبو دلامة: يا أمير المؤمنين، إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مكُرماً وهو

(١) هو أول الخلفاء العباسيين، توفي سنة ١٣٦ هـ.

الذي جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف إليه، فقل كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليومَ يغفر الله لكم وهو أرحمُ الراحمين﴾[1].

فسُرّيَ عن المنصور وقال: وقد أقلناك يا أبا دُلامة، فسلْ حاجتك.

فقال: يا أمير المؤمنين، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض ولم أقبضها.

فقال المنصور: ومن يعرف هذا؟

فقال: هؤلاء، وأشار إلى جماعة ممن حضر. فوثب سليمان بن مُجالد وأبو الجهم فقالا: صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك.

فقال المنصور لأبي أيوب الخازن وهو مغيظ: يا سليمان ادفعها إليه وسيّره إلى هذا الطاغية (يعني عبد الله بن علي[2] وقد كان خرج بناحية الشام وأظهر الخلاف.

فوثب أبو دلامة وقال: يا أمير المؤمنين، إني أُعيذك بالله أن أخرج معهم، فوالله إني لمشؤوم.

قال المنصور: امضِ فإن يُمني يغلب شؤمك فاخرجْ.

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أُحب لك أن تجرّب ذلك مني على مثل هذا العسكر، فإني لا أدري أيهما يغلب: أيمنك أم شؤمي، إلاّ أنني بنفسي أوثق وأعرف وأطول تجربة.

قال: دعني من هذا فما لك من الخروج بدٌّ.

فقال: إنّي أصدقك الآن، شهدتُ والله تسعة عشر عسكراً كُلّها هُزِمتْ، وكنت سببها. فإن شئت الآن على بصيرة أن يكون عسكرك العشرين فافعلْ.

فاستغرب أبو جعفر ضحكاً[3]، وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى[4] بالكوفة.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٢.

(٢) عبد الله بن علي: أمير، هو عم الخليفة المنصور، توفي سنة ١٤٧ هـ.

(٣) استغرب ضحكاً: أي أكثر من الضحك وبالغ فيه.

(٤) عيسى بن موسى: أمير من الولاة الفاتحين، وهو ابن أخي السفاح، توفي سنة ١٦٧ هـ.

١٦٩

يريد أن يلقى بها رسول الله (ص)

رأيت في بعض المجاميع أن الشاعر أبا دُلَف العجلي لمّا مرض مرض موته حجب الناس عن الدخول عليه لثقل مرضه. فاتّفق أنه أفاق في بعض الأيام، فقال لحاجبه: من بالباب من المحتاجين؟ فقال: عشرة من الأشراف، وقد وصلوا من خراسان، ولهم بالباب عدة أيام لم يجدوا طريقاً، فقعد على فراشه واستدعاهم، فلما دخلوا رحّب بهم وسألهم عن بلادهم وأحوالهم وسبب قدومهم، فقالوا: ضاقت بنا الأحوال، وسمعنا بكرمك فقصدناك، فأمر خازنه بإحضار بعض الصناديق، وأخرج منه عشرين كيساً في كل كيس ألف دينار، ودفع لكل واحد منهم كيسين، ثم أعطى كل واحد منهم مؤونة طريقه وقال لهم: لا تمسُّوا الأكياس حتى تصلوا بها سالمة إلى أهلكم، واصرفوا هذا في مصالح الطريق.

ثم قال: ليكتب لي كل واحدٍ منكم خطه: أنه فلان بن فلان حتى ينتهي إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويذكر جدّته فاطمة بنت الرسول (ص) ثم ليكتب: يا رسول الله إني وجدت إضافةً وسوء حال في بلدي وقصدت أبا دُلَف العجلي فأعطاني ألفيْ دينار كرامة لك، وطلباً لمرضاتك، ورجاء لشفاعتك.

فكتب كل واحد منهم ذلك، وتسلَّمَ الأوراق. وأوصى من يتولى تجهيزه إذا مات أن يضع تلك الأوراق في كفنه، حتى يلقي بها رسول الله (ص) ويعرضها عليه.

١٧٠

سلي أخاك حماداً

كانت بين الفقيه محمد بن أبي ليلى وبين أبي حنيفة وحشة يسيرة. وكان يجلس للحكم في مسجد الكوفة. فيحكى أنه انصرف يوماً من مجلسه، فسمع امرأة تقول لرجل:

يا ابن الزانيين، فأمر بها فأُخذت ورجع إلى مجلسه، وأمر بها فضربت حدّين وهي قائمة.

فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: أخطأ القاضي في هذه الواقعة في ستة أشياء:

* في رجوعه إلى مجلسه بعد قيامه منه، ولا ينبغي له أن يرجع بعد أن قام منه.

* وفي ضربه الحدّ في المجلس، وقد نهى رسول الله (ص) عن إقامة الحدود في المساجد.

* وفي ضربه المرأة قائمة، وإنما تضرب النساء قاعدات كاسيات.

* وفي ضربه إيّاها حدّين، وإنما يجب على القاذف إذا قذف جماعة بكلمة واحدة حدّ واحد.

* ولو وجب أيضاً حدان لا يوالي بينهما بل يضرب أولاً ثم يترك حتى يبرأ من ألم الأول.

* وفي إقامة الحدّ عليها بغير طالب.

فبلغ ذلك محمد بن أبي ليلى، فسيّر إلى والي الكوفة وقال: ها هنا شاب يقال له أبو حنيفة يعارضني في أحكامي ويُفتي بخلاف حكمي ويشنّع عليَّ بالخطأ، فأريد أن تزجره عن ذلك، فبعث إليه الوالي ومنعه عن الفتيا.

فيقال إنه كان يوماً في بيته وعنده زوجته وابنه حماد وابنته، فقالت له ابنته:

إني صائمة وقد خرج من بين أسناني دم وبصقته حتى عاد الرّيق أبيض لا يظهر عليه أثر الدم، فهل أفطر إذا بلعت الآن الريق؟

فقال لها: سلي أخاك حماداً فإن الأمير منعني من الفتيا.

وهذه الحكاية معدودة في مناقب أبي حنيفة وحسن تمسّكه بامتثال إشارة ربّ الأمر، فإن اجابته طاعة، حتى إنه أطاعه بالسرّ، ولم يردّ على ابنته جواباً، وهذا غاية ما يكون من امتثال الأمر.

*

البخاري العالم بالحديث

حكى أبـو عبد الله الحميـدي في كتاب «جـذوة المقتبس»[١] والخطيب في «تـاريخ بغداد»[٢] أن البخاري لمّا قدم بغداد سمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هـذا الإسناد لإسنـاد آخر، ودفعـوا إلى عشرة أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس يُلقـون ذلك على البخاري، وأخذوا الموعد للمجلس، فحضر المجلس جماعة من أصحـاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغـداديين، فلمّا اطمـأنّ المجلس بأهله انتدب إليه واحد من العشرة، فسـأله عن حـديث من تلك الأحاديث، فقـال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقـول: لا أعرفـه، فكان الفقهـاء ممّن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: الرجل فهم، ومن كان منهم ضدّ ذلـك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلّة الفهم.

ثم انتدب رجل آخر من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة، فقال البخاري: لا أعـرفه، فسـأله عن آخـر فقال: لا أعـرفه، فلم يـزل يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه.

ثم انتـدب الثالث والـرابـع إلى تمـام العشرة حتى فـرغـوا كلّهـم من الأحـاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على قوله: لا أعرفه.

فلما علم البخاري أنهم فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أمّـا حديثـك الأول فهو كذا، وحديثك الثاني فهو كذا، والثالث والرابع عـلى الولاء، حتى أتى عـلى تمام العشرة، فردَّ كل متنٍ إلى إسناده وكلّ إسنـادٍ إلى متنه، وفعـل بالآخـرين كذلـك، ورد متون الأحاديث كلّها إلى أسانيـدها وأسـانيدهـا إلى متونها، فـأقرّ لـه الناس بـالحفظ وأذعنوا له بالفضل.

(١) راجع: «الجذوة»، ص ١٢٨.

(٢) راجع: «تاريخ بغداد»، ٢: ٢٠.

وقف حمار الشيخ في العقبة

أبو علي الجبائي، كان إماماً في علم الكلام، وله في مذهب الإعتزال مقالات مشهورة، وله مناظرة روتها العلماء. فيقال إن أبا الحسن الأشعري سأله عن ثلاثة إخوة:

أحدهم كان مؤمناً براً تقياً.

والثاني كان كافراً فاسقاً شقياً.

والثالث كان صغيراً، فماتوا فكيف حالهم؟

فقال الجبائي: أمّا الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر في الدركات، وأمّا الصغير فمن أهل السّلامة.

فقال الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟

فقال الجبائي: لا، لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة، وليس لك تلك الطاعات.

فقال الأشعري: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس منّي، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة.

فقال الجبائي: يقول الباري جلَّ وعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقاً للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك.

فقال الأشعري: فلو قال الأخ الكافر: يا إله العالمين، كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلِمَ راعيت مصلحته دوني؟

فقال الجبائي للأشعري: إنك مجنون.

فقال: لا، بل وقف حمار الشيخ في العقبة. فانقطع الجبائي.

وهذه المناظرة دالّة على أن الله تعالى خصَّ من شاء برحمته، وخصّ آخر بعذابه، وأن أفعاله غير معلّلة بشيء من الأغراض.

*

١٧٣

هل الرشيد من أهل الجنة؟

كان هارون الرشيد قد حلف أنه من أهل الجنّة، فاستفتى العلماء فلم يفته أحد بأنه من أهلها فقيل له عن أبي العباس محمد بن صبيح المعروف بابن السمّاك وكان زاهداً عابداً صاحب مواعظ، فاستحضره وسأله، فقال له: هل قدر أمير المؤمنين على معصية فتركها خوفاً من الله تعالى؟

فقال: نعم، كان لبعض الناس جارية فهويتها وأنا إذ ذاك شاب، ثم إني ظفرت بها مرّة، وعزمت على ارتكاب الفاحشة معها، ثم إنّي فكّرت في النار وهولها، وأن الزنا من الكبائر، فأشفقت من ذلك، وكففت عن الجارية مخافة من الله تعالى.

فقال له ابن السّماك: أبشر يا أمير المؤمنين فانك من أهل الجنة.

فقال هارون الرشيد: ومن أين لك هذا؟

فقال: من قوله تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى﴾[1] فسُرَّ الرشيد بذلك.

١٧٤

اجعل حماري في ضيافة مهرك

نقلت من كتاب «الهدايا والتحف»[2] ان اللبادي الشاعر خرج من بعض مدن أذربيجان يريد أخرى، وتحته مهر له رائع، وكانت السنة مجدبة، فضمّه الطريق وغلاماً حدثاً على حمار له، قال: فحادثته فرأيته أديباً راوية للشعر، خفيف الروح حاضر الجواب جيد الحجة، فسرنا بقية يومنا، فأمسينا إلى خان على ظهر الطريق، فطلبت من صاحبه شيئاً نأكله، فامتنع أن يكون عنده شيء، فرفقت به إلى أن جاءني برغيفين، فأخذت واحداً ودفعت إلى ذلك الغلام الآخر، وكان غميّ على

---

(١) سورة النازعات: آية ٤٠.

(٢) «الهدايا والتحف»، ص ٩٤.

المهر أن يبيت بغير علفٍ أعظم من غمّي على نفسي، فسألت صاحب الخان عن الشعير فقال: ما أقدر منه على حبة واحدة.

فقلت: فاطلب لي، وجعلت له جعيلة[1] على ذلك، فمضى وجاءني بعد وقت طويل وقال: قد وجدت مكّوكين عند رجل حلف بالطلاق أنه لا ينقصهما عن مائة درهم. فقلت: ما بعد يمين الطلاق كلام، فدفعت إليه خمسين درهماً، فجاءني بمكوك، فعلقته على دابتي وجلست أُحادث الفتى، وحماره واقف بغير علف، فأطرق ملياً ثم قال: تسمع، أيّدك الله، أبياتاً حضرت الساعة؟

فقلت: هاتها، فأنشد:

يا سيدي شعري نفاية شعركا	فلذاك نظمي ما يقوم بنثركا
وقد انبسطتُ إليك في إنشاد ما	هو في الحقيقة قطرة من بحركا
آنستني وسررتني وبررتني	وجعلت أمري من مقدّم أمركا
وأريد أذكر حاجةً إن تقضها	أكُ عبد مدحك ما حييت وشكركا
أنا في ضيافتك العشية ها هنا	فاجعلْ حماري في ضيافة مهركا

فضحكت واعتذرت إليه من إغفالي أمر حماره، وابتعتُ المكُّوك الآخر بخمسين درهماً ودفعته إليه.

١٧٥

الأبله

وجدت في كتاب «الهدايا والتحف» أن أبا القاسم نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون البصري المعروف بالخبز أرزي الشاعر المشهور نادرة طريفة فأحببت إثباتها هنا وهي[2]:

كان بأصبهان رجل حسن النعمة واسع النفس كامل المروءة يقال له سماك بن النعمان، وكان يهوى مغنية من أهل أصبهان لها قدر ومعنى تعرف بأم عمرو.

---

(١) الجعيلة: الأجير.

(٢) انظر: «الهدايا والتحف»، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

ولإفراط حبّه إياها وصبابته بها وهبها عدّة من ضياعه، وكتب عليه بذلك كتباً، وحمل الكتب إليها على بغل، فشاع الخبر بذلك، وتحدث الناس به واستعظموه.

وكان بأصبهان رجل متخلف بيّن الركاكة يهوى مغنية أخرى فلما اتصل به ذلك ظن بجهله وقلّة عقله أن سماكاً أهدى إلى أم عمرو جلوداً بيضاً لا كتابة فيها، وأن هذا من الهدايا التي تُستحسن ويجلّ موقعها عند من تُهدى إليه. فابتاع جلوداً كثيرة، وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية سماك، وأنفذها إلى التي يحب، فلما وصلت الجلود إليها ووقفت على الخبر فيها تغيّظت عليه، وكتبتْ إليه رقعة تشتمه وتحلف أنها لا تكلّمه أبداً، وسألت بعض الشعراء أن يعمل أبياتاً في هذا المعنى لتودعها الرقعة، ففعل، وكانت الأبيات:

لا عاد طوعك من عصاكا ... وحُرِمْتَ من وصلٍ مُناكا
فلقد فضحت العاشقيـ ... ـن بقبح ما فعلتْ يداكا
أرأيت من يهدي الجلو ... د إلى عشيقته سواكا
وأظن أنك رمت أن ... تحكي بفعلك ذا «سماكا»
ذاك الذي أهدى الضيا ... ع لأمّ عمرو والصّكاكا
فبعثت منتنةً كأنـ ... ـك قد مسحت بهنّ فاكا
من لي بقربك يا رقيـ ... ـع ولست أهوى أن أراكا
لكن لعلّي أن أقطّـ ... ـع ما بعثت على قفاكا

١٧٦

هذا من معرفة علم النجوم

حكى ابن أبي منصور الجواليقي، أبو محمد اسماعيل، وكان من أنجب أولاده قال:

كنت في حلقة والدي يوم الجمعة بعد الصلاة بجامع القصر، والناس يقرأون عليه، فوقف عليه شاب وقال: يا سيدي، قد سمعت بيتين من الشعر ولم أفهم معناهما، وأريد أن تسمعهما مني وتعرّفني معناهما فقال: قُلْ، فأنشده:

وَصْلُ الحبيب جِنانُ الخلد أسكنها ... وهجره النار يصليني به النارا

فـالشمس بالقـوس أمست وهي نـازلـةً إن لم يـزرني، وبـالجـوزاء إن زارا

قـال إسماعيـل: فلما سمعهما والـدي قال: يـا بنيّ، هذا شيء من معـرفـة علم النجوم وتسييرها لا من صنعة أهل الأدب، فانصرف الشاب من غير حصول فائدة، واستحيا والدي من أن يُسـأل عن شيء ليس عنده منـه علم، وقام، وآلى عـلى نفسه أن لا يجلس في حلقته حتى ينظر في علم النجـوم ولا يعرف تسيـير الشمس والقمر، فنظر في ذلك وحصل معرفته، ثم جلس.

ومعنى البيت المسؤول عنـه أن الشمس إذا كانت في آخـر القوس كـان الليل في غاية الطول، لأنه يكون آخر فصل الخريف، وإذا كانت في آخر الجـوزاء كان الليـل في غاية القصر، لأنه آخر فصل الربيع، فكأنه يقول: إذا لم يـزرني فالليـل عندي في غاية الطول، وإن زارني كان الليل عندي في غاية القصر، والله أعلم.

١٧٧

تفل على رجل عبد الملك فشفي

حدث العتبي عن أبيه قال:

دخـل عبد الله بن جعفـر على عبـد الملك بن مروان وهـو يتأوّه، فقـال: يا أمـير المؤمنين، لو أدخلتَ عليك من يُؤنسك بأحاديث العرب وفنون الأسمار؟

قال: لست صاحب هزل، والجدّ مع علّتي أحجى بي.

قال: وما علّتك يا أمير المؤمنين؟

قال: هاج بي عرق النسا في ليلتي هذه فبلغ منّي.

قال: فإن بديحاً مولاي أرقى[1] الناس. فوجّه إليه عبد الملك، فلما مضى الرسول سُقط في يَدَيْ[2] ابن جعفر وقال: كذبـة قبيحة عنـد خليفة. فـما كان بـأسرع من أن طلع بديح فقال: كيف رقيتك من عرق النسا؟

قال: أرقى الخلق يا أمير المؤمنين.

---

(١) ارقى الناس: أي خبير بالرقية.

(٢) سقط في يدي: أي تحيّرت واضطربت.

قال: فسُرّي عن عبد الله لأن بديحاً كان صاحب فكاهة يُعرف بها، فمدّ رجله فتفل عليها وهَمْهَمَ ورقاها مراراً، فقال عبد الملك: الله أكبر وجدت والله خِفةً وراحة يا غلام، ادعُ فلانة حتى تكتب الرقية، فإنا لا نأمن هيجها بالليل فلا نذعر بديحاً.

فلما جاءت الجارية قال بديح: يا أمير المؤمنين، امرأته الطلاق إن كتبتها حتى تعجّل حبائي. فأمر له بأربعة آلاف درهم، فلما صار المال بين يديه قال: وامرأته طالق إن كتبتها أو يصير المال إلى منزلي. فأمر فحُمل إلى منزله، فلما أحرزه قال: يا أمير المؤمنين، امرأته طالق إن كنت قرأت على رجلك إلاَّ أبيات نُصيب:

ألا إن ليلى العامرية أصبحت على النأي مني ذنب غيريَ تنقمُ

قال: ويلك ما تقول؟

قال: امرأته طالق إن كان رقاك إلاَّ بما قال.

قال: فاكتمها عليَّ.

قال: وكيف ذاك وقد سارت بها البُردُ إلى أخيك بمصر؟ فطفق عبد الملك ضاحكاً يفحص برجليه.

١٧٨

الانتحار ولا العار

قال عمرو الشيباني:

أغار حمل بن بدر أخو حذيفة بن بدر الفزاري على بني عبس، فظفر بفاطمة بنت الخُرشب أم الربيع بن زياد وإخوته راكبةً على جمل لها، فقادها بجملها، فقالت له: أيْ رجل، ضلَّ حلمك، والله لئن أخذتني فصارت هذه الأكمة بي وبك التي أمامنا وراءنا لا يكون بينك وبين بني زياد صلحٌ أبداً، لأن الناس يقولون في هذه الحال ما شاؤوه. وحسبك من شرّ سماعه. قال: فإني أذهب بك حتى ترعى عليّ إبلي.

فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من أعلى البعير فماتت خوفاً من أن يلحق بنيها عارٌ فيها.

١٧٩

طلبت عائشة ناراً فجاءها بعد سنة

عن حماد عن أبيه قال:

كان فِنْد أبو زيد مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص خليعاً متهتّكاً، وقد أرسلته عائشة مرّة ليجيئها بنار (جمرة) فخرج لذلك، فلقي عِيراً خارجاً إلى مصر فخرج معهم وأقام هناك عاماً فلما رجع أخذ ناراً ودخل على عائشة وهو يركض فسقط وقد قرب منها، فقال: تَعِسَت العجلة، فقال بعض الشعراء في رجل ذُكِرَ بمثل هذه الحال:

ما رأينا لعُبيدٍ مثلاً إذ بعثناهُ يجي بالمسلة
غير فِنْدٍ بعثوه قابساً[1] فثوى حولاً وسبَّ العجلة

١٨٠

الحارث المتشدّد في أمر الدين

لـمّا ولي عبد الملك الخلافة عام الجماعة، حجّ في تلك السنة. فلما انصرف رحل معه الحارث بن خالد المخزومي إلى دمشق، فظهرت له منه جفوة، وأقام ببابه شهراً لا يصل إليه فانصرف عنه وقال فيه:

صحبتك إذ عيني عليها غشاوةٌ فلـمّا انجلتْ قطّعتُ نفسي ألومُها
وما بِي وإن أُقصيتني من ضراعةٍ ولا افتقرتْ نفسي إلى من يضيمها
عطفتُ عليك النفسَ حتى كأنما بكفيك بؤسي أو عليك نعيمها

وبلغ عبد الملك خبره وأُنشد الشعر، فأرسل إليه من ردّه من طريقه، فلما دخل عليه قال له: حارِ[2]، أخبرني عنك: هل رأيت عليك في المقام ببابي غضاضةً[3] أو في

---

(١) القابس: طالب النار.
(٢) حار: ترخيم حارث، أي: يا حارث.
(٣) غضاضة: منقصة وذلة وعيب.

قصدي دناءة؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين.

قال: فما حملك على ما قلت وفعلت؟

قال: جفوة ظهرت لي، كنت حقيقاً[1] بغير هذا.

قال: فاخترْ، فإن شئت أعطيتك مائة ألف درهم، أو قضيت دينك، أو ولّيتك مكة سنةً. فولّاهُ إيّاها، فحجّ بالناس وحجّت عائشة بنت طلحة[2] عامئذٍ، وكان يهواها، فأرسلت إليه: أخّر الصلاة حتى أفرغ من طوافي. فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها، ثم أُقيمت الصلاة فصلّى بالناس. وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه. فعزله عبد الملك وكتب إليه يؤنّبه فيما فَعَل، فقال: ما أهون والله غضبه إذا رضيتْ عائشة، والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخّرت الصلاة إلى الليل.

فلما قضت حجّها أرسل إليها: يا ابنة عمي أَلّمي بنا أو عدينا مجلساً نتحدث فيه.

فقالت: في غدٍ أفعل ذلك، ثم رحلت من ليلتها.

١٨١

لغز

لتاج الدّين ابن الجرّاح لغز في الدّملج الذي تلبسه النساء، وهو بديع في بابه فأحببت ذكره وهو نثر:

ما شيء قلبه حجر، ووجهه قمر، إن نبذته صبر، واعتزل البشر، وإن أرجعته رضي بالنوى، وانطوى على الخوى، وإن أشبعته قبل قدمك، وصحب خدمك، وإن غلفته ضاع، وإن أدخلته السوق أبى أن يباع، وإن أظهرته جمّل المتاع، وأحسن الإمتناع، وإن شددت ثانية، وحذفت منه القافية، كدّر الحياة، وأوجب التخفيف في الصلاة، وأحدث في وقت العصر الضجر ووقت الفجر الخدر، وجمع بين حسن

---

(١) حقيقاً: جديراً.

(٢) عائشة بنت طلحة: أديبة عالمة بأخبار العرب فصيحة، أمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وخالتها عائشة أم المؤمنين. توفيت سنة ١٠١ هـ.

العقبى وقبح الأثر، هذا وإن فصلته دعا لك، وأبقى ما إن ركبته هالك، وربما بلغك آمالك، وكثر مالك، وأحسن بعون المساكين مآلك، والسلام.

قلت: وهذا اللغز قد يقف عليه من لا يعرف طريق حلّه، فيعسر عليه تفسيره فيحتاج إلى الإيضاح، فأقول:

أمّا قوله: «ما شيء قلبه حجر»: فمراده قلب حروف دملج فإنا إذا قلبنا هذه الحروف يخرج منها «جلمد» وهو الحجر.

وقوله: «ووجهه قمر»: يريد أنه مستدير كالقمر.

وقوله: «إن نبذته صبر واعتزل البشر»: فالبشر جمع بشرة، فالإنسان إذا ألقى الدملج عنه صبر واعتزل بشرته إذ ليس فيه أهلية المنع فهو يصبر ويعتزل المكان الذي كان فيه.

وقوله: «وإن أوجعته رضي بالنوى»: فالنوى لفظ مشترك يقع على البعد وعلى نوى التمر، وعادتهم في بلاد العراق أن يطحنوا نوى التمر والرطب والبسر ويعلفوا به البقر، وقصد ها هنا هذه التورية، فان الدملج إذا خرج من العضد أو من الساق فقد جاع، لأنه يكون فارغ الجوف، ويرضى بالنوى الذي هو البعد عن عضو صاحبه، ويقولون: فلان يرضى بالنوى إذا كان فقيراً لا يجد ما يتبلّغ به فهو يجتزىء بمصّ النوى، وهذا يفعله أهل الحجاز والبلاد المجدبة كثيراً، لقلّة الأقوات عندهم، فقد استعمل صاحب هذا اللغز لفظة النوى في هذين المعنيين وهذه هي التورية.

وقوله: «وانطوى على الخوى»: فالخوى هو الخلوّ وإذا كان فارغ الجوف فهو خاوٍ، وقوله: «أشبعته قبل قدمك»: مراده بالإشباع هنا: لبس، الدملج، فإن صاحبه إذا لبسه فقد ملأ جوفه ويكون فوقه القدم فكأنه يقبله.

وقوله: «وصحب خدمك»: فيه تورية أيضاً فان الخدم جمع خادم، وهذا الجمع قليل الاستعمال لهذا الواحد فإنه لا يقال فاعل وجمعه فَعَل إلاّ في ألفاظ مسموعة مثل خادم وخدم، وغائب وغيب، وحارس وحرس، وجامد وجمد، وغير ذلك، فهو موقوف على السماع، وخدم جمع خدمة أيضاً، وهو سير يُشدّ في رسغ البعير تُشدّ إليه سريحة الفعل وبه سُمّي الخلخال خَدَمة لأنه ربما كان من سيور يركب فيه الذهب والفضة ويجمع على خِدام أيضاً.

وقوله: «وإن غلفته ضاع»: هذا فيه تورية أيضاً، فان التغليف أن يجعل للشيء غلافاً، والتغليف استعمال الطيب أيضاً.

وقوله: «ضاع» فيه تورية أيضاً، فإنه يقال: ضاع الشيء من الضياع، وضاع الطيب إذا عبقت رائحته.

وقوله: «وإن أدخلته السوق أبى أن يباع»: فالسوق جمع ساق وفيه التورية أيضاً لأن السوق موضع البيع والشراء، والسوق كما ذكرناه.

وقوله: «أبى أن يُباع»: لأن العادة أنه لا يُباع إلّا إذا أخرج من العضو الذي هو فيه، ولا يباع قبل إخراجه فكأنه قبل الإخراج أبى البيع.

وقوله: «وإن أظهرته جمل المتاع، وأحسن الإمتاع»: فهذا ظاهر لا حاجة له إلى تفسير.

وقوله: «وإن شددت ثانيه»: وهو الميم.

وقوله: «وحذفت منه القافية» وهي الجيم، فيبقى الدمل وهو يكدّر الحياة بألمه ويوجب التخفيف في الصلاة للألم أيضاً.

وقوله: «وأحدث في وقت العصر الضجر»: فالعصر فيه التورية أيضاً لأنه اسم للصلاة وهو مصدر لفعل عَصَرَ، وكذلك الفجر، لأنه اسم للصبح وهو مصدر لفعل فَجَرَ، فالإنسان في وقت عصر الدمل يحصل له الضجر والقلق وإذا فجره وخلص منه حصل له الخدر والراحة.

وقوله: «وجمع بين حسن العقبى وقبح الأثر»: فقصر المقابلة بين الحسن والقبح، ولا شك أن عقبى انفجار الدمل حسنة، وإن كان الأثر الذي يبقى في المكان قبيحاً.

وقوله: «وإن فصلته دعا لك»: معناه أنك إذا فصلت أحد النصفين من لفظ الدملج من النصف الآخر، فالنصف الأول منه «دُمْ» وهو دعاء للانسان بالدوام.

وقوله: «وأبقى ما إن ركبته هالك» فالباقي منه «لج» واللّج هو لج البحر، وإن كان النصف من الدملج مخففاً. ولجّ البحر مشدّداً لكنهم يغتفرون مثل هذا في الألغاز والتصاحيف والأحاجي ولا يبالون به، ولا شك أن ركوب البحر أمر هائل فلهذا قال: «هالك وربما بلغك آمالك» لأنه يوصل الانسان إلى الموضع الذي يقصده.

وقوله: «وكثر مالك» معناه إذا ركبه الانسان للتجارة.

وقوله: «وأحسن بعون المساكين مآلك»: فعون المساكين هـو السفينة فهي عـون لهم على حاجتهم وسدّ خلّتهم ومآل الشيء عاقبة أمره. قال الله تعالى: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾[1]، والله تعالى أعلم.

١٨٢

قضى حاجته بعد توقيع الوزير

نقلت من كتاب «الهفوات النادرة...» لمحمد بن هلال حكاية ظريفـة، ولا بدّ في الكتب من مزج الهذل بالجدّ، والحكاية هي:

أن أبـا سعيد مـاهك بن بنـدار المجوسي الـرازي كـان من كبـار كتـاب الـديلم المشهور وكان يكتب لعلي بن سامان أحد قواد الديلم، فأراد الوزير أبو محمـد المهلبي أن ينفذ ماهك في بعض الخدم فقال له، وقد أراد الخروج من عنـده: يا أبـا سعيد، لا تبرح من الدار حتى أوقفك على شيء أريده معك، فقـال: السمع والـطاعة لأمـر سيدنا الوزير، ونهض من بين يديه، فقال الوزير: هذا رجل مجنـون، وربما طـال بي الشغل وضاق صدره وانصرف، فتقدّمـوا إلى البواب أن لا يـدعه يخـرج من الباب، فجلس ماهك طـويلاً، وأراد دخـول بيت الخلاء، فقـام يطلب ذلـك فرأى الأخليـة مقفلة، وكان قد تقدم الوزيـر بذلـك، وقال: كـانت دار أبي جعفر الصيمـري منتنة الرائحة لأجل خلاء كان بها لعامة الناس. فوجد ماهك الخلاء الخـاص غير مقفـل، وعليه ستر مسبل، فرفع الستر ليدخل، فجاء الفرّاش فمنعه ودفعه، فقـال: يا هـذا أليس هذا بيت خلاء؟

قال: بلى.

فقال: أريد أن أعمل فيه حاجتي فلِمَ تمنعني؟

قال: هذا خلاء خاص لا يدخله غير الوزير.

قـال: فبقيـة الأخليـة مقفلة، فكيف أعمل وقد جئت أخـرج فمنعني البـوّاب

---

(١) سورة الكهف: آية ٧٩.

أَفأخرى في ثيابي؟

فقال الفرّاش: استأذن في دخول بيت الخلاء ليتقدم لك بذلك ويفتح لـك أحد الأخلية فتقضي حاجتك، فاشتدّ به الأمر، فكتب إلى الوزير رقعة وقال فيها:

قد احتاج عبد سيدنا الوزيـر ماهـك إلى بعض ما يحتـاج إليه النـاس ولا يحسن ذكره، والفراش يقول لا تدخل، والبواب يقول لا تخرج، وقد تحيّر العبـد في البين، والأمر في الشدّة، فإن رأى سيدنا الوزير أن يفسح لعبده بأن يعمـل ما يحتـاج إليه في بيت الخـلاء فَعَل إن شـاء الله تعالى، والسـلام. ودفع الـرقعة إلى بعض الحجـاب، فأوصلها إلى الوزير، فلم يعلم مـا أراد بالـرقعة، فـاستعلم ما الصـورة فعرف بهـا، فضحك واستلقى على ظهره، ووقع على ظهر الرقعة:

يَخْرَى أبو سعيد أعزّه الله بحيث يختار، إن شاء الله تعالى.

فجاءه الحاجب بها فأخذه ودفعه إلى الفرّاش وقال: هذا ما طلبت، وهـو توقيـع سيدنا الوزير، فقال الفرّاش: التوقيعات يقرؤها أبـو العلاء ابن أبـرونا كـاتب ديوان الدار، وأنا لا أحسن أن أكتب ولا أقرأ، فصاح ماهك في الـدار: هات من يقـرأ في الدار صك الخرا!!

فضحك فرّاش آخر وأخذ بيده، وحمله إلى بعض الحجر حتى قضى حاجته.

١٨٣

مـمّا أوصى به عمر بن عبد العزيز

لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفـاة، دعا بنيـه وكانـوا أحد عشر ابنـاً. وكان عنده مسلمة بن عبـد الملك. فأحضر عمـر بن عبد العـزيز أحـد عشر ديناراً ونصف دينار، فأمر أن يكفَّـن وأن يُشترى له مكان يُـدفن فيه بخمسـة دنانـير ويقسم الباقي على بنيه، وقال: يا بنيَّ، ليس لي مال فأوصي لكم به، ولكن ما تركت لأحدٍ عليكم علقـة تبعة، ولا يـطأكم مـدخـل ولا أخـذ ثـأر، ولا عـرض ولا دم. والله الخليفـة عليكم.

فقال له مسلمة: أو خيرٌ من هذا يا أمير المؤمنين.

قال: وما هو؟

قال: تأخذ من مالي ثلاثمائة ألف دينار وتقسمها بينهم كما تريد.

فقال عمر: أو خير من ذلك؟

فقال: وما هو يا أمير المؤمنين؟

قال: أن تردّ المال على من أُخذ منه، فإنه ليس بملكك.

قال: فبكى مسلمة عند ذلك.

١٨٤

ما أخطأ من جعلك سيداً

قيل إن المهلّب بن أبي صفرة مرّ بحيّ من همدان فرآه شاب من أهل الحيّ فقال: أهذا المهلّب؟

قالوا: نعم!

فقال: والله إن ما يساوي خمسمائة درهم.

وكان المهلب أعور، فسمعه، فلما كان من الغدّ أخذ المهلّب في كمّه خمسمائة درهم وأتى إلى الحيّ وارتقب الغلام حتى رآه. فأتى إليه وقال له:

افتح حجرك. ففتح الشاب حجره، فسكب فيه الخمسمائة درهم وقال له: خذ قيمة عمّك المهلّب والله يا ابن أخي لو قوّمتني بخمسة آلاف درهم لأتيتك بها. فسمعه شيخ من أهل الحي فقال: والله، ما أخطأ من جعلك سيّداً.

١٨٥

أعطاه البعير بما عليه

خرج أعرابي حاجاً، فلما كان في بعض الطرق مات جمله فذهب إلى عمرو بن عثمان وكان يومئذٍ والي المدينة فشكا إليه فلم يعطه شيئاً فقعد الأعرابي يتصفّح وجوه الناس، فمرّ به عبد الله بن جعفر فقام إليه الأعرابي وقال:

أبا جعفرٍ إن الحجيج تحملوا ... وليس لرحلي فاعلمنّ بعيرُ
أبا جعفرٍ ضنَّ الأميرُ بمالهِ ... وأنت على ما في يديك أميرُ

أيا جعفرٍ يا ابن الشهيد الذي لهُ جناحان في أعلى الجنان يطيرُ
أبا جعفرٍ من بيت آل نبوّةٍ صلاتهمُ للعالمين طَهورُ

وكان لعبد الله بن جعفر بعير يقدّمه، فعزله، وقال له: خذه بما عليه. فذهب غلام عبد الله ليأخذ سيفاً كان على البعير. فقال عبد الله: دعه، فقد أعطيته البعير بما عليه، وقال للأعرابي: احتفظ بالسيف، فشراؤه ألف دينار. فرحمة الله على من كانت هذه الفعال فعالهم.

١٨٦

ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين

روي عنه (ص) أنه قال:

إذا جمع الله الخلق يوم القيامة نادى منادٍ: أين أهل الفضل؟ فيقوم أُناس وهم يسيرٌ فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتتلقّاهم الملائكة، فيقولون: إنّا نراكم قليلاً فما كان فضلكم؟ فيقولون: كُنا إذا ظُلمنا صبرنا وإذا أُسيء إلينا غفرنا وإذا جُهِل علينا حلمنا.

فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين.

١٨٧

حديث الكرم والمروءة

حدّث الأصمعي قال:

كنت أخشى رجلاً لكرمه فأتيته بعد مدّة فوجدته قد أغلق بابه، ولزم بيته، فأخذت ورقة وكتبت فيها هذا البيت:

إذا كان الكريم له حجابٌ فما فضلُ الكريم على اللئيم

وبعثت بها إليه، ووقفت أنتظر الجواب. فعادت وعلى ظهرها هذا البيت:

إذا كان الكريم قليل مالٍ تستّر بالحجاب عن الغريم

ومع الورقة صرّة فيها خمسمائة دينار.

فقلت: والله لأتحفنّ أمير المؤمنين بهذه الحكاية، فأخذت الصرة والرقعة ومضيت إلى المأمون فدخلت عليه.

فقال: من أين يا أصمعي؟

فقلت: من عند أكرم الناس، حاشا أمير المؤمنين!

ثم قصصت عليه القصة ووضعت الصرّة والرقعة بين يديه، فتأمّل الصرّة وقال: يا أصمعي، هذه الصرّة بختم بيت المال. فأحضر الرجل الذي دفعها إليك.

فقلت: والله يا أمير المؤمنين، الرجل قد أولاني خيراً.

قال: لا بدّ منه.

قلت: غير مروَّع؟

قال: غير مروَّع.

فعرفته مكانه، فبعث إليه فحضر، فلما مثل بين يديه، جعل المأمون يتوسّمه وينظر إليه. ثم قال: ألست الرجل الذي وقف بموكبنا بالأمس وشكا إلينا رقّه حاله وكثرة عياله؟

قال: بلى يا أمير المؤمنين.

قال: وأمرنا لك بخمسمائة دينار.

قال: نعم! وهي هذه.

قال: ولِمَ دفعتها للأصمعي على بيتٍ واحدٍ من الشعر؟

قال: إستحييت من الله تعالى ان أردّ قاصدي إلاّ كما ردّني أمير المؤمنين بالأمس.

قال: لله درّك!! ما أكرم خلقك وأوفر مروءتك!

ثم أمر بألف دينار فأخذها وانصرف.

قال الأصمعي: فقلت إن رأى أمير المؤمنين أن يلحقني به.

قال: لا، نحن نكمل لك الألف، فأمر للأصمعي بكمالها.

*

١٨٨

إن مثلك لا يؤذي

دخل بعض الشطار اللصوص إلى دار خلف بن أبي أيوب فرآه قائماً يصلّي بالليل، فجمع ما كان في بيته من قماشٍ وغيره. وربط ذلك كرةً وحملها على رأسه وخلف ينظر إليه، ولم يكلّمه. فخرج اللصّ إلى الحائط فلم يقدر على النهوض، فقال له خلف: يا أخي، لا تتعب نفسك. خذ المفتاح وافتح الباب فلعلّك محتاج.

فقال اللص: والله إن مثلك لا يؤذي.

ثم ترك القماش وتاب إلى الله تعالى.

١٨٩

الأرض والعبيد ملكك

كان لعبد الله بن الزبير أرض مجاورة لأرض معاوية بن أبي سفيان وكان فيها عبيد لعمارة، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله واغتصبوا منها قطعة. فكتب عبد الله بن الزبير إلى معاوية:

«وأمّا بعد،

يا معاوية فإنّ عندك عبيداً قد اغتصبوا أرضي، فَمُرْهُم بالكفّ عنها وإلاّ كان لي ولكم شأن».

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير دفعه إلى ولده يزيد فلمّا قرأه قال: ما تقول يا يزيد؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوّله عندك وآخره عندنا يأتيك برأسه وتستريح منه.

قال: عندي خير من ذلك.

قال: ما هو يا أبتِ؟

فقال: عليّ بدواة وقرطاس. ثم كتب فيه:

«وقفت على باب ابن أخي وقد ساءني والله ما ساءهُ والدنيا وما فيها هينة في جنب رضاك، وقد كتبت على نفسي سطوراً أشهدتُ فيها الله تعالى وجماعة من

المسلمين أن الأرض وما فيها والعبيد الذين بها ملكك. فضمّها إلى أرضك، والعبيد إلى عبيدك والسلام».

فلما وقف عبد الله بن الزبير على كتابه كتب له جواباً فيه:

«وقفت على كتاب أمير المؤمنين، لا أعدمني الله بقاءه، ولا أعدمه هذا الرأي الذي أحلّه هذا المحل والسلام» فلما وقف معاوية على الكتاب أعطاه لولده يزيد فلما قرأه تهلّل وجهه فرحاً.

فقال له: يا بنيّ، إذا بُليت بشيء من هذا الداء داوِهِ بمثل هذا الدواء، وإنّا لقومٌ لم نَرَ في الحلم إلاّ خيراً.

١٩٠

اعتقه ووهب له النخيل

خرج عبد الله بن جعفر وكان يشتهر بالكرم والجود إلى بعض أسفاره، فنزل على نخيلٍ لقوم، وفيها عبدٌ أسود يحرسها، فأتى بقوته، وهو ثلاثة أقراص، فدخل كلب إلى تلك النخيل وهو يلهث، فدنا من الغلام وهو يتشوّف إلى تلك الأقراص، فرمى له العبد قرصاً فأكله ثم رمى له الثاني فأكله، ثم الثالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه.

فقال: يا غلام، كم قوتُك في كل يوم؟

قال: ثلاثة أقراص.

قال: فلِمَ آثرت هذا الكلب بها؟

قال: يا سيدي، ليست أرضنا بأرض كلاب، ولم أشك أنه جاء من مسافة بعيدة، وهو جائع، ولم يحضرني سواها، فكرهت ردّه من غير شبع.

قال: فما أنت صانع في هذا اليوم؟

قال: أطوي[1] إلى غدٍ.

قال عبد الله: بخٍ بخٍ!! والله إن هذا الغلام أسخى منّي، فما برح حتى اشترى النخيل والغلام، ثم أعتقه ووهب له النخيل وارتحل عنه.

---

(١) أطوي: أجوع.

١٩١

اعلمهم أنّ المال والدار لهم

اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داراً كانت له من السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع عبد الله بكاء آل خالد فقال: ما بالهم يبكون؟ قال: لخروجهم من دارهم التي اشتريتها.

فقال: يا غلام، أعلمهمْ أنّ المال والدار لهم جميعاً.

١٩٢

من معجزات النبي (ص)

لما أُصيبت عين قتادة بن النعمان الخزرجي يوم أُحد، خرجت حدقتها، فجاء إلى النبي (ص) فقال له رسول الله (ص): أيّما أحبُّ إليك أن أسأل الله تعالى أن يردّ عليك عينك أو أسأله أن يحفظ عليك أجرك؟

فقال: يا رسول الله، إنّ تحتي امرأة تحبّني وأحبّها، وإن هذا يشينني عندها، فاسأل الله تعالى أن يردّ عليَّ عيني، فهو أكرم من أن يحرمني ثوابي.

فأخذ رسول الله (ص) عينه بيده وردّها إلى مكانها فأبصر بها في الحال كأحسن ما كانت، وعاش بعد ذلك خمسين سنة ما رمدت عينه، ولا آلمته أبداً، وكان يقول: هذه أشرف عينيّ وأصحّهما.

ودخل بعض ولده على عمر بن عبد العزيز في يوم قسمة فقال: انتسب. فقال هذين البيتين:

أنا ابْنُ الذي سالتْ على الخدّ عينُهُ ... فرُدَّت بكفّ المصطفى أحسن الردّ

فعادت كما كانت كأحسن حالها ... فبوركتِ من عينٍ وبوركتِ من يدِ

*

١٩٣

أشدّ البلاء أمر اللؤماء على الكرماء

سأل المهلّب بن أبي صفرة ولده يزيد وهو صغير، فقال له: يا بنيّ، ما أشدُّ البلاء؟

قال: معاداة العقلاء.

قال: فهل غير ذلك يا بنيّ؟

قال: نعم!

قال: مسألة البخلاء.

قال: فهل غير ذلك يا بنيّ؟

قال: نعم.

قال: وما هو؟

قال: أمر اللؤماء على الكرماء.

١٩٤

لا تظلمهم أيها الأمير

قال خالد بن كلثوم.

كنت مع زبراء بالمدينة وهو والٍ عليها، وهو من بني هاشم أحد بني ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فأمر بأصحاب الملاهي فحُبسوا وحُبس عطرّد المغنّي الفقيه، فأخبروه أن عطرّد هذا من أهل الهيئة والمروءة والنعمة والدين، فدعا به فخلّى سبيله، وأمره برفع حوائجه إليه فدعا له.

وخرج فإذا هو بالمغنين أُحضِروا ليعرضوا، فعندما رآهم عطرّد عاد إليه وقال: أصلح الله الأمير، أعَلى الغناء حبستَ هؤلاء؟

قال: نعم.

قال: فلا تظلمهم أيها الأمير، فوالله ما أحسنوا منه شيئاً وهم ليسوا بمغنين.

فضحك الأمير كثيراً وخلّى سبيلهم.

أشدّ ذكاءً من بشّار

قال شبيب بن عافية:

كان لبشّار مجلس يجلس فيه بالعشيّ يُقال له البردان، فدخل إليه نسوة في مجلسه هذا فسمعنَ شعره، فعشق امرأة منهنّ، وقال لغلامه: عرّفها محبتي لها واتبعها إذا انصرفت إلى منزلها. ففعل الغلام وأخبرها بما أمره فلم تُجبه إلى ما أحبّ. فتبعها إلى منزلها حتى عرفه. فكان يتردّد إليها حتى ضاقت به، فشكته إلى زوجها فقال لها: أجيبيهِ وعِديه إلى أن يجيئك إلى البيت ففعلت.

وجاء بشّار مع امرأة وجّهتْ بها إليه. فدخل بيتها وزوجها جالسٌ وهو لا يعلم، فجعل يحدّثها وقال لها: ما اسمك بأبي أنتِ؟

فقالت: أُمامة. فقال:

أُمامةُ قد وُصِفْتِ لنا بحسنٍ ... وإنّا لا نراكِ فألْمِسينا(١)

قال: فأخذتْ يده فوضعتْها على (....)(٢) زوجها وقد أنعظ(٣)، ففزع ووثب قائماً وصرخ وقال:

عليَّ أليةٌ ما دمتُ حياً ... أَمَسُّكِ طائعاً إلاَّ بعودِ
ولا أُهدي لقومٍ أنتِ فيهم ... سلام الله إلاَّ من بعيدِ
طلبتُ غنيمةً فوضعت كفيّ ... على (....)(٤) أشدّ من الحديدِ
فخيرٌ منك من لا خيرَ فيهِ ... وخيرٌ من زيارتكم قُعودي

وقبض زوجها عليه وقال: هممت بأن أفضحك. فقال له: كفاني، فديتك، ما فعلتَ بي، ولستُ والله عائداً إليها أبداً، فحسبك ما مضى، وتركه وانصرف.

---

(١) ألمسينا: أي دعينا نلمسك، يريد مغازلتها.
(٢) ما يُستقبح ذكره عند الرجل.
(٣) انعظ: انتصب واشتهى الجماع.
(٤) ما يُستقبح ذكره عند الرجل.

١٩٦

لو سمع بالشعر ما قطعها

كـان مطيـع بن إياس شـاعراً خليعـاً حلو النـادرة وهـو الـذي يقـول في نخلتيْ حلوان(١):

أسـعـداني يـا نـخـلتيْ حـلوان وابـكيـا لي مـن ريب هـذا الـزمـانِ
واعـلـما أن ريـبـه لم يـزل يَـفْـرُقُ بـيـن الألّاف والأقـرانِ
ولـعـمـري لـو ذقـتـما ألم الـفُـرْ قـةِ أبـكـاكـما الـذي أبـكـاني
أسـعـداني وابـقـيـا أنّ نـحـسـاً سـوف يـلقـاكـما فـتـفـترقـانِ

فلما خرج هارون الرشيد إلى طوس هاج بـه الدم بحلوان، فـوصف له الحكيم أكل جُمّار النخل، فلم يكن بحلوان إلّا تلك النخلتان اللتان في العقبة، فقطعوا لـه رأس إحداهما وأتي به إليه، فأكل منه، فلما بلغ إلى العقبة نظر إلى القائمة وإذا عليها مكتوبٌ هذه الأبيات التي تقدّمت، فاغتمّ لذلـك وبكى وقال: والله لـو سمعت بهذا الشعر ما قطعتها ولو قتلني الدم، ويعزّ عليَّ أن أكون النّحس الذي فرّق بينهما.

١٩٧

ما ذنبي أنا؟

شكا أبو العينـاء محمد بن القـاسم بن سليمان إلى عبيـد الله بن سليمان بن وهب الوزير سوء الحال، فقال له: أليس قد كتبنا إلى إبراهيم بن المدبّر في أمرك؟

قـال: نعم، قد كتبتَ إلى رجـلٍ قد قصر من همتـه طـول الفقـر، وذلّ الأسر، ومعاناة الدهر، فأخفق سعيي وخابت طلبتي.

فقال عبيد الله: أنت اخترته.

فقال: ما ذنبي، وما عليَّ أيها الوزير في ذلك وقد اختار موسى قومه سبعين رجلاً فما كان فيهم رشيد، واختار النبي (ص) عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح كـاتباً فـرجع

---

(١) راجع: «شعراء عباسيون»، ص ٩٦.

إلى المشركين مرتداً، واختار علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري حاكماً له فحكم عليه.

وإنما قال «ذلّ الأسر» لأن ابراهيم المذكور كان قد أسره علي بن محمد صاحب الزنج بالبصرة وسجنه فنقب السجن وهرب.

١٩٨

تطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنَّم

ودخل أبو العيناء على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري سنة ٢٤٦ هـ فقال له المتوكل:

ما تقول في دارنا هذه؟

فقال: إن الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في دارك، فاستحسن كلامه ثم قال له: كيف شربك للخمر؟

قال: أعجز عن قليله وأُفتضح عند كثيره.

فقال له؛ دع عنك هذا ونادمنا.

فقال: أنا رجل مكفوف، وكل من في مجلسك يخدمك، وأنا أحتاج أن أُخدم ولست آمن من أن تنظر إليَّ بعين راضية وقلبك عليَّ غضبان، أو بعين غضبان وقلبك راضٍ. ومتى لم أُميِّز بين هذين هلكت، فأختار العافية على التعرض للبلاء.

فقال: بلغنا عنك بذاء في لسانك.

فقال: يا أمير المؤمنين، قد مدح الله تعالى وذم فقال: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾.

وقال عزّ وجل: ﴿همّاز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم﴾.

وقال الشاعر:

إذا أنا بالمعروف لم أثنِ صادقاً ... ولم اشتم النِّكس اللئيم المذمّما
ففيمَ عرفت الخير والشرّ باسمه ... وشقَّ ليَ الله المسامع والفما

قال: فمن أين أنت؟

قال: من البصرة.

قال: فما تقول فيها؟
قال: ماؤها أجاج وحرّها عذاب، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنّم.

١٩٩

نبشوا القبور وأحرقوا بقاياها

حكى المسعودي في «مروج الذهب»(١) في ولاية هشام بن عبد الملك أن الهيثم بن عديّ روى عن عمر بن هانىء الطائي قال:

خرجت مع عبد الله بن علي وهو عمّ السفّاح والمنصور، فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك، فاستخرجناه صحيحاً ما فقد منه إلاّ خرمة أنفه، فضربه عبد الله ثمانين سوطاً ثم أحرقه، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق، فلم نجد منه شيئاً إلاّ صلبه وأضلاعه ورأسه، فأحرقناه، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أميّة، وكانت قبورهم بقنسرين.

ثم انتهينا إلى دمشق فأخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره لا قليلاً ولا كثيراً، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلاّ شؤون رأسه، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا منه إلاّ عظماً واحداً، ووجدنا مع لحده خطاً أسود كأنما خطّ بالرماد بالطول في لحده، ثم تتبّعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم.

وكان سبب فعل عبد الله ببني أميّة هذا الفعل أن زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم خرج على هشام بن عبد الملك وسَمَتْ نفسه إلى طلب الخلافة، وتبعه خلق من الأشراف والقرّاء، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقين فانهزم أصحاب زيد وبقي في جماعة يسيرة فقاتلهم أشدّ قتال وهو يقول متمثلاً.

ذلّ الحياة وعزّ المهات ... وكلا أراه طعاماً وبيلا
فإن كان لا بدّ من واحدٍ ... فسيري إلى الموت سيراً جميلا

---

(١) «مروج الذهب»، ٣: ٢١٩.

وحال المساء بين الفريقين، فانصرف زيد مُثخناً بالجراح، وقد أصابه سهم في جبهته، فطلبوا من ينزع النصل، فأتى بحجام من بعض القرى فاستكتموه أمره فاستخرج النصل، فمات من ساعته فدفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش وأجروا الماء على ذلك، وحضر الحجام مواراته فعرف الموضع. فلما أصبح مضى إلى يوسف منتصحاً له، فدلّه على موضع قبره، فاستخرجه يوسف وبعث رأسه إلى هشام. فكتب إليه هشام: أن أصلبه عرياناً فصلبه يوسف كذلك، ففي ذلك يقول بعض شعراء بني أميّة يخاطب آل أبي طالب وشيعتهم من جملة أبيات:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلةٍ ولم أرَ مهدياً على الجذع يُصلب

وبنى تحت خشبته عموداً، ثم كتب هشام إلى يوسف يأمره بإحراقه وتذريته في الرياح، وكان ذلك في سنة إحدى وعشرين وقيل إثنتين وعشرين ومائة.

وذكر أبو بكر ابن عياش وجماعة من الإخباريين أن زيداً أقام مصلوباً خمس سنين عرياناً فلم يَرَ أحد له عورة ستراً من الله سبحانه وتعالى له، وقال بعضهم: إن العنكبوت نسج على عورته وذلك بالكناسة بالكوفة. فلما كان في أيام الوليد بن يزيد وظهر يحي بن زيد بخراسان، وهي واقعة مشهورة، كتب الوليد إلى عامله بالكوفة: أن أحرقْ زيداً بخشبته ففعل ذلك وأذرى رماده في الرياح على شاطىء الفرات، والله تعالى أعلم أي ذلك كان. فهذا الذي حمل عبد الله بن عليّ على ما فعله ببني أمية انتصاراً لبني عمّه وانتقاماً لهم بنظير ما فعل بهم.

٢٠٠

بات ليلته متعجباً

اختص الهيثم بن عديّ بمجالسه المنصور والمهدي والهادي والرشيد وروى عنهم.

قال الهيثم: قال لي المهدي: ويحك يا هيثم، إن الناس يخبرون عن الأعراب شحاً ولؤماً وكرماً وسماحاً وقد اختلفوا في ذلك، فما عندك؟

فقلت: على الخبير سقطتَ. خرجتُ من عند أهلي أريد ديار فرائد لي ومعي ناقة أركبها إذ ندَّت فذهبت، فجعلتُ أتبعها حتى أمسيت فأدركتها، ونظرت فإذا

خيمة أعرابي فأتيتها، فقالت ربّة الخباء: من أنت؟

فقلت: ضيف.

فقالت: وما يصنع الضيف عندنا؟ إن الصحراء لواسعة، ثم قامت إلى برٍّ فطحنته، ثم عجنته وخبزته وقعدَتْ فأكلَتْ، ولم ألبث أن أقبل زوجها ومعه لبن، فسلم ثم قال: من الرجل؟

فقلت: ضيف.

فقال: مرحباً حيّاك الله، فدخل الخباء وملأ عقباً[1] من لبن، ثم أتاني به وقال: اشرب، فشربت شراباً هنيئاً، فقال: ما أراك أكلت شيئاً، وما أراها أطعمتك.

فقلت: لا والله، فدخل إليها مُغضباً وقال: ويلك أكلت وتركت ضيفك.

فقالت: وما أصنع به؟ أُطعمه طعامي؟ وجاراها في الكلام حتى شجّها ثم أخذ شفرة وخرج إلى ناقتي فنحرها فقلت: ما صنعت عافاك الله؟

فقال: لا والله ما يبيت ضيفي جائعاً. ثم جمع حطباً وأجّج ناراً وأقبل يكبّب ويطعمني ويأكل ويلقي إليها ويقول: كلي لا أطعمك الله حتى إذا أصبح تركني ومضى، فقعدت مغموماً، فلمّا تعالى النهار أقبل ومعه بعير ما يسأم الناظر أن ينظر إليه، فقال: هذا مكان ناقتك، ثم زوّدني من ذلك اللحم وممّا حضره، وخرجت من عنده. فمضّني الليل إلى خباء، فسلّمت فردّت صاحبة الخباء السلام وقالت: من الرجل؟

فقلت: ضيف.

فقالت: مرحباً بك حيّاك الله وعافاك، فنزلت، ثم عمدت إلى برّ فطحنته وعجنته، ثم خبزته خبزة روّتها بالزبد واللّبن ثم وضعته بين يدي فقالت: كُلْ واعذر، فلم ألبث أن أقبل أعرابي كريه الوجه، فسلّم فرددت عليه السلام، فقال: مَنْ الرجل؟

قلت: ضيف.

قال: وما يصنع الضّيف عندنا، ثم دخل إلى أهله فقال: أين طعامي؟

---

(١) العقب: الوعاء والقدح.

فقالت زوجته: أطعمته الضّيف.

فقال: أتطعمين الضيف طعامي؟ فتحاربا الكلام فرفع عصاه وضرب بها رأسها فشجّها، فجعلت أضحك، فخرج إليَّ فقال: ما يضحكك.

قلت: خير.

قال: والله لتخبرني. فأخبرته بقضية المرأة والرجل اللّذين نزلت عندهما قبله. فأقبل عليَّ وقال: إن هذه التي عندي هي أخت ذلك الرجل، وتلك التي عنده هي أختي. فبتُّ ليلتي متعجّباً وانصرفت.

٢٠١

إنهم يقولون ما لا يفعلون

رُوي أن أبا نواس الحسن بن هانىء الشاعر المشهور حضر مجلس الهيثم بن عديّ في حداثته، والهيثم لا يعرفه، فلم يستدْنِهِ ولا قرب مجلسه، فقام مغضباً، فسأل الهيثم عنه، فخبر باسمه، فقال: إنّا لله! هذه والله بليّة لم أجنها على نفسي، قوموا بنا إليه لنعتذر، فصاروا إليه، ودقّ الباب عليه وتسمّى له، فقال؛ ادخل، فدخل فإذا هو قاعد يصفّي نبيذاً له، وقد أصلح بيته بما يصلح به مثله، فقال: المعذرة إلى الله تعالى وإليك، والله ما عرفتك وما الذنب إلاّ لك حيث لم تعرّفنا نفسك فنقضي حقك ونبلغ الواجب من برّك، فأظهر له قبول العذر، فقال الهيثم: استعهدك من قول يسبق منك فيَّ. فقال: ما قد مضى فلا حيلة فيه، ولك الأمان فيما استأنف. فقال: وما الذي مضى جعلت فداك؟ قال: بيت مرّ وأنا فيما ترى (يعني أنه غضبان). قال: فتنشدينه، فدافعه فألحَّ عليه فأنشده:

يا هيثم بن عديّ لست للعربِ ولستَ من طيء إلاّ على شغبِ
إذا نسبتَ عدياً في بني ثُعَلٍ فقدّم الدال قبل العين في النّسب

(يريد: دعيّ، وهو المشكوك في نسبه).

فقام من عنده، ثم بلغه بعد ذلك بقية الأبيات وهي:

للهيثم بن عديّ في تلوّنه في كلّ يومٍ له رجل على خشبِ

فما يزال اخا حلٍ ومرتحلٍ إلى الموالي وأحياناً إلى العربِ
له لسان يزجّيه بجوهره كأنه لم يزل يُغدى على قتبِ
كأنني بك فوق الجسر منتصباً على جوادٍ قريب منك في الحسبِ
حتى نراك وقد درّعته قمصاً من الصديد مكان الليف والكربِ
لله أنت فما قربى تهمّ بها إلّا اجتلبت لها الأنساب من كثبِ

فعاد الهيثم إلى أبي نواس وقال له: يا سبحان الله! أليس قد أمنتني وجعلت لي عهداً أن لا تهجوني!

فقال: إنهم يقولون ما لا يفعلون.

٢٠٢

الحَرْفُ بـ ٨٠ ألف درهم

للنضر بن شُميل الشاعر النحوي مع المأمون حكايات ونوادر، لأنه كان يجالسه. فمن ذلك ما حكاه الحريري في كتاب «درّة الغواص في أوهام الخواص» في قوله: ويقولون هو سَداد من عَوَز فيلحنون في فتح السّين، والصواب أن يُقال بالكسر.

وقد جاء في أخبار النحويين أن النضر بن شُميل المازني استفاد بإفادة هذا الحرف ثمانين ألف درهم، وساق خبره. وذكر إسناداً انتهى فيه إلى محمد بن ناصح الأهوازي قال:

حدثني النضر بن شُميل قال: كنت أدخل على المأمون في سَمَره، فدخلت ذات ليلة وعليَّ ثوب مرقوع، فقال: يا نضر، ما هذا التقشّف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخُلقان؟[1].

قلت: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ ضعيف وحَرُّ مَرْو شديد، فأتبرّد بهذه الخُلقان.

قال: لا، ولكنك قشف. ثم أجرينا الحديث، فأجرى هو ذكر النساء فقال:

---

(١) راجع: «درة الغواص»، ص ١٠٥.

حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله (ص): «إذا تزوّج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سَداد من عَوَز» فأورده بفتح السين.

قال: فقلت: صدق يا أمير المؤمنين هشيم، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن حسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال: قال رسول الله (ص): «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سِداد من عَوَز».

قال: وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال: يا نضر، كيف قلت سِداد؟

قلت: لأن السَّداد ها هنا لحن.

قال: أو تلحنّني؟

قلت: إنما لحن هشيم وكان لحَّانة فتبع أمير المؤمنين لفظه.

قال: فما الفرق بينهما؟

قلت: السَّداد، بالفتح، القصد في الدين والسبيل، والسِّداد، بالكسر، البُلغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سِداد.

قال: أوَ تعرف العرب ذلك؟

قلت: نعم يا أمير المؤمنين هذا العرجي يقول:

أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا لِيوم كريهة وسِداد ثغر

فقال المأمون: قبح الله من لا أدب له، وأطرق ملياً ثم قال: ما مالك يا نضر؟

قلت: أُرَيْضة بمرو أتصابيها واتمزّزها.

قال: أفلا نفيدك مالاً معها؟

قلت: إني إلى ذلك لمحتاج.

قال: فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب. ثم قال: كيف تقول إذا أمرت أن يترب؟

قلت: اتربْهُ.

قال: فهو ماذا؟

قلت: مُتْرَبٌ.

قال: فمن الطين؟

قلت: طِنْهُ.

قال: فهو ماذا؟

قلت: مطين.

قال: هذه أحسن من الأولى. ثم قال: يا غلام، أتربهُ وطِنْهُ. ثم صلى بنا العشاء وقال لخادمه: تبلغ معه إلى الفضل بن سهل. قال: فلما قرأ الفضل الكتاب قال: يا نضر، إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم فما كان السبب فيه؟

فأخبرته ولم أكذبه، فقال: لحنت أمير المؤمنين؟ فقلت: كلاً إنما لحن هشيم وكان لحّانة فتبع أمير المؤمنين لفظه، وقد تُتْبَع ألفاظ الفقهاء ورواة الآثار، ثم أمر لي بثلاثين ألف درهم فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف استفيد مني.

٢٠٣

أضاعه فوجده فردّه

قال عبد الله بن رجاء[1]: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف، يعمل نهاره أجمع، حتى إذا جنّه الليل رجع إلى منزله، وقد حمل لحماً فطبخه أو سمكة فيشويها ثم لا يزال يشرب، حتى إذا دبّ الشراب فيه غرّد بصوت عالٍ وهو يقول:

أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسِداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردّد هذا البيت حتى يأخذه النوم. وكان أبو حنيفة يسمع جلبته كل ليلة، وأبو حنيفة كان يصلي الليل كلّه، ففقد أبو حنيفة صوته مرّة فسأل عنه فقيل: أخذه العَسَسُ[2] منذ ليالٍ وهو محبوس. فصلّى أبو حنيفة صلاة الفجر من غدٍ وركب بغلته واستأذن على الأمير، فقال الأمير: إيذنوا له وأقبلوا به راكباً ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته، ففعل، ولم يزل الأمير يوسع له في مجلسه، وقال: ما حاجتك؟

فقال: لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ليالٍ، يأمر الأمير بتخليته.

---

(١) انظر القصة في: «تاريخ بغداد»، ١٣: ٣٦٢، و«الأغاني»، ١: ٣٨٩.

(٢) العسس: رجال الأخلاق الذين يطوفون بالليل بحثاً عن المشاغبين.

فقال: نعم، وكل من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا، فأمر بتخليتهم أجمعين، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه وقال: يا فتى أضعناك؟

فقال: لا، بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق.

وتاب الرجل ولم يَعُدْ إلى ما كان عليه.

٢٠٤

خلّصه وخلّص نفسه

قال أبو يوسف: دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة، فقال الربيع صاحب المنصور، وكان يعادي أبا حنيفة: يا أمير المؤمنين، هذا أبو حنيفة يخالف جدَّك، كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين جاز الاستثناء. وقال أبو حنيفة: لا يجوز الاستثناء إلّا متّصلاً باليمين. فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين، إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جُندك بيعة.

قال: وكيف؟

قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم. فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تتعرّض لأبي حنيفة.

فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع: أردت أن تشيط بدمي. قال: لا، ولكنك أردتَ أن تشيط بدمي فخلّصتك وخلصت نفسي.

٢٠٥

هذا أبو حنيفة

قال أسد بن عمرو[(١)]: صلّى أبو حنيفة فيما حُفظ عليه، صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء أربعين سنة، وكان عامة ليله يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة، وكان يُسمع

(١) راجع: «تاريخ بغداد»، ١٣: ٣٥٤ و ٣٦٥.

بكاؤه في الليل حتى يرحمه جيرانه. وحفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرّة.

٢٠٦

الدهاء والفطنة

كان يحي بن أكثم بن صيفي من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور، وقد رأيت في بعض المجاميع أن أحمد بن أبي خالد الأحول وزير المأمون وقف بين يدي المأمون وخرج يحي بن أكثم من بعض المستراحات، فوقف، فقال له المأمون:

اصعدْ، فصعد وجلس على طرف السرير معه.

فقال أحمد: يا أمير المؤمنين إن القاضي يحي صديقي وممن أثق به في جميع أموري، وقد تغيّر عمّا عهدته منه.

فقال المأمون: يا يحي إن فساد أمر الملوك بفساد خاصتهم، وما يعد لكما عندي أحد، فما هذه الوحشة بينكما؟

فقال له يحي: يا أمير المؤمنين والله إنه ليعلم أني له على أكثر ممّا وصف، ولكنه لّما رأى منزلتي هذه المنزلة خشي أن أتغيّر له يوماً فأقدح فيه عندك، فأحبّ أن يقول لك هذا ليأمن مني، وإنه والله لو بلغ نهاية مساءتي ما ذكرته بسوء عندك أبداً.

فقال المأمون: أكذلك يا أحمد؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: استعين بالله عليكما، فما رأيت أتمّ دهاءً ولا أعظم فطنةً منكما.

٢٠٧

لماذا يُسمى الروم «بنو الأصفر»

ها هنا نكتة غريبة يُحتاج إليها ويكثر السؤال عنها، وهي: أن أهل الروم يقال لهم «بنو الأصفر» واستعملته الشعراء في أشعارهم، فمن ذلك قول عديّ بن زيد العبادي من جملة قصيدته المشهورة:

وبنو الأصفر الكرام ملوك الرو ... مِ لم يبقَ منهُمُ مذكورُ

ولقد تتبّعت ذلك كثيراً فلم أجد ما يشفي الغليل، حتى ظفرت بكتاب قديم إسمه «اللفيف» ولم يكتب عليه اسم مؤلفه فنقلت منه ما صورته:

عن أبي العباس عن أبيه قال: انخرم مُلْك الروم في الزمان الأول، فبقيت منه امرأة فتنافسوا في الملك حتى وقع بينهم شرّ، فاصطلحوا على أن يملكوا أول من يُشرف عليهم، فجلسوا مجلساً لذلك، وأقبل رجل من اليمن معه عبد له حبشي يريد الروم، فأبَقَ العبد منه، فأشرف عليهم فقالوا: انظروا في أيّ شيء وقعتم؟

فزوّجوه تلك المرأة، فولدت غلاماً فسموه «الأصفر» فخاصمهم المولى، فقال الغلام:

صدق أنا عبده فأرضوه، فأعطوه حتى رضي، فبسبب ذلك قيل للروم بنو الأصفر، لصفرة لون الولد، لكونه مولداً بين الحبشي والمرأة البيضاء، والله أعلم.

٢٠٨

المذاكرة أعجب من الصلة

كان المأمون يكرم جانب أبي عبد الله محمد بن عمر عمر الواقدي ويبالغ في رعايته. وكتب إليه الواقدي مرّة يشكو ضائقة لحقته وركبه بسببها دين، وعيّن مقداره في رسالته، فوقع المأمون فيها بخطّه:

فيك خلّتان[1]: سخاء وحياء، فالسخاء أطلق يديك بتبذير ما ملكت، والحياء حملك أن ذكرت لنا بعض دينك، وقد أمرنا لك بضعف ما سألت، وإن كنّا قصّرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك، وإن كنّا بلغنا بغيتك فزد في بسطة يدك، فإن خزائن الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطة، وأنت حدّثتني حين كنت على قضاء الرشيد أن النبي (ص) قال للزبير: يا زبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش. ينزل الله سبحانه للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قلّل قلّل عليه.

قال الواقدي: وكنت نسيت الحديث، فكانت مذاكرته إياي أعجب إليّ من صلته.

---

(١) خلتان: عادتان، خصلتان.

٢٠٩

أريحيّة أهل الخير والمعروف

روى المسعودي في كتاب «مروج الذهب» أن الواقدي الذي تقدم ذكره قال:

كان لي صديقان أحدهما هاشمي، وكنا كنفس واحدة، فنالتني ضائقة شديدة، وحضر العيد فقالت امرأة: أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدّة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمةً لهم، لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثة، فلو احتلتَ في شيء تصرفه في كسوتهم.

قال: فكتبتُ إلى صديق لي وهو الهاشمي أسأله التوسعة عليَّ بما حضر، فوجّه إليَّ كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف درهم فما استقرّ قراري حتى كتب إليَّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشمي، فوجّهت إليه الكيس بحاله، وخرجتُ إلى المسجد فأقمت فيه ليلتي مستحيياً من امرأتي، فلما دخلتُ عليها استحسنت ما كان منّي ولم تعنّفني عليه. فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته، فقال لي: أصدقني عما فعلته فيما وجهت به إليك، فعرّفته الخبر على وجهه فقال لي: إنك وجّهت إليّ وما أملك على الأرض إلاّ ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة، فوجّه كيسي بخاتمي.

قال الواقدي: فتواسينا ألف درهم فيما بيننا، ثم إنّا أخرجنا للمرأة مائة درهم قبل ذلك، ونمي الخبر إلى المأمون فدعاني وسألني فشرحت له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحدٍ منّا ألف دينار وللمرأة ألف دينار.

٢١٠

لقمان ولبد

كان لقمان بن عاد قد سيّره قومه ـ وهم عاد الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز ـ إلى الحرم يستقي لهم، فلما هلكت عاد خُيِّر لقمان بين أن يعيش عمر سبع بعرات سمر أو عمر سبعة أنسر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر آخر، فاختار

النسور، فكان يأخذ الفرخ عند خروجه من البيضة فيربيه فيعيش ثمانين سنة، وهكذا، حتى هلك منها ستة، وبقي السابع فسُمّي لبداً، فلمّا كبر وعجز عن الطيران كان يقول له لقمان: انهضْ لبد، فلما هلك لبد مات لقمان.

وقد ذكرت العرب لبداً في أشعارها كثيراً. فمن ذلك قول النابغة الذبياني:

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا   أخنى عليها الذي أخنى على لبدِ

٢١١

المستنصر وأيام الغلاء

أبو تميم معد الملقب المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله، بُويع بالأمر بعد موت والده الظاهر سنة ٢٤٧ هـ، وجرى على أيامه ما لم يجرِ على أيام أحد من أهل بيته ممن تقدمه أو تأخره.

منها: أنه حدث في أيامه الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام، وأقام سبع سنين، أكل الناس بعضهم بعضاً، حتى قيل إنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً، وكان المستنصر في هذه الشدّة يركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع. وكان المستنصر يستعير من ابن هبة صاحب ديوان الإنشاء بغلته ليركبها صاحب مظلّته وآخر الأمر توجّهت أمّ المستنصر وبناته إلى بغداد من فرط الجوع، وذلك في سنة ٤٦٢ هـ، وتفرّق أهل مصر في البلاد وتشتّتوا، ولم يزل هذا الأمر على شدّته حتى تحرّك بدر الجمالي والد الأفضل أمير الجيوش من عكا وركب البحر وجاء إلى مصر وتولّى تدبير الأمور فصلُحت، وشرح ذلك يطول.

٢١٢

العجب وحسن الإتّفاق

قرأ بعض الفضلاء في أحد الكتب أن بعض الأدباء اجتاز بدار الشريف الرضي بسامراء وهو لا يعرفها، وقد أخنى عليها الزمان وذهبت بهجتها وأخلقت ديباجتها

وبقايا رسومها تشهد لها بالنضارة وحسن الشارة، فوقف عليها متعجباً من صروف الزمان وطوارق الحدثان. وتمثل بقول الشريف الرضي المذكور[1]:

ولقد وقفتُ على ربوعهُمُ … وطلولُها بيد البلِي نَهْبُ
فبكيتُ حتى ضجَّ من لغبٍ … نِضوي ولجَّ بعذليَ الركبُ
وتلفَّتتْ عيني فمذ خفيتْ … عنِّي الطلول تلفَّتَ القلبُ

فمر به شخص وسمعه وهو ينشد الأبيات فقال له: هل تعرف هذه الدار لمن هي؟

فقال: لا.

فقال: هذه الدار لصاحب هذه الأبيات، الشريف الرضي، فتعجّبا من حسن الإتّفاق.

ولقد اذكرتني هذه الواقعة حكاية هي في معناها ذكرها الحريري في كتاب «درة الغواص في أوهام الخواص»[2] وهي على ما رواه أن عبيد بن شرية الجرهمي عاش ٣٠٠ سنة وأدرك الإسلام فأسلم ودخل على معاوية بن أبي سفيان بالشام وهو خليفة، فقال له: حدّثني بأعجب ما رأيت، فقال: مررت ذات يوم بقوم يدفنون ميتاً لهم، فلما انتهيت إليهم اغرورقتْ عيناي بالدموع فتمثّلتُ بقول الشاعر:

يا قلبُ إنك من أسماء مغرورُ … فاذكرْ وهل ينفعنْك اليوم تذكيرُ
قد بحت بالحبّ ما تخفيه من أحدٍ … حتى جرت لك أطلاقاً محاضيرُ
فلست تدري وما تدري أعاجلها … أدنى لرشدك أم ما فيه تأخيرُ
فاستقدر الله خيراً وارضَينَّ به … فبينما العسرُ إذ دارت مياسيرُ
وبينما المرء في الأحياء مغتبطٌ … إذا هو الرّمس تعنوهُ الأعاصيرُ[3]
يبكي الغريب عليه ليس يعرفهُ … وذو قرابته في الحيّ مسرورُ

قال، فقال لي رجل: أتعرف من يقول هذا الشعر؟ فقلت لا، قال: إن قائله هو الذي دفنّاه الساعة، وأنت الغريب الذي تبكي عليه ولست تعرفه، وهذا الذي

(١) ديوانة، ١: ١٨١.
(٢) «درة الغواص»، ص ٥٥.
(٣) الرمس: القبر. وتعفوه: تمحوه.

خرج من قبره أمسَّ الناس رحماً به وأسرّهم بموته.

فقال له معاوية: لقد رأيت عجباً، فمن الميت؟

قال: هو عثير بن لبيد العذري.

٢١٣

يريد فروة من صفاتها: كذا...

ذكر العماد الأصبهاني في كتاب «الخريدة» أن أبا الفتح محمد بن عبيد الله بن الكاتب المعروف بابن التعاويذي الشاعر كان صاحبه لّما كان بالعراق. فلما انتقل العماد إلى الشام واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين كتب إليه ابن التعاويذي رسالة وقصيدة يطلب منه فروة، وذكر الرسالة وهي:

«وقد كلف مكارمه وإن لم يكن للجود عليها كلفة، وأتحفه بما وجهه إليه من أمله وهو لعمر الله تحفه، أهدى فروة دمشقية، سرية نقيّة، يلين لمسها، ويزين لبسها، ودباغتها نظيفة، وخياطتها لطيفة، طويلة كطوله، سابغة كأنعمه، حالية كذكره، جميلة كفعله، واسعة كصدره، نقية كعرضه، رفيعة كقدره، موشية كنظمه ونثره، ظاهرها كظاهره، وباطنها كباطنه، يتجمّل بها اللاّبس، وتتحلّى بها المجالس، وهي لخادمه سربال، وله ـ حرس الله مجده ـ جمال، يشكره عليها من لم يلبسها، ويثني عليه من لم يتدرعها، تذهب خميلة وبرها، ويبقى حميد أثرها، ويخلف إهابها وجلدها، ويتجدّد شكرها وحمدها، وقد نظم أبياتاً ركب في نظمها الغرر، وأهدى بها التمر إلى هجر، إلاَّ أنه قد عرض الطيب على عطاره، ووضع الثوب في يد بزازه، وأحلَّ الثناء في محلّه، وجمع بين الفضل وأهله، وهي في حسنه وخفارة كرمه» ثم ذكر القصيدة التي أولها[1]:

بأبي من ذبت في الحـ ـبّ له شوقاً وصبوةْ

وهي موجودة في ديوانه.

وكتب العماد جواب القصيدة على هذا الرويّ أيضاً، وهما طويلتان.

---

(١) ديوانه، ص ٤٥٣.

الدنيا تتنقل من قوم إلى قوم

كان الوزير ابن الزيّات[1] قد اتّخذ تنوراً من حديد وأطراف مساميره المحدّدة إلى داخل، وهي قائمة مثل رؤوس المسالّ في أيام وزارته. وكان يعذّب فيه المصادَرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرّك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه، فيجدون لذلك أشدّ الألم ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة.

وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمني فيقول له: الرحمة خَوَر في الطبيعة، فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور، وقيده بخمسة عشرة رطلاً من الحديد فقال: يا أمير المؤمنين ارحمني، فقال له: الرحمة خَوَر في الطبيعة - كما كان يقول للناس - فطلب دواة وبطاقة فأحضرتا إليه فكتب:

هي السبيلُ فمن يومٍ إلى يومِ ... كأنه ما تريك العينُ في النومِ
لا تجزعنّ رويداً إنها دولٌ ... دنيا تَنَقَّلُ من قومٍ إلى قومِ

وسيرها إلى المتوكل، فاشتغل عنها ولم يقف عليها إلاّ في الغد، فلما قرأها المتوكل أمر بإخراجه، فجاؤوا إليه فوجدوه ميتاً وذلك في سنة ٢٣٣ هـ وكانت مدة إقامته في التنور أربعين يوماً.

ولما مات وجد في التنّور مكتوب بخطّه قد خطه بالفحم على جانب التنوّر يقول:

من له عهدٌ بنوم ... يرشد الصَّبَّ إليهِ
رحم الله رحيماً ... دلّ عينيّ عليهِ
سهرت عيني ونامتْ ... عين من هُنْتُ لديهِ

وقال أحمد الأحول: لما قبض على ابن الزيات تلطّفتُ إلى أن وصلت إليه فرأيته في حديدٍ ثقيل، فقلت له: يعزّ عليَّ ما أرى، فقال:

---

(١) ابن الزيات: كان وزير المعتصم بالله.

سل ديار الحيّ من غيرّها وعفاها ومحا منظرها
وهي الدنيا إذا ما أقبلت صيّرتْ معروفها منكرها
إنما الدنيا كظلٍ مائلٍ نحمد الله كذا قدّرها

وعندما دُفن لم يعمق قبره فنبشته الكلاب وأكلته.

وكان الجاحظ منقطاً إليه فخاف أن يؤخذ مع أسبابه، فغاب وكان يقول: كدتُ أكون. . .

وحكى ابن أبي العيناء قال:

كنت عند ابن أبي داود بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيّداً وكان في أسبابه وناحيته، وعند ابن أبي داود محمد بن منصور، وهو إذ ذاك يلي قضاء فارس وخورستان فقال ابن أبي داود للجاحظ: ما تأويل هذه الآية ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد﴾.

فقال: تلاوتها تأويلها أعزّ الله القاضي.

فقال: جيئوا بحدّاد.

فقال: أعزّ الله القاضي، ليفك عني أو ليزيدني؟

فقال: بل ليفك عنك، فجيء بالحداد وغمزه بعض أهل المجلس أن يعنّف بساق الجاحظ ويطيل أسره قليلاً، ففعل، فلطمه الجاحظ وقال:

إعملْ عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة فإن الغرر على ساقي وليس بجدعٍ ولا ساجة، فضحك ابن أبي داود وأهل المجلس منه، وقال ابن أبي داود لمحمد بن منصور: أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه.

*

٢١٥

قتلوهُ ودفنوا أعضاءه في كل اتجاه

كان أبو نصر محمد بن منصور بن محمد الملقّب عميد الملك الكندري من رجال الدهر جوداً وسخاءً وكتابةً وشهامة، استوزرهُ السلطان طُغرلبَك السجلوقي ونال عنده الرتبة العالية والمنزلة الجليلة، ولم يزل وزيراً إلى أن توفي طغرلبك وقام في المملكة ابن أخيه ألب أرسلان الذي عزله من الوزارة سنة ٦٥٤ هـ لسببٍ يطول شرحه وفوّض الوزارة إلى نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي وحبس عميد الملك الكندري بنيسابور في دار عميد خراسان، ثم نقله إلى مرو الروذ وحبسه في داره، فكان في حجرة تلك الدار عياله، وكانت له بنت واحدة لا غير، فلما أحسّ بالقتل دخل الحجرة وأخرج كفنه وودّع عياله وأغلق باب الحجرة واغتسل وصلّى ركعتين، وأعطى الذي همَّ بقتله مائة دينار نيسابورية وقال:

حقي عليك أن تكفنني في هذا الثوب الذي غسلته بماء زمزم، وقال لجلاّده: قل للوزير نظام الملك: بئس ما فعلت، علّمت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر مهواة[1] وقع فيها، ومن سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ورضي بقضاء الله المحتوم.

قتل سنة ٤٥٦ هـ ومن العجائب أنه دُفنتْ مذاكيره بخوارزم، وأُريق دمه بمرو الروذ ودُفن جسده بقريته كندر، وجمجمته ودماغه بنيسابور، وحُشيت سوأته بالتبن ونقلتْ إلى كرمان، وكان بها نظام الملك فدفنت هناك، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، بعد أن كان رئيس عصره.

٢١٦

الرازي ذلك الطبيب الماهر

ذكر القاضي التنوخي في كتاب «الفرج بعد الشدة» في باب من اشتدّ بلاؤه بمرض فعافاه الله بأيسر سبب وأقاله: أن غلاماً من بغداد قدم الريّ وكان ينفث

---

(١) المهواة: الحفرة.

الـدم، وكان لحقـه ذلك في طـريقه، فـاستدعى أبـا بكـر الـرازي الـطبيب المشهـور بالحذق، صاحب الكتب المصنّفة، فأراده ما ينفث ووصف له ما يجد. فأخذ الرازي مجسّه، ورأى قارورته واستوصف حاله منـذ ابتداء ذلـك به، فلم يقم لـه دليل عـلى سلّ أو قرحة، ولم يعرف العلّة، واستنظر الرجل لينتطر في الأمر، فقامت على العليل القيامة وقال: هـذا أيأس لي من الحياة لحذق الطبيب وجهله بالعلّة، فازداد ما به من الألم، فولد الفكر للرازي أن عاد إليه فسأله عن المياه التي شربها في طريقـه، فأخـبره أنـه شرب من مستنقعات وصهـاريج، فقـام في نفس الرازي بحـدة الخاطـر وجـودة الذكاء أن علقة كانت في الماء وقد حصلت في معدته وأن ذلـك الدم من فعلهـا وقال لـه: إذا كان في غـدٍ جئتك فعـالجتك ولم أنصرف حتى تبـرأ، ولكن بشرط أن تـأمـر غلمانك أن يطيعوني فيك لمّا آمرهم، فقال: نعم.

فانصرف الرازي فجمع ملء مركنين كبيرين من طحلب فأحضرهما في غدٍ معـه فأراه إياهما وقال له: ابلعْ.

فقال: لا أستطيع.

فقال للغلمان: خذوه فأنيموه، ففعلوا بـه ذلك، وطـرحوه عـلى قفاه وفتحـوا فاه وأقبل الرازي يدسّ الطحلب في حلقه ويكبسه كبساً شديداً ويسأله أن يبلعه ويهـدّده بأن يُضرب إلى أن أبلعه كارهاً أحد المركنين بأسره، والرجل يستغيث فـلا ينفعه مـع الـرازي شيء إلى أن قال العليـل: الساعـة أقذف، فـزاد الـرازي في مـا يكسبـه في حلقه، فذرعه القيء فقذف، فتأمل الرازي قذفه فإذا فيـه علقة، وإذا هي لمـا وصل إليهـا الطحلب قـرّبت إليه بـالطبـع وتركت مـوضعها والتفّت عـلى الطحلب ونهض العليل معافى.

٢١٧

هل هذه صلاة أبي حنيفة؟

ذكـر إمام الحـرمين أبـو المعالي عبـد الملك الجويني في كتـابه الـذي سماه «مغيث الخلق في اختيـار الأحق» أن السلطان محموداً بـين سبكتكـين كـان عـلى مـذهـب أبي حنيفة، وكان مولعاً بعلم الحديث، وكان يسمعـون الحديث من الشيـوخ بين يـديه،

وهو يسمع، وكان يستفسر الأحاديث، فوجد أكثرها موافقاً لمذهب الشافعي، فوقع في خلده حكة، فجمع الفقهاء من الفريقين في مَرْو والتمس منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين عى الآخر، فوقع الاتفاق على أن يصلوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعي، وعلى مذهب أبي حنيفة، لينظر فيه السلطان، ويتفكّر ويختار ما هو أحسنها.

فصلَّى «القفّال المروزي» بطهارة مسبغة وشرائط معتبرة من الطهارة والسترة واستقبال القبلة، وأتى بالأركان والهيئات والسّنن والآداب والفرائض على وجه الكمال والتمام وقال: هذه صلاة لا يجوّز الإمام الشافعي دونها.

ثم صلَّى ركعتين على ما يجوّز أبو حنيفة، فلبس جلد كلب مدبوغاً ولطخ ربعه بالنجاسة، وتوضأ بنبيذ التمر، وكان في صميم الصيف في المفازة، واجتمع عليه الذباب والبعوض، وكان وضوءه منكساً منعكساً، ثم استقبل القبلة، وأحرم بالصلاة من غير نيّة في الوضوء، وكبّر بالفارسية «دوبركك سبز» ثم نقر نقرتين كنقرات الديك من غير فصل ومن غير ركوع، وتشهّد، وضرط في آخره من غير نيّة السلام وقال: أيها السلطان، هذه صلاة أبي حنيفة.

فقال السلطان: لو لم تكن هذه الصلاة صلاة أبي حنيفة لقتلتك، لأن مثل هذه الصلاة لا يجوّزها ذو دين، فأنكرت الحنيفة أن تكون هذه صلاة أبي حنيفة، فأمر القفّال بإحضار كتب أبي حنيفة، وأمر السلطان نصرانياً كاتباً يقرأ المذهبين جميعاً، فوُجدت الصلاة على مذهب أبي حنيفة على ما حكاه القفّال. فأعرض السلطان عن مذهب أبي حنيفة وتمسك بمذهب الشافعي. انتهى كلام إمام الحرمين.

٢١٨

معذور بما صنع

ليحيى بن المنحم النديم مع المعتضد وقائع ونوادر، فمن ذلك ما حكاه أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي في كتاب «مروج الذهب»[1] عن يحيى

---

(١) راجع: «مروج الذهب»، ٤: ٢٧٩.

المذكور أنه قال: كنت يوماً بين يديّ المعتضد وهو مغضب، فأقبل بدر مولاه، وكان شديد الغرام به، فلما رآه من بعيد ضحك وقال: يا يحيى من الذي يقول من الشعرا:

في وجهه شافع يمحو إساءته | من القلوب وجيهُ حيثما شفعا

فقلت: يقوله الحكم بن عمرو الشاري.

فقال: لله درّه! أنشدني هذا الشعر، فأنشدته:

ويلي على من أطار النوم فامتنعا | وزاد قلبي على أوجاعه وجعا
كأنه الشمس من أعطافه لمعتْ | حسناً أو البدر من أزراره طلعا
مستقبل بالذي يهوى وإن كثرت | منه الذنوب ومعذور بما صنعا
في وجهه شافعٌ يمحو إساءته | من القلوب وجيه حيثما شفعا

٢١٩

قطع الله يديك ورجليك

قال الجاحظ: سألني بعضهم كتاباً بالتوصة إلى بعض أصحابي، فكتبت له رقعة وختمتها. فلمّا خرج الرجل من عندي فضّها فإذا فيها:

«كتابي إليك مع من لا أعرفه ولا أُوجب حقّه، فإن قضيت له حاجة لم أحمدك، وإن رددته لم أذمّك».

فرجع الرّجل إليّ، فقلت له: كأنّك فتحت الرقعة وقرأتها؟

قال: نعم.

قلت: لا يضيرك ما فيها، فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص!

فقال: قطع الله يديك ورجليك ولعنك!

قلت: ما هذا؟! ما هذا؟

قال: هذا علامة لي إذا أردت أن أشكر أحداً..

* وقال الجاحظ:

ما أخجلني أحد إلاّ امرأتان: رأيت إحداهما، وكانت طويلة القامة، وكنت على

طعام فأردت أن أمازحها فقلت لها؛ انزلي كُلي معنا (معرّضاً بطولها). فقالت: اصعدْ أنت حتى ترى الدنيا (معرّضة بقصره).

* وأمّا الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت: لي إليك حاجة وأُريد أن تمشي معي. فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ وقالت له: مثل هذا وانصرفت. فسألت الصائغ عن قولها، فقال: إنها أتت إليَّ تسألني أن أنقش لها على خاتم صورة شيطان فقلت لها ما رأيت الشيطان لأنقش صورته. فذهبتْ فأتت بك وقالت ما سمعت.

٢٢٠

عُنيزة صاحبة امرىء القيس

جاء في كتاب شرح المعلقات السبع للزوزني، وفي كتاب الأغاني للأصفهاني ما يلي:

ذكر رواة أيام العرب أن امرأ القيس بن حجر بن عمرو الكندي كان يعشق عُنيزة ابنة عمّه شرحبيل، وكان لا يحظى بلقائها ووصالها، فانتظر ظعن[1] الحي، وتخلّف عن الرجال حتى إذا ظعنت النساء سبقهنّ إلى الغدير المسمى دارة جلجل واستخفى لأنه كان يعلم أنهنّ سيردن هذا الماء ويغتسلنَ.

فلمّا وردت العذارى اللواتي كانت عُنيزة فيهن وخلعنَ ثيابهن وشرعنَ في الإنغماس في الماء ظهر امرؤ القيس وجمع ثيابهنّ وجلس عليها، ثم حلف على أن لا يدفع إليهنّ ثيابهنّ إلاّ بعد أن يخرجن إليه عاريات. فخاصمنه زمناً طويلاً من النهار فأبى إلاّ إبراز قسمه، فخرجت إليه أوقحهنّ فرمى بثيابها إليها، ثم تتابعن حتى بقيت عُنيزة، وأقسمت عليه فقال: يا ابنة الكرام لا بدَّ لك أن تفعلي مثل ما فعلنَ، فخرجت إليه فرآها مقبلة ومدبرة.

فلمّا لبسنَ ثيابهنّ أخذت في عذله وقلن: قد جوّعتنا وأخّرتنا عن الحيّ.

فقال لهن: لو عقرت راحلتي أتأكلن؟

---

(١) ظعن: خروج وارتحال.

قلن: نعم.

فعقر راحلته ونحرها، وجمعت الإماء الحطب وجعلن يشوين اللحم إلى أن شبعنَ، وكانت معه ركوة فيها خمر فسقاهن منها، فلما ارتحلن قسمن أمتعته فبقي هو دون راحلة فقال لعنيزة: يا ابنة الكرام لا بدّ لك من أن تحمليني، وألحّت عليها صواحبها أن تحمله على مقدم هودجها، فحملته، فجعل يدخل رأسه في الهودج يقبّلها ويشمّها، وذكر هذه القصّة في أثناء معلقته التي مطلعها:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلَ   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٢٢١

معاوية أدهى

جاء في بعض المجاميع(١) أن أعرابياً طلب إلى حاجب معاوية أن يستأذن له بالدخول عليه، فلمّا سأله عن اسمه وحاجته أجاب «أنا أخوه لأبيه وأمّه» ولم يزد على ذلك.

ولمّا أذن له بالدخول، سأله معاوية: «أي الأخوة أنت؟»

فقال الأعرابي: ابن آدم وحواء.

فقال الخليفة: يا غلام، أعطه درهماً.

فقال الرجل: أتعطي أخاك لأبيك وأمّك درهماً واحداً؟

فقال معاوية: لو أنني أعطيت كل ما في بيت المسلمين لأخوتنا من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا الدرهم.

٢٢٢

ليلى الأخيلية وتوبة

جاء في كتاب الأغاني أن ليلى الأخيلية من بني عامر، كانت بارعة الجمال، أحبها توبة بين الحميّر وأحبته فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياها وزوّجها رجلاً من بني

---

(١) المجاميع: جمع مجموع، وهو عدة موضوعات تكون في كتاب واحد.

الأدلع فكان شديد الغيرة عليها. وكان توبة كثير الغارات فقتل في إحدى غاراته، فرثته ليلى. ويُروى أنها مرّت بقبر توبة في أحد الأيام وهي في هودجها ومعها زوجها. فأرادت أن تسلّم على توبة فأبى زوجها، فألحّت، وصعدت، وهي في هودجها، إلى أكمة فيها قبر توبة. فقالت: السلام عليك يا توبة، ثم حوّلت وجهها إلى القوم فقالت: ما عرفتُ له كذبةً قط قبل هذه.

قالوا: وكيف؟

قالت: أليس هو القائل:

ولو أنّ ليلى الأخيلية سلّمتْ ... عليَّ ودوني تربةٌ وصفائحُ[1]
لسلّمتُ تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدىً من جانب القبر صائح

قالت ليلى: فما باله لا يسلّم عليَّ كما قال؟

فما أتمّت كلامها حتى ثارت من جانب القبر بومة كانت كامنة أخافها الهودج، فنفر الجمل فوقعت ليلى على رأسها وماتت من وقتها، فدفنوها إلى جنبه.

٢٢٣

ما معنى أن نقول: رجع بخفّي حُنين؟

قرأت في مجمع الأمثال للميداني أن أحد الأعراب ساوم حُنيناً الأسكافي على خُفّين[2]، ولكنه لم يشترِهما بعد جدل طويل، فغاظ حُنيناً جدل الأعرابي، فقام وعلّق أحد الخفّين في طريق الأعرابي، ثم سار وطرح الآخر في طريقه، وكمن له.

فلمّا مرَّ الأعرابي ورأى أحد الخفّين قال: ما أشبه هذا بخفّ حُنين ولو كان معه الآخر لأخذته. فتقدّم، ورأى الخف الثاني مطروحاً فندم على تركه الأول، فنزل وعقل راحلته[3] ورجع إلى الأول.

---

(١) الصفائح: الحجارة.
(٢) الخف: الحذاء.
(٣) الراحلة: الناقة.

فذهب حُنين براحلته، ورجع الأعرابي إلى الحيّ وليس معه إلاّ الخفّان. فقال له قومه: ما الذي جئتَ به من سفرك؟ فقال: جئتكم بخفيّ حنين.

«يضرب هذا المثل عند الرجوع بالخيبة».

٢٢٤

ما معنى أن نقول: إن وراء الأكمة ما وراءها؟

يقال إن فتاة واعدت صديقها أن تأتيها وراء الأكمة إذا فرغت من عملها في البيت ليلاً، فشغلها أهلها بما يأمرونها به من العمل، فقالت حين غلبها الشوق: حبستموني، وإن وراء الأكمة ما وراءها.

يضرب هذا المثل لمن يفشي على نفسه أمراً مستوراً.

٢٢٥

ما معنى أن نقول: جزاء سِنِمّار؟

سنمار رجل رومي بنى قصر الخَوَرْنَق في العراق للنعمان، أحد ملوك المناذرة، فلما فرغ منه ألقاه الملك من أعلاه فخرّ ميتاً. وإنما فعل ذلك لئلاّ يبني مثله لغيره، فضربت العرب به المثل لمن يجزي الإحسان بالإساءة.

٢٢٦

لقد أخجلتني

ضمّ عثمان بن رواح السفر ورفيقاً له، فقال له الرفيق: امضِ إلى السوق فاشترِ لنا لحماً.

قال: والله ما أقدر. فمضى الرفيق واشترى اللحم ثم قال لعثمان: قم الآن فاطبخ القدر.

قال: والله ما أقدر. فطبخها الرفيق، ثم قال: قم وضع الأكل على الطاولة، فقال: والله ما أقدر، فوضعها الرفيق وقال له: قم الآن فكُلْ. فقال: والله لقد أخجلتني واستحييت من كثرة خلافي عليك، ولولا ذلك ما فعلت.

٢٢٧

سرّ دموع التماسيح

يقول أحد علماء الحيوان: أن عيون التماسيح تدمع كلّما همّت بابتلاع فريسة كبيرة الحجم، لا لأنها تبكي عليها كما يُظن، بل لأن فتح الفكين يسبب ضغطاً على الغدد الدمعية بالعين، فتسيل منها الدموع. لذلك درج بعضهم على وصف من يتظاهر بالحزن ويفتعل البكاء بأن دموعه كدموع التماسيح.

٢٢٨

بخلاء العرب وأغربة العرب وصعاليك العرب

جاء في كتاب الأغاني برواية ابن دريد عن أبي عبيدة قال:

بخلاء العرب أربعة: الحطيئة، وحميد الأرقط، وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان.

وأخبر ابن الكلبي أن أغربة العرب ثلاثة هم: عنترة وأمّهُ زبيبة، وخفان بن عمير الشريدي وأمّهُ ندبة، والسليك بن عمير السعدي وأمّهُ السلكة، وإليهن ينسبون.

أمّا صعاليك العرب منهم طائفة من الناس اشتهروا بالعدو السريع والغارة على القبائل للنهب والسلب وأشهرهم: الشنفري، وتأبط شرًا، وعروة بن الورد، والسليك بن السلكة، وعمرو بن البراق وأسيد بن جابر.

وممّا يروى عن الشنفري أنه حلف ليقتلنّ مئة رجل من بني سلامان، فقتل تسعةً وتسعين، ثم احتالوا عليه فأمسكه رجل منهم عدّاء هو أسيّد بن جابر ثم قتله، فمرّ به رجل منهم فرفس جمجمته فدخلت شظيّة منها برجله فمات فتمّت القتلى مائة.

*

٢٢٩

لمن الجائزة؟

عيّن أحد الملوك إكليلاً من الذهب يقدّمه جائزة لأعظم عملٍ يقوم به أحد أفراد رعيّته، وذات يوم مثل أمامه شاعر ورسّام وعالم. وتقدّم الشاعر فأنشد أمام الملك قصائد من روائع شعره.

وبعده جاء الرّسام الذي عرض أمامه لوحاته الفنيّة ورسومه الجميلة وخطه البديع.

وأخيراً جاء العالم وهو يحمل كتبه ويشرح للملك بعض اختباراته وتجاربه ويوضح له الاكتشافات والاختراعات التي توصّل إليها في مباحثه.

وفي النهاية ظهرت امرأة كلّل الشيب شعرها، فسألها الملك: ما لديك أيها العجوز؟ وما عندك لتقدميه؟

أجابت: إن الذين مثلوا أمامك أيها الملك هم أولادي، وقد جئت لأرى من منهم ينال الجائزة ويحظى بتاج الذهب؟

وهتف الملك على الفور: ضعوا التاج على رأس هذه السيدة صانعة هؤلاء الرجال العظماء.

٢٣٠

الإيثار

لما دالت دولة الأمويين، هرب مروان إلى جهة حرّان بالشام، وهرب معه كاتبه عبد الحميد بن يحي. فقال له مروان: يا عبد الحميد فرّ أنت واتركني إلى الغوائل فإن العباسيين إذا قتلوني لم يخسرني غير أهلي، وأمّا أنت، فإنهم إذا قتلوك خسرتك العرب كلّها.

ولّما عزم عليه بالفرار، فرّ عبد الحميد بعد أن قتل سيده مروان ولم يمسك به بنو العباس، فذهب واختفى بدار صديقه عبد الله بن المقفّع، ففاجأه الطلب وهو في بيته، فقال الذين دخلوا عليهما من الجند: أيكما عبد الحميد؟

فابتدر ابن المقفّع، وكان يعلم الداهية، فقال: أنا ذلك عبد الحميد. وأراد بهذا

القول أن يضلّل الجند خوفاً على صاحبه.

وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال: ترفقوا بنا، فإنّ كلاً منا له علامات، فوكلوا بنا بعضكم ويمضي بعضكم الآخر، ويتفقّد علاماتنا من عند من وجّهكم إلينا.

ففعل الجنود وعادوا بعلامة عبد الحميد فأخذوه إلى السفّاح فقتله.

٢٣١

مع تفاحة

أهدت جارية من جواري المأمون تفاحة إليه وكتبت معها:

«فكّرت في هدية تخف مؤونتها وتهون كلفتها، ويحل موقعها، فلم أجد إلّا أن أهدي إليك تفاحة، هي أحسن الفاكهة، قد اجتمعت فيها ألوان قوس قزحٍ، من الصفرة الدريّة، والحمرة الخمرية، والشقرة الذهبية، وبياض الفضّة، ولون التبر، يلتذ بها من الحواس: العين ببهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها. إن حملتها لم تؤذك، وإن رماك بها أحد لم تؤلمك، فتناولها بيمينك، ولا تبعدها عن عينك، فإذا طال لبثها عندك، ومقامها بين يديك، وخفت أن تزول بهجتها، وتذهب نضرتها، فكُلها هنيئاً مريئاً».

٢٣٢

أبلغ الكلام

كان موسى بن نُصير يوالي فتوحه في الأندلس، حتى وصل إلى بلد حصين يسمى «ماردة» فوجد العدو قد تحصّن به. وحاول العرب مرّة بعد مرّة إجلاء العدو، ولكن عبثاً، فلمّا يئسوا أقبل نفرٌ من الجند إلى القائد وقالوا له: «لا سبيل إلى هؤلاء القوم، وهذا حصن صغير نستطيع أن نخافه، وقد كلّت أجسامنا من السعي، وما نرى إلّا الرجوع».

فابتسم القائد الكبير، وكان في نحو الخامسة والثمانين من العمر وقال: «ليعد

منكم من يريد، أمّا أنا فقد خرجت في سبيل الله، ولن أعود إلّا أن يشاء الله والجنة في آخر هذا الطريق».

ثم امتطى حصانه واستعدّ للهجوم فاجتمع حوله الجند. وبعد ساعات كان الحصن قد استسلم.

٢٣٣

الشاعر والبراغيث

أرق أحد الشعراء وهو مدمن للخمرة، ولم يكن لديه شراب، وحالت البراغيث دون إغفائه فكتب إلى صديق له يقول:

أشكو إليك براغيث بُليتُ بها ... سوداً إذا انتبهتْ في الليل لم أنمِ
أصيد ذا فيبقى ذا فيلدغني ... فينقضي الليل في صيدي ولدغهمِ
وقد تيقّنت أني ليس ينقذني ... غير الشراب وليس الصحو من شيمي
فابعثْ إليَّ دمَ العنقود أشربه ... حتى إذا نمتُ لم أشعر بسفك دمي

٢٣٤

المتنبّي وبائع البطيخ

المعروف عن المتنبي أنه كان لا يكفّ عن مدح الكرم وأهله، وكانت فيه كبرياء وعلوّ همّة، ومع ذلك اشتهر بالبخل والحرص على المال، وقد قيل له: «إن بخلك ينافي ما تتّصف به من خلال وما تمدح وما تمدح به الناس».

فقال أبو الطيب:

«إن للبخل عندي سبباً... وردت من الكوفة إلى بغداد في صباي، ومررت ببائع فاكهة عنده باكورة بطيخ فسألته: بكم تبيع البطيخة؟ فقال غير مكترث: إذهب فليس هذا من أكلك. فقلت له: سألتك عن الثمن فأجبني. فقال: البطيخة بدرهمين. فعرضتُ عليه خمسة دراهم ثمناً لخمس بطيخات فلم يقبل. وإذا شيخ من التجار يمرّ فوثب إليه صاحب البطيخ يدعو له ويقول: يا مولاي، هذا بطيخ

باكورة، فهل تأذن لي أن أحمله إلى دارك؟ فساومه الشيخ في الثمن وقبل البائع أن يبيع البطيخات الخمس بدرهمين، وحملها إلى دار الشيخ ورجع مسروراً بما فعل. فقلت له: ما رأيت أعجب من جهلك يا هذا. عرضتُ عليك خمسة دراهم فأبيت وقبلت من ذلك الشيخ درهمين. فقال لي: اسكتْ، إن هذا الرجل يحمل مائة ألف دينار. فقلت: إن الناس لا يكرمون أحداً إلاَّ إذا كان يملك المال الكثير، وأنا لا أزال حريصاً على المال حتى أسمع الناس يقولون: إن أبا الطيّب قد ملك مائة ألف دينار.

ـ وهكذا أثّرت هذه الحادثة في نفس المتنبي وطبعته بطابعٍ في سلوكه الشخصي وشعره لم يفارقه مدى الحياة.

٢٣٥

هذه الخرافات . . كيف بدأت؟

* الرقم ١٣:

يعتقد كثيرون أنه إذا وُجد ١٣ شخصاً في غرفة واحدة أو جلسوا إلى مائدة واحدة، فإن واحداً منهم يموت قبل نهاية العام. وترجع هذه العقيدة إلى ما روي في قصة العشاء الأخير الذي شهده السيّد المسيح وتلاميذه الإثنا عشر فقد كان بينهم يهوذا الذي خانه ثم ما لبث أن أدرك عظم جرمه فانتحر.

* حدوة الحصان:

يتفاءل كثيرون من تثبيت حدوة الحصان فوق أبواب منازلهم، على أن يكون طرفاها إلى أعلى. ومنشأ هذه العقيدة أن الشيطان كما تصوّره الأساطير يتحرّك دائماً بصورة دائرية. وانه إذ يتحرك بموازاة الحدوة ثم يصل إلى الطرف الأعلى المفتوح تُعاق حركته فلا يتمكن من دخول البيت.

* المشي تحت السلالم:

يتشاءم بعض الناس من العبور تحت سلّم يعتمد على حاجز أو جدار. ومنشأ هذه العقيدة أن السلم في هذا الوضع يكون مثلثاً. والمثلث عند القدماء رمز الحياة وتحدّيه ينطوي على تحدٍ للثالوث المقدس ولعقيدة التثليث في الدين المسيحي.

* تحطيم المرايا:

من العقائد الشائعة في كثير من بلاد العالم أن تحطيم المرايا يجلب سوء الحظ، ومرجع هذه العقيدة أن انعكاس الصورة في الماء أو فوق زجاج المرآة يمثّل الروح ـ أو ما كان يسميه المصريون القدماء «القرين» ـ وتحطيم المرآة نذير بتحطيم الروح وفراقها للجسد.

٢٣٦

إن مَنْ لا يَرحم لا يُرحم

عن ابن الكلبي عن أبيه قال:

وفد قيس بن عاصم على رسول الله (ص) فسأله بعض الأنصار عمّا يُتحدثُ به عنه من الموؤودات[١] التي وَأَدَهُنَّ من بناته، فأخبر أنه ما ولدت له بنت قطّ إلاّ وَأَدَها. ثم أقبل على رسول الله (ص) يحدثه فقال له:

كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة في البنات، فما وُلِدَتْ لي بنت قطّ إلاّ وَأَدتها، وما رحمت منهن موؤودة قطّ إلاّ بُنيّة لي ولدتها أمّها وأنا في سفر، فدفعتها أمّها إلى أخوالها فكانت فيهم.

وقدمتُ فسألتُ عن الحَمْلِ، فأخبرتني المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً.

ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبيّة ويفعتْ، فزارت أُمها ذات يوم، فدخلتُ فرأيتها وقد ضفرت شعرها وجعلت في قرونها شيئاً من الطيب، ونظمت عليها وَدَعاً، وألبستها قلادة عقيق وجعلت في عنقها قلادة بَلَح. فقلت، من هذه الصبيّة فقد أعجبني جمالها وعقلها. فبكت ثم قالت: هذه ابنتك، كنت خبرتك أني ولدتُ ولداً ميتاً وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ. فامسكتُ حتى إذا كانت أمها في شغل عنها أخرجتها يوماً فحفرت لها حفيرة فجعلتها فيها وهي تقول: يا أَبَتِ ما تصنع بي؟! وجعلتُ أقذف عليها التراب وهي تقول: يا أَبَتِ أَمُغَطِّيَّ أنت

(١) الموؤودات: اللواتي يُدفنّ وهنّ أحياء، وهي عادة كانت شائعة عند البعض في أيام الجاهلية وأسبابها كثيرة (راجع: «الأغاني»، ١٤: ٧٢).

بالتراب؟! أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني؟! وجعلت أقذف عليها التراب حتى واريتها وانقطع صوتها، فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها.

فدمعتْ عينا النبي (ص) ثم قال: «إن هذه لَقَسوة، وإنّ من لا يرحم لا يُرحم».

٢٣٧

من نوادر المعلمين

حكى الجاحظ فقال: ألّفت كتاباً عن نوادر المعلمين، وما يقع لهم. ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع الكتاب، فدخلت يوماً مدينة، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة، فسلّمت عليه فردّ عليّ أحسن ردّ، ورحّب بي، فجلست عنده وباحثته في القرآن فإذا هو ماهر فيه، ثم باحثته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فاذا هو كامل الآداب فقلت هذا والله مـمّا يقوّي عزمي على تقطيع الكتاب. وكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته فإذا بالكتّاب مغلق، ولم أجده، فسألت عنه فقيل مات له ميّت فحزن عليه، وجلس في بيته للعزاء فذهبت إلى بيته وطرقت الباب، فخرجت إليّ جارية، وقالت: «ما تريد؟» قلت: «سيدك». فدخلت وخرجت. وقالت «باسم الله»، فدخلتُ إليه، فإذا به جالس، فقلت له: «عظّم الله أجرك، كل نفس ذائقة الموت، فعليك بالصبر».. ثم قلت له: «هذا الذي توفى ولدك؟» قال: «لا» فقلت: «فأخوك» قال: «لا». قلت: «فزوجك» قال: «لا» قلت: «ومن هو منك؟» قال: «حبيبتي».. قلت: «سبحان الله، النساء كثير، وستجد غيرها». فقال: «أتظن أني رأيتها؟» قلت: «هذه منحسة ثانية» ثم قلت: «وكيف عشقت من لم ترَ؟» فقال:

ـ كنت جالساً في هذا المكان، فرأيت رجلاً عليه برد وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمةً   ردّي عليّ فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر. فعشقتها. فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لـقـد ذهـب الحـمار بـأم عـمـرو فـلا رجـعـت ولا رجـع الحـمار

فعلمت أنها مـاتت، فحـزنت عليهـا وأغلقت المكتب، وجلست في الـدار. فقلت:

«يا هذا إني كنت ألّفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتـك عزمت على تقطيعه، والآن قـد قوّيت عـزمي على إبقـائه وأول مـا أبدأ بـك إن شاء الله».

٢٣٨

قصة زرقاء اليمامة وهند بنت النعمان

جاء في كتاب الأغاني:

روي عن هنـد بنت النعمان أنها كـانت تهـوى زرقـاء اليـمامـة، وأنها أول امـرأة أحبّت امرأة في العرب؛ فان الزرقاء كانت ترى الجيش من مسيرة ثلاثين ميـلاً، فغزا قوم من العرب اليمامة، فلما قربوا من مسافة نظرها قـالوا: كيف لكم بـالوصـول مع الـزرقاء؟ فـاجتمع رأيهم عـلى أن يقتلعوا شجـراً تستّر كـل شجرة منهـا الفـارس إذا حملها، فقطع كل واحد منهم بمقدار طاقته، وساروا بها؛ فأشرفت كما كانت تفعـل، فقال لها قومها: ما ترين يا زرقاء؟ - وذلك في آخر النهار - قالت: أرى شجراً يسير؛ فقالوا: كذبت، أو كذبت عينك! واستهانـوا بقولهـا؛ فلما أصبحوا، صبحهم القـوم فاكتسحوا أموالهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذوا الزرقاء فقلعوا عينها: فوجدوا فيها عروقـاً سوداً، فسئلت عنهـا فقالت: إني كنت أديم الاكتحـال بالأثمـد، فلعلّ هـذا منه، ومـاتت بعد ذلـك بأيـام. وبلغ هنداً خـبرها، فتـرهّبت ولبست المسوح، وبنت ديراً يعرف بدير هند إلى الآن، فأقامت فيه حتى ماتت.

٢٣٩

الجاحظ... ورسالة التربيع والتدوير

كان رجل في عصر الجاحظ اسمه «ابن عبد الوهاب» مدّعياً بنفسه فـأرسل إليـه الجاحظ متهكماً:

«أطال الله بقاءك وأتمّ نعمته عليك وكرامته لك. قد علمت حفظك الله، إنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة، وضخم الهامة، وعلى حور العين وجودة القدّ، وعلى طيب الأحدوثة والصنيعة المشكورة. وان هذه الأمور هي خصائصك التي بها تكلّف، ومعانيك التي بها تلهج... وبعد، أبقاك الله فأنت في يدك قياسك الذي إليه تنسب، ومذهبك الذي إليه تذهب، أن تقول: وما عليّ ان رآني الناس عريضاً وأكون في حكمهم غليظاً، وأنا عند الله طويل جميل، وفي الحقيقة مقدود رشيق. وقد علموا، أبقاك الله، أن لك مع طول الباد راكباً طول الظهر جالساً. ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل، ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت انا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك، فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل وأنت المتقارب. فيا شعراً جمع الأعاريض ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول! بل ما يهمّك من أقاويلهم ويتعاظمك من اختلافهم، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك، وإن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً. ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك، وإذ قد سلموا لك بالرغم شطراً ومنعوك بالظلم شطراً، فقد حصلت ما سلّموا وأنت على دعواك فيما لم يسلموا.

ولعمري أن العيون لتخطىء وأن الحواس لتكذب وما الحكم القاطع إلاّ للذهن، وما الاستبانةِ الصحيحة إلاّ للعقل، إذا كان زماماً على الأعضاء وعياراً على الحواس...».

٢٤٠

قصّة في شعر

الرقص المقنّع

قرأت في بعض الكتب القصيدة النادرة التالية:

الحشد مك الدار لكن　　لم ير أحداً سواها

فـتّـانــة. . . خــلاّبــة كــالـيـاسمينـة في شـبـذاهــا
أوفى عــلـيـهــا وهــي تخـطـر كــالـفـراشــة فــاشتهـاهــا
شـكـت الـصـبـابــة مقلتـاه فــجــاوبـتــه مــقــلـتــاهــا

حــتى إذا مــا اخـتــار كـل فـتى رفيـقتـه اصـطـفـاهـا
ورأت بــه مــن تـبـتـغـي وكــما رأتــه كــذا رآهــا
وتــقــدمــا لـلـرقص يـقـرأ نــاظــريــه نــاظــراهــا
متـلاصقي الجسـمين يسـنـد ســاعــديـه ســاعــداهــا

وتكــاد لـولا الخـوف تلمس وجــنـتــيــه وجــنـتــاهــا
متــدافـعــين كـمـوجـتــين خــطــاه تـتـبـعـهــا خــطـاهــا
يمشي فتمشي و-هـي تحسبـه يــســير عــلى حــشــاهــا
هـي في لـثـام كــالـدجـى محـلـولـكٍ وكـذا فـتـاهـا

لــكــنــما الالحــاظ تخــترق الــشــعــور ومــا وراهــا
فــاض الــغــرام فــقــال آه وقــالـت الحـسـنــاء. . آهــا
فــانـســلّ مــن أصـحــابــه سراً وأغــضــت جــارتــاهــا
ومشى بهــا في روضــةٍ قــد نـام عنهــا حـارســاهــا

حــتى إذا أمِــنــا الــورى وشكـا الهوى وشكـت هـواهـا
طــارت بـبرقعـهــا وبــرقـعــه عــلى عــجــلٍ يــداهــا
كــيــما تــقـبّــل ثــغــره ويـقبّـل المعـشـوق فــاهــا
فــرأى المــتــيّــم بــنــتــه ورأت مـلـيـحـتـنـا أبــاهــا

٢٤١

أقدم قصيدة غرام تنظمها امرأة في زوجها

كشفت الحفريات الأثرية، التي أجريت في هذا القرن في العراق وتركيا، عن أقدم حضارة في العالم، يرقى عهدها إلى ستّة آلاف سنة، أسسها السومريون في البلاد الواقعة جنوب الجزيرة الفراتية، والممتدة إلى الخليج الفارسي. وقال العلماء

المشتغلون بالسومريات إن هذه الحضارة هي أول حضارة عرفها الانسان، فقد سبقت حضارة الصين والهند، كما سبقت الحضارة الفرعونية والحضارة الفينيقية، ثم حضارات بابل واليهود واليونان، مما دعا العالم الأثري الأميركي «كرامر» أستاذ السومريات في جامعة بنسلفانيا واحد المتخصصين بالحضارة السومرية، أن يؤلف كتاباً ضخماً ضمّنه خلال أعماله واكتشافاته السومرية خلال ربع قرن سمّاه «التاريخ يبدأ بسومر». «سومر: بلد من بلاد ما بين النهرين» خلال السبعين السنة الأخيرة، عثر على آلاف من الألواح السومرية الصغيرة والكبيرة، كتب عليها بالحروف الأكادية، وهي من فصيلة الحروف السامية. وبعد جهود جبارة استطاع العلماء حل هذه الكتابات ومعرفة ما فيها، فاذا هي تسجّل تاريخ سومر من نواحيه المختلفة: في صلاتها بالدول المجاورة، وحكوماتها وبرلماناتها، وحروبها الأهلية وثقافتها من طب وزراعة وريّ وفلسفة وأخلاق وحكمة وما وراء الطبيعة من البعث والحساب والجنّة والنار الخ . . . وهذه الألواح محفوظة في متاحف أميركا وتركيا والعراق وألمانيا وفرنسا وغيرها من البلدان.

ومنذ ربع قرن والعلماء يجدّون في ترجمة هذه اللوحات، وحتى الآن لم يترجموا أكثر من خمسة آلاف منها.

وبين هذه الألواح لوح محفوظ في محتف الآثار الشرقية باستامبول عثر عليه العالم الأميركي «كرامر» فتبيّن له أن فيه أقدم قصيدة حب، تتغنى فيها إحدى العرائس بجمال زوجها وحبه. وكان هذا الزوج ملكاً على سومر منذ أربعة آلاف سنة.

كانت العادة في سومر أن يتزوج الملك كل سنة إحدى الفتيات اللواتي نذرن أنفسهن لآلهة الحب «ينانا» ليضمن الخصب في الأرض، فتعطي الناس من ثمرها، والخصب في النساء فيلدن الأولاد وكانت حفلة الزواج تجري في أول يوم من العام. وكانت تسبقها الأعياد والولائم، فتهزج فيها الأهازيج، وتقام الرقصات، وترسل الأنغام وتنشد الأشعار. ويعتقد العالم «كرامر» أن من المحتمل أن تكون قصيدة الحب هذه مما ألقته إحدى الفتيات العرائس أمام زوجها الملك ليلة زفافها، في تلك الأعياد. وهذه ترجمة القصيدة.

أيها الزوج العزيز على قلبي!

جمالك باهر، وحلو كالعسل.
أيها الأسد العزيز على قلبي!
جمالك باهر وحلو كالعسل.

أسرتني، فدعني أقف مضطربة أمامك.
أريد أن تقودني بيدك إلى الغرفة.
أسرتني، فدعني أقف مضطربة أمامك.
أيها الأسد، أريد أن تقودني بيدك إلى الغرفة.

أيا زوجي دعني أداعبك،
فمداعبتي الولهى أحلى من العسل!
وفي الغرفة المملوءة بالعسل،
دعني أنعم بجمالك الساطع.
أيها الأسد، دعني أداعبك،
فمداعبتي الولهى أحلى من العسل.

وجدت فيَّ يا زوجي، كل لذائذك،
فقل ذلك لأمي فتهدي إليك الثمار
وقل ذلك لأبي فيغمرك بالهدايا.

وأنت ما دمت تحبّني،
فاقترب، أتوسل إليك، وداعبني.
أنت يا آلهي وحارسي
إقترب، أتوسل إليك، وداعبني!

تلك هي القصيدة، وهي قصيدة حلوة يظهر فيها حب المرأة وإعجابها بزوجها الملك الجميل ورغبتها في إسعاده.

وبالرغم من أن هذه القصيدة نظمت منذ أربعة آلاف سنة، فانها لا تختلف في عواطفها عن قصائد الحب النسائية التي نظمت فيها بعد، مما يدل على أن طبيعة الانسان واحدة، وخفقات قلبه متشابهة، مهما اختلف الزمان والمكان.

إلّه عمر يعلم! . . .

كان عمر بن الخطّاب يجوب شوارع المدينة ليلاً وطال به المسير والطواف حتى أصابه شيء من التعب فاتّكأ إلى جدار أحد البيوت وإذا بأصوات نسائية تخترق حجب الليل وتطرق أذنيه فتبيّن حديث امرأة تقول:

ـ قومي، يا بنيّة، إلى ذلك اللبن فاخلطيه بالماء!

وعقب عبارتها سكوت. فأنصت عمر، يريد أن يعرف ماذا تجيب الأخرى فسمعها تقول:

ـ يا أمّاه أوَما علمتِ بما كان اليوم من عزمة أمير المؤمنين؟

فقالت الأم: وما كان من عزمته يا بنيّة؟؟

قالت: إنه أمر مناديه فينادي ألّا يشاب اللبن بالماء!

فقالت الأم: قومي يا بنيّتي إلى اللبن فاخلطيه بالماء، فانك بموضع لا يراك فيه عمر ولا منادي عمر.

فأجابت البنت قائلة: لا، يا أمّاه، والله ما كنت لأطيعه في الملأ، واعصاه في الخلا.

إن كان عمر لا يعلم، فإلّه عمر يعلم! . . . .

وسمع عمر ذلك كله. وكان معه رجل يدعى أسلم فقال له:

ـ يا أسلم، علّم المكان واعرف الموضع! ثم مضى مواصلاً طوافه. وإذ أصبح الصباح قال:

ـ يا أسلم، امضِ إلى ذلك الموضع فانظر من القائلة ومن المقولة لها، وهل لهما بعل؟

وذهب أسلم يستقصي الأمر، ثم عاد إلى عمر بن الخطاب وأخبره أن الفتاة أيّم لا بعل لها، وأنها تعيش مع أمها وليس لهما رجل.

ثم دعا عمر أولاده فاجتمعوا فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوّجه؟ . . ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه أحد منكم إلى هذه الجارية.

فقال عبد الله: لي زوجة!

وقال عبد الرحمن: لي زوجة!

وقال عاصم: لا زوج لي يا أبتاه، فزوجني!

وهكذا زوج عمر بن الخطاب تلك الفتاة التي أعجبته بقوتها وأمانتها وخلقها، ابنه عاصم فولدت له بنتاً، وولدت هذه البنت عمر بن عبد العزيز.

٢٤٣

زواج حاتم
وقوة شخصية المرأة العربية الجاهلية

نزل حاتم في بعض أسفاره على بني فهم. وكان فيهم جارية بارعة الجمال يقال لها ماوية. وكانت قد وضعت على نفسها أن لا تتزوّج إلاّ بمن تختبر أخلاقه حتى لا تسقط في الندامة. فضربت حول خبائها سرادقاً للضيوف. وكان كل طارق يأتيها تمتحنه حتى تقف على دخيلة أمره. وما زالت كذلك حتى نزل حاتم بقومها، وكان قد سبقه إليها رجلان من الشعراء يخطبانها: أحدهما النابغة الذبياني والآخر رجل من بني مزينة. فحضر حاتم إليها. وأرسلوا إليها جميعاً يعلمونها بقدومهم. فأرسلت إليهم أن يبيتوا ليلتهم في السرادق. فاذا كان الغد استحضرتهم إلى مجلسها. وبعثت لكل واحد منهم جزوراً «أي جملاً سميناً» يصلح منه لنفسه ما شاء من الطعام. فوثب كل إلى جزوره فنحره وأضرم النار. ولما علمت ماويّة بذلك خلعت ثيابها ولبست ثياب أمةٍ لها وخرجت إليهم كأنها سائلة تستعطي.

وكان أول من وقفت عليه النابغة فاستطعمته. فأعطاها قليلاً من خبائث الجزور «أي الرديء من لحم الجمل» فأخذته. ومرّت على المزني، فأعطاها كذلك. ثم انتهت إلى حاتم، فاقتطع لها كثيراً من أطايب الجزور وتلطف لها في كلامه، فانصرفت وقد وقع حاتم في قلبها موقعاً جميلاً.

ولما دخلت إلى خبائها دفعت ما معها من اللحم إلى جاريتها وقالت: احفظيه إلى الغدِ. ولما كان الصباح استحضرتهم إلى مجلسها واستنشدتهم ما يصفون أنفسهم به، فقال النابغة:

هلّا سألتِ بني ذبيان عن نسبي   يوم الطعان، إذا ما احمرّت الحَدَقُ

ولي لسان إذا نلت الملوك به أمسى عليّ سحابُ المال يندفقُ

وقال المزني:

أماويّةُ أن ترغبي في فصاحةٍ فاني إلى مثلي الفصاحة تُنسبُ
وان ترغبي في المال فالمال هيّنٌ وليس على مثلي إذا شاء يَصعُب
وان ترغبي في خوض يوم كريهةٍ فاني في الهيجاء ليث مجرَّبُ

وأفضت النوبة إلى حاتم، فأنشد يقول:

أماويّ! إن المال غادٍ ورائحُ ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
أماويّ! إن المال لا ينفع الفنى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
أماويّ! إني لا أقول لسائلٍ إذا جاء يوماً: حلّ في مالنا النذر
وقد علم الأقوام لو أن حاتماً أراد ثراءَ المال كان له وفر

فلما فرغ حاتم من إنشاده قالت ماوية: والله لا يسمع أحد بمثل هذه الأبيات ويبقى عنده قيمة للمال. ثم دعت بالطعام، وكانت قد أمرت الجارية إن تقدّم إلى كل واحد منهم ما أعطاها إياه لـمّا استطعمته أمس. ففعلت كذلك. فأطرق النابغة والمزني إلى الأرض، وخرجا منصرفين. ولبث حاتم عندها. فرفعت الحجاب وقالت: إن رأيت أن تطلّق نوّاراً فأنا مكانها. قال: لا والله، لا تسمح نفسي بذلك. ثم فارقها وانصرف إلى ديار طيّ. فما لبث إلاّ قليلاً حتى توفيت زوجته نوّار. فنازعته نفسه إلى ماويّة وعاد إليها فتزوّج بها وحملها إلى قومه. وكان يومئذٍ ابن ستٍ وعشرين سنة.

٢٤٤

أعرابي لا يحسن القسمة

قال الجاحظ: قال أبو الحسن: حدثني أعرابي كان ينزل بالبصرة قال: قدم أعرابي من البادية فأنزلته، وكان عندي دجاج كثير، ولي امرأة وابنان وابنتان، فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والأعرابي. قال: فدفعنا إليه الدجاجة وقلنا له: اقسمها بيننا ـ نريد بذلك أن نضحك منه ـ فقال: لا أحسن

القسمة، فان رضيتم بقسمتي قسمتها بينكم. قلنا: فإنّا نرضى. فأخذ رأس الدجاجة فقطعه فناولني إياه وقال: الرأس للرأس. وقطع الجناحين وقال: الجناحان للابنين. ثم قطع الساقين وقال: الساقان للابنتين. ثم قطع الزِّمكيّ (ذنب الطائر) وقال: العجز للعجوز. وقال: الزور للزائر. ثم أخذ الدجاجة وسخر منّا.

قال: . . . فلما كان الغد قلت لامرأتي: اشوي لنا خمس دجاجات. فلما حضر الغداء قلت: أقسم بيننا.

قال: إني أظن أنكم غضبتم في أنفسكم.

قلنا: لا، لم نغضب في أنفسنا فاقسم.

قال: أقسم وتراً أو شفْعاً؟

قلنا: أقسم وتراً.

قال: أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة، ثم رمى إلينا بدجاجة. ثم قال: وابناك ودجاجة ثلاثة، ثم رمى إليهما بدجاجة. ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاث، ثم رمى إليها بدجاجة. ثم قال: انا ودجاجتان ثلاثة، وأخذ دجاجتين وسخر منّا.

قال: . . . فرآنا ننظر إلى دجاجتيه.

فقال: ما تنظرون لعلكم كرهتم قسمتي. الوِتر لا يكون إلاّ هكذا. فهل أقسم لكم قسمة الشّفْع؟ قلنا: نعم.

فضمهنّ إليه، ثم قال:

ـ أنت وابناك ودجاجة أربعة، ورمى إلينا بدجاجة. ثم قال: والعجوز وابنتاها ودجاجة أربع، ورمى إليهن بدجاجة. ثم قال. أنا وثلاث دجاجات أربعة، وضم إليه الثلاث ورفع يديه إلى السماء وقال:

ـ اللهم لك الحمد أنت فهّمتنيها!.

٢٤٥

لن يبيت في داره

قرأت في كتاب «فوات الوفيات» الطرفة التالية:

قال الشريف محمد بن أسعد بن الجواني المعروف بالنحوي: كان الوزير أبو

الفضل ابن حنزابة يهوى النظر إلى الحشرات من الأفاعي والحيات والعقارب وأمّ أربعة وأربعين وما يجري هذا المجرى، وكان في داره التي تقابل دار الشكالي قاعة لطيفة موجهة فيها تلك الحيات، ولها قيّم وفراش وحاوي مستخدمون برسم نقل سلل الحيّات وحطّها. وكان كل حاوي في مصر يصيد ما يقدر عليه من الحيّات، ويتناهون في ذوات العجب من أجناسها، في الكبار وفي الغريب منها، وكان يثيبهم على ذلك أجلَّ ثواب، ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا في تحصيلها. وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة، ويدخل المستخدمون والحُواة فيخرجون ما في تلك السلل، ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرّشون بين الهوام، وهو يتعجّب من ذلك ويستحسنه.

فلما كان ذات يوم أنفذ خلف بن المدبر الكاتب وكان من كتّاب أيامه ودولته، وهو عزيز عنده ويسكن جواره فأنفذ يقول له في رقعة: «إنه لما كان البارحة وعرض علينا الحواة الحشرات الجاري بها العادات، انساب منها الحية البتراء وذات القرنين الكبرى والعقربان الكبير وأبو صوفة وما حصلوا لنا بعد عناء طويل ومشقة وجملة بذلناها للحواة، ونحن نأمر الشيخ وفقه الله تعالى بالتوقيع إلى حاشيته بصون ما وجد منها إلى أن ينفذ الحواة بردّها إلى سللها».

فلما وقف ابن مدبّر عليها قلب الرقعة وكتب:

«أتاني أمر سيدنا الوزير ـ أدام الله نعمته وحرس مدّته ـ بما أشار إليه من أمر الحشرات، والذي اعتمد عليه في ذلك أن الطلاق يلزمه ثلاثاً إن بات هو أو أحد من أولاده في الدار، والسلام».

٢٤٦

الفطنة وشدّة الذكاء

كان الخفاجي يرى رأي الشيعة الإمامية وكان قد عصى بقلعة عزاز من أعمال حلب، وكان بينه وبين أبي نصر ابن النحاس الوزير لمحمود بن صالح مودة مؤكدة، فأمر محمود أبا نصر ابن النحاس أن يكتب إلى الخفاجي كتاباً يستعطفه ويؤنسه وقال: إنه لا يؤمّن إلاّ إليك ولا يثق إلاّ بك، فكتب إليه كتاباً، فلما فرغ منه وكتب

«إن شاء الله تعالى» شدّد النون من إن، فلما قرأه الخفاجي خرج من عزاز قاصداً حلب، فلما كان في الطريق أعاد النظر في الكتاب، فلما رأى التشديد على النون أمسك رأس فرسه، وفكرّ في نفسه، وأن ابن النحاس لم يكتب هذا عبثاً، فلاح له أن أراد ﴿إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾[1].

فعاد إلى عزاز وكتب الجواب «أنا الخادم المعترف بالأنعام» وكسر الألف من «أنا» وشدَّد النون وفتحها. فلما وقف أبو نصر على ذلك سُرّ به وعلم أنه قصد به ﴿إنَّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾[2] وكتب الجواب يستصوب رأيه، فكتب إليه الخفاجي:

خفْ من أمنتَ ولا تركن إلى أحدٍ ... فما نصحتك إلاَّ بعد تجريبِ
إن كانت الترك فيهم غير وافيةٍ ... فما تزيد على غدر الأعاريبِ
تمسّكوا بوصايا اللؤم بينهمُ ... وكاد أن يدرسوها في المحاريبِ

واستدعى محمود بأبي نصر ابن النحاس وقال له: أنت أشرت عليّ بتولية الخفاجي وما أعرفه إلاّ منك، ومتى لم تفرغ بالي منه قتلتك وألحقت بك جميع من بينك وبينه صلة وحرمة. قال: مُرْني بأمرٍ امتثله، قال: تمضي إليه وصحبتك ثلاثون فارساً، فإذا قاربته عرّفه بحضورك فإنه يلتقيك، فإذا حضر وسألك النزول عنده والأكل معه فامتنع وقلْ له: إني حلفتك أن لا تأكل زاده، ولا تحضر مجلسه حتى يطيعك في الحضور عندي، وطاوله في الحديث حتى يقارب الظهر، ثم ادّعِ أنك جُعْتَ وأخرج هاتين الخشكنانجتين[3] فكلْ أنت هذه وأطعمه هذه فإذا استوفى أكلها معجّل الحضور إليَّ فإنّ منيته فيها، ففعل ما أمره به. ولما أكلها الخفاجي رجع أبو نصر إلى حلب ورجع الخفاجي إلى عزاز.

ولما استقرّ بها وجد مغصاً شديداً ورعدة مزعجة، وقال: قتلني والله أخي أبو نصر ثم أمر بالركوب خلفه ورده، ففاتهم، ووصل إلى حلب، وأصبح من الغد عند محمود فجاءه من اعزاز من أخبره أن الخفاجي في السياق ومات وحُمل إلى حلب.

---

(١) سورة القصص: آية ٢٠.
(٢) سورة المائدة: آية ٤.
(٣) الخشكنانجة: نوع من الفطير.

٢٤٧

لكل واحد ديناران ولك دينار واحد

روى محمد بن عون عن ابن عُيينة أن المأمون جلس فجاءته امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين مات أخي وخلَّف ستّمائة دينار، فأعطاني ديناراً وقالوا: هذا نصيبك. فقال المأمون: هذا خلّف أربع بنات؟

قالت: نعم.

قال: لهن أربعمائة دينار، وخلف والدة؟

قالت: نعم.

قال: لها مائة دينار، وخلف زوجة لها خمسة وسبعون ديناراً، بالله ألكِ إثنا عشر أخاً؟

قالت: نعم.

قال: لكلّ واحدٍ ديناران ولكِ دينار واحد.

٢٤٨

أتفرح بموافقة هؤلاء؟!

قال يحي بن أكثم: كنت عند المأمون، وعنده جماعة من قوّاد خراسان، وقد دعا إلى القول بخلق القرآن، فقال لهم: ما تقولون في القرآن؟

فقالوا: كان شيوخنا يقولون ما كان فيه من ذكر الجمال والبقر والخيل والحمير فهو مخلوق، وما سوى ذلك فهو غير مخلوق، فأمَّا إذْ قال أمير المؤمنين هو مخلوق فنحن نقول كلّه مخلوق.

فقلتُ للمأمون: أتفرح بموافقة هؤلاء؟!

*

٢٤٩

لم يلتقوا وهم في موضع واحد

اشتهى الشاعر أبو الهندي الصبوح[1] يوماً فدخل الخمّارة فأعطى ديناراً وجعل يشرب حتى سكر ونام، وجاء قوم يسلمون عليه فوجدوه نائماً فقالوا للخمار الحقنا به، فسقاهم حتى سكروا، وانتبه أبو الهندي فسأل عنهم فعرفه الخمار حالهم، فقال: يا هذا الآن وقت السكر والآن طاب، الحقني بهم، فسقاه حتى سكر، وانتبهوا فقالوا للخمار: ويحك هو نائم إلى الآن؟

فقال: لا، انتبه وعرّفته خبركم وسكر ونام.

فقالوا: ألحقنا به، فسقاهم حتى سكروا، ولم يزل على ذلك دأبه ثلاثة أيام، ولم يلتقوا وهم في موضع واحد.

ثم تركوا الشرب عمداً حتى أفاق فلقوه.

٢٥٠

بعد الشرب يرجو حسن المغفرة

قال صدقة بن ابراهيم البكري: كان الشاعر أبو الهندي - يشرب معنا، وكان إذا سكر يتقلّب تقلّباً قبيحاً في نومه. فكنّا كثيراً ما نشدّ رجله لئلاّ يسقط. فسكرنا ليلة على سطح، وشددنا رجله بحبل طويل ليهتدي على القيام لبوله، فتقلّب فسقط من السطح فأمسكه الحبل، فبقي معلقاً منكساً، فأصبحنا فوجدناه ميتاً، فمررت على قبره بعد حين فوجدت عليه مكتوباً[2]:

إجعلوا إن متّ يوماً كفني ورقَ الكرم وقبري المعصرهْ
إنني أرجو من الله غداً بعد شرب الرّاح حُسْنَ المغفرهْ

وكان الفتيان يجيئون إلى قبره فيشربون ويصبّون الأقداح عليه.

---

(١) الصبوح: شراب الصباح.
(٢) «الديوان»، ص ٣٣.

٢٥١

عفا عنه لجودة بلاغته

كان يزيد بن المهلب والياً على خراسان، وكان حسن الوجه، جميل الصورة، فانعزل عنها وتولّى قتيبة بن مسلم. وكان سمج الوجه فقيل فيه:

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها ... وكل بابٍ من الخيرات مفتوحُ
فبدّلت بعده قِرداً يطوف بها ... كأنما وجهُهُ بالخلّ منضوحُ

فبلغ ذلك قتيبة فطُلب، فهرب منه، ومضى الشاعر إلى أمّ قتيبة فأخذ منها كتاباً بالوصية به، وقدم به إليه.

فلما دخل عليه قال: بأي وجه تلقاني؟

قال: بالوجه الذي ألقى به ربّي، فإنّ إحسانه إليَّ أكثر من إحسانك إليّ ومخالفتي له أكثر من مخالفتي لك.

فضحك، وتركه.

٢٥٢

أخذ المال والخيل والجارية

قيل: إن فتىً من ذوي النعم، قعد به دهره، وألحّ عليه الفقر، وكانت له جارية من أحسن الناس وجهاً وجمالاً، وكان يحبها حباً شديداً، وهي كذلك، فلما ضاق عليه الحال واشتد به الأمر قال لها: ما ترين ما نحن فيه من الشدّة، ورقّة الحال، فإن رأيت أن أبيعك لبعض المّولين، فأتّسع في ثمنك، وأنت تتمتّعين عنده، فعلتِ.

فقالت: والله، إن فراق روحي من جسدي، عليّ أهون من فراقك.

ثم إنه طيّب خاطرها وخرج بها واستشار بعض أصحابه أن يعرضوا ذكرها لبعض التجار ليشتريها أحد منهم.

فقالوا له: إن كان ذلك لا بدّ منه، فابعثها إلى عبد الله بن معمر، وكان عاملاً على العراق.

فحملها إليه وعرضها عليه فاستحسنها ووقعت منه موقع الإعجاب.

فقال: كم رجوت فيها؟

فقال: أربعين ألفاً.

فدفع له ثمنها، وعشرة آلاف لنفقته وعشرة رؤوس خيل وقال له: هل رضيت بذلك؟

قال: نعم! وسّع الله عليك ورضي عنك.

فأمر عبد الله أن تدخل الجارية إلى داره ويكرم مثواها. فأمسكت الجارية بجانب السرير وجعلت تقول:

هنيئاً لك المال الذي قد أخذته ... ولم يبقَ في كفيَّ غير التفكّرِ
أقول لنفسي وهي في كرباتها ... أقلّي فقد بان الحبيب أو اكثري
إذا لم يكن في الأمر عندك حيلةٌ ... ولم تجدي بداً من الصبر فاصبري

فلما سمع الفتى ذلك، بكى حتى ارتفع نحيبه، ثم قال:

لولا قعود الدهر عنك فلم يكن ... يفرّقنا شيء سوى الموت فاصبري
أروح بهمٍّ من فراقك مُؤلمٍ ... أناجي به قلباً قليل التصبّرِ
عليك سلام لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلاّ أن يشاء ابن معمر

فقال عبد الله بن معمر: قد شئت. خُذها، وخذ المال الذي صار إليك.

فأخذ الفتى المال، والخيل، والجارية، وانصرف داعياً له على فعله الجميل وإحسانه.

٢٥٣

عرفها من رائحة طيبها

كتب كمال الدين الشهرزوري قصة إلى المستنجد بالله يوسف بن محمد لما قدم إلى بغداد رسولاً من قبل نور الدين ابن زنكي.

يقال إن ليلته حانت من ابنة عمه، فلما توجه إليها وجد في طريقه بعض حجرات جواريه مفتوح الباب، فدخل إليها، فقالت له الجارية: امضِ إلى ابنة

عمك فإني أخاف أن تعلم بنا فلا آمن شرّها، فقال: في ساقها خلخال إذا جاءت عرفت بها. فمضت إليها جارية ووشت بالحال، فرفعت خلخالها إلى أعالي ساقها وقصدت المقصورة ففاحت روائح الطيب فنمّ ذلك عليها، فخرج من المقصورة من الباب الآخر وقال:

استكتمت خلخالها ومشت   تحت الظلام به فما نطقا
حتى إذا هبّت نسيم صبا   ملأ العبير بنشرها الطُّرُقا

٢٥٤

ومن الغباوة ما يُضحك

قال الأصمعي:

كانت امرأة موسرة بالكوفة وكانت لها على الناس ديون بالسّواد، فاستعانت بابن عبدل[١] في دينها وقالت له: إنّي امرأة ليس لي زوج، وجعلت تعرض بأنها تزوجه نفسها. فقام ابن عبدل في دينها حتى اقتضاه. فلما طالبها بالوفاء كتبتْ إليه:

سيخطئك الذي حاولت منّي   فقطّع وصل حبلك من حبالي
كما أخطأت معروف بن بشرٍ   وكنت تعدّ ذلك رأس مالِ

قال: وكان ابن عبدل أتى ابن بشر بالكوفة فسأله، فقال له: أخمسمائة أحبُّ إليك الآن عاجلة أم ألف في قابل[٢]؟

قال: ألف في قابل؟

فلما أتاه قال له: ألف أحبُّ إليك أم ألفان في قابل؟

قال: ألفان في قابل.

فلم يزل ذلك دأبه حتى مات ابن بشر وما أعطاه شيئاً.

(١) ابن عبدل الأسدي: صاحب نوادر، كان أعرج أحدب، من الشعراء المجيدين، هجّاء خبيث اللسان.

(٢) قابل: أي في العام القادم.

٢٥٥

أفحمه

قال عاصم بن الحدثان:

كان ابن عبدل الأسدي أعرج أحدب، وكان من أطيب الناس وأملحهم. فلقيه صاحب العَسَس ليلةً وهو سكران محمول في محفّة[١] فقال له: من أنت؟

فقال له؛ يا بغيض أنت أعرف بي من أن تسألني من أنا، فاذهب إلى شغلك فإنك تعلم أن اللصوص لا يخرجون بالليل للسرقة محمولين في محفّة.

فضحك الرجل كثيراً وانصرف عنه.

٢٥٦

اليوم الذي غاب عنه عذّاله

حدّث ابن مخارق قال:

واعد العرجي الشاعر المشهور محبوبته عند شِعبٍ[٢] من شعاب عرج الطائف إذا نزل رجالها يوم الجمعة إلى مسجد الطائف.

فجاءت على أتانٍ[٣] لها ومعها جارية لها، وجاء العرجي على حمار، ومعه غلام له؛ فواقع[٤] المرأة، وواقع الغلام الجارية، ونزا[٥] الحمار على الأتان.

فقال العرجي: هذا يوم قد غاب عذّاله.

*

---

(١) المحفة: مركب كالهودج تُحمل عليه العروس.
(٢) الشِّعب: الطريق في الجبل.
(٣) الأتان: أنثى الحمار.
(٤) واقع: جامع.
(٥) النزو للحيوان كالمجامعة للإنسان.

٢٥٧

أريحيّة عمر بن عبد العزيز والعرجي

روى محمد بن مزيد عن بعضهم قال:

إن العرجي الشاعر كان غازياً، فأصابت الناس مجاعة، فقال للتجّار: اعطوا الناس وعليّ ما تُعطُون، فلم يزل يُعطيهم ويُطعم الناس حتى أخصبوا[1] فبلغ ذلك عشرين ألف دينار، فألزمها العرجي نفسه.

وبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز فقال: بيت المال أحقّ بهذا، فقضى التجار ذلك المال من بيت المال.

٢٥٨

بخل الحطيئة

أخبر أبو عبيدة والمدائني قالا:

أتى رجل الحطيئة وهو في غنم له فقال له: يا صاحب الغنم، فرفع الحطيئة العصا وقال: إنها عجراء من سَلَم[2].

فقال الرجل: إني ضيف.

فقال: للضيوف أعددتها. فانصرف عنه.

وقيل: إنّ الرجل قال له: السلام عليكم. فقال له: عجراء من سَلَم. فقال: السلام عليكم.

فقال أعددتها للطرّاق[3]. فأعاد السلام فقال له: إن شئت قمتُ بها إليك، فانصرف الرجل.

*

(١) أخصبوا: كانت السنة عندهم خصبة، أمرعوا.

(٢) عجراء من سلم: أي عصا قاسية من عود السلم، وهو نوع من الشجر القاسي.

(٣) الطرّاق: جمع طارق، وهو الزائر.

لو كان خراباً لوجدت ما أتقوّتُ به

قيل: أشرف المأمون يوماً من قصره فرأى رجلاً وفي يده فحمة، وهو يكتب بها على حائط القصر.

فقال المأمون لأحد غلمانه: انزل إلى ذلك الرجل فأمسك بيده واقرأ ما كتب وائتني به.

فنزل الغلام فأدركه، وقبض على يده، وقرأ ما كتب فإذا هو:

يا قصر، جمّع فيك الشؤم واللّوم ... حتى يعشّش في أرجائك البومُ
يوم يعشّش فيك البوم من فرحي ... أكون أول من ينعاك مرغومُ

فقال له: أجب أمير المؤمنين.

فقال: سألتك بالله لا تذهب بي إليه.

قال: إنه يراك.

فلما مثُل بين يديه، قال الغلام: وجدته قد كتب كذا وكذا، وذكر البيتين.

فقال المأمون: ويلك!! ما حملك على هذا؟

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إنه لم يخفَ عنك ما حواه هذا القصر من خزائن الأموال والحلي والحُلل والطعام والشراب والفُرُش والجواري والخدم. فمررت عليه وأنا في غاية من سوء الحال من الجوع والعطش، ولي يومان ما استطعتم فيهما بطعام ولا شراب، فوقفت ساعة وفكّرت في نفسي وقلت: هذا القصر عامر، وأنا جائع، فلا فائدة له، فلو كان خراباً ومررت به على تلك الحالة لم أُعدم رخامةً أو خشبةً أو مسماراً أبيعه وأتقوّت بثمنه. أوَ ما علم أمير المؤمنين ـ اعزّه الله ـ أنه قيل:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرىءٍ ... نصيبٌ ولا حظُ تمنّى زوالها
وما ذاك عن بغضٍ ولا عن كراهةٍ ... ولكن يرى نفعه بانتقالها

فقال المأمون: يا غلام، أعطه ألف دينار، وأطعمه، واسقه، وقال له:

يا هذا هي لك في كل سنة ما دام قصرنا عامراً بنا.

٢٦٠

استحالت القصيدة جوهراً

قال الأصمعي:

دخل نُصيب الشاعر على يزيد بن عبد الملك ذات يوم، فأنشده قصيدةً امتدحه بها، فطرب لها يزيد واستحسنها، فقال له: أحسنت يا نُصيب! سلني ما شئت.

فقال: يُدك يا أمير المؤمنين بالعطاء أبسط من لساني بالمسألة.

فأمر به فَمُلِىءَ فمه جوهراً، فلم يزل به غنياً حتى مات.

٢٦١

أهل العشق «صحيح مساكين»

قال العتبي:

دخل نصيب الشاعر المشهور على عبد العزيز بن مروان، فقال له عبد العزيز، وقد طال الحديث بينهما: هل عشقت قطّ؟

قال: نعم، أمَةً لبني مُدلج.

قال: فكنت تصنع ماذا؟

قال: كانوا يحرسونها منّي، فكنت أقنع أن أراها في الطريق وأشير إليها بعيني أو حاجبي وفيها أقول:

وقفت لها كيما تمرُّ لعلّني ... أخالسها التسليم إنْ لم تسلّمِ
ولمّا رأتني والوشاة تحدّرتْ ... مدامعها خوفاً ولم تتكلّمِ
مساكين أهل العشق ما كنت أشتري ... جميع حياة العاشقين بدرهمِ

فقال عبد العزيز: ويحك! فما فعلت؟

قال: بيعت فأولدها سيدها.

قال: فهل في نفسك منها شيء؟

قال: نعم، بقايا أحزان.

نتحابب... فهمنا، لكن ما دخل الدراهم؟!

قال ابن مودود:

كان الدارمي المكيّ شاعراً ظريفاً وكانت متفتّيات[١] أهل مكة لا يطيب لهنّ متنزّه إلّا بالدارمي. فاجتمع جماعة منهنّ في متنزّه لهنَّ، وفيهنّ صديقة له، وكلّ واحدة منهنّ قد واعدت هواها[٢]. فخرجنَ حتى أتينَ الجحفة[٣] وهو معهنَّ. فقال بعضهنّ لبعض: كيف لنا أن نخلو مع هؤلاء الرجال من الدارمي؟ فإنّا إن فعلنا قطّعنا في الأرض[٤]. قالت لهنَّ صاحبته: أنا أكفيكُنَّهُ.

قلن: إنّا نريد ألّا يلومنا.

قالت: عليَّ أن ينصرف حامداً، وكان أبخل الناس، فأتتهُ فقالت: يا دارمي، إنّا قد تَفِلْنا[٥] فاجلُبْ لنا مسكاً وطيباً.

قال: نعم هوذا.. آتي سوق الجحفة آتيكنّ منها بمسكٍ وطيب، فأتى المكارين فاكترى[٦] حماراً فصار عليه إلى مكة وهو يقول:

أنا بالله ذي العزّ وبالركن والصخرهْ
من اللائي يُردنَ الطيـ ـبَ في اليُسر وفي العُسرهْ
وما أقوى على هذا ولو كنتُ على البصرهْ

فمكث النسوة ما شئن ولم يعد.

ثم قدم مرّة من مكة فلقيته صاحبته ليلةً في الطواف، فأخرجته إلى ناحية المسجد وجعلت تعاتبه على ذهابه ويعاتبها إلى أن قالت له: يا دارمي بحق هذه

---

(١) متفتّيات: الفتيات اللواتي بلغْنَ سن المراهقة فمُنِعنَ من اللعب مع الصبيان وأُرغمْنَ على المكوث في خدورهنّ.

(٢) واعدت هواها: واعدت من تهواه وتحبه.

(٣) الجحفة: قرية بطريق المدينة.

(٤) قطعنا في الأرض: أي يكشف أسرارنا ويذيع خبرنا.

(٥) تفلنا: تغيرت رائحتنا.

(٦) اكترى: استأجر.

الكعبة أتحبني؟ فقال: نعم. فبربّكِ أتحبّينني؟ قالت: نعم. قال: فيا لك الخير فأنتِ تحبيني وأنا أحبك فما دخل الدراهم بيننا؟!

٢٦٣

الأمين يركب ظهره

قال الحسين بن يحي:

قال لي الحسين بن الضحّاك: شربنا يوماً مع الخليفة الأمين في بستان، فسقانا على الرّيق، وجدّ بنا في الشرب، وتحرّز من أن نذوق شيئاً. فاشتد الأمر عليَّ، وقمت لأبوّل، فأعطيتُ خادماً من الخدم ألف درهم على أن يجعل لي تحت شجرةٍ أومأت إليها رقاقةً فيها لحم، فأخذ الألف وفعل ذلك. ووثب محمد الأمين فقال: من يكون منكم حماري؟ فكل واحدٍ منهم قال له: أنا، لأنه كان يركب الواحد منّا عبثاً ثم يصله.

ثم قال: يا حسين، أنت أضلع[1] القوم. فركبني وجعل يطوف وأنا أعدل[2] به عن الشجرة وهو يمرّ بي إليها حتى صار تحتها. فرأى الرقاقة فطأطأ[3] فأخذها فأكلها على ظهري وقال: هذه جُعلت لبعضكم، ثم رجع إلى مجلسه وما وصلني بشيء. فقلت لأصحابي: أنا أشقى الناس، ركب ظهري وذهب ألف درهم مني وفاتني ما يُمسك رمقي ولم يصلني كعادتي، ما أنا إلاَّ كما قال الشاعر:

ومطعم الصيد يوم الصيد مطعمه   أنّى توجّه والمحروم محروم

٢٦٤

ليسمع الأمير حُجّه ولده دُلامة!!

عندما حجّت الخيزران ـ زوجة المهدي ـ صاح بها أبو دلامة الشاعر المشهور بالنوادر والطرائف، قالت: سَلوهُ ما أمره. فقالوا له: ما أمرك؟

---

(١) أضلع القوم: أشدّهم وأقواهم أضلاعاً.
(٢) أعدل: أميل وأحيد.
(٣) طأطأ: نكس.

قال: فإبراهيم الإمام؟

قلت: بحرفة اسمه قتله مروان في حرّان. وأزيدك يا أمير المؤمنين: إبراهيم بن الوليد خُلع، وإبراهيم بن عبد الله بن حسن قُتل، وعمه إبراهيم بن حسن سقط عليه السجن فمات، وما رأيت والله أحداً يُسمّى بهذا الاسم إلاّ قُتل أن نُكب أو رأيته مضروباً أو مقذوفاً[1] أو مظلوماً.

ثم ما انقضى الكلام حتى سمعت ملاّحاً يصيح بآخر: مُدّ يا ابراهيم يا عاضّ بظر أمّه[2] مدّ.

فقلت له: أبقيَ لك شيء بعد هذا! ليس والله في الدنيا اسم أشأم من ابراهيم والسلام. فضحك والله حتى أشفقت عليه.

٢٦٦

ولدي بين رجلين: مطيع لله وعاصٍ له

عن العتبي عن أبيه قال:

لما حضرتْ عمر بن عبد العزيز الوفاة جمع ولده حوله، فلمّا رآهم استعبر وبكى ثم قال: بأبي وأمي من خلّفتهم بعدي فقراء! فقال له مسلمة بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين، فتعقّب فعلك وأغنهم، فما يمنعك أحد في حياتك ولا يرتجعه الوالي بعدك. فنظر إليه نظر مُغضب متعجّبٍ فقال: يا مسلمة، منعتهم إياه في حياتي وأشقى به بعد وفاتي! إن ولدي بين رجلين: إمّا مطيع الله فالله مصلح له شأنه ورازقه ما يكفيه، أو عاصٍ له فما كنتُ لأعينه على معصيته.

يا مسلمة، إني حضرتُ أباك لما دُفن فحملتني عيني عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمرٍ من أمر الله راعني وهالني، فعاهدت الله ألاّ أعمل بمثل عمله إن وليتُ، وقد اجتهدت في ذلك طول حياتي، وأرجو أن أفضي إلى عفو الله وغفرانه.

قال مسلمة: فلما دُفن حضرت دفنه، فلما فرغ من شأنه حتى حملتْني عيني، فرأيته فيما يرى النائم وهو في روضةٍ خضراء نضرة فيحاء وأنهارٍ مطّردة وعليه ثياب

---

(١) مقذوفاً: مشتوماً.

(٢) سبٌّ كان يجري على ألسنة العرب قديماً.

٣٣٢

ذعرتم الفتى؟!

سئل الأحنف بن قيس عن الحلم ما هو فقال: هـو الذل مـع الصبر. وكـان يقول إذا عجب النـاس من حلمه: إني لأجـد ما تجـدون، ولكني صبـور. وكـان يقـول: وجدت الحلم أنصر لي من الرجـال. وكان يقـول: ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقري، لأنه قَتَلَ ابنُ أخ له بعضَ بنيه فأتي بالقاتل مكتوفاً يقاد إليه، فقال: ذَعَـرتم الفتى، ثم أقبل عـلى الفتى فقال: يـا بني، بئس ما صنعت: نقصت عـددك وأوهنت عضدك وأشمتَّ عدوَّك وأسأت بقومك؛ خلوا سبيله، واحملوا إلى أم المقتول ديته فإنها غريبة. ثم انصرف القاتل وما حل قيس حبوته ولا تغير وَجْهُه.

٣٣٣

طاوس بن كيسان والمرأة الماجنة

قالت امرأة ماجنة: ما بقي أحد إلا فتنته ما خلا طاوس فإني تعرضت له فقال: إذا كان وقت كذا فتعالي، فجئت ذلك الـوقت فذهب بي إلى المسجـد الحرام فقـال: اضطجعي، فقلت: ها هنا؟ فقال: الذي يرانا هنا يرانا ثَمَّ.

٣٣٤

أبو الأسود الدؤلي واضع علم النّحو

قيـل إنّ أبـا الأسود الـدؤلي كان يعلِّم أولاد زيـاد بن أبيه وهـو والي العـراقـين يومئذ، فجاءه يوماً وقال لـه: أصلح الله الأمير، إني أرى العـرب قد خـالطت هـذه الأعـاجم وتغيرت ألسنتهم، أفتـأذن لي أن أضع للعـرب ما يعـرفون أو يقيمـون بـه كلامهم؟ قال: لا، قال: فجاء رجل إلى زياد وقـال: أصلح الله الأمير، تـوفي أبانـا وترك بنونَ، فقـال زياد: تـوفي أبانـا وترك بنـون!! ادعوا لي أبـا الأسود، فلما حضر قال: ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم.

وقيل: إنه دخـل بيته يـوماً فقـال له بعض بنـاته: يـا أبتِ، ما أحسَنُ السـماءِ،

فقال: يا بنية نجومُها، فقالت: إني لم أرد أي شيء منها أحسن، إنما تعجبت من حسنها، فقال: إذن فقولي ما أحسَنَ السماءَ، وحينئذ وضع النحو.

٣٣٥

حِلمُ معن بن زائدة

دخل أعرابي يوماً بلا استئذان على معن بن زائدة أيام إمارته وابتدره بقوله:

أتذكر إذ لحافك جلد شاةٍ   وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال معن: نعم أذكر ذلك ولا أنساه.

فقال الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً   وعلَّمك الجلوس على السرير

قال: سبحانه على كل حال. فقال:

فلست مسلِّماً إن عشت دهراً   على معنٍ بتسليم الأمير

قال: السلام سنة تأتي بها كيف شئت، فقال:

أمير يأكل الفالوذ سراً   ويطعم ضيفه خبز الشعير

قال: الزاد زادنا نأكل ما نشاء ونطعم ما نشاء. فقال:

سأرحل عن بلادٍ أنت فيها   ولو جار الزمان على الفقير

قال: إن جاورتنا فمرحباً بك، وإن رحلتَ عنّا فمصحوب بالسلامة. فقال:

فَجُدْ لي يا ابن ناقصةٍ بشيءٍ   فإنّي قد عزمت على المسير

قال: أعطوه ألف درهم. فقال:

قليل ما أتيت به وإنّي   لأطمعُ منك بالمال الكثير

قال: أعطوه ألفاً آخر.

فتقدم الأعرابي يقبّل الأرض بين يديه وقال: ما جئتك والله أيها الأمير إلّا مختبراً

حِلمك لما اشتهر عنك، فألفيت فيك من الحلم ما لو قُسّم على أهل الأرض لكفاهم جميعاً.

سألتُ الله أن يبقيك ذخراً فما لك في البريّة من نظير

قال معن: أعطيناه على هجونا ألفين فأعطوه على مديحنا أربعة.

٣٣٦

الحجاج والشيخ

حُكي ان الحجاج خرج في بعض الأيام للتنزّه، فصرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه، فلقي شيخاً من بني عجل، فقال له: من أين أنت يا شيخ؟

قال: من هذه القرية.

قال: ما رأيك بحكام البلاد؟

قال: كلّهم أشرار يظلمون الناس ويختلسون أموالهم.

قال: وما قولك في الحجاج؟

قال: هذا أنجسهم، سوّد الله وجهه ووجه من استعمله على هذه البلاد.

فقال الحجاج: أتعرف من أنا؟

قال: لا والله!

قال: أنا الحجاج.

قال: أنا فداك، وأنت أتعرف من أنا؟

قال: لا.

قال: أنا زيد بن عامر مجنون بني عجل أُصْرَعُ في كل يوم مرّة في مثل هذه الساعة.

فضحك الحجاج وأحسن إليه.

*

بيض، فأقبل عليَّ فقال؛ يا مسلمة، لمثل هذا فليعمل العاملون. هذا أو نحوه، فإنّ الحكاية تزيد أو تنقص.

٢٦٧

طرب فرمى بنفسه في الفرات

قال ابن كناسة:

اصطحب شيخ مع شباب في سفينة في الفرات ومعهم مغنية. فلمّا صاروا في بعض الطريق قالوا للشيخ: معنا جارية لبعضنا وهي مغنية، فأحببنا أن نسمع غناءها فهبناك، فإن أذنت لنا فعلنا. قال: أنا أصعد إلى طلل[1] السفينة، فاصنعوا أنتم ما شئتم. وأخذت الجارية عودها فغنّت:

حتى إذا الصبح بدا ضوؤه وغابت الجوزاء والمرزم
أقبلتُ والوطء خفيٌّ كما ينساب من مكمنه الأرقم

فطرب الشيخ وصاح ثم رمى بنفسه بثيابه في الفرات، وجعل يغوص في الفرات ويطفو ويقول: أنا الأرقم! أنا الأرقم! فألقوا أنفسهم خلفه، فبعد لأيٍ ما استخرجوه وقالوا له: يا شيخ، ما حملك على ما صنعت؟ فقال: إليكم عنّي! فإني والله أعرف من معاني الشعر ما لا تعرفون.

وقال اسماعيل في خبره: فقلت له: ما أصابك؟

فقال: دبّ شيء من قدمي إلى رأسي كدبيب النمل ونزل في رأسي مثله. فلمّا وردا على قلبي لم أعقل ما عملت.

*

(١) طلل السفينة: أعلاها.

من أجوبة الأذكياء

قال المتوكل للشاعر أبي العيناء المشهور بنوادره ولطائفه: ما أشدّ ما مرَّ عليك في ذهاب بصرك؟

قال: فوت رؤيتك، يا أمير المؤمنين.

فاستحسن هذا منه، وأمر له بجائزة حسنة.

* وغاب أبو العيناء عن المتوكل مدّة ثم دخل عليه، فقال له: ما أقعدك عنّا يا أبا العيناء؟

قال: سُرق حماري يا أمير المؤمنين.

قال: كيف سُرِق؟

قال: والله ما كنت مع اللصّ فأعرف كيف سرقه.

قال: فما منعك أن تزورنا على غيره؟

قال: ثلاثة أشياء.

قال: ما هُنَّ؟

قال: قلّة يساري[١]، ومنّة العواري[٢]، وذلة المكاري[٣].

* وقيل لأبي العيناء: ما بال الحمير إذا أحسّت بالرجوع إلى مرابطها، والقرب من دور أهلها، أسرعت المشي إلّا حمارك، إذا قرب من دارك تخابث في المشي؟؟

قال: لعلمه بسوء المنقلب.

*

---

(١) اليسار: السعة.

(٢) العواري: مفرد عارية، وهو الذي يعيرك ماله.

(٣) المكاري: ما يكري لأجل بثمن.

الإبل الأُدم ورعاتها

وفدت ليلى الأخيليّة على الحاج بن يوسف، فلما دخلت عليه قال لها:

يا ليلى: أنشدينا من شعرك. فأنشدته ما اختارت، وهو يستزيدها. فلمّا قضت إنشادها قال محصن الفقعسي وكان جالساً عند الحجاج: مَنْ هذا الذي مدحته هذه المرأة بهذه الأبيات؟ وأظنّها كاذبة.

فنظرت إليه وقالت: أيها الأمير، إن هذا الرجل المعترض لو رأى ثوب الذي مدحتُهُ لسرَّه أن لا تكون في بيته عذراء إلّا وهي منه حامل.

فقال الحجاج: هذا الجواب الذي كنت غنيّاً عنه.

ثم قال لها: يا ليلى، سلي حاجتكِ. فأنشدت:

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضةً تتبَّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العياء الذي بها غلام إذا هزَّ القناة تباهى

فقال لها: لا تقولي «غُلام» قولي «هُمام».

ثم قال لها: قد أمرنا لك بعشرين، أترضين؟

قالت: زِدْ، فمثلك مَنْ زاد.

قالت: أربعين.

قالت: زِدْ فمثلك مَنُ زاد.

قال: مائة، واعلمي انها غنم.

قالت: معاذ الله، أنت أجود جوداً، وأعظم مجداً وأورى زنداً.

قال: فما هي؟ ويحك!

قالت: أُدْماً[1].

فجعلها إبلاً إناثاً.

قالت: ورعاتها.

قال: ورعاتها.

---

(١) الأُدم: هي البِيضُ من الإبل، وهي أكرمها وأجملها.

٢٧٠

إنّهم بقر

حدّث عثمان الوراق قال:

رأيت العتّابي الشاعر العباسي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام فقلت له: ويحك، أما تستحي؟

فقال لي: أرأيت لو كنّا في دارٍ فيها بقر، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟

فقال: لا.

قال: فاصبرْ حتى أعلمك أنهم بقر.

فقام فوعظ وقصَّ ودعا، حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم: روى لنا غيرُ واحد، أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار.

فما بقي واحد إلاّ وأخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ويقدّره حتى يبلغ أم لا. فلما تفرّقوا، قال لي العتّابي: ألَمْ أُخبرك أنهم بقر؟!

٢٧١

فضيلة عبيد الله بن زياد

قال أبو عبيدة:

إن عبيد الله بن زياد استعمل حارثة بن بدر على نيسابور، فغاب عنه أشهراً قليلة ثم قدم فدخل عليه، فقال له: ما جاء بك ولم أكتب إليك؟

قال: استوفيت خراجك وجئت به وليس لي بها عمل، فما مقامي؟

قال: أوَ بذلك أمرتك؟ ارجعْ فارددْ عليهم الخراج وخذه على دفعات حتى تنقضي السنة وقد فرغت من ذلك، فإنه أرفق بالرعية وبك، واحذر أن تحملهم على بيع غلاتهم ومواشيهم ولا التعنيف عليهم.

فرجع فردّ الخراج عليهم، وأقام يستخرجه منهم على دفعات حتى مضت السنة.

لم يَنَمْ من فزع «بَوْزَع»

عن حماد عن أبيه قال:

كان جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروف بابن الكرديّة يستخف الشاعر الظريف مطيع بن إياس، وكان منقطعاً إليه وله منه منزلة حسنة. فذكر له مطيع بن إياس حماداً الراوية، وكان مطّرحاً مجفواً في أيامهم. فقال له: دعني فإن دولتي كانت في بني أميّة وما لي عند هؤلاء خير. فأبى مطيع إلاّ الذهاب به إليه. فاستعار سواداً وسيفاً، ثم أتاه فدخل على جعفر فسلّم عليه وجلس. وفقال له جعفر. أنشدني.

فقال: لمن أيّها الأمير.

قال: لجرير.

قال حمّاد: فسلخ الله شعره أجمع من قلبي إلاّ قوله:

بان الخليط برامتين فودّعوا

فاندفعت أنشده إيّاه حتى بلغت إلى قوله:

وتقوع بوزع قد دببت على العصا   هلاَّ هزئتِ بغيرنا يا بوزع

قال حمّاد: فقال لي جعفر: أعِدْ هذا البيت أعِدْ. فأعدته.

فقال: إيش هو بَوْزَعُ؟

قلت: اسم امرأة.

قال: امرأة إسمها بوزع!! هو بريء من الله ورسوله ومن العباس بن عبد المطلب إن كانت بوزع إلا غولاً من الغيلان! تركتني والله يا هذا لا أنام الليل من فزع بوزع!! يا غلمان، قفاه.

قال: فصُفعت والله حتى لم أدرِ أين أنا.

ثم قال: جرّوا برجله، فجروا برجلي حتى أُخرِجت من بين يديه وقد تخرق[1] السواد وانكسر جفن السيف ولقيت شراً عظيماً مما جرى من ذلك.

---

(١) تخرق: تمزّق خرقاً.

وكان أغلظ من ذلك عليَّ غرامتي السواد والسيف. فلمّا انصرف إليَّ مطيع جعل يتوجّع لي فقلت له: ألم أخبرك أني لا أُصيب منهم خيراً وأن حظي قد مضى مع من مضى من بني أُميّة!

٢٧٣

وقتها كان مريضاً

كانت صفيّة بنت عبد المطّلب في فارع[1] يوم الخندق. قالت: وكان حسّان بن ثابت معنا فيه والنساء والصبيان. قالت: فمرّ بنا رجل من اليهود فجعل يُطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله (ص) ليس بيننا وبينهم أحد يدافع عنّا، ورسول الله والمسلمون في نحور عدوّهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذ أتانا آتٍ. قالت: فقلتُ: يا حسّان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ويتجسّس، وإني والله ما آمنه أن يدلّ على عوراتنا مَنْ وراءنا من يهود، وقد شُغل عنا رسول الله (ص) وأصحابه، فانزلْ إليه فاقتله.

فقال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطّلب! لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا.

قالت: فلما قال ذلك ولم أرَ عنده شيئاً احتجزتُ[2] ثم أخذتُ عموداً ثم نزلت إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته. فلما فرغتُ منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسّان، انزلْ إليه فاسلُبْهُ فإنه لم يمنعني من سلبه إلاّ أنه رجل.

قال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطّلب.

٢٧٤

الفرق كبير جداً ولا يقاس

ذكر المدائني أنه كان بين عمر بن عبد العزيز وبين يعقوب بن سلمة وأخيه عبد الله كلام، فأغلظ يعقوب لعمر في الكلام فقال له عمر: اسكت فإنك ابن

(١) فارع: حصن حسّان بن ثابت.

(٢) احتجزتُ: شدَدْتُ الثوب على وسطي.

أعرابية جافية. فقال عقيل لعمر: لعن الله شرّ الثلاثة، مني ومنك ومنه! فغضب عمر، فقال له صخير بن أبي الجهم: آمين. فهو والله أيها الأمير شرّ الثلاثة. فقال عمر: والله إني لأراك لو سألته عن آيةٍ من كتاب الله ما قرأها.

فقال: بلى والله إني لقارىء لآية وآيات.

فقال: فاقرأ، فقرأ، إنّا بعثنا نوحاً إلى قومه، فقال له عمر: قد أعلمتك أنك لا تحسن. ليس هكذا قال الله.

قال: فكيف قال؟

قال: ﴿إنّا أرسلنا نوحاً﴾[1].

فقال: وما الفرق بين «أرسلنا» و «بعثنا»؟!

٢٧٥

فضيلة ابنة الدؤلي

دخل أبو الأسود الدؤلي إلى ابنته بالبصرة فقالت له: يا أبتِ ما أشدُّ الحرّ! (رفعتْ أشدّ) فظنّها تسأله وتستفهم منه: أيُّ زمان الحرّ أشدّ.

فقال لها: شهر صَفَر.

فقالت: يا أبتِ إنما أخبرتك ولم أسألك.

فأتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، ذهبتْ لغة العرب لمّا خالطت العجم، وأوشك أن تطاول عليها زمان أن تضمحلّ، فقال له: وما ذلك؟ فأخبره خبر ابنته، فأمره فاشترى صحفاً بدرهم وأملى عليه:

الكلام كلّه لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى (وهذا القول أول كتاب سيبويه) ثم رسم أصول النحو كلها، فنقلها النحويون وفرّعوها.

قال أبو الفرج الأصفهاني: هذا حفظته عن أبي جعفر وأنا حديث السن فكتبته من حفظي، واللفظ يزيد أو ينقص وهذا معناه.

---

(١) سورة نوح: الآية أو تمامها: ﴿إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن انذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾.

٢٧٦

ذكاء الإمام مالك

كتب بعض علماء الإمام مالك للامام الشافعي:

يا إمام، لي خالة، وأنا خالها، ولي عمّة وأنا عمّها. فأما التي أنا عمٌّ لها، فإن أبي أُمّهُ أُمّها أبو أخي، وأخوها أبي على سنّة قد جرى رسمها.

وأمّا التي أنا خال لها فإن أبو الأم جدّ لها، ولسنا مجوساً ولا مشركين، بل سنة الحق نأتيها. فأين الإمام الذي عنده فنون التناكح أو علمها يبّن لنا كيف أنسابنا؟ ومن أين كان كذا حكمها؟

فكتب إليه الإمام: القائل لهذه المسألة تزوجتْ جدته لأبيه يعني أم أبيه بأخيه لأمّه، وتزوجت أُخته لأبيه بأبي أمّه وأولدهما بنت ابن.

فبنتُ جدّته عمّته، وهو عمّها، وبنت أُخته خالته وهو خالها.

٢٧٧

الفرض وتوابعه

وكتب بعض علماء الإمام مالك: يا إمام، ما تقول في الفرض، وفرض الفرض، وما يتمّ به الفرض، وصلاة لا فرض، وصلاة تركها فرض، وصلاة بالطول والعرض، وصلاة بين السماء والأرض، وصلاة في السماء والأرض؟

فكتب الإمام: أمّا قول القائل: الفرض فهو الخمس صلوات، وفرض الفرض فهو الوضوء، وأمّا قوله ما يتمّ به الفرض فهو الصلاة على رسول الله (ص). وأما قوله: صلاة لا فرض: فهي صلاة الصغير قبل البلوغ، وأما الصلاة التي تركها فرض: فهي صلاة السكران. وأمّا الصلاة التي بالطول والعرض: فهي صلاة «يونس» في بطن الحوت.

وأما الصلاة التي بين السماء والأرض فهي صلاة سليمان عليه السلام.

وأمّا الصلاة التي في السماء والأرض فهي صلاة رسول الله (ص) ليلة المعراج.

*

٢٧٨

حُسن التبعُّل يعدل كل شيء

وفدت أسماء بنت يزيد على النبي (ص) فقالت: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله، إنه ليس في شرق البلاد وغربها امرأة إلاّ وهي مثل رأيي. إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء فآمنّا بك وبإلهك الذي بعثك، وإنّا معشر النساء محصورات مقصورات قوّامات بيوتكم وحاملات أولادكم وحافظات أموالكم وخوالفكم في سفركم، وممرّضاتكم في الحضر. وإنكم معشر الرجال فُضّلتم علينا بالجُمَع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج والعمرة. وأفضل من ذلك كلّه الجهاد في سبيل الله. وإنكم إذا خرجتم حجّاجاً ومجاهدين وتجاراً ومسافرين حفظنا لكم أموالكم وربينا لكم أولادكم ثم غزلنا لكم الأثواب وجمعنا لكم الطعام أفنشارككم في الأجر يا رسول الله؟؟

فأقبل النبي (ص) على أصحابه وقال لهم: هل سمعتم مقالة امرأة قد أحسن من مقالتها في حسن مساءلتها عن أمر دينها؟

ثم أقبل عليها فقال: ارجعي أيتها المرأة فاخبري مَنْ وراءكِ من النساء أن حُسن تبعُّل إحداكنَّ لزوجها واجتنابها سخطه، واتباعها مرضاته يعدل ذلك كلّه فجعلت المرأة تكبّر وتهلّل استبشاراً.

٢٧٩

كنّا أُسْراك فصرنا ضيوفك

قدم إلى معن بن زائدة أسرى فعرضهم على السيف، فقام إليه رجل وقال: أيها الأمير نحن أسراك ونحن جياع من أثر الطريق، فإن رأيت أن تطعمنا فلك بذلك أجر.

فأمر باطعامهم فأُحضرت إليهم الموائد فاجتمعوا وأكلوا، ومعن ينظر إليهم، فلمّا فرغوا قام رجل منهم وقال: أيها الأمير، كنّا أسراك فصرنا ضيوفك فانظر ما يصنع مثلك بأضيافه فعفا عنهم وأطلقهم.

٢٨٠

وزراء فرعون كانوا خيراً من وزرائه

لّما ولي الحجاج بن يوسف قال: عليَّ بالمرأة الحروريّة[1]. فلما حضرت قال لها: أنت بالأمس في وقعة ابن الزبير تحرّضين الناس على قتل رجالي ونهب أموالي.

قالت: قد كان ذلك.

فالتفت الحجاج إلى وزرائه وقال لهم: ما ترون فيها؟

قالوا: عجلّ قتلها.

فضحكت فاغتاظ لذلك وقال لها: ما أضحكك؟

قالت: إن وزراء فرعون كانوا خيراً من وزرائك هؤلاء.

فالتفت إليهم الحجاج فرآهم خجلوا.

فقال لها: كيف ذلك؟

قالت: لأنه لّما استشارهم في قتل موسى ﴿قالوا: أرْجِهْ وأخاهُ﴾[2]. «يعني انظرهُ إلى وقت آخر» وهؤلاء يسألونك تعجيل قتلي.

فضحك الحجاج، ثم أمر لها بعطاء وأطلقها وأعجبه مقالتها.

٢٨١

هل بقي أحد

عن بعض آل نوبخت قال:

كان أبي وعبد الله بن أبي سهل وجماعة من آل نوبخت وغيرهم وقوفاً بكناسة الدواب في الجانب الغربي من بغداد يتحدثون، فإنهم لكذلك إذ أقبل مخارق على حمار أسود وعليه قميص رقيق ورداء مسهّم[3].

قال: فيمَ كنتم؟

---

(١) الحرورية: أي التي من الخوارج.

(٢) سورة الأعراف: آية ١١١.

(٣) مسّهم: فيه صور السهام.

فأخبروه.

فقال: دعوني من وسواسكم هذا، أي شيء لي عليكم إن رميت بنفسي بين قبرين من هذه القبور وغطيت وجهي وغنّيت صوتاً، فلم يبقَ أحد بهذه الكناسة ولا في الطريق من مشترٍ ولا بائعٍ ولا صادرٍ ولا واردٍ إلّا ترك عمله وتقرّب منّي واتّبع صوتي؟ فقال له عبد الله: إني لأحب أن أرى هذا فقل ما شئت، فقال: فرسك الأشقر الذي طلبته منك فمنعتنيه، قال: هو لك إن فعلت ما فعلت، ثم دخلها ورمى بنفسه بين قبرين وتغطّى بردائه، ثم اندفع يغنّي فغنّى في شعر أبي العتاهية:

نادت بوشك رحيلك الأيامُ　　أفلستَ تسمع أم بك استصمامُ

قال: فرأيت الناس يتقوّضون[1] إلى المقبرة أرسالاً وجماعات من بين راكب وراجل وصاحب شول[2] وصاحب جدي ومارٍّ بالطريق حتى لم يبق بالطريق أحد، ثم قال لنا من تحت ردائه: هل بقي أحد؟

قلنا: لا، وقد وجب الرّهن فقام فركب حماره، وعاد الناس إلى صنائعهم فقال لعبد الله: أحضر الفَرَس فقال: على أن تقيم اليوم عندي.

قال: نعم، فانصرفنا معهما وسلّم الفرس إليه وبكره وأحسن إليه وأحسن رفده.

٢٨٢

هبّود وعبود

قال ابن كركرة:

انشدني ابن مناذر قصيدته الدالية التي رثى فيها عبد المجيد، فلما بلغ إلى قوله:

يقدح الدهر في شماريخ رضوى　　ويحطّ الصخور من هبّودِ

قلت له: هبود أي شيء هو؟ فقال: جبل. فقلت سخنت عينك، هبود والله بئر باليمامة ماؤها ملحٌ لا يشرب منه شيء خلقه الله، وقد والله خريتُ فيها مرات،

(١) يتقوّضون: أي يجيئون ويذهبون.

(٢) الشول من النوق: التي جفَّ لبنها وارتفع ضرعها.

فلما كـان بعد مـدّة وقفتُ عليه في مسجـد البصرة وهو ينشـدهـا فلما بلغ هـذا البيت أنشدها:

ويحطّ الصخور من عبّودِ

فقلت له: عبّود، أي شيء هوذا؟

فقـال: جبل بـالشام فلعلّك يـا ابن الزانيـة خريتَ عليـه أيضـاً. فضحكت ثم قلت: لا ما خريت عليه ولا رأيته وانصرفت وأنا أضحك.

٢٨٣

ذو النون المصري ويوسف بن الحسين

قال يوسف بن الحسين: قيل لي إن ذا النون يعرف اسم الله الأعـظم، فدخلت مصر وخدمته سنة ثم قلت: يا أستاذ إني قد خدمتك وقد وجب حقي عليك، وقيـل لي إنـك تعرف اسم الله الأعـظم، وقد عـرفتني ولا تجد لـه موضعـاً مثلي فـأحبّ أن تعلمني إياه؛ قال: فسكت عني ذو النون ولم يجبني وكأنـه أومأ إلى أن يختـبرني؛ قال: فتركني بعد ذلك ستة أشهـر ثم أخرج إليّ من بيتـه طبقاً ومكبـة مشدوداً في منـديل، وكان ذو النون يسكن الجيـزة، فقال: تعـرف فلانـاً صديقنـا من الفسطاط؟ فقلت: نعم، قال: وأحب أن تؤدي هذا إليه. قال: فـأخذت الـطبق وهو مشـدود وجعلت أمشي طول الطريق وأنا مفكر فيه: مثل ذي النون يوجـه إلى فلان هـدية؟ تـرى أي شيء هي؟ فلم أصبر إلى أن بلغت الجسر، فحللتُ المنديل ورفعت المكبة، فإذا فأرة قفزت من الطبق ومرَّت؛ قال: فـاغتظت غيـظاً شديـداً وقلت: ذو النون يسخـر بي ويوجّه مع مثلي فأرة! فرجعت عى ذلك الغيظ، فلما رآني عرف ما في وجهي، فقال: يا أحمق إنما جربناك، ائتمنتك على فأرة فخنتني، أَفأأْتَمِنُك على اسم الله الأعـظم؟ مرّ عني فلا أراك أبداً.

*

العبد يهدي كنه قدرته

كتب صلاحُ الدين الإربلي مع هدية:

فلو كنت مُهدٍ على مقدار قدركمُ   لكنت أهدي إليك السهل والجبلا
وإنما العبد أهدى كنه قدرته   والنمل يُعذر في القدر الذي حملا

٢٨٥

القاضي إياس بن معاوية وأمينه

استودع رجل رجلاً من أمناء إياس مالاً وخرج المستودع إلى مكة، فلما رجع طلبه فجحده، وأتى إياساً فأخبره، فقال له إياس: أَعَلِمَ بك أنك أتيتني؟ قال: لا، قال: فنازعته عند أحد؟ قال: لا، لم يعلم بهذا أحد، قال: فانصرف واكتم أمرك ثم عد إليّ بعد يومين. فمضى الرجل، فدعا إياس أمينه ذلك وقال: قد اجتمع عندي مال كثير أريد أن أسلمه إليك، أفحصينٌ منزلك؟ قال؛ نعم، قال: فأعدّ موضعاً للمال وقوماً يحملونه. وعاد الرجل إلى إياس فقال له: انطلق إلى صاحبك فاطلب مالك فإن أعطاك فذاك وإن جحدك فقل له: إني أخبر القاضي. فأتى الرجل صاحبه فقال: مالي وإلا أتيت القاضي وشكوت إليه حالي وأخبرته بأمري، فدفع إليه ماله، فرجع الرجل إلى إياس فقال: قد أعطاني المال.

وجاء الأمين إلى إياس لوعده فانتهره وقال له: لا تقربني يا خائن.

٢٨٦

اتقِ الله يا عبد الله ولا تقس

حدث الزبير عن محمد بن يحيى الربعي قال: قال ابن شبرمة: دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد فسلمت عليه، وكنت له صديقاً، ثم أقبلت عليه فقلت: أمتع الله بك، هذا رجل من أهل العراق له فقه وعلم، فقال جعفر: لعله الذي يقيس الدين برأيه؟ ثم أقبل عليه فقال له: اتق الله ولا تقس الدين برأيك فان أول

من قاس إبليس إذ أمره الله بالسجود لآدم فقال: ﴿أنا خير منه ـ الآية الكريمة﴾.

ثم قال له: هل تحسن أن تقيس رأسك من جسدك؟ فقال: لا، فقال: أخبرني عن الملوحة في العين، وعن المرارة في الأذن، وعن الماء في المنخرين، وعن العذوبة في الفم، لأي شيء جعل ذلك؟ قال: لا أدري، قال له جعفر: إن الله تبارك وعلا خلق العينين فجعلهما شحمتين، وجعل الملوحة فيهما منّاً على ابن آدم، ولولا ذلك لذابتا فذهبتا، وجعل المرارة في الأذنين منّاً منه عليه، وجعل الماء في المنخرين ليصعد منه النفس وينزل ويجد منه الريح الطيبة من الريح الردية، وجعل العذوبة في الفم ليجد ابن آدم لذة مطعمه ومشربه.

ثم قال لأبي حنيفة: أخبرني عن كلمة أولها شرك وآخرها إيمان، ما هي؟ قال: لا أدري، قال: قول الرجل: لا إله إلا الله، فلو قال: لا إله ثم أمسك كان مشركاً، فهذه كلمة أولها شرك وآخرها إيمان.

ثم قال: ويحك أيهما أعظم عند الله: قتل النفس التي حرم أم الزنا؟ قال: لا بل قتل النفس، قال جعفر: إن الله قد رضي وقبل في قتل النفس بشاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة، فكيف يقوم لك قياس؟ ثم قال: أيهما أعظم عند الله: الصوم أم الصلاة؟ قال: الصلاة، قال: فما بال المرأة إذا حاضت تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ اتق الله يا عبد الله ولا تقس، فإنا نقف نحن غداً وأنت ومن خالفنا بين يدي الله عز وجل فنقول: قال رسول الله ﷺ وقال الله تعالى، وتقول أنت وأصحابك: سمعنا ورأينا، فيفعل بنا وبكم ما يشاء.

٢٨٧

قتلهما بما اعتزما به عليه

من عجائب الظفر ما حكاه الصولي أن المتوكل قال: ركبت إلى دار الواثق أزوره في مرضه الذي مات فيه، فدخلت الدار وجلست في الدهليز ليؤذن لي، فسمعت بكاء بنياحة تشعر بموته، فتحسست وإذا ايتاخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران فيّ، فقال محمد: نقتله في التنور، وقال ايتاخ: بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يُرى عليه أثر القتل. فبينا هم كذلك إذ جاء أحمد بن أبي دواد ـ وكان

القاضي يومئذ ـ فمنعه الخدام الدخول، فدافعهم حتى دخل، فجعل يحدثهما بما لا أعقله لما داخلني من الخوف واشتغال القلب بإعمال الحيلة في الهرب والخلاص مما ائتمر به فيّ. فبينا أنا كذلك، إذ خرج الغلمان يتعادون إلي ويقولون: انهض يا مولانا، فما شككت أن أدخل وأبايع ولد الواثق ويُنَفَّذ فيّ ما قد قرر.

فدخلت فلقيني أحمد بن أبي دواد، فقبّل يديَّ وأمسكهما إلى أن أتى إلى السرير وقال لي: اصعد إلى المكان الذي أهّلك الله له؛ فلما صعدت وجلست سلم علي بالخلافة، وجاء محمد بن عبد الملك الزيات وايتاخ فسلما علي أيضاً، ثم دخل القواد فسلموا، ثم الناس على طبقاتهم. فلما انقضت المبايعة بقيت متعجباً مما اتفق مع ما سمعته من كلام ابن الزيات وايتاخ، فسألت عن الحال كيف جرى، فقيل لي: بينا محمد وايتاخ في تقرير ما سمعته، إذ دخل عليهما ابن أبي دواد فسلم ثم قال: أنا رسول المسلمين إليكما وهم يقرأون السلام عليكما ويقولون لكما: قد بلغنا وفاة إمامنا وعند الله نحتسبه، وأنتما المنظور إليكما في هذا الأمر، فمن اخترتما لأمامتنا؟ فقالا: محمداً ابنه، فقال: بخ بخ، ابن أمير المؤمنين إلا أنه صغير لا يصلح للإمامة؛ فمن غيره؟ قالا: فلان وفلان، وعدّا جماعة، إلى أن قالا: وجعفر بن المعتصم، فقال: رضي المسلمون، اصفقا على يدي، فصفقا، ثم أرسل إلي، فكان ما أرى، قال المتوكل: فبقي ما قاله ابن الزيات وايتاخ في نفسي فقتلتهما بما اعتزما به على قتلي، فقتلت ابن الزيات في التنور وإيتاخ بالماء البارد.

٢٨٨

أذاب عنه الشحم فأجازه

روى الحسين بن إدريس الحلواني قال: سمعت الإمام محمد بن إدريس الشافعي يقول: ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن، قيل له: ولِمَ؟ قال: لأنه لا يعدو العاقل إحدى خصلتين: إما أن يهتم لآخرته ومعاده، أو لدنياه في معاشه، والشحم مع الهم لا ينعقد، صار في حد البهائم فانعقد الشحم.

ثم قال: كان ملك في الزمان الأول وكان مثقلاً كثير الشحم لا ينتفع بنفسه، فجمع المتطببين وقال: احتالوا لي بحيلة تُخِفُّ عني لحمي هذا قليلاً؛ قال: فما قدروا

له على شيء؛ قال: فذكر له رجل عاقل أديب متطبب فاره، فبعث إليه وأشخصه فقال له: عالجني ولك الغنى، قال: أصلح الله الملك، أنا طبيب منجم، دعني حتى أنظر الليلة في طالعك أيّ دواء يوافقه فاسقيك؛ قال: فغدا عليه فقال: أيها الملك الأمان، قال: رأيت طالعك يدل على أن عمرك شهر، فإن اخترتَ عالجتك، وإن أردت بيان ذلك فاحبسني عندك، فإن كان لقولي حقيقة فخلٍّ عني، وإلا فاستقص مني؛ قال: فحبسه؛ قال: ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس وخلا وحده مغتمّاً كلما انسلخ يوم ازداد غمّاً حتى هزل وخف لحمه، ومضى لذلك ثمانية وعشرون يوماً، فبعث إليه وأخرجه، فقال: ما ترى؟ قال: أعز الله الملك، أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب، والله لما أعرف عمري فكيف أعرف عمرك؟ إنه لم يكن عندي دواء إلّا الغمّ، فلم أقدر أن أجلب إليك الغمّ إلاّ بهذه الطريقة. فأذاب شحم الكلى، فأجازه وأحسن إليه.

٢٨٩

هن الحمام فإن كسرت عيافةً

حكي عن يموت بن المزرع قال: كان أحمد بن المدبر إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره، أمر غلمانه أن يمضوا به إلى المسجد فلا يفارقوه أو يصلي مائة ركعة، فكان هذا دأبه؛ قال: فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدون فأتاه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجمل فاستأذنه في النشيد فقال له: عرفت الشرط؟

قال: نعم، فأنشده:

أردنا في أبي حسنٍ مديحاً ... كما بالمدح تنتجع الولاةُ
فقلنا أكرم الثقَلين طُرّاً ... ومن كفيه دجلة والفرات
فقالوا يقبل المدحات لكن ... جوايزه عليهنّ الصلاة
فقلت لهم وما يغني عيالي ... صلاتي إنما الشأن الزكاة
فيأمرني بكسر الصاد منه ... فتصبح لي الصلاة هي الصِلات

فضحك ابن المدبر وقال: من أين أخذت هذا ومن أين وقع لك؟ فقال:

أخذته من قول أبي تمام:

هُنّ الحَمامُ فإن كسرت عيافةً[1]

قال: فأعجبه صدقُهُ ووصله.

٢٩٠

من أخبار أبي تمام

حدث الصولي قال كان أبو تمام إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه كأنه قد علم ما يقول فأعد جوابه، فقال له رجل: يا أبا تمام لم لا تقول من الشعر ما يُعرَف؟ فقال: وأنت لم لا تعرف من الشعر ما يقال؟ فأفحمه. وكان الذي قال له هذا أبو سعيد الضرير بخراسان، وكان هذا من علماء الناس، وكان متصلاً بالطاهرية.

قال علي بن محمد بن عبد الكريم: لما صار إلينا أبو تمام مقدمه من مصر عمل قصيدته التي أولها:

أرامة كنت مألف كل ريم

فاتصل خبرها بعتبة بن عُصيم الذي يهجوه أبو تمام، وهو كلبي من قضاعة، وكان أديباً شاعراً، فأحب أن يسمع هذه القصيدة من أبي تمام فقال لمن حضر: ايتوني به، فجاءوا به فأنشده إياها، فلما فرغ قال: أحسنت يا غلام على صغر سنك، فسكت أبو تمام وقال: يا عم أنشدني من شعرك، فأنشده قصيدة، فلما فرغ قال: يا عم ما أحسنت على كبر سنك، فقال عتبة لبني عبد الكريم أخرجوا هذا من بلدنا فليس يَصلح أن يقيم في بلدنا.

*

(١) وتمام البيت: من حائهنّ فإنهنّ حِمام.

٢٩١

إنّها لشديدة

وقـال أبو جعفـر الهروي: كنت مع حاتم مـرّة وقد أراد الحـج، فلما وصـل إلى بغداد قال: يا أبا جعفر، أحب أن ألقى أحمد بن حنبـل، فسألنـا عن منزلـه ومضينا إليه فطرقت عليه الباب فلما خرج قلت: يا أبـا عبد الله أخـوك حاتم؛ قـال: فسلم عليه ورحب به وقال بعد بشاشته به: أخبرني يا حاتم فيمَ أتخلص من الناس؟

قال: يا أبا عبد الله في ثلاث خصال.

قال: وما هي؟

قال: أن تعطيهم مالك ولا تـأخذ من مـالهم شيئاً؛ قـال: وتقضي حقوقهم ولا تستقضي منهم حقاً؛ قال: وتحمل مكروههم ولا تُكره واحداً منهم على شيء.

قال: فأطرق أحمد ينكت بـإصبعه الأرض ثم رفـع رأسه وقـال: يا حـاتم، إنها لشديدة، فقال له حاتم: وليتك تسلم وليتك تسلم وليتك تسلم.

٢٩٢

نعم الزاد زادك

وقال رجل لحاتم الأصم: بلغني أنك تجوز المفاوز من غير زاد، فقال حاتم: بل أجوزها بالزاد وإنما زادي فيها أربعة أشياء، قال: وما هي؟

قال: أرى الدنيا كلها ملكاً لله، وأرى الخلق كلهم عباد الله وعياله، والأسبـاب والأرزاق بيد الله، وأرى قضاء الله نـافذاً في كـل أرض لله؛ فقال لـه الرجـل: نعم الزاد زادك يا حاتم؛ أنت تجوز به مفاوز الآخرة.

٢٩٣

يا حجّاج

كـان للحجاج في القتـل وسَفك الـدماء والعقـوبات غـرائب لم يُسمَـع بمثلهـا، ويقال: إن زياد ابن أبيه أراد أن يتشبه بأمير المؤمنين عُمَر بن الخـطاب رضي الله عنه

في ضبط الأمور والحزم والصرامة وإقامة السياسات إلا أنه أسرف وتجاوز الحد، وأراد الحجاج أن يتشبه بزياد فأهلك ودمَّر.

وخطب يوماً فقال في أثناء كلامه: أيها الناس، إن الصبر عن محارم الله أيسرُ من الصبر على عذاب الله، فقام إليه رجل فقال: ويحك يا حجاج، ما أصفق وجهك وأقل حياءك! فأمر به فحبس، فلما نزل عن المنبر دعا به فقال له: لقد اجترأت عليّ، فقال له: أتجترىء على الله فلا ننكره، ونجترىء عليك فتنكره؟ فخلى سبيله.

٢٩٤

خطبة الحجاج في أهل العراق

قال أبو العباس المبرد في إسناد ذكره آخره عبد الملك بن عمير الليثي قال: بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه إذ أتانا آت فقال: هذا الحجاج ابن يوسف قد قدم أميراً على العراق، فإذا به قد دخل المسجد متعمماً بعمامة غطى بها أكثر وجهه متقلداً سيفاً متنكباً قوساً يؤمّ المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبّح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق، وقال عمير بن ضابىء البرجمي: ألا أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر، فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال: والله يا أهل الكوفة والعراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، وإن أمير المؤمنين نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً، فرماكم بي لأنكم طال ما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأحزمنكم حزم السَّلَمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، فإنكم لكأهل ﴿قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ (النحل: ١١٢).

والله إني ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم، فلم يقل أحد شيئاً، فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: يسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً؟ هذا أدبُ ابن نهية، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن، اقرأ عليهم يا غلام كتاب أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله: سلام عليكم، لم يبق أحد في المسجد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام.

ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبراً فقال: أيها الأمير إني من الضعف على ما ترى ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني أفتقبله بدلاً مني؟ فقال الحجاج: نفعل أيها الشيخ، فلما ولي قال له قائل: أتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا، قال: هذا عمير بن ضابىء البرجمي الذي يقول أبوه في عثمان بن عفان

همت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً فوطىء بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه؛ فقال: ردوه، فلما رُدّ قال له الحجاج: أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان رحمه الله تعالى بديلاً يوم الدار؛ إن في قتلك أيها الشيخ لصلاح للمسلمين، يا حرسي اضربْن عنقه.

٢٩٥

أخطأ في استعمالك على رقاب المسلمين

قال القاضي أبو الفرج المعافى: حدث العتبي قال: كانت امرأة من الخوارج يقال لها فراشة، وكانت ذات نية في رأي الخوارج تجهز أصحاب البصائر ولم يظفر

بها، وكان الحجاج يدعو الله أن يمكنه منها أو من بعض من جهزته فراشة، فمكث ما شاء الله ثم جيء برجل فقيل له: هذا ممن جهزته فراشة، فخر ساجداً ثم رفع رأسه فقال: يا عدو الله، قال: أنت أولى بها يا حجاج، قال: أين فراشة؟ قال: مرت تطير منذ ثلاث، قال: أين تطير؟ قال: ما بين السماء والأرض، قال: أَعَنْ تلك سألتُك عليك لعنة الله؟ قال: عن تلك أخبرتُك عليك غضب [الله]، قال: سألتك عن المرأة التي جهزتك وأصحابك، قال: وما تصنع بها؟ قال: أضرب عنقها، قال: ويلك يا حجاج ما أجهلك، أدلك وأنت عدو الله على من هو ولي الله؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين، قال: فما رأيك في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: على ذلك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعّنين، قال: ولَم، لا أم لك؟ قال: إنه أخطأ خطيئة طبقت ما بين السماء والأرض، قال: وما هي؟ قال: استعماله إياك على رقاب المسلمين، فقال لجلسائه: ما رأيكم فيه؟ قالوا: نرى أن تقتله قتلة لم يُقتل مثلها أحد، قال: ويحك يا حجاج، جلساء أخيك أحسن مجالسة من جلسائك، قال: وأي أخويّ تريد؟ قال: فرعون حين شاور في موسى فقالوا: أرجئه وأخاه، وأشار هؤلاء عليك بقتلي، قال: فهل جمعت القرآن؟ قال: ما كان مفرقاً فأجمعه، قال: أقرأته ظاهراً؟ قال: معاذ الله بل قرأته وأنا أنظر إليه، قال: فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك؟ قال: ألقاه بعملي وتلقاه بدمي، قال: إذن أعجلك إلى النار، قال: لو علمت أن ذلك إليك أحسنت عبادتك واتقيت عذابك ولم أبغِ خلافك ومناقضتك، وقال: إني قاتلك، قال: إذن أخاصمك لأن الحكم يومئذ إلى غيرك، قال: نقمعك عن الكلام السيء؛ يا حَرَسيّ اضرب عنقه، وأومأ إلى السياف ألا تقتله، فجعل يأتيه من بين يديه ومن خلفه ويروعه بالسيف، فلما طال ذلك رشح جبينه، قال: جزعت من الموت يا عدو الله؟ قال: لا يا فاسق ولكن أبطأت عليّ بما فيه راحة؛ قال: يا حرسي، أوجب جرحه، فلما أحس بالسيف قال: لا إله إلا الله، والله لقد أتمها ورأسه في الأرض.

*

٢٩٦

ليبلغ الشاهد الغائب

وقال القاضي: لما حمل الأسرى إلى الحجاج وهو حينئذٍ بواسط القصب قبل أن يبني مدينة واسط قال لحاجبه: قدم إليّ سيدهم فيروز بن الحصين، فقال له الحجاج: أبا عثمان ما أخرجك مع هؤلاء؟

قال: فتنة عمت الناس.

فقال: اكتب لي أموالك.

قال: ثمَّ ماذا؟

قال: اكتبها أولاً.

قال: ثم أنا آمن من على دمي؟

قال: اكتبها ثم أنظر.

قال: اكتب يا غلام، ألف ألفي ألف، حتى ذكر مالاً كثيراً.

فقال الحجاج: أين هي وعند من هي؟

قال: لا والله لا جمعت بين مالي ودمي، فأمر الحجاج فعذب بأنواع العذاب، وكان من جملة ما عذب به أن يشد عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يجرّ حتى يجرِّح جسده ثم ينضح عليه الخلّ والملح؛ فلما أحس بالموت قال: إن الناس لا تشكنّ أني قُتلت ولي ودائع وأموال عند الناس لا تؤدي إليكم أبداً، فأظهروني للناس ليعلموا أني حي فيؤدوا المال، فأخْرج فصاح فيّ الناس: من عرفني فقد عرفني؛ أنا فيروز، إن لي عند أقوام مالاً فمن كان لي عنده شيء فهو له وهو منه في حل فلا يؤدين أحد منه درهماً، ليُبلغِ الشاهد الغائب؛ فأمر الحجاج فقُتل.

٢٩٧

لعنه الله المبيد الحقود

ذكر الحسن بن محمد بن هلال الصابىء أن الحجاج انفرد يوماً عن عسكره فمر برجل يسقي ضيعة له، فقال له: كيف حالكم مع أميركم؟ فقال: لعنه الله، المبيد

المبير الحقود، عجل الله الانتقام منه، فقال له: تعرفني؟ قال: لا والله، قال: أنا الحجاج، فرأى الرجل أن دمه قد طاح فرفع عصاً كانت معه وقال: أتعرفني؟ أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي، وأزبد وأرغى وهاج وأراد أن يضرب رأسه بالعصا، فضحك منه وانصرف.

٢٩٨

تاب عن شرب الخمر أم لم يتب؟؟

أُشيع عن أبي نواس أنه رجع عما كان عليه من البطالة وشرب الخمر وزهد في اللذات، فاجتمع أصحابه وأقبلوا عليه يهنئونه بذلك، فوضع بين يديه باطية وجعل لا يدخل عليه أحد يهنئه إلا شرب بين يديه رطلاً وأنشد:

قالوا نزعت ولمّا يعلموا وطري في كل أغيد ساجي الطرف مياسِ
كيف النزوع وقلبي قد تقسّمه لحظ العيون وقرع السن بالكاسِ

قال محمد بن نافع: كان أبو نواس لي صديقاً، فوقع بيني وبينه هجرة في آخر عمره، ثم بلغتني وفاته فتضاعف عليّ الحزن؛ فبينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيته فقلت: أبا نواس؟ قال: لات حين كنية، قلت: الحسن بن هانىء؟

قال: نعم، قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بأبيات قلتها في علتي قبل موتي وهي تحت الوسادة؛ فأتيت أهله فلما رأوني أجهشوا بالبكاء فقلت لهم: قال أخي شعراً قبل موته، قالوا: لا نعلم إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندري ما هو، قلت: ايذنوا لي أدخل؛ قال: فدخلت إلى مرقده فإذا ثيابه لم تحرك بعد، فرفعت وسادة فلم أر شيئاً ثم رفعت أخرى فإذا أنا برقعة فيها مكتوب:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يدعوك إلا محسنٌ فمن الذي يرجو ويدعو المجرم
أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تضرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم أني مسلم

*

ألا موت يُباع فأشتريه

كان أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون المهلبي الوزير غاية في الأدب والمحبة لأهله. وكان قبل اتصاله بمعزّ الدولة في شدّةٍ عظيمة من الضرورة والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقي في سفره مشقة صعبة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال ارتجالاً:

ألا مَوْتٌ يُباعُ فأشتريهِ ... فهذا العيشُ ما لا خيرَ فيهِ
ألا مَوْتٌ لذيذُ الطعم يأتي ... يُخَلِّصُني من العيش الكريه
إذا أبْصَرتُ قبراً من بعيدٍ ... ودِدتُ لَو أنني مما يليه
ألا رحِمَ المهيمِنُ نفس حُرٍّ ... تَصَدَّقَ بالوفاة على أخيه

وكان معه رفيق يقال له: أبو عبد الله الصوفي، وقيل أبو الحسين العسقلاني، فلما سمع الأبيات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه، وتفارقا. وتنقلت بالمهلبي الأحوال، وتولى الوزارة ببغداد لمعز الدولة المذكور، وضاقت الحال برفيقه في السفر الذي اشترى له اللحم، وبلغه وزارة المهلبي فقصده وكتب إليه:

ألا قُلْ للوزير فَدَتهُ نفسي ... مَقالة مُذْكرٍ ما قد نَسيهِ
أتذكر إذ تقول لضَنْكِ عيشٍ ... «ألا موت يباع فأشتريهِ»

فلما وقف عليه تذكره وهَزَّته أرْيحيَّةُ الكرم، فأمر له في الحال بسبعمائة درهم ووقَّع في رقعته ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾ ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به.

*

٣٠٠

المحتالان: الحلّاج وصاحبه

كان الحلاج قد أنفذ أحد أصحابه إلى بلد من بلدان الجبل ووافقه على حيلة يعملها، فخرج الرجل فأقام عندهم سنتين يظهر النسك والعبادة وقراءة القرآن والصوم، فغلب على البلد حتى إذا تمكن أظهر أنه زَمِنٌ يحبو ويحمل إلى المسجد حتى مضت سنة وتقرر في النفوس عماه وزمانته فقال لهم بعد ذلك: رأيت النبي (ص) في النوم أنه يطرق هذا البلد عبد صالح مجاب الدعوة تكون عافيتك على يديه ودعائه، فاطلبوا لي كل من يجتاز من الفقراء أو من الصوفية لعل الله تعالى أن يفرج عني، فتعلقت النفوس لورود العبد الصالح، ومضى الأجل الذي بينه وبين الحلاج فقدم البلد ولبس الثياب الصوف الرقاق وتفرد في الجامع فقال الأعمى: احملوني إليه، فلما حصل عنده وعلم أنه الحلاج قال له: يا عبد الله رأيت في النوم كذا وكذا فادعُ الله تعالى لي، فقال: ومن أنا وما تحكي؟ ثم دعا له ومسح يده عليه فقام مبصراً صحيحاً، فانقلب البلد وكثر الناس على الحلاج، فتركهم وخرج من البلد وأقام المتعامي المبرأ مما فيه شهوراً ثم قال لهم: إن من حق الله عندي ورده جوارحي عليّ أن أنفرد بالعبادة انفراداً أكثر من هذا، وأن يكون مقامي في الغزو، وقد عملت على الخروج إلى طرطوس، فمن كانت له حاجة يحملها، فأخرج هذا ألف درهم وقال: اغز بهذه عني، وأخرج هذا مائة دينار وقال: اخرج بها غزاة من هناك، وأعطاه كل أحد شيئاً له ألوف دنانير ودراهم، فلحق بالحلاج وقاسمه عليها.

٣٠١

نهاية الحلّاج

كتب حامد الوزير إلى المقتدر يخبره بفتوى القضاة بمقتل الحلّاج فعاد جواب المقتدر بأن القضاة إذا كانوا قد أفتَوْا بقتله فليُسَلَّم إلى صاحب الشرطة، وليتقدم إليه بضربه ألف سوط، فإن مات من الضرب وإلا ضَرَبه ألف سوط أخرى، ثم تُضرب عنقه، فسلمه الوزير إلى الشرطي وقال له ما رسم به المقتدر، وقال: إن لم يتلف

بالضرب فتقطع يده ثم رجله ثم رجله ثم تحز رقبته وتحرق جثته، وإن خدعك وقال لك: أنا أُجري الفرات ودجلة ذهباً وفضة، فلا تقبل ذلك منه ولا ترفع العقوبة عنه، فتسلمه الشرطي ليلاً، وأصبح يوم الثلاثاء لسبع بقين، وقيل لست بقين من ذي القعدة[1]، سنة تسع وثلثمائة، فأخرجه عند باب الطاق، واجتمع من العامة خلق كثير لا يحصى عددهم، وضربه الجلاد ألف سوط، ولم يتأوَّه بل قال للشرطي لما بلغ ستمائة: ادع بي إليك، فإن لك عندي نصيحة تعدل قسطنطينية، فقال له: قد قيل لي عنك إنك تقول هذا وأكثر منه وليس إلي أن أرفع الضرب عنك سبيل، فلما فرغ من ضربه قطع أطرافه الأربعة، ثم حزّ رأسه وأحرق جثته، ولما صارت رماداً ألقاها في دجلة، ونصب الرأس ببغداد على الجسر، وجعل أصحابه يَعِدُن أنفسهم برجوعه بعد أربعين يوماً.

٣٠٢

نهاية ابن المقفّع

وذكر الهيثم بن عدي أن ابن المقفع كان يستخف بسفيان كثيراً، وكان أنفُ سفيان كبيراً، فكان إذا دخل عليه قال: السلام عليكما، يعني نفسه وأنفه؛ وقال له يوماً: ما تقول في شخص مات وخلَّف زوْجاً وزوجة؟ يسخَرُ به على رؤوس الناس، وقال سفيان يوماً: ما ندمت على سكوت قَطُّ، فقال له ابن المقفع: الخرسُ زينٌ لك فكيف تندم عليه؟! وكان سفيان يقول: والله لأقطعنه إرْباً إرْباً وعيْنه تنظر، وعزم على أن يغتاله، فجاءه كتاب المنصور بقتله فقتله.

وقال المدائني: لما دخل ابن المقفع على سفيان، قال له: أتذكر ما كنت تقول في أمي؟ فقال: أنشدك الله أيها الأمير في نفسي، فقال: أمي مغتلمة إن لم أقتلك قتلَةً لم يقتل بها أحد، وأمر بتَنُّورٍ فسُجِّر، ثم أمر بابن المقفع فقطعت أطرافه عضواً عضواً، وهو يلقيها في التنور، وهو ينظر، حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق عليه التنور، وقال: ليس عليَّ في المثلة بك حَرَج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس.

كأنه من حسنه عصعصُ

ذكر أبو عبد الله بن حمدون عن الحسين بن الضحاك قال؛ كان يألفني فتىً من أهل الشام عجيب الخلقة والشكل غليظ جلف جاف، فكنت أحتمل ذلك منه وكان حظي التعجب منه، وكان يأتيني بكتبٍ عشيقةٍ له ما رأيت كتباً أحلى منها ولا أظرف ولا أشكل من معانيها، ويسألني أن أجيب عنها فأجهد نفسي في الجوابات وأصرف عنايتي إليها على علمي أن الشامي بجهله لا يميز بين الخطأ والصواب، ولا يفرق بين الابتداء والجواب، فلما طال ذلك عليَّ حسدته وتنبهت على إفساد حاله عندها فسألته عن اسمها فقال: بصبص، فكتبت إليها عنه في جواب كتابٍ منها كان جاءني به:

أرقصني حبك يا بصبصُ ... والحبُّ يا سيدتي يرقصُ
أرمصتُ أجفاني لطول البكا ... فما لأجفانك لا ترْمُص
أوحشني وجهك ذاك الذي ... كأنه من حسنه عصعص

قال: فجاءني بعد ذلك فقال يا أبا علي ما كان ذنبي إليك وما أردت بما صنعت بي؟ فقلت له: وما ذاك عافاك الله؟ فقال: ما هو إلا أن وصل إليها ذلك الكتاب حتى بعثت إليّ: إني مشتاقة إليك والكتاب لا ينوب عن الرؤية، فتعال إلى الروشن الذي بالقرب من بابنا، فقف بحيالِه حتى أراك؛ فتزينت بأحسن ما قدرت عليه وصرت إلى الموضع، فبينا أنا واقف أنتظر مكلماً لي أو مشيراً إليّ وإذا شيء قد صب عليّ فملأني من فرقي إلى قدمي فأفسد ثيابي وسرجي وصيّرني وجميع ما عليَّ ودابتي في نهاية السواد والنتن والقذر، وإذا هو ماءٌ قد خُلط ببولٍ وسواد وسرجين، وانصرفت بخزي وكان ما مرَّ بي من الصبيان وسائر من مررت به من الطنز والضحك والصياح أعظم مما جرى عليّ ولحقني من أهلي ومن منزلي، وشر من ذلك وأعظم من كل ما ذكرت أن رسلها انقطعت عني جملة، قال: فجعلت أعتذر إليه وأقول: إن الآفة أنها لم تفهم الشعر لجودته، وأنا أحمد الله على ما ناله وأُسر بالشماتة به.

❁

٣٠٤

هجاها فكسدت

حدث محمد بن جعفر بن قدامة عن محمد بن عبد الملك قال: كنا في مجلسي ومعنا الحسين بن الضحاك ونحن على شراب وعندنا مغنية فعبث الخليع بالمغنية وجمشها فصاحت بالحسين واستخفت به، فأنشأ الخليع يقول[1]:

لها في خدها عُكَنُ ... وثلثا وجهها ذَقَنُ
وأسنان كريش البطِّ ... بين أُصولها عَفَنُ

قال: فضحكنا وبكت المغنية حتى قلنا إنها عميت وما انتفعنا بها بقية يومنا؛ وشاع هذان البيتان فكسدت من أجلهما، وكانت إذا حضرت في مجلس أنشدوا البيتين فتجن؛ ثم إنها هربت من سر من رأى فما عرفنا لها بعد ذلك خبراً.

٣٠٥

عصاه أدهى وأعجب

كان الحكم بن عبدل الشاعر الأسدي أحدب، أعرج، من شعراء الدولة الأموية وكانت لا تفارقه العصا، فترك الوقوف بأبواب الملوك، وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسوله، فلا يحبس له رسول ولا تؤخّر له حاجة، فقال في ذلك يحيى بن نوفل:

عصا حكم في الدار أول داخل ... ونحن على الأبواب نُقصى ونُحجب
وكانت عصا موسى لفرعون آيةً ... وهذي لعمر الله أدهى وأعجب
تطاع فلا تُقصى ويحذر سخطها ... ويرغب في المرضاة منها ويرهب

قال: فشاعت هذه الأبيات وضحك الناس منها، فكان ابن عبدل بعد ذلك يقول ليحيى: يا ابن الزانية ما أردت من عصاي حتى صيرتها ضحكة، واجتنب أن يكتب عليها كما كان يفعل وكاتب الناس بحوائجه في الرقاع.

---

(١) راجع: ديوانه، ص ٦٩.

٣٠٦

دولة العرجان

قالوا: ولي الشرطة بالكوفة رجل أعرج ثم ولي الإمارة آخر أعرج وخرج ابن عبدل ـ وكان أعرج ـ فلقي سائلاً أعرج قد تعرض للأمير يسأله فقال ابن عبدل للسائل:

ألقِ العصا ودع التحامل والتمس ... عملاً فهذي دولةُ العرجانِ
لأميرنا وأمير شرطتنا معاً ... يا قومنا لكليهما رِجلان
فإذا يكونُ أميرنا ووزيره ... وأنا فإن الرابع الشيطان

٣٠٧

أعطوه إيّاها قبّحه الله

قيل: قدم الحكم بن عبدل واسطاً على ابن هبيرة وكان بخيلاً، فأقبل حتى وقف بين يديه فقال:

أتيتك في أمر من أمر عشيرتي ... أعلى الأمور المفظعات جسيمها
فإن قلت لي في حاجتي أنا فاعلٌ ... فقد ثلجت نفسي وولت همومها

قال: أنا فاعل إن اقتصد فما حاجتك؟ قال: غرم لزمنا، قال: كم هو؟ قال: أربعة آلاف درهم، قال: نحن مناصفوها، قال: أصلح الله الأمير، أتخاف عليّ التخمة إن أتممتها؟ قال: أكره أن أعوّد الناس هذه العادة، قال: فأعطني جميعها سرّاً وامنعني جميعها ظاهراً حتى تعود الناس المنع وإلا فالضرر واقعٌ عليك إن عودتهم نصف ما يطلبون، فضحك ابن هبيرة وقال: ما عندنا غير ما بذلناه لك، فجثا بين يديه، وقال: امرأتي طالق إن أخذت أقل من أربعة آلاف درهم أو انصرفت وأنا غضبان، فقال: اعطوه إياها قبحه الله فإنه ما علمت حلّاف مهين، فأخذها وانصرف.

*

٣٠٨

أبهذا غلبتم؟؟

شخص الحكم بن عبدل مع عمر بن هبيرة إلى واسط فشكا إليه الضيقة فوهب له جارية من جواريه فواثبها ليلةَ صارت إليه فنكحها تسعة أو عشرة طلقاً واحداً، فلما أصبحت قالت له: جُعلت فداك من أي الناس أنت؟ قال: امرؤ من أهل الشام، قالت: بهذا العمل غلبتم أهل العراق في حربكم.

٣٠٩

شقّ وسطيح الكاهنان

كان شقّ الكاهن ابن خالة سطيح الكاهن الذي بشّر بالنبي (ص) وقصته في تأويل الرؤيا مشهورة، وهي مستوفاة في السيرة، وكان شق وسطيح من أعاجيب الدنيا، أما سطيح فكان جَسَداً مُلقى لا جوارح له، وكان وجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عنق، وكان لا يقدر على الجلوس، إلا أنه إذا غضب انتفخ فجلس، وكان شق نصفَ إنسان، ولذلك قيل له شق، أي شق إنسان، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة وفتح عليهما في الكَهانة ما هو مشهور عنهما، وكانت ولادتهما في يوم واحد، وفي ذلك اليوم توفيت طريفة ابنة الخير الحميرية الكاهنة زوجة عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء، ولما ولدا دعت بكل واحد منهما وتَفَلَتْ في فيه، وزعمت أنه سيخلفها في عملها وكهانتها، ثم ماتت من ساعتها ودفنت بالجحفة، وعاش كل واحد من شق وسطيح ستمائة سنة.

٣١٠

لا يصيبه برطبٍ وهريسة غير هذا

حكى أبو الحسن علي بن محمد بن مقلة قال: حدثني أبي عن عمه قال: اجتاز بي خالد الكاتب وأنا على باب داري بسرّ من رأى والصبيانُ حوله يولعون به، فجاء إليّ وسألني صرفهم عنه ففعلت وأدخلته داري فقلت له: ما تشتهي تأكل؟ قال:

هريسة، فتقدمت بإصلاحها له، فلما أكل قلت لـه: أي شيء تحب بعد هـذا؟ قال: رُطَب، فأمرت بإحضاره فأكل، فلما فـرغ من أكله قلت: أنشدني شيئاً من شعرك، فأنشدني قوله:

تناسيت ما أوعيت سمعك يا سمعي ... كأنك بعد الضرِّ خالٍ من النفعِ
أما عند عينيك اللتين هما هما ... لمكتئبٍ يرجوك شيئاً سوى المنع
فإن كنت مطبوعاً على الصدّ والجفا ... فمن أين لي صبر فأجعله طبعي
فإن يكُ أضحى فوق خديك روضةٌ ... فإن على خدي غديراً من الدمع
سل المطر العام الذي عمّ أرضكم ... أجاءَ بمقدار الذي فاض من دمعي

فقلت: زدني، فقال: لا يصيبك بهريسة ورطب غير هذا.

٣١١

أنت الندى وابن الندى وأبو الندى

كان خالد بن عبد الله القسري معدوداً من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، وكان جَوَاداً كثير العطاء، دخل عليه شاعر يوم جلوسه للشعراء وقد مدحه ببيتين، فلما رأى اتساع الشعراء في القول استصغر ما قال، فسكت حتى انصرفوا، فقال له خالد: ما حاجتك؟ فقال: مدحت الأمير ببيتين فلما سمعت قول الشعراء احتقرت بيتيَّ، فقال: ما هما؟ فأنشده:

تبَـرَّعْتَ لي بالجود حتى نَعَشْتَني ... وأعطيتَني حتى حَسِبْتُكَ تلعبُ
فأنت الندَى وابن الندى وأبو الندى ... حليف الندى ما لندى عنك مَذْهبُ

فقال: ما حاجتك؟ فقال: عليَّ دين، فأمر بقضائه وأعطاه مثله.

٣١٢

أعطه يا غلام

ودخل أعرابي على خالد القسري الذي تقدم ذكره، فقال: قد قلت شعراً، وأنشأ يقول:

أخـالـد إني لم أزركَ لحـاجـة ... سـوى أنـي عـافٍ وأنت جـوادُ
أخالد إن الأجر والحمد حاجتي ... فـأيهـما تـأتي وأنـت عـمـادُ

فقال له خالد: سل يا أعرابي؛ قال، وجعلتَ المسألة إليَّ أصلح الله الأمير؟ قال: نعم، قال: مائة ألف درهم، قال: أكثرت يا أعرابي، قال: فأحطك؟ قال: نعم، قال: قد حططتك تسعين ألفاً، قال له خالد: يا أعرابي لا أدري من أيّ أمريك أعجب، فقال: أصلح الله الأمير، أنت جعلت المسألة إليّ فسألتك على قدرك وما تستحقه في نفسك، فلما سألتني أن أحطَّ حططت على قدري وما استأهله في نفسي، فقال له خالد: والله يا أعرابي لا تغلبني؛ يا غلام أعطه مائة ألف درهم، فدفعها إليه.

٣١٣

الكوكب النحس يسقي الأرض أحياناً

كان للخليل بن أحمد مستنبط علم العروض راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان والي فارس والأهواز فكتب إليه يستدعيه، فكتب الخليل جوابه:

أبـلغ سليـمان أنّي عنـه في سَعـة ... وفي غِنى غيرَ أني لستُ ذا مالِ
شُحّاً بنفسيَ أني لا أرى أحداً ... يموت هُزْلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قَدَرٍ لا الضعف يَنقُصُه ... ولا يزيدُك فيه حَوْلُ محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل:

إن الذي شَقَّ فمي صامِنٌ ... للرزق حتى يَتَوَفّاني
حَرَمْتَني خيراً قليلاً فما ... زادك في مالك حرماني

فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه، وأضعف راتبه، فقال الخليل:

وزلَّـةٍ يُكـثر الـشيـطانُ إن ذُكـرت منهـا التعجُّبَ جـاءت من سليـمانـا
لا تـعـجـبـنَّ لخـير زَال عــن يــدهِ فالكوكب النحس يَسقي الأرض أحيانا

٣١٤

داود الطائي المتعبّد

قال حماد بن أبي حنيفة إن مولاة كانت لداود تخدمه قالت: لو طبخْتُ لـك دسماً تـأكله، فقال: وددت، فـطبخت له دسـماً ثم أتته بـه، فقال لهـا: ما فعـل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي بهذا إليهم، فقالت: أنت لم تأكل أدماً منـذ كذا وكذا، فقال: إن هذا إذا أكلوه صـار إلى العرش، وإذا أكلتـه صار إلى الحُشِّ، فقالت له: يا سيدي أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية، بين مَضْغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

وقدم هارون الرشيد الكوفة فكتب قوماً من القراء فأمـر لكل واحـد منهم بألفي درهم فكان داود الطائي ممن كتب فيهم ودعي باسمه أين داود الطائي؟ فقالوا: داود يجيبكم؟ أرسلوا إليه، قال ابن السماك وحماد بن أبي حنيفـة: نحن نذهب إليـه، قال ابن السـماك لحماد في الـطريق: إذا نحن دخلنا عليـه فأنـثرها بـين يديـه فـإن للعـين حظها، فقال حماد: رجل ليس عنده شيء يؤمـر له بـألفي درهم يردهـا!! فلما دخلوا عليه فنثروها بين يديه قال: سوءة، إنما يُفعل هذا بالصبيان، وأبى أن يقبلها.

٣١٥

أبا سليمان! سبحان من لا ينسى لأحدٍ صنيعاً

لما مات أبو سليمان داود الطائي جاء ابن السّماك ووقف على قبره ثم قال:

أيها الناس إن أهـل الزهـد في الدنيـا تعجلوا الراحـة عـلى أبـدانهم مـع يسـير الحسـاب غداً عليهم، وإن أهـل الرغبـة فيها تعجلوا التعب عـلى أبدانهم مـع ثقـل الحسـاب غداً عليهم، والـزهادة راحـة لصاحبهـا في الدنيـا والآخرة، والـرغبة تعب لصاحبها في لدنيا والآخـرة؛ رحمك الله أبـا سليمان مـا كان أعجب شـأنك، ألـزمت نفسك الصبر حتى قـومتها: أجعتهـا وإنما تـريد شبعهـا، وأظمأتهـا وإنما تـريد ريهـا،

أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، أخشنت الملبس وإنما تريد لينه؛ أبا سليمان: أما كنت تشتهي من الطعام طيبه، ومن الماء بارده، ومن اللباس لينه؟ بلى ولكن أخرت ذلك لما بين يديك، فما أراك إلا قد ظفرت بما طلبت وما إليه رغبت، فما أيسر ما صنعت، وأحقر ما فعلت في جنب ما أمّلت، فمن سعى مثلك عزم عزمك وصبر صبرك، آنس ما يكون إذا كنت بالله خالياً وأوحش ما يكون آنس ما يكون الناس. سمعت الحديث وتركت الناس يحدثون وتفهمت في دين الله وتركتهم يفتنون. لا تقبل من السلطان عطية، ولا من الإخوان هدية، سجنت نفسك في بيتك فلا محدث لك، ولا ستر على بابك، فلو رأيت جنازتك وكثرة تابعك علمت أنه قد شرفك وأكرمك وألبسك رداء عملك، فلو لم يرغب عبد في الزهد في الدنيا إلا لمحبة هذا الستر الجميل والتابع الكثير لكان حقيقاً بالاجتهاد، فسبحان من لا يضيع مطيعاً ولا ينسى لأحد صنيعاً.

٣١٦

فائدة الرأس

وقال دعبل: كنا يوماً عند سَهْل بن هارون الكاتب البليغ، وكان شديد البخل، فأطلنا الحديث، واضطره الجوع إلى أن دعا بغَدَائه، فأُتَى بقصعة فيها ديك عاسٍ هرم لا تخرقه سكين ولا يؤثر فيه ضرس، فأخذ كسرة خبز فخاض بها مرقته، وقلَّب جميع ما في القصعة، ففقد الرأس، فبقي مُطرقاً ساعة، ثم رفع رأسه وقال للطباخ: أين الرأس؟ فقال: رميتُ به، قال: ولِمَ؟ قال: ظننت أنك لا تأكله، فقال: لبئس ما ظننت، ويحك والله وإني لأمقت مَنْ يرمي برجليه فكيف من يرمي رأسه، والرأس رئيس، وفيه الحواس الأربع، ومنه يَصِيحُ، ولولا صوته لما فضل، وفيه فرقه الذي يُتبركُ به، وفيه عيناه اللتان يُضرب بهما المثل فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجب لوجع الكليتين، ولم ير عظم قط أهش من عظم رأسه، أوَما علمتَ أنه خير من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق؟ فإن كان قد بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله فانظر أين هو، قال: والله لا أدري أين هو، رميت به، قال: لكني أدري أين هو، رميت به في بطنك فالله حسبك.

وفاء دعلج بن أحمد السجستاني

قال الخطيب: حدثني أبو بكر محمد بن علي بن عبد الله الحداد ـ وكان من أهل الدين والقرآن والصلاح ـ عن شيخ سماه وذهب عني حفظ اسمه قال: حضرت يوم جمعة المسجدَ الجامعَ بمدينة المنصور، فرأيت رجلاً بين يديَّ في الصف حسنَ الوقار ظاهر الخشوع دائم الصلاة، لم يزل يتنقَّلُ مذ دخل المسجد إلى أن قرب قيامُ الصلاة، ثم جلس، قال: فغلبتني هيبته ودخل قلبي محبته، ثم أقيمت الصلاة فلم يُصَلِّ مع الناس الجمعة، فكبر عليّ ذلك من أمره، وتعجبت من حاله، وغاظني فعله، فلما قضيت الصلاة تقدمت إليه وقلت: أيها الرجل، ما رأيت أعجب من أمرك، أطلت النافلة وأحسنتها وتركت الفريضة وضيعتها، فقال: يا هذا إن لي عذراً وبي علة منعتني من الصلاة، قلت: وما هي؟ قال: أنا رجل عليَّ دين اختفيت في منزلي مدة بسببه ثم حضرت اليوم الجامع للصلاة فقبل أن تُقام التفتُّ فرأيت صاحب الدين، فمن خوفه أحدثت في ثيابي، فهذا خبري، فأسألك بالله إلا سترت عليّ وكتمت أمري، فقلت: ومن الذي له عليك الدين؟ قال: دعلج بن أحمد[1]، وكان إلى جانبه صاحب لدعلج قد صلى وهو لا يعرفه، فسمع هذا القول، ومضى في الوقت إلى دعلج فذكر له القصة، فقال له دعلج: امض إلى الرجل واحمله إلى الحمام واطرح عليه خلعة من ثيابي وأجلسه في منزلي حتى أنصرف من الجامع، ففعل الرجل ذلك، فلما انصرف دعلج إلى منزله أمر بالطعام فأحضر وأكل هو والرجل ثم أخرج حسابه فنظر فيه فإذا له عليه خمسة آلاف درهم فقال له: انظر لا يكون عليك في الحساب غلط أو نسي لك نقد، فقال الرجال: لا، فضرب دعلج على حسابه وكتب تحته علامة الوفاء، ثم أحضر الميزان ووزن خمسة آلاف درهم وقال له: أما الحساب الأول فقد حاللناك مما بيننا وبينك فيه وأسألك أن تقبل هذه الخمسة آلاف درهم وتجعلنا في حل من الروعة التي دخلت قلبك برؤيتك إيانا في مسجد الجامع.

---

(١) ترجمة دعلج في «طبقات السبكي»، ٢: ٢٢٢، و«تاريخ بغداد»، ٨: ٣٨٧.

أخبار رابعة العدوية

من وصايا رابعة العدوية: اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم. وقالت لأبيها: يا أبَتِ، لست أجعلك في حلٍ من حرام تطعمينه، فقال لها: أرأيت إن لم أجد إلا حراماً؟ قالت: نصبر في الدنيا على الجوع خير من أن نصبر في الآخرة على النار. وكانت إذا جنَّ عليها الليل قامت إلى سطح لها ثم نادت: إلهي هدأت الأصوات وسكنت الحركات وخلا كل حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك أيها المحبوب، فاجعل خلوتي منك في هذه الليلة عتقي من النار.

ولقي سفيان الثوري رابعة ـ وكانت زرية الحال ـ فقال لها: يا أم عمرو أرى حالاً رثة فلو أتيت جارك فلاناً لغيَّر بعض ما أرى، فقالت له: يا سفيان وما ترى من سوء حالي؟ ألستُ على الإسلام فهو العز الذي لا ذل معه والغنى الذي لا فقر معه والأنس الذي لا وحشة معه؛ والله لأستحي أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها فكيف أسألها من لا يملكها؟ فقام سفيان وهو يقول: ما سمعت مثل هذا الكلام. وقالت رابعة لسفيان: إنما أنت أيام معدودة فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكلّ وأنت تعلم فاعمل.

كان أبو سليمان الهاشمي له بالبصرة كل يوم غلة ثمانين ألف درهم، فبعث إلى علماء البصرة يستشيرهم في امرأة يتزوجها فأجمعوا على رابعة العدوية فكتب إليها: أما بعد فإن ملكي من غلة الدنيا في كل يوم ثمانون ألف درهم وليس يمضي إلا قليل حتى أتمها مائة ألف إن شاء الله، وأنا أخطبك نفسك، وقد بذلت لك من الصداق مائة ألف وأنا مصيرٌ إليكِ من بعد أمثالها، فأجيبيني، فكتبت إليه: أما بعد فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فإذا أتاك كتابي فهيء زادك وقدم لمعادك، وكن وصيّ نفسك ولا تجعل وصيتك إلى غيرك، وصمْ دهرك واجعل الموت فطركَ، فما يسرُّني أن الله خولني أضعاف ما خولك فيشغلني بك عنه طرفة عين والسلام.

*

أخبار ربيعة الرأي

أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فرّوخ

قال عبد الوهاب بن عطاء الخفاف: حدثني مشايع أهل المدينة أن فرّوخاً أبا عبد الرحمن بن ربيعة خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية غازياً وربيعة حمل في بطن أمه، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً وفي يده رمح، فنزل ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة، وقال: يا عدو الله، أتهجم على منزلي؟ فقال فروخ: يا عدو الله، أنت دخلت على حَرَمي، فتواثبا وتلبب كل واحد منهما بصاحبه حتى اجتمع الجيران، فبلغ مالك بن أنس والمشيخة فأتوا يعينون ربيعة، فجعل ربيعة يقول: والله لا فارقتك إلا عند السلطان، وجعل فرّوخ يقول: والله لا فارقتك إلا بالسلطان وأنت مع امرأتي؛ وكثر الضجيج، فلما أبصروا بمالك سكتوا، فقال مالك: أيها الشيخ، لك سَعَة في غير هذه الدار، فقال الشيخ: هي داري وأنا فروخ، فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت: هذا زوجي، وهذا ابني الذي خلفه وأنا حامل به، فاعتنقا جميعاً وبكيا. فدخل فروخ المنزل وقال: هذا ابني؟ فقالت: نعم، قال: أخرجي المال الذي لي عندك وهذه معي أربعة آلاف دينار، قالت: قد دفنته وأنا أُخرجه بعد أيام، ثم خرج ربيعة إلى المسجد وجلس في حلقته، فأتاه مالك بن زيد وابن أبي علي اللهيبي والمساحقي وأشراف أهل المدينة وأَحْدَقَ الناسُ به، فقالت امرأته لزوجها فروخ: اخرج فصلِّ في مسجد رسول الله (ص)، فخرج فنظر إلى حلقة وافرة فأتاها فوقف عليها فأفرجوا له قليلاً فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره، وعليه دنية طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: مَنْ هذا الرجل؟ فقالوا: هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فقال: فقد رفع الله ابني، ورجع إلى منزله، وقال لوالدته: لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحداً من أهل العالم والفقه عليها، فقالت أمه: فأيما أحب إليك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟ فقال: لا والله بل هذا، فقالت: فإني أنفقت المال كله عليه، قال: فوالله ما ضيعته.

وقال مالك بن أنس: ذهبت حلاة الفقه مذ مات ربيعة الرأي.

كلّهم على حقّ فيما أفتى به

حكى المعافى بن زكريا في كتاب «الجليس والأنيس» عن عبد الرحمن بن مغراء قال: جاء رجل إلى أبي حنيفة فقال: إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري أطلَّقتُ امرأتي أم لا، قال: المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك طلقتها. ثم أتى سفيان الثوري فقال: يا أبا عبد الله إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: اذهب فراجعها فإن كنت طلقتها فقد راجعتها، وإن لم تكن طلقتها فلم تضرك المراجعة شيئاً. ثم أتى شريك بن عبد الله فقال: يا أبا عبد الله إني شربت البارحة نبيذاً، ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: اذهب فطلقها ثم راجعها. ثم أتى زفر بن الهذيل فقال: يا أبا الهذيل إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: هل سألت غيري؟ قال: أبا حنيفة. قال: فما قال لك؟ قال: قال: المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك قد طلقتها، قال: هو الصواب، قال: فهل سألت غيره؟ قال: سفيان الثوري، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فراجعها فإن كنت طلقتها فقد راجعتها، وإن لم تكن طلقتها فلم تضرك المراجعة شيئاً، قال: ما أحسن ما قال لك، فهل سألت غيره؟ قال: شريك بن عبد الله، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فطلقها ثم راجعها، قال: فضحك زفر وقال: لأضربن لك مثلاً، رجل مرَّ بمثعب سيل فأصاب ثوبه، قال لك أبو حنيفة: ثوبك طاهر وصلاتك مجزئة حتى تستيقن أمر الماء، وقال لك سفيان: اغسله فإن يك نجساً فقط طهر، وإن يك طاهراً زاده نظافة، وقال لك شريك: اذهب فبُل عليه ثم اغسله. قال المعافى: وقد أحسن زفر في فصله بين هؤلاء الثلاثة فيما أفتوا به في هذه المسألة، وفيما ضربه لسائله من الأمثلة.

فأما قول أبي حنيفة فهو محض النظر وأمر الحق ولا يجوز أن يحكم على امرىء في زوجته بطلاقها بعد صحة زوجيتها بظن عرض له وهو أبعد عند ذوي الأفهام من أضغاث الأحلام، وأما قول سفيان الثوري فإنه أشار بالاستظهار والتوثقة والأخذ بالحزم والحيطة وهذه طريقة أهل الورع وذوي الاستقصاء والمشفقين على نفوسهم من أهل الدين، وفتيا أبي حنيفة في هذا عين الحق وجل الفقه، وأي هاتين المحجتين

سلك من نزلت به هذه النازلة وعرضت له هذه الحادثة فهو مصيب محسن على ما بيّنّا إليهما من الفصل بين المنزلتين، وأما ما أفتى به شريك فتعجُّب زفر منه واقع في موضعه ولا وجه في الصحة لما أشار به. وقد أصاب زفر أيضاً في الوجه الذي ضربه له وأرى شريكاً توهم أن الرجعة لا تحقق إلا مع تحقق الطلاق فأمر باستئناف تطليقة لتصح الرجعة بعدها وهذا مختل فاسد ولو كان كما يرى أنه توهمه لما أثرت الرجعة إلا في التطليقة التي أوقعها وتيقنها دون التي أشفق من تقدمها وهو على غير يقين منها، ولو أن رجلاً وكل رجلاً في طلاق زوجته ثم غاب الوكيل فأشفق من تطليقه إياها عليه فأشهد على رجعتها وهو غير عالم بوقوعها ثم تبين أنها وقعت قبل مراجعته لصحت رجعته، وكذلك لو كتب إلى زوجته بطلاقها إذا وصل إليها كتابه ثم أشهد على الرجعة بعد الوصول وقبل انقضاء العدة لكانت المراجعة صحيحة لوقتها بعد الطلاق الذي لم يكن عالماً به.

٣٢١

بشّار وسالم

كان سالم الخاسر ماجناً يتظاهر بالخلاعة والفسق، قدم بغداد ومدح المهدي والهادي والبرامكة، وكان من الشعراء المجيدين من تلامذة بشار بن برد. سميّ الخاسر لكونه باع مصحفاً واشترى بثمنه طنبوراً.

اشتهر شعره حتى صار يقول أرقّ من شعر بشّار. وكان بشّار قد قال:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطّيبات الفاتك اللّهجُ

وقال سالم:

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذّة الجسور

فغضب بشار وقال: ذهب والله بيتي، يأخذ المعاني التي تعبت فيها فيكسوها ألفاظاً أخفّ من ألفاظي، لا أرضى عنه، فما زالوا يسألونه حتى رضي عنه.

وقال أبو معاذ النميري: رأيت بشاراً لما قال هذا البيت وهو يلهج به كثيراً:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته. . . البيت

قلت: يا أبا معاذ، قد قال سالم الخاسر بيتاً في هذا المعنى هو أخف من هذا، وأنشدته:

من راقب الناس مات غمّاً

قال: ذهب والله بيتي، والله لا أكلت اليوم شيئاً ولا صمت.

وكانت وفاة سالم المذكور سنة ست وثمانين ومائة.

٣٢٢

كان كأنه قابضٌ على الجمر

قالت مريم، امرأة أبي عثمان سعيد بن اسماعيل الحيري: كنّا نؤخّر اللّعب والضحك والحديث إلى أن يدخل أبو عثمان في ورده من الصلاة، فإنه إذا دخل ستر الخلوة لم يحس بشيء من الحديث وغيره. وقالت: صادفت من أبي عثمان خلوة فاغتنمتها، وقلت: يا أبا عثمان، أي عملك أرجى عندك؟ قال: يا مريم، لما ترعرعت وأنا بالري وكانوا يراودونني على التزوج فأمتنع جاءتني امرأة فقالت؛ يا أبا عثمان، قد أحببتك حبّاً ذهب بنومي وقراري، وأنا أسألك بمقلب القلوب أن تتزوج بي، فقلت: ألكِ والد؟ قالت: نعم، فلان الخياط في موضع كذا، فراسلته، فأجاب، فتزوجت بها، فلما دخلت وجدتها عوراء عرجاء سيئة الخلق، فقلت: اللهم لك الحمد على ما قدّرته لي، وكان أهل بيتي يلومونني على ذلك، فأزيدها برّاً وإكراماً، إلى أن صارت لا تدعني أخرج من عندها، فتركت حضور المجلس إيثاراً لرضاها وحفظاً لقلبها، وبقيت معها على هذه الحالة خمس عشرة سنة، وكنت معها في بعض أوقاتي كأني قابض على الجمر ولا أبدي لها شيئاً من ذلك، إلى أن ماتت، فما شيء عندي أرجى من حفظي عليها ما كان في قلبها من جهتي.

*

سعيد بن جُبير

وروى محمد بن حبيب أن سعيد بن جبير كان بأصبهان يسألونه عن الحديث فلا يحدّث، فلما رجع إلى الكوفة حدّث، فقيل له: يا أبا محمد، كنت بأصبهان لا تحدّث وأنت بالكوفة تحدّث، فقال: انشر بَزَّكَ حيث يُعرَفُ.

وقال خصيف: كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيّب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير.

وكان مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس لما خرج على عبد الملك بن مروان، فلما قُتل عبد الرحمن وانهزم أصحابه من دير الجماجم هرب فلحق بمكة، وكان واليها يومئذ خالد بن عبد الله القَسْري، فأخذه وبعث به إلى الحجاج بن يوسف الثقفي مع إسماعيل بن أوسط البجلي، فقال له الحجاج:

يا شَقي بن كُسير، أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عربي فجعلتك إماماً؟ فقال: بلى، قال: أما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا: لا يصلح للقضاء إلا عربي فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك؟ قال: بلى، قال: أما جعلتك في سُمّاري وكلهم رؤوس العرب؟ قال: بلى، قال: أما أعطيتك مائة ألف درهم تفرقها على أهل الحاجة في أول ما رأيتك ثم لم أسألك عن شيء منها؟ قال: بلى، قال: فما أخرجك علي؟ قال: بيعة كانت في عنقي لابن الأشعث، فغضب الحجاج ثم قال: أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عنقك من قبل؟ والله لأقتلنك، يا حَرَسيُّ اضرب عنقه، فضرب عنقه، وذلك في شعبان سنة خمس وتسعين، وقيل سنة أربع وتسعين للهجرة، بواسط، ودفن في ظاهرها وقبره يزار بها، وله تسع وأربعون سنة.

وقال أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد بن جُبَير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى عمله. ثم مات الحجاج بعده في شهر رمضان من السنة، وقيل بل مات بعده بستة أشهر، ولم يسلطه الله تعالى بعده على قتل أحد حتى مات. ولما قتله سال منه دم كثير، فاستدعى الحجاج الأطباء وسألهم عنه وعمن كان قتله قبله، فإنه

كان يسيل منهم دم قليل، فقالوا له: هذا قتلته ونفسُه معه والدم تبع للنفس، ومَن كنت تقتله قبله كانت نفسه تذهب من الخوف، فلذلك قلّ دمهم.

وقيل للحسن البصري: إن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير، فقال: اللهم ايت على فاسق ثقيف، والله لو أن مَنْ بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله لكَبَّهم الله عز وجل في النار.

ويقال إن الحجاج لما حضرته الوفاة كان يغوص ثم يُفيق ويقول: ما لي ولسعيد بن جبير؟ وقيل إنه في مدة مرضه كان إذا نام رأى سعيد بن جبير آخذاً بمجامع ثوبه يقول له: يا عدوّ الله، فيم قتلتني؟ فيستيقظ مذعوراً ويقول: مالي ولسعيد بن جبير؟ ويقال: إنه رُئي الحجاج في النوم بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتيل قتلتُه قَتلةً، وقتلني بسعيد ابن جبير سبعين قتلةً.

٣٢٤

أخبار سفيان الثوري

هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، كان إماماً في علم الحديث وغيره من العلوم.

قال سفيان بن عُيينة: ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري. وقال عبد الله بن المبارك: لا نعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان الثوريّ. ويقال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمانه رأسَ الناس، وبعده عبد الله بن عباس، وبعده الشعبي، وبعده سفيان الثوري.

وحدث أبو بكر ابن عياش قال: كنت أنا وسفيان الثوري نمشي فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية حسن السمات، فقال له سفيان: يا شيخ أعندك شيء من الحديث؟ قال: لا، ولكن عندي عتيق سنين، فنظرنا فإذا هو خمّار.

وجاء سفيان الثوري إلى صيرفي بمكة يشتري منه دراهم بدينار، فأعطاه الدينار، وكان معه آخر فسقط من سفيان، فطلبه فإذا إلى جانبه دينار آخر، فقال له الصيرفي: خذ دينارك، قال: ما أعرفه، قال: خذ الناقص، قال؛ فلعله الزائد، وتركه ومضى.

أخبار الأعمش

هو أبو محمد سليمان بن مهران مولى بني كاهل من ولد أسد المعروف بالأعمش الكوفي الإمام المشهور.

جرى بينه وبين زوجته كلام، وكان يأتيه رجل يقال له أبو ليلى مكفوف فصيح يتكلم بالإعراب يتطلّب الحديث منه، فقال: يا أبا ليلى، امرأتي نشزت علي وأنا أحب أن تدخل عليها فتخبرها مكاني من الناس وموضعي عندهم، فدخل عليها وكانت من أجمل أهل الكوفة فقال: يا هنتاه إن الله قد أحسن قسمك، هذا شيخنا وسيدنا وعنه نأخذ أصل ديننا وحلالنا وحرامنا فلا يغرنك عموشة عينيه ولا حموشة ساقيه، فغضب الأعمش وقال: يا أعمى يا خبيث، أعمى الله قلبك كما أعمى عينيك، قد أخبرتها بعيوبي كلها؛ اخرج من بيتي.

وأراد إبراهيم النخعي أن يماشيه فقال الأعمش: إن الناس إذا رأونا معاً قالوا: أعور وأعمش، قال النخعي: وما عليك أن نؤجر ويأثموا؟ فقال له الأعمش: وما عليك أن يسلموا ونسلم؟

وجاء رجل يطلبه في منزله ووصل وقد خرج مع امرأته إلى المسجد فجاء فوجدهما في الطريق فقال: الأعمش: هذه، وأشار إلى المرأة.

ودخل الحمام يوماً وجاء رجل حاسر، فقال له الرجل: متى ذهب بصرك؟ فقال: مذ بدت عورتك.

قال محمد بن حميد، حدثنا جرير قال: جئنا الأعمش يوماً فوجدناه قاعداً في ناحية فجلسنا في ناحية أخرى وفي الموضع خليج من ماء المطر، فجاء الأعمشَ رجلٌ عليه سواد، فلما بصر بالأعمش وعليه فروة حقيرة قال: قم فأعبرني هذا الخليج، وجذب يده وأقامه وركبه وقال: ﴿سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ (الزخرف: ١٣) فمضى به الأعمش حتى توسط به الخليج فرمى به وقال: ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ (المؤمنون: ٢٩) ثم خرج وترك الأسود يخبط في الماء.

وكان الأعمش إذا رأى ثقيلاً قال: كم غرضك تقيم في هذه البلدة؟.

وكان لطيف الخلق مَزّاحاً، جاءه أصحاب الحديث يوماً ليسمعوا عليه، فخرج إليهم، وقال: لولا أن في منزلي مَنْ هو أبغض إليَّ منكم ما خرجت إليكم.

وقال له داود بن عمر الحائك: ما تقول في الصلاة خلف الحائك؟ فقال: لا بأس بها على غير وضوء، فقال: ما تقول في شهادة الحائك؟ فقال: تُقبل مع عَدْلين. ويقال إن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه عاده يوماً في مرضه، فطوّل القعود عنده، فلما عزم على القيام قال له: ما كأني إلا ثقلت عليك، فقال: والله إنك لتثقل عليَّ وأنت في بيتك. وعاده أيضاً جماعة فأطالوا الجلوس عنده فضجر منهم، فأخذ وسادته وقام وقال: شفى الله مريضكم بالعافية؛ وقيل عنده يوماً: قال (ص): «من نام عن قيام الليل بال الشيطان في أُذنه» فقال: ما عمشت عيني إلا من بول الشيطان في أُذني. وكانت له نوادر كثيرة.

٣٢٦

قضاها مع الإمكان

كان أبو داود سليمان الأزدي السجستاني؛ أحد حفاظ الحديث وعلمه وعلله، وكان في الدرجة العالية من النسك والصلاح، طوّف البلاد وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزريين، وجمع كتاب «السنن» قديماً وعرضه على الإمام أحمد بن حنبل، فاستجاده واستحصنه.

وكان يقول: كتبت عن رسول الله (ص) خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب ـ يعني «السّنن» ـ جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ذكرتُ الصحيح وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: أحدها قوله (ص): «إنما الأعمال بالنيات» والثاني قوله: «من حسن إسلام المرء تَرْكه ما لا يعنيه» والثالث قوله «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه» والرابع قوله «الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبين ذلك أمور مشتبهات» الحديث بكماله.

وجاءه سهل بن عبد الله التُّسترَي فقيل له: يا أبا داود، هذا سهل بن عبد الله قد جاءك زائراً، قال: فرحَّبَ به وأجلَسَه، فقال: يا أبا داود لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال؛ حتى تقول قضيتُها مع الإمكان، قال: قد قضيتها مع الإمكان،

قال: أخرج لي لسانك الذي حدثت به عن رسول الله (ص) حتى أقبِّله، قال: فأخرج له لسانه فقبَّله.

٣٢٧

لو سئل الكسائي لأجاب

قال محمد بن الحسن الأزدي: حدّثنا أبو حاتم السجستاني قال: وفد علينا عامل من أهل الكوفة ولم أر في عمال السلطان أبرع منه، فدخلت عليه مسلّماً فقال لي: يا سجستاني، من علماؤكم بالبصرة؟ قلت: الزيادي أعلمنا بعلم الأصمعي، والمازني أعلمنا بالنحو، وهلال الرأي أفقهنا، والشاذكوني من أعلمنا بالحديث، وأنا - رحمك الله - أنسب إلى علم القرآن، وابن الكلبي من أكتبنا للشروط. قال؛ فقال لكاتبه: إذا كان غداً فاجمعهم إليّ، قال: هل يجزي في كفارة الطهارة عتق عبد أعور؟ قال المازني: لست صاحب فقه، أنا صاحب عربية، قال: يا زياديّ، كيف يكتب بين بعل وامرأة خالعها على الثلث من صداقها؟ قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم هلال الرأي، قال: يا هلال، كم أسند ابن عون عن الحسن؟ قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم الشاذكوني، قال: يا شاذكوني، من قرأ ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ (هود: ٥) قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم أبي حاتم، قال: يا أبا حاتم، كيف تكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين تصف خصاصة أهل البصرة وما أصابهم بي وتسأله النظر بالبصرة؟ قلت: لست صاحب براعة وكتابة، أنا صاحب قرآن؛ قال: ما أقبح بالرجل يتعاطى العلم خمسين سنة لا يعرف إلا فنّاً واحداً حتى إذا سئل عن غيره لم يحلِ يه ولم يُمِرّ، لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا كله لأجاب.

٣٢٨

القاضي شريح المزّاح

كان القاضي شريح مَزّاحاً، دخل عليه عَدِيّ بن أرْطأة فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ فقال: بينك وبين الحائط، قال: استمع مني، قال: قل أسمع،

قال: إني رجل من أهل الشام، قال: مكان سَحيق، قال: تزوجت عندكم، قال: بالرفاء والبنين، قال: وأردت أن أرحلها، قال: الرجل أحق بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط أملك، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من حكمت؟ قال: على ابن أمك، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وكان أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل ورصانة، قال ابن عبد البر: وكان شاعراً محسناً، وهو أحد السادات الطُّلْس، وهم أربعة: عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عبادة، والأحنف بن قيس الذي يُضرب به المثل في الحلم، والقاضي شُرَيْح المذكور. والأطلس: الذي لا شَعْر في وجهه.

* وعن الشعبي قال: شهدت شريحاً وجاءته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها فبكت، فقلت أنا: ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة، فقال: يا شعبي ان إخوة يوسف عليه السلام جاءوا أباهم عشاء يبكون.

٣٢٩

القاضي شريك النخعي

واجتمع شريك النخعي ويحيى بن عبد الله بن الحسن البصري في دار الرشيد، فقال يحيى لشريك: ما تقول في النبيذ؟ قال: حلال، قال: شربه خير أم تركه؟ قال: بل شربه، قال: قليله خير أم كثيره؟ قال: بل قليله؛ قال يحيى: ما رأيت خيراً قط إلا والازدياد منه خير إلا خيرك هذا، فإن قليله خير من كثيره.

٣٣٠

بعض طرائف أشعب

قيل لأشعب: طلبت العلم وجالست الناس فلو جلست لنا لسمعنا منك، فقال: نعم، فجلس لهم فقالوا: حدثنا، فقال: سمعت عكرمة يقول سمعت ابن عباس يقول سمعت رسول الله (ص) يقول: خلتان لا تجتمعان في مؤمن، ثم

سكت فقالوا: ما الخلتان[1]؟ فقال: نسي عكرمة واحدة ونسيت أنا الأخرى.

* وقدم على يزيد بن حاتم مصر فجلس في مجلسه من الناس، فدعا يزيد بعض غلمانه وأسرّ له بشيء، فقام أشعب فقبّل يده، فقال له: ولِمَ فعلت هذا؟ قال: رأيتك أسررتَ إلى غلامك بشيء فعلمت أنك قد أمرت لي بصلة، فضحك منه وقال: ما فعلت ولكني أفعل، وأمر له بصلة.

وحكى المدائني عن جهم بن خلف قال: حدثني رجل قال: قلت لأشعب: لو تحدثت عندي العشية، قال: أكره أن يجيء ثقيل، قلت: ليس غيرك وغيري، قال: فإذا صليت الظهر فأنا عندك، فصلى وجاء، فلما وضعت الجارية الطعام إذا صديق لي يدق الباب، قال: ألا ترى؟ قد صرت إلى ما أكره، قلت: ان لك عندي فيه عشر خصال، قال: فما هي؟ قلت: أولها أنه لا يأكل مع ضيف، قال: التسع خصال لك، أدخلْهُ.

٣٣١

صاعد البغدادي اللّغوي وبشّار

لما دخل صاعد البغدادي مدينة دانِيَةَ وحضر مجلس الموفق مجاهد بن عبد الله العامري أمير البلد كان في المجلس أديب يقال له بشار، فقال للموفق مجاهد: دعني أعبث بصاعد، فقال له مجاهد: لا تتعرض إليه فإنه سريع الجواب، فأبى إلا مشاكلته، فقال له بشار، وكان أعمى: يا أبا العلاء، فقال: لبَّيك، فقال: ما الـجَرَنْفُلُ في كلام العرب؟ فعرف أبو العلاء أنه قد وضع هذه الكلمة وليس لها أصل في اللغة، فقال له بعد أن أطرق ساعة: هو الذي يفعل بنساء العميان ولا يفعل بغيرهن، ولا يكون الجرنفل جرنفلاً حتى لا يتعداهن إلى غيرهم، وهو في ذلك كله يصرح ولا يكني، قال: فخجل بشار وانكسر، وضحك مَنْ كان حاضراً، فقال له الموفق: قلتُ لك لا تفعل فلم تقبل.

---

(١) الخلتان: مثنى خلة، وهي الصفة والعادة.

٣٣٢

ذعرتم الفتى؟!

سئل الأحنف بن قيس عن الحلم ما هو فقال: هو الذل مع الصبر. وكان يقول إذا عجب الناس من حلمه: إني لأجد ما تجدون، ولكني صبور. وكان يقول: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال. وكان يقول: ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقري، لأنه قَتَلَ ابنُ أخ له بعضَ بنيه فأُتي بالقاتل مكتوفاً يقاد إليه، فقال: ذَعَرتم الفتى، ثم أقبل على الفتى فقال: يا بني، بئس ما صنعت: نقصت عددك وأوهنت عضدك وأشمتَّ عدوَّك وأسأت بقومك؛ خلوا سبيله، واحملوا إلى أم المقتول ديته فإنها غريبة. ثم انصرف القاتل وما حل قيس حبوته ولا تغير وَجْهُه.

٣٣٣

طاوس بن كيسان والمرأة الماجنة

قالت امرأة ماجنة: ما بقي أحد إلا فتنته ما خلا طاوس فإني تعرضت له فقال: إذا كان وقت كذا فتعالي، فجئت ذلك الوقت فذهب بي إلى المسجد الحرام فقال: اضطجعي، فقلت: ها هنا؟ فقال: الذي يرانا هنا يرانا ثَمَّ.

٣٣٤

أبو الأسود الدؤلي واضع علم النّحو

قيل إنّ أبا الأسود الدؤلي كان يعلِّم أولاد زياد بن أبيه وهو والي العراقين يومئذ، فجاءه يوماً وقال له: أصلح الله الأمير، إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وتغيرت ألسنتهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون أو يقيمون به كلامهم؟ قال: لا، قال: فجاء رجل إلى زياد وقال: أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنونَ، فقال زياد: توفي أبانا وترك بنون!! ادعوا لي أبا الأسود، فلما حضر قال: ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم.

وقيل: إنه دخل بيته يوماً فقال له بعض بناته: يا أبتِ، ما أَحسَنُ السماءِ،

فقال: يا بنية نجومُها، فقالت: إني لم أرد أي شيء منها أحسن، إنما تعجبت من حسنها، فقال: إذن فقولي ما أَحسَنَ السماءَ، وحينئذ وضع النحو.

٣٣٥

حِلمُ معن بن زائدة

دخل أعرابي يوماً بلا استئذان على معن بن زائدة أيام إمارته وابتدره بقوله:

أتذكر إذ لحافك جلد شاةٍ   وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال معن: نعم أذكر ذلك ولا أنساه.

فقال الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً   وعلَّمك الجلوس على السرير

قال: سبحانه على كل حال. فقال:

فلست مسلّماً إن عشت دهراً   على معنٍ بتسليم الأمير

قال: السلام سنة تأتي بها كيف شئت، فقال:

أمير يأكل الفالوذ سراً   ويطعم ضيفه خبز الشعير

قال: الزاد زادنا نأكل ما نشاء ونطعم ما نشاء. فقال:

سأرحل عن بلادٍ أنت فيها   ولو جار الزمان على الفقير

قال: إن جاورتنا فمرحباً بك، وإن رحلتَ عنّا فمصحوب بالسلامة. فقال:

فَجُدْ لي يا ابن ناقصةٍ بشيءٍ   فإنّي قد عزمت على المسير

قال: أعطوه ألف درهم. فقال:

قليل ما أتيت به وإنّي   لأطمعُ منك بالمال الكثير

قال: أعطوه ألفاً آخر.

فتقدم الأعرابي يقبّل الأرض بين يديه وقال: ما جئتك والله أيها الأمير إلاّ مختبراً

حِلمك لما اشتهر عنك، فألفيت فيك من الحلم ما لو قُسّم على أهل الأرض لكفاهم جميعاً.

سألتُ الله أن يبقيك ذخراً   فما لك في البريّة من نظير

قال معن: أعطيناه على هجونا أُلفين فأعطوه على مديحنا أربعة.

٣٣٦

الحجاج والشيخ

حُكي ان الحجاج خرج في بعض الأيام للتنزّه، فصرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه، فلقي شيخاً من بني عجل، فقال له: من أين أنت يا شيخ؟

قال: من هذه القرية.

قال: ما رأيك بحكام البلاد؟

قال: كلّهم أشرار يظلمون الناس ويختلسون أموالهم.

قال: وما قولك في الحجاج؟

قال: هذا أنجسهم، سوّد الله وجهه ووجه من استعمله على هذه البلاد.

فقال الحجاج: أتعرف من أنا؟

قال: لا والله!

قال: أنا الحجاج.

قال: أنا فداك، وأنت أتعرف من أنا؟

قال: لا.

قال: أنا زيد بن عامر مجنون بني عجل أُصْرَعُ في كل يوم مرّة في مثل هذه الساعة.

فضحك الحجاج وأحسن إليه.

*

٣٣٧

ربابة ربّة البيتِ

قال أحدهم لبشار بن برد: إنك لتجيء في شعرك بالشيء الهجين المتفاوت. فبينما تقول شعراً تثير به النقع، وتخلع القلوب كقولك:

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً   هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدّما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلةٍ   ذُرى منبرٍ صلّى علينا وسلّما

نراك تقول:

ربابةُ ربّةُ البيتِ   تصبُّ الخلَّ في الزّيتِ
لها عشر دجاجاتٍ   وديكٌ حسنُ الصّوتِ

فضحك بشار وقال:

لكل وجه موضع. فالقول الأول جِدٌّ، والثاني قلته في رباب جاريتي، وهو عندها خيرٌ من «قفا نبكِ» عندك.

٣٣٨

إن شاء الله

سئل أحد الظرفاء إلى أين؟

قال: إلى السوق لأشتري حماراً.

فقيل له: قُلْ إن شاء الله.

قال: وما وجه الاستثناء؟ الدراهم في جيبي والحمير في السوق؟

فلما ذهب سُرقت منه الدراهم، فعاد حزيناً، فقيل له: ماذا فعلت؟

قال: سرقت الدراهم إن شاء الله.

٣٣٩

أشعر الناس

قال رجل لجرير: من أشعر الناس؟

فقال: قم لأعرّفك الجواب. فأخذ بيده إلى رجل اعتقل عنزةً بين رجليه وجعل يمصُّ ضرعها. فصاح به جرير، فرفع رأسه، فإذا هو شيخ دميم السحنة، رثّ الهيئة، وقد سال لبن العنزة على لحيته، فقال جرير لصاحبه: أتعرف من هذا؟

قال: لا.

قال: هذا أبي، واسمع عطيّة. وهل تدري لماذا يمصُّ ضرع العنزة؟

قال: لا.

قال: بخلاً وخِسّةً، فإنه يخاف أن يُسمع صوت الحلب فَيُطلب منه لبن.

ثم قال: أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم ففلّهم جميعاً.

٣٤٠

الحجاج وهند

أمر الحجاج ابن القِريّة الشاعر بأن يأتي هنداً بنت أسماء فيطلّقها بكلمتين، ويمتّعها بعشرة آلاف درهم، فأتاها، فقال لها: إن الحجاج يقول لك: كنتِ فبِنْتِ وهذه عشرة آلاف متعةً لك.

فقالت: قل له كنا فما حمدنا، وبنّا فما ندمنا، وهذه الآلاف العشرة لك ببشارتك إياي بطلاقي.

٣٤١

كن ابن مَنْ شئت

قال أحدهم: كنت عند رئيس الشُرَط في صباح أحد الأيام فجيء إليه بثلاثة شبان قُبض عليهم يغنّون ويضجون في ساعة متأخرة من الليل. فسأل الأول من

أنت؟ فقال:

أنا ابن الذي لا تنزل الدهرَ قِدْرُهُ ... وإنْ نزلت يوماً فسوف تعودُ
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء نارهِ ... فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ

فقال رئيس الشرط في نفسه: قد يكون ابن أحد أسخياء العرب، فخلّى سبيله وسأل الثاني فقال:

أنا ابن الذي خاض الصفوف بعزمه ... وقوّمها بالسيف حتى استقلّتِ
ركاباهُ لا تنفكُ رجلاه منهما ... إذا الخيلُ في يوم الكريهة ولّتِ

فقال رئيس الشرط في نفسه: ربما كان أحد أبطال العرب فخلّى سبيله، وسأل الثالث فقال:

أنا ابن من دانت الرقابُ له ... من بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرّغم وهي صاغرةٌ ... فيأخذ من مالها ومن دمها

فقال رئيس الشرط في نفسه: لا شك في أنه أحد أشراف العرب فخلّى سبيله.

ولما انصرف الشبّان وكنت أعرفهم، قلت: أتعرف مَنْ هؤلاء؟

قال: لا.

قلت: الأول ابن فوّال لا تنزل الدهر قدره.

والثاني ابن حيّاكٍ رجلاه في ركاب نوله.

والثالث ابن حجّام يأخذ من دم الناس ومن مالهم.

فضحك رئيس الشرط وقال: إن لم يكن إلاّ على أدبهم فقد استحقّوا.

٣٤٢

الشفيع إلى معن

أراد أحد الشعراء الدخول على معن بن زائدة وهو في أحد البساتين، فحيل دونه وطال انتظاره فلم يتهيّأ له ما يريد.

واتّفق أن الماء كان يدخل البستان في قناةٍ تمرّ تحت سُورة، فكتب الرجل هذا

البيت من الشّعر على خشبة وألقاها في الماء فحملها إلى داخل البستان:

أيـا جُود معنٍ نـاجِ معنـاً بحـاجتي   فـما لي إلى مـعـنٍ سـواك شـفـيـعُ

وصادف أن كان معه جالساً قرب الماء، فشاهـد الخشبة وقـرأ ما عليهـا، فقال: من صاحب هذه؟

فدعي الرجل، فقال له: ماذا كتبت؟

فأنشده البيت.

فقال له: بورك بك وبشفيعك. وأمر بألف درهم فحملها وانصرف.

٣٤٣

لا تنسَ الكامخ

قُدّم الكامخ لأعرابي فلم يستطبه فقال: ما هذا؟

قالوا: كامخ.

قال: ومن أيّ شيء صُنع؟

قالوا: من الحنطة واللبن.

قال: أبوان كريمان ومن أنجبا.

ودخل المسجد والإمام في الصلاة يقرأ «حُرّمت عليكم الميتة ولحم الخنزير» فقال له الأعرابي: والكامخ لا تنسهُ، أصلحك الله.

٣٤٤

خشونة البادية

نزل بدوي على قوم في ضواحي الشام فأكرموه ولما أزمـع على السفـر وقف يمدح أميرهم فقال:

أنـت كـالـدلـو لا عـدمنـاك دلـواً   مـن كثـير الـعـطا قـليـل الـذنـوبِ
أنت كـالكلب في الحفـاظ عـلى الـودّ   وكـالـتـيس في قِـراع الحـروبِ

فهمَّ أصحاب الأمير بقتله. فقال لهم: خلُّوا عنه. لقد والله مدحني بخير ما وصل إليه علمه، إنه لا يعرف أوفر من الدلو عطاءً وأقلّ ذنباً، ولا آمن من الكلب وأصفى ولاءً ولا أمثل من التيس في الرئاسة، ولا أقوى شكيمة فشبهني بأفضل ما يعرف، فلا لوم عليه ولا تثريب[1] أقيموه بيننا فلا نعدم منه شاعراً مجيداً.

وأقام بينهم ردحاً من الدهر فتخلّق بأخلاقهم وزالت من طبعه خشونة البادية، فإذا بأبيات رقيقة رائعة تنتشر بعد حين وتنسب إليه:

يا من حوى ورد الرياض بخدّه ... وحكى قضيب الخيزران بقدّهِ
دعْ عنك ذا السَّيف الذي جرّدته ... عيناك أمضى من مضارب حدّهِ
كل السيوف قواطعٌ إنْ جُرّدتْ ... وحسام لحظك قاطعٌ في غمدهِ
إن شئت تقتلني فأنت محكّمٌ ... من ذا يعارضُ سيداً في عبدهِ

٣٤٥

ليس على الأعمى حَرَج

كان بشار بن برد يقول الشعر وهو صبيّ، فإذا هجا قوماً جاؤوا إلى أبيه يشكونه فيضربه ضرباً شديداً. وفي ذات يوم قال له: يا أبتِ إن هذا الذي يشكونه منّي إليك هو قول الشعر وإنّي إن ثابرت عليه أغنيتك، وأغنيت سائر أهلي، فإن شكوني إليك قل لهم: ألم يرد في القرآن الكريم «ليس على الأعمى حَرَج»؟

فلما عاد القوم إلى الشكوى قال لهم بُرْد ما أشار به بشّار. فانصرفوا وهم لا يعلمون أيّما أنكى شعر بشّار أم فقه بُرْد؟!

٣٤٦

بلادة وفطنة

كان أحدهم يتردّد إلى الخليل، واضع أصول العروض، ليأخذ عنه هذا العلم، فأقام الرجل مدّة يسمع ولا يعلق في ذهنه شيء لبلادته، فملّه الخليل وأراد أن

(١) تثريب: لوم.

يصرفه من غير أن ينال من كرامته، فطلب منه أن يقطّع هذا البيت لعمرو بن معدي كرب:

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ وجاوزْهُ إلى ما تستطيعُ

فأخذ الرجل في تقطيعه بقدر طاقته ومعرفته، ثم انصرف ولم يرجع.

فعجب الخليل من فطنته في إدراك قصده مع ما هو عليه من البلادة في تحصيل العروض.

٣٤٧

هاته يا أحول

كان هشام منبسط الوجه يوماً فقال لمن حضر: من يسبّني ولا يفحش أعطيته هذا المطرف[١].

فقال له أحد الظرفاء: هاتِهِ يا أحول.

فضحك هشام، وكان أحول، وقال له: خذه قاتلك الله.

٣٤٨

وليمة أشعب

قال أشعب: أضجرني الصبيان يوماً، فأردت أن أصرفهم عنّي، فقلت لهم: إنّ بموضع كذا في جنوب المدينة عرساً فامضوا إليه.

فلمّا تهافتوا، وتبعهم بعض الفضوليين قلتُ في نفسي: لعلّ ثمّه عرساً حقيقةً، فرحت أعدو وراءهم.

---

(١) المطرف: الثوب.

٣٤٩

أخطب الناس

قال زياد يوماً لحارثة بن بدر: من أخطب الناس؟ أنا أم أنت؟

فقال: الأمير أخطب مني إذا توعّد ووعد، وأعطى ومنع، وبرق ورعد، وأنا أخطب منه في الوفادة وفي الثناء والتحبير، وأنا أكذب إذا خطبتُ، فأحشو كلامي بزيادة مليحةٍ شهيّة، والأمير يقصد إلى الحقّ وميزان العدل، ولا يزيد فيه شعيرة ولا ينقص منه.

فقال له زياد: قاتلك الله، لقد أجَدْتَ تخليص صفتك وصفتي من حيث أعطيت لنفسك الخطابة كلّها وأرضيتني وتخلّصت.

ثم التفت إلى أولاده وقال: هذا لعمركم البيان الصريح.

٣٥٠

أقنِعِ الحمارَ

قال أحدهم: سافرت مرّة إلى الشام عن طريق البرّ ومعي أعرابي استأجرت منه مركبي[١]، ومضّني طول السّفر، وبطء الدابة فأخذت أسلّي نفسي بقول القطامي:

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزللُ

فقال الأعرابي: ما زاد قائل هذا الشعر على أن يثبّط الناس عن الحزم وكان أولى به أن يزيد:

وربّما ضرَّ بعض الناس بطؤهُمُ   وكان خيراً لهم لو أنهم عَجِلوا

فقلت: أناشدك الله أن تقنع حمارك بهذا الرأي لعلّه يُسرع.

*

(١) المركب: الدابّة.

الخنساء وحسّان بن ثابت

كانت تُضرب لنابغة بني ذبيان قُبّة في سوق عكاظ، فيجتمع إليه الشعراء ينشدونه أشعارهم، وأنشدته الخنساء قصيدتها التي مطلعها:

قذىً بعينك أم بالعين عوّارُ

ولما فرغت منها قال لها: اذهبي أنتِ أشعر من كل ذات ثديين ولولا أن أبا بصير أنشدني قبلك لفضّلتك على شعراء هذا الموسم. ويقصد بأبي بصير الأعشى.

فقال له حسّان بن ثابت: أنا أشعر منك ومنها ومن أبيك، فقال: أجيبيه يا خُناس: فقال لحسّان: ما هو أفضل بيت عندك؟ قال:

لنا الجَفَنَات الغرّ يلمعن في الضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دَما

فقالت: أضعفت شعرك في تسعة مواضع:

- لو قلت «الجفان» لكنت الأكرم، فالجفنات جمع قِلّة وهذه جمع كَثرة.
- ولو قلت «البيض» لكانت جفناتك في الليل وضّاحة فالبياض أبين من الغَرَر.
- ولو قلت «يشرقن» لكان أكثر تألقاً في الإشراق منه في اللمعان، وهو مستمر وهذا متقطّع.
- ولو قلت في «الدُّجى» لكنت أحسنت فاللموع في الليل أبين مما في الضّحى والضّيف في الليل أحوج إلى الضيافة منه في الضحى.
- وأنّثت أسيافك في «يقطرن» فأضعفتها، ولا سيف أقطع من السيف الذَكَر.
- وقلت «أسيافنا» وهو جمع قلّة دون العشرة فلو قلت «سيوفنا» لعزَّ عديدك.
- وقلت: «يقطرن» ولو قلت يجرين أو يدفقنَ لكانت أغزر من يقطرن.
- وقلت: «دَما» وهو مفرد فلو جمعت وقلت دِما لأظهرت مضاء سيوفك.

فقام حسّان منكسراً ومضى.

وفي رواية أن النابغة نفسه هو صاحب هذا الاستدراك لا الخنساء.

٣٥٢

دمامة الحريري

كان الحريري دميماً قبيح المنظر، وجاءه رجلٌ يوماً ليأخذ عنه، فاستزرى ما رأى من حقارة شكله ودمامة وجهه، ولـمّا التمس منه أن يُملي عليه، وقد أدرك الحريري ما كان يدور في خَلَده قال له: أكتب:

ما أنت أول سارٍ غرَّة قمرٌ ورائد أعجبته خُضرة الدّمنِ
فاخترْ لنفسك غيري إنني رجلٌ مثل المعيديّ فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل وانصرف.

٣٥٣

لثغة ابن مُقلة

كان في لسان ابن مُقلة الكاتب لثغة بالراء كلثغة واصل بن عطاء، وأراد أحدهم مرّةً أن يُحرجه فطلب منه أن يقرأ أمام أحد الأمراء الرّقعة التالية:

أمر أمير الأمراء بأن تُحفر بئر على قارعة الطريق ليشرب منها الشارب والوارد.

فكره أن يظهر ما في لفظه من عيب فقرأ كما يلي:

حكم حاكم الحكّام بأن يُجعل جُبّ على حافة الوادي ليستقي منه الغادي والبادي.

٣٥٤

إن لم يكن باللّين كان بغيره

أقبل الحطيئة الشاعر في ركب من بني عبس حتى بلغ المدينة، فأقام فيها مدّة، فقال له أصحابه يوماً: لقد أملقنا، فلو وجدت لنا شريفاً في هذه البلدة يقرينا. فأتى خالد بن سعيد بن العاص، فاعتذر، فتركه ولم يُعد الكلام فارتاب به خالد، فأرسل يسأل عنه، فأُخبر أنه الحطيئة، فاستعاده، فقعد الحطيئة لا يتكلّم، فأراد خالد أن

يستفتحه الكلام فقال له:

مَن أشعر الناس؟

قال: الذي يقول:

ومن يجعل المعروف من دون عِرضه يِفَرْهُ ومن لا يتّقِ الشتم يُشتمِ

فقال خالد لبعض جلسائه: هذه بعض عقاربه، وأمر للحطيئة بما أرضاه.

٣٥٥

ابن عاق

كان لحنظلة النميري ابن عاق يقال له مرّة. فقال له يوماً: إنك لمرٌّ يا مرّة، قال: أعجبتني حلاوتك يا حنظلة.

قال: إنك خبيث كاسمك.

قال: أخبث منّي من سمّاني.

قال: كأنك لست من الناس.

قال: من شابَهَ أباه فما ظَلَمَ.

قال: ما أحوجك إلى أدب.

قال: الذي رباني أحوج منّي.

قال: عقمتْ أمٌّ ولدتك.

قال: إذا ولدت من مثلك.

قال: كنتَ مشؤوماً على أخوتك، دفنتهم وبقيت.

قال: أعجبني كثرة عمومتي.

قال: لا تزداد إلاّ خبثاً.

قال: لا يُجنَى من الشوك العنب.

*

٣٥٦

مروءة حاتم

خرج حاتم الطائي في الشهر الحرام يطلب حاجةً، فلما كان في أرض عنزة ناداه أسير لهم: يا أبا سفانة، أكلني الإسار[1] والقمل.

قال: ويلك، والله ما أنا في بلاد قومي، وما معي شيء، وقد أسأت إليَّ إذ نوّهت باسمي وما لك مترك.

وساوم العنزيين فاشتراه منهم وقال: خلّوا سبيله وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أؤدي فداءه. ففعلوا، فأُتيَ بفدائه.

٣٥٧

الفأر للصنوبري

يا لُحدب الظهور قُعس الرقابِ ... لدقاق الخرطوم والأذنابِ
لِلطافٍ آذانها والخراطيـ ... ـمُ حداد الأظفار والأنيابِ
خُلقتْ للفساد مذ خلق الخلـ ... ـقُ، وللعيث والأذى والخرابِ
ناقباتٍ في الأرض والسقف والحا ... ئط نقباً أعيا على النقّابِ
آكلاتٍ كل المآكل لا تسـ ... ـأمها شاربات كلّ الشراب
آلفاتٍ قرض الثياب وقد يعـ ... ـدِلُ قرضَ القلوب قرضُ الثيابِ

٣٥٨

هذا ولا ذاك

قال الأصمعي: بينما أنا في طرف البصرة رأيت كنّاساً يعمل وهو يردّد:

فإيّاك والسُكنى بمسكن ذلّةٍ ... تعدُّ مسيئاً فيه إن كنت مُحسنا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكنٌ ... عليك بها فاطلب لنفسك مسكنا

---

(١) الإسار: الأسر.

فقلت له: والله ما بقي عليك من الهوان شيء إلّا وقد أهنتها فيه. فماذا أبقيت لها من الكرامة وأنت كنّاس؟

فنظر إليَّ نظرة المنكرِ وقال: والله لكنسُ ألف كنيفٍ[1] أحسن من القيام ساعةً على باب مثلك.

٣٥٩

ليت عينيه سواءً

رُوى أن رجلاً جاء خياطاً بثوبٍ ليقطع منه قميصاً، فقال له: والله لأفصّلنّه لك تفصيلاً لا يُدرى أقميص هو أم قباء. ففعل ذلك، فقال له صاحب الثوب: وأنا والله لأدعُوَنّ لك دُعاءً لا يُدرى ألك هو أم عليك. وكان الخيّاط أعور ويُدعى بِشْراً، قال:

خاط لي بِشْرٌ قِباءْ ليت عينيه سواءْ

فقال له بشر: ولكل امرءٍ ما نوى.

٣٦٠

أقاويل العرب في الغيلان والتغوّل

للعرب في الغيلان أخبار طريفة.

العرب يزعمون أن الغول يتغوّل لهم في الخلوات، ويظهر لخواصّهم في أنواع من الصور، فيخاطبونها وربّما ضيّفوها، وقد أكثروا من ذلك في أشعارهم وبالأخص تأبط شرّاً. ويزعمون أن رجليها رجلا عنز وكانوا إذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون ويقولون:

يا رجل عنز انهقي نهيقا لن نترك السبسب والطريقا

ذلك أنها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات، فيتوهمن أنها إنسان

---

(١) الكنيف: بيت الخلاء.

فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها وتتيههم. وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه، فلم يكونوا يزولون عمّا كانوا عليه من القصد فإذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال.

وقد ذكر جماعة من الصحابة ذلك، منهم عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنه شاهد ذلك في بعض أسفاره إلى الشام وأن الغول كانت تتغوّل له وأنه ضربها بسيفه وذلك قبل ظهور الإسلام، وهذا مشهور عندهم في أخبارهم.

وقد حكى بعض المتفلسفين أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان مشوّه لم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج منفرداً في نفسه وهيئته توحّش من مسكنه فطلب القفار، وهو يناسب الإنسان والحيوان في الشكل.

وزعمت طائفة من الناس أن الغول اسم لكل شيء يعرض للمسافرين ويتمثّل في ضروب من الصور، ذكراً كان أو أنثى إلاّ أن أكثر كلامهم على أنه أنثى. وكانت العرب قبل الاسلام تزعم أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيّل واختلال السابلة.

٣٦١

أقاويل العرب في الهواتف والجان

قال المسعودي في مروج الذهب:

فأما الهواتف فقد كانت كثرت في العرب واتصلت بديارهم وكان أكثرها أيام مولد النبي (ص) وفي أولية مبعثه، ومن حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي.

قال المسعودي: وقد تنازع الناس في الهواتف والجان: فذكر فريق منهم أن ما تذكره العرب وتنبىء به من ذلك إنما يعرض لها من قبل التوحّد في القفار والتفرّد في الأودية والسلوك في المهامة الوحشية لأن الانسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحّد تفكّر، وإذا هو تفكّر وجِلَ وجَبُنَ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة، والأوهام المؤذية والسوداوية الفاسدة فصورت له الأصوات، ومثلت له الأشخاص، وأوهمته المحال، بنحو ما يعرض لذوي الوسواس، وقطب ذلك وأسّه سوء التفكير

وخروجه على غير نظام قويّ أو طريق مستقيم سليم لأن المتفرّد في القفار والمتوحّد في الصحاري الموحشة مستشعر للمخاوف متوهم للمتالف متوقع للحتوف، لقوّة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها في نفسه، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له.

وقد كانت العرب قبل ظهور الاسلام تقول: إن من الجن من هو على صورة نصف الإنسان وأنه كان يظهر لها في أسفارها وحين خلواتها وتسمّيه شِقاً.

وذكروا عن علقمة بن صفوان بن أميّة بن محرب الكناني جد مروان بن الحكم لأمّه أنه خرج في بعض الليالي يريد مالاً بمكة فانتهى إلى الموضع المعروف إلى هذا الوقت بحائط حرمان، فاذا هو بشقّ قد ظهر له في أوصاف ذكرها في شعر بينه وبين هذا الشق[1]، فضرب كل منهما صاحبه فخرّا ميّتين وهذا مشهور عندهم وأن علقمة بن صفوان قتلته الجنّ.

وذكروا عن الجن بيتين من الشعر قالتهما في حرب بن أُميّة حين قتلته الجن وهما:

وقبر حربٍ بمكان قفر　　وليس قرب قبر حربٍ قبرُ

واستدلوا على أن هذا الشعر من قول الجن بأن أحداً من الناس لا يتأتى له أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات متواليات لا يتتعتع في إنشادهما لأن الإنسان قد ينشد العشرين بيتاً والأكثر والأقل أشد من هذا الشعر وأثقل منه ولا يتتعتع فيه.

وممّن قتلته الجن مرداس بن أبي عامر السلمي وهو أبو عباس بن مرداس السُّلمي، ومنهم الغريض المغني المشهور بعد أن ظهر غناؤه وحُمل عنه وقد كانت الجن نهته أن يغنّي بأبيات من الشعر فغناها فقتلته.

وحدث يحيى بن عقاب عن علي بن حرب، عن أبي عبيدة معمر بن المثنّى عن منصور بن يزيد الطائي ثم الصامتي قال:

رأيت قبر حاتم طيّء ببقّه[2] وهو أعلى جبل له وادٍ يقال له الحابل وإذا قِدر عظيمة من بقايا قدور حجر مكفأة في ناحية من القبر من القدور التي كان يطعم فيها

---

(١) راجع: «مروج الذهب»، ٢: ١٦١.

(٢) بقة: اسم موضع.

الناس، وعن يمين قبره أربع جوارٍ من حجارة، وعلى يساره أربع جوارٍ من حجارة، كلهن صاحبة شَعْر منشور محتجرات على قبره كالنائحات عليه، ولم يَرَ بياض أجسامهن وجمال وجوههنَّ، مثّلهن الجن على قبره، ولم يكنَّ قبل ذلك، والجواري بالنهار كما وصفنا، فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه، ونحن في منازلنا نسمع ذلك إلى أن يطلع الفجر. فإذا طلع الفجر سكتن وهدأن، وربما مرّ المار فيراهن فيفتتن بهن فيميل إليهن عجباً بهنّ، فإذا دنا منهنّ وجدهن حجارة.

٣٦٢

الحكماء على جدث الاسكندر

لـمّا مات الإسكندر طافت به الحكماء ممن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الأمم، وكان يجمعهم، ويستريح إلى كلامهم ولا يصدر الأمور إلّا عن رأيهم، وجُعل بعد أن مات في تابوت من الذهب ورصّع بالجوهر بعد أن طلي جسمه بالأطلية الماسكة لأجزائه، فقال عظيم الحكماء، والمقدم فيهم: ليتكلّم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزياً وللعامة واعظاً، وقام فوضع يده على التابوت فقال: أصبح آسر الأسراء أسيراً، ثم قام حكيم ثانٍ فقال هذا الاسكندر الذي كان يخبىء الذهب فصار الذهب يخبئُهُ.

وقال الحكيم الثالث: ما أزهد الناس في هذا الجسد، وأرغبهم في هذا التابوت.

وقال الحكيم الرابع: من أعجب العجب أن القوي قد غُلب والضعفاء لاهون مغترّون.

وقال الخامس: ياذا الذي جعل أجله ضماناً، وجعل أمله عياناً. هلّا باعدت من أجلك لتبلغ بعض أملك، هلّا حققت من أملك بالامتناع عن فوت أجلك؟

وقال السادس: أيها الساعي المنتصب جمعت ما خذلك عن الاحتياج فغودرت عليك أوزاره وفارقتك أيامه، فمغناه لغيرك، ووباله عليك.

وقال السابع: قد كنت لنا واعظاً فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك، فمن كان له عقل فليعقل، ومن كان معتبراً فليعتبر.

وقال الثامن: رُبّ هائب لك كان يغتابك من ورائك، وهو اليوم بحضرتك لا يخافك.

وقال التاسع: ربّ حريصٍ على سكوتك إذ لا تسكت، وهو اليوم حريص على كلامك إذ لا تتكلّم.

وقال العاشر: كم أماتت هذه النفس لئلاّ تموت وقد ماتت.

وقال الحادي عشر، وكان صاحب خزانة كتب الحكمة: قد كنت تأمرني أن لا أبعد عنك، فاليوم لا أقدر على الدنوّ منك.

وقال الثاني عشر: هذا اليوم عظيم العبر، أقبل من شره ما كان مدبراً، وأدبر من خيره ما كان مقبلاً، فمن كان باكياً على من زال ملكه فليبكِ.

وقال الثالث عشر: يا عظيم السلطان اضمحلّ سلطانك كما اضمحلّ ظل السحاب، وعَفَتْ آثار مملكتك كما عفت آثار الرباب.

وقال الرابع عشر: يا من ضاقت عليه الأرض طولاً وعرضاً، ليت شعري كيف حالك فيما احتوى عليك منها؟

وقال الخامس عشر: أعجب لمن كانت هذه سبيله كيف شرهت نفسه بجمع الحطام البائد والهشيم الهامد.

وقال السادس عشر: أيها الجمع الحافل والملتقى الفاضل لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتنقطع لذته، فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغي والفساد.

وقال السابع عشر: انظروا إلى حلم النائم كيف انقصى؟ وظل الغمام كيف انجلى؟

وقال الثامن عشر، وكان من حكماء الهند: يا من كان غضبه الموت هلاّ غضبت على الموت؟

وقال التاسع عشر: قد رأيتم أيها الجمع هذا الملك الماضي فليتّعظ به الآن هذا الملك الباقي.

وقال العشرون: هذا الذي دار كثيراً والآن يقرّ طويلاً.

وقال الحادي والعشرون: إن الذي كانت الآذان تُنصت له قد سكت، فليتكلّم الآن كل ساكت.

وقال الثاني والعشرون: سيلحق بك من سرّه موتك كما لحقت بمن سرك موته.

وقال الثالث والعشرون: ما لك لا تُقلّ عضواً من أعضائك وقد كنت تستقلّ ملك الأرض؟ بل مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان الذي أنت به، وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد؟

وقال الرابع والعشرون، وكان من نسّاك الهند وحكمائها: إن دنيا يكون هكذا آخرها فالزهد أولى أن يكون في أوّلها.

وقال الخامس والعشرون، وكان صاحب مائدته: قد فُرشت النمارك ونضدت الوسائد وهيّئت الموائد ولا أرى عميد المجلس.

وقال السادس والعشرون وكان صاحب بيت ماله: قد كنت تأمرني بالجمع والإدخار فإلى من أدفع ذخائرك؟

وقال السابع والعشرون، وكان خازناً من خزائنه: هذه مفاتيح خزائنك فمن يقبضها قبل أن أؤخذ بما لم آخذ منها؟

وقال الثامن والعشرون: هذه الدنيا الطويلة العريضة قد طُويت منها في سبعة أشبار ولو كنت بذلك موقناً لم تحمل على نفسك في الطلب.

أمّا القول التاسع والعشرون فقول زوجته روشنك بنت دارا بن دارا ملك فارس: ما كنت أحسب أن غالب دارا الملك يغلب، وإن كان هذا الكلام الذي سمعت منكم معاشر الحكماء فيه شماتة، فقد خلف الكأس الذي تشرب به الجماعة.

والقول الثلاثون ما يحكى عن أمّه أنها قالت حين جاءها نعيه: لئن فقد من ابني أمره، فما فقدت من قلبي ذكره.

٣٦٣

وصية الإسكندر لأمّه

مات الإسكندر وهو ابن ست وثلاثين سنة وملك وهو ابن احدى وعشرين سنة وذلك بمقدونية، وهي مصر، وعهد إلى ولي عهده بطليموس بن أريت أن يحمل تابوته إلى والدته بالإسكندرية وأوصاه أن يكتب إليها إذا أتاها نعيه أن تتّخذ وليمة وتنادي في مملكتها أن لا يتخلّف عنها أحد، وأن لا يجيب دعوتها من قد فَقَدَ محبوباً

أو مـات له خليـل، وليكون ذلـك مأتم الاسكنـدر بالسرور، خـلاف مـأتم النـاس بالحزن، فلما ورد نعيه إليها ووُضع التابوت بين يديها نادت في أهل مملكتها على ما به أمرها، فلم يُجب أحد دعوتها، ولا بادر إلى ندائها، فقالت لحشمها:

ما بال الناس لم يجيبوا دعوتي؟

فقالوا لها: أنتِ منعتيهم من ذلك.

قالت: وكيف؟

فقيل لها: أمرتِ أن لا يجيبكِ من فقد محبوباً، أو عدم خليلاً، أو فارق حبيبـاً، وليس فيهم أحد إلّا وقد أصابه بعض ذلك.

فلما سمعت ذلك استيقظت وعلمت ما به سئلت وقالت:

«لقد عزّاني ولدي أحسن العزاء».

٣٦٤

الملكان أزور وخلنجاس والخمرة

قـرأت في مروج الـذهب للمسعودي أن الملكـين أزور وخلنجـاس كـانـا أخـوين فأحسنا السيرة وتعاضدا على المُلك. ويقال إن أحد هذين الملكين كان جالسـاً ذات يوم إذ نـظر في أعلى قصره إلى طـائر قـد أفرخ هنـاك، وإذا هو يضرب بجنـاحيه ويصيـح، فتأمل الملك ذلك فنظر إلى حيّة تنساب إلى الوكر صاعدة لأكـل فراخ الـطائر، فـدعا الملك بقوس فرمى به الحيّة فصرعها، وسلمت أفراخ الطائر، فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحيه وفي منقاره حبة وفي مخـالبيه حبتـان وجاء إلى الملك وألقى مـا كان في منقاره ومخاليبه، والملك يرمقـه، فوقـع الحبّ بين يـدي الملك فتأمله وقـال: لأمرٍ مـا ألقى هذا الطائـر ما ألقى، ولا شـك أنه أراد مكـافأتنـا على فعلنـا به، فـأخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله في إقليمه، فقـال جليس من جلسائـه حكيم وقد نـظر إلى حيرة الملك في الحب: أيها الملك، ينبغي أن يـودع النبـات أرحـام الأرض فـإنها تخـرج كُنه مـا فيه، فنقف عـلى الغايـة منه، فـدعا بـالأَكَـرَة[1] وأمـرهم بـزرع الحب

(١) الأكرة: الفلاحون.

ومراعاته وما يكون منه، فزرع، فنبت وأقبل يلتفت بالشجر ثم حصرم وأعنب وهم يرمقونه، والملك يراعيه، إلى أن انتهى من البلاغ وهم لا يُقدمون على ذوقه خوفاً أن يكون متلفاً.

فأمر الملك بعصر مائه، وأن يودع في أوانٍ وإفراد حبّ منه وتركه على حالته، فلمّا صار في الآنية عصيراً هَدَرَ وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة. فقال الملك: عليَّ بشيخٍ كبيرٍ فانٍ، فأُتي به فلدد له من ذلك في إناء فرآه لوناً عجيباً، ومنظراً كاملاً، ولوناً ياقوتياً أحمر، وشعاعاً نيّراً، ثم سقوا الشيخ، فلما شرب ثلاثاً حتى مال وأرخى من مآزره الفضول وصفّق بيديه وحرّك رأسه ووقع برجليه على الأرض، فطرب، ورفع عقيرته[1] يتغنّى.

فقال الملك: هذا شراب يذهب بالعقل وأخاف أن يكون قاتلاً، ألا ترى إلى الشيخ كيف عاد في حال الصبا وسلطان الدم وقوة الشباب؟

ثم أمر الملك به فزيد، فسكر الشيخ، فنام، فقال الملك: هلك. ثم إن الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب وقال: لقد شربته فكشف عني الغموم، وأزال عن ساحتي الأحزان والهموم، وما أراد الطائر إلّا مكافأتهم بهذا الشراب الشريف. فقال الملك هذا أشرف شراب أهل الأرض وذلك أنه رأى شيخاً قد حسن لونه وقوي حيله، وانبسط في نفسه، وطرب في حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم، وجاد هضمه وجاءه النوم، وصفا لونه، واعترته أريحيّة، فأمر الملك أن يكثر من غرس الكرم، فكثر الغرس للكرم وأمر أن يمنع العامة من ذلك، وقال: هذا شراب الملوك وأنا السبب فيه، فلا يشربه غيري. فاستعمله الملك بقية أيامه، ثم نما في أيدي الناس واستعملوه، وقد قيل: إن نوحاً أول من زرعها.

٣٦٥

بين قيصر وكسرى

قرأت في مروج الذهب للمسعودي أن قيصر أهدى إلى كسرى عقاباً وكتب إليه يعلمه أنها تعمل أكثر من عمل الصقر الذي أعجبه صيده، فأمر بها كسرى فأرسلت

---

(١) عقيرته: صوته.

على ظبي عرض له فدقته، فأعجبه ما رأى منها، فانصرف مسروراً فجوّعها ليصيد بها، فوثبت على صبي له فقتلته، فقال كسرى: وَتَرَنا قيصر في أولادنا بغير جيش.

ثم إن كسرى أهدى إلى قيصر نمراً، وكتب إليه أنه يقتل الظباء وأمثالها من الوحوش وكتب ما صنعت العقاب، فأعجب قيصر حسن النمر، وطابق صفته بوصف من الفهد، وغفل عنه، فافترس بعض فتيانه، فقال: صادنا كسرى، فإن كنّا قد صدناه فلا بأس.

٣٦٦

الملك في عادات الهنود

قرأت في مروج الذهب للمسعودي، أن الهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلّا في كل برهة من الزمان معلومة، ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعيّة، لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقاً لهيبتها، واستخفافاً بحقّها، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلّا بالتخيّر ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة.

قال المسعودي: ورأيت في بلاد سرنديب ـ وهي جزيرة في البحر ـ أن الملك من ملوكهم إذا مات صُيّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدّة لهذا المعنى، وشعره ينجّر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادي: أيها الناس، هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقَبَضَ روحه ملك الموت الذي لا يموت فلا تغترّوا بالحياة بعده، وتقول كلاماً هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم، ويُطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع، وقد هيّء له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب فيحرق بالنار، ويُذرّ رماده في الرياح، وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم لغرضٍ يذكرونه ونهج يتبعونه في المستقبل من الزمان، والملك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغيّر ولا تبدّل.

*

البيوت السبعة المعظّمة

قالوا: إن هناك بيوتاً سبعة معظّمة متّخذة على أسماء الكواكب.

أما البيت الأول فهو البيت الحرام.

وأما البيت الثاني فهو على رأس جبل بأصبهان يقال له مارس، وكانت فيه أصنام إلى أن أخرجها منه يستاسف الملك لما تمجّس وجعله بيت ناره. وهذا البيت معظّم عند المجوس إلى هذه الغاية.

والبيت الثالث يدعى مندوسان ببلاد الهند وهذا البيت تعظّمه الهند وله قرابين تقرّب وفيه أحجار المغناطيس الجاذبة والدافعة والمنفرة من أوصاف لا يسعنا الإخبار عنها.

والبيت الرابع هو النوبهار الذي بناه منوشهر بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وكان من يلي بسدانته تعظمه الملوك في ذلك الصقع، وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه وتحمل إليه الأموال، وكانت عليه وقوف، وكان الموكل بسدانته البرامكة، لأن خالد بن برمك كان من ولد مَنْ كان على هذا البيت وكان بنيان هذا البيت من أعلى البنيان تشييداً.

والبيت الخامس: بيت غمدان الذي بمدينة صنعاء من بلاد اليمن وكان بناه الضحّاك، بناه على اسم الزهرة وخرّبه عثمان بن عفّان رضي الله عنه فهو في وقتنا هذا (سنة ٣٣٢ هـ) خراب قد هدم فصار تلاً عظيماً، وقد كان الوزير علي بن عيسى بن الجراح حين نفي إلى اليمن وصار إلى صنعاء بنى فيه سقاية وحفر فيه بئراً.

والبيت السادس: كاوسان بناه كاوس الملك بناءً عجيباً على اسم المدّبر الأعظم من الأجسام السماوية وهو الشمس بمدينة فرغانة من مدائن خراسان وخرّبه المعتصم بالله.

والبيت السابع: بأعالي بلاد الصين بناه ولد عامور بن سوبل بن يافث بن نوح وأفرده للعلّة الأولى، وقيل إنما بناه بعض ملوك الترك في قديم الزمان وجعله سبعة أبيات في كل بيت منها سبع كُوىً يقابل كل كوّة صورة منصوبة على صورة كوكب، ولهم في هذا الكوكب سرٌ يسرونه في بلاد الصين بما قد زخرف لهم فيه القول وزينه

لهم الشيطان ولهم في هذا الهيكل علوم في اتصال الأجسام السماوية وأفعالها بعالم الكون الذي تحدثه وما يحدث فيه من الحركات والأفعال عند تحرك الأجسام السماوية . . .

٣٦٨

عبد العزيز بن مروان ودفائن أرض مصر

قرأت في مروج الذهب أن لمصر أخباراً عجيبة من الدفائن والبنيان وما يوجد في الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممّن سكن تلك الأرض.

فمن عجيب أخبارها ما ذكره يحيى بن بكير قال:

كان عبد العزيز بن مروان عاملاً على مصر لأخيه عبد الملك بن مروان فأتاه رجل متنصّح، فسأله عن نصحه فقال: بالقبة الفلانية كنز عظيم.

قال عبد العزيز: وما مصداق ذلك؟

قال: هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر والرخام عند يسير من الحفر، ثم ينتهي بنا الحفر إلى قلع باب من الصُّفر تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك من الذهب عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا، وجناحاه مضرّجان بالياقوت والزمرّد، براثنه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود. فأمر له عبد العزيز بنفقة أُلوف من الدنانير لأجرة من يحفر من الرجال في ذلك ويعمل فيه، وكان هنالك تل عظيم، فاحتفروا حفرة عظيمة في الأرض، والدلائل المقدّم ذكرها من الرخام والمرمر تظهر، فازداد عبد العزيز حرصاً على ذلك، وأوسع في النفقة، وأكثر من الرجال، ثم انتهوا في حفرهم إلى ظهور رأس الديك، فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف لما في عينيه من الياقوت وشدّة نوره ولمعان ضيائه، ثم بانت قوائمه وظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع من الأحجار والرخام، وقناطر مقنطرة، وطاقات على أبواب معقودة، ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور والذهب وأجربة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها وشبكت، وقيد ذلك بأعمدة الذهب.

فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع فنظر إلى ما ظهر من

ذلك، فأسرع بعضهم فوضع قدمه على درجة منسبكة من نحاس تنتهي إلى هنالك، فلمّا استقرّت قدمه على المرقاة الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها، فالتفّتا على الرجل، فلم يُدْرَك حتى جزآه قطعاً وهوى جسمه سفلاً، فلما استقرّ جسمه على بعض الدرج اهتزّ العمود وصفر الديك تصفيراً عجيباً سمعه من كان بالبعد من هنالك وحرّك جناحيه فظهرت من تحته أصوات عجيبة وقد عملت باللّوالب والحركات إذا ما وقع على بعض تلك الدرج شيء أو ماسها تهافت من هنالك من الرجال إلى أسفل تلك الحفيرة، وكان ممن يحفر ويعمل وينقل التراب ويبصر ويتحرك ويأمر وينهي نحو ألف رجل فهلكوا جميعاً. فجزع عبد العزيز وقال: هذا ردم عجيب الأمر ممنوع النّيل نعوذ بالله منه! وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أُخرج من التراب على من هلك من الناس، فكان الموضع قبراً لهم.

٣٦٩

قريش تبني الكعبة والنبي (ص) يضع الحجر الأسود

جاء في مروج الذهب للمسعودي أن السيل كان هدم الكعبة فسرق منها لما انهدمت غزال من الذهب وحليّ وجواهر فنقضتها قريش، وكان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة: منها صورة إبراهيم الخليل في يده الأزلام، ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يجيز بالناس مفيضاً، والفاروق قائم على وفد من الناس يقسم فيهم، وبعد هذه الصور صور كثير من أولادهم إلى قصيّ بن كلاب وغيرهم، في نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله صاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله.

ولّما بنت قريش الكعبة ورفعت سمكها وتأتّى لها ما أرادت في بنيانها من الخشب الذي ابتاعوه من السفينة التي رمى بها البحر إلى ساحلهم التي بعث بها ملك الروم من القلزم من بلاد مصر إلى الحبشة لتُبنى هناك له كنيسة، وانتهوا إلى موضع الحجر الأسود وتنازعوا أيّهم يضعه، فاتفقوا أن يرضوا بأول من يطلع عليهم من باب بني شيبة، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبي (ص) من ذلك الباب، وكانوا يعرفونه بالأمين لوقاره وهديه وصدقِ اللّهجة، واجتنابه القاذورات والأدناس فحكموه فيما

تنازعوا فيه، وانقادوا إلى قضائه، فبسط ما كان عليه من رداء، وقيل: كساء طاروني، وأخذ عليه الصلاة والسلام الحجر فوضعه في وسطه ثم قال لأربعة رجال من قريش، وهم أهل الرياسة فيهم، والزعماء منهم، وهم: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزّى بن قصي، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم، وقيس بن عديّ السهمي، ليأخذ كل واحدٍ منهم بجنبٍ من جنبات هذا الرداء، فشالوه حتى ارتفع عن الأرض، وأدنوه من موضعه، فأخذ عليه الصلاة والسلام الحجر ووضعه في مكانه وقريش كلها حضور، وكان ذلك أول ما ظهر من فعله وفضائله وأحكامه.

٣٧٠

بين ابن السّماك وجارية له

تكلّم ابن السماك يوماً وجارية له تسمع. فلما دخل قال لها: كيف سمعت كلامي؟

قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده!

قال: أردّده حتى يفهمه من لم يفهمه.

قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد ملّه من فهمه.

٣٧١

أهداه جملاً ثم نزله عليه

أهدى رجلٌ من الثقلاء إلى رجلٍ من الظرفاء جملاً ثم نزل عليه ضيفاً ثقيلاً حتى أبرمه فقال:

يا مبرماً أهدى جَمَلْ ... خُذْ وانصرفْ ألفيْ جَمَلْ
قال وما أوقارها؟ ... قلتُ زبيبٌ وعسلْ
قال ومن يقودها؟ ... قلت له ألفا رجلْ
قال ومن يسوقها؟ ... قلت له ألفا بطل

قال وما لباسهم؟ قلت حليٌّ وحُلَلْ
قال وما سلاحهم؟ قلت سيوفٌ وأسَلْ
قال عبيدٌ لي إذن قلت نعم ثم خَوَل
قال بهذا فاكتبوا إذن عليكم لي سجل
قال له ألفيْ سجلّ فاضمن لنا أن ترتحل
قال وقد أضجرتكم قلت أجل ثم أجل
قال وقد أبرمتكم قلت له الأمر جَلَل
قال وقد أثقلتكم قلت له فوق الثقل
قال فإنّي راحلٌ قلت العَجَل ثم العَجَل
يا كوكب الشؤم ومن أربى على نحس زُحَل
يا جبلاً من جبلٍ في جبلٍ فوق جبل

٣٧٢

سليمان وحديث النسر والقصر

عن ابن القاسم قال:

بينما سليمان بن داود عليهما السلام تحمله الريح إذ مرّ بنسر واقع على قصر، فقال له:

كم لك مذ وقعت ها هنا؟

قال: سبعمائة سنة.

قال: فمن بنى هذا القصر؟

قال: لا أدري، هكذا وجدته. ثم نظر فإذا فيه كتاب منقور بأبيات من شعر وهي[1]:

خرجنا من قرى اصطخر إلى القصر فقِلْناهُ

---

(١) وردت هذه الأبيات في ثلاثة مواضع من «عيون الأخبار» منسوبة إلى أبي العتاهية ولم نجدها في ديوانه.

فمن يسأل عن القصر فمبنياً وجدناهُ
فلا تصحب أخا السوء وإياك وإيّاهُ
فكم من جاهل أردى حكيماً حين آخاهُ
يُقاس المرء بالمرءِ إذا ما المرء ماشاهُ
وفي الناس من الناس مقاييسٌ وأشباهُ
وفي العين غنىً للعين أن تنطق أفواهُ

٣٧٣

حبّ الولد عند الوالد

في بعض الحديث أن إبراهيم خليل الرحمن كان من أغير الناس، فلما حضرته الوفاة دخل عليه ملك الموت في صورة رجل أنكره فقال له: من أدخلك داري؟

قال: الذي أسكنك فيها منذ كذا وكذا سنة.

قال: ومن أنت؟

قال: أنا ملك الموت جئت لقبض روحك.

قال: أتاركني أنت أُودّع بني إسحاق؟

قال: نعم.

فأرسل إلى إسحاق، فلما أتاه أخبره، فتعلّق إسحاق بأبيه وجعل يتقطّع عليه بكاءً، فخرج عنهما ملك الموت وقال: يا ربّ، ذبيحك إسحاق متعلّق بخليلك!

فقال له الله: قل له إني أمهلتك. ففعل، وانحلّ إسحاق عن أبيه، ودخل إبراهيم بيتاً ينام فيه، فقبض ملك الموت روحه وهو نائم.

٣٧٤

جود عُبيد الله بن عباس

قالوا:

إن عبيد الله بن عباس أول من فطر جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطرق وأول من حيّا على طعامه وأول من أنهبه، ومن جوده أنه أتاه رجل وهو بفناء داره

فقام بين يديه فقال: يا ابن عباس إن لي عندك يداً وقد احتجت إليها. فصعَّد فيه بصره وصوّبه فلم يعرفه، ثم قال له: ما يدك عندنا؟

قال: رأيتك واقفاً بزمزم وغلامك يمتح[1] لك من مائها والشمس قد صهرتك، فظلّلتك بطرف كسائي حتى شربت.

قال: إني لأذكر ذلك وإنّه يتردّد في خاطري وفكري. ثم قال لقيّمه: ما عندك؟

قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم.

قال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا.

فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه، فكيف وقد ولد سيّد الأولين والآخرين محمداً (ص) ثم شفع بك وبأبيك.

ومن جوده أيضاً أنه جاءه رجل من الأنصار فقال: يا عم ابن عم رسول الله، إنه وُلد لي في هذه الليلة مولود وإني سمّيته باسمك تبركاً مني به، وإن أمّه ماتت. فقال عبيد الله: بارك الله لك في الهبة وأجزل لك الأجر على المصيبة. ثم دعا بوكيله فقال: انطلق الساعة فاشترِ للمولود جارية تحضنه وادفع إليه مائتيْ دينار للنفقة على تربيته. ثم قال للأنصاري: عُدْ إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفي العيش يُبس وفي المال قِلّة.

قال الأنصاري: لو سبقت حاتماً بيوم واحد ما ذكرته العرب أبداً، ولكنه سبقك فصرت له تالياً، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده، وطلّ[2] كرمك أكثر من وابله[3].

*

---

(١) يمتح: يستخرج.

(٢) الطلّ: الندى.

(٣) الوابل: المطر الكثيف.

٣٧٥

فخ الإسرائيلي والعصفورة

قال يحيى بن عبد العزيز بإسناده عن وهب بن منبه:

نصب رجل من بني إسرائيل فخاً فجاءت عصفورة فوقعت عليه فقالت: ما لي أراك منحنياً؟

قال: لكثرة صلاتي انحنيت.

قالت: فما لي أراك باديةً عظامك؟

قال: لكثرة صيامي بدت عظامي.

قالت: فما لي أرى هذا الصوف عليك؟

قال: لزهادي في الدنيا لبست الصوف.

قالت: فما هذه العصا عندك؟

قال: أتوكأ عليها وأقضي بها حوائجي.

قالت: فما هذه الحبة في يديك؟

قال: قربان إن مرَّ بي مسكين ناولته إيّاه.

قالت: فإني مسكينة.

قال: فخذيها. فقبضت على الحبة فإذا الفخّ في عنقها، فجعلت تقول: قِعي قِعي!

قال الخشني: تفسيره لا غرَّني ناسك مراءٍ بعدك أبداً.

٣٧٦

عمرو بن العاص في احتضاره

لما احتضر عمرو بن العاص، جمع بنيه فقال: يا بنيَّ، ما تُغنون عنّي من أمر الله شيئاً.

قالوا: يا أبتِ، إنه الموت، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا.

فقال: اسندوني، فأسندوه.

ثم قال: اللهمَّ إنك أمرتني فلم أأتمر، وزجرتني فلم أزدجر، اللهمَّ لا قويٌّ فأنتصر، ولابريء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر! أستغفرك وأتوب إليك لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

فلم يزل يكرّرها حتى مات.

٣٧٧

الحجاج وأعرابي

قال الأصمعي:

خرج الحجاج ذات يوم فأصحر، وحضر غداؤه فقال: اطلبوا من يتغدّى معنا، فطلبوا، فلم يجدوا إلاّ أعرابياً في شملة، فأتوه به. قال له: هَلُمَّ. قال له: قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته.

قال: منْ هو.

قال: الله تبارك وتعالى دعاني إلى الصيام، فأنا صائم.

قال: صوم في مثل هذا اليوم على حرّ؟

قال: صمت ليوم هو أحرّ؟

قال: فافطر اليوم وتصوم غداً.

قال: ويضمن لي الأمير أن أعيش إلى غدٍ؟

قال: ليس ذلك إليَّ.

قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجلٍ ليس إليه سبيل؟

قال: إنه طعام طيّب.

قال: والله ما طيّبه خبازك ولا طبّاخك ولكن طيّبتهُ العافية.

قال الحجاج: تالله ما رأيت كاليوم، اخرجوه عنّي، أخرجوه عنّي.

*

٣٧٨

زياد وشريف بصري

دخل على زياد رجل من أشراف البصرة فقال: أين مسكنك من البصرة؟

قال: في وسطها.

قال له: كم لك من الولد؟

قال: تسعة. فلما خرج من عنده قيل له: إنه ليس كذلك في كل ما سألته، وليس له من الولد إلّا واحد وهو ساكن في طرف البصرة.

فلما عاد إليه سأله زياد عن ذلك فقال له: ما كذبتك. لي تسعة من الولد قدَّمتُ منهم ثمانية فهم لي وبقي معي واحد، فلا أدري ألي يكون أم عليَّ، ومنزلي بين المدينة والجبّانة، فأنا بين الأحياء والأموات، فمنزلي في وسط البصرة.

قال: صدقت.

٣٧٩

ابن جعفر وأعرابية

قال الشيباني: نزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة وقد دجنت عندها، فذبحتها وجاءت بها إليه فقالت: يا أبا جعفر، هذه دجاجة لي كنت أدجّنها وأعلفها من قوتي، وألمسها في آناء الليل فكأنما ألمس بنتي زلّت عن كبدي، فنذرت لله أن أدفنها في أكرم بقعة تكون، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلّا بطنك فأردت أن أدفنها فيه.

فضحك عبد الله بن جعفر وأمر لها بخمسمائة درهم.

٣٨٠

أعرابية وابنها

كان لأعرابية ابن شديد العُرام، كثير القتال للناس، مع ضعف أسر ورقّة عظم. فواثب مرّة فتى من الأعراب، فقطع الفتى أنفه، فأخذت أمّه دية أنفه،

فحسن حالها بعد فقر مدقع، ثم واثب آخر فقطع أُذنه، ثم أخذت دية أُذنه فزادت في المال وحسن الحال، ثم واثب آخر فقطع شفته، ثم أخذتْ دية شفته. فلمّا رأت ما صار عندها من الإبل والبقر والغنم والمتاع بجوارح ابنها، ذكرته في أُرجوزة لها تقول فيها:

أحلفُ بالمروة حقاً والصّفا ... أنّك خيرٌ من تفاريق العصا

فقلت لأعرابي: ما تفاريق العصا؟

قال: العصا تُقطع ساجوراً ثم يقطع الساجور أوتاداً، ثم تقطع الأوتاد أشظّة.

٣٨١

ابن لعمر بن عبد العزيز وابن لسليمان

وقع بين ابنٍ لعمر بن عبد العزيز وابنٍ لسليمان بن عبد الملك كلام. فجعل ابن عمر يذكر فضل أبيه. فقال له ابن سليمان: إن شئت فاقلل وإن شئت فأكثر؛ ما كان أبوك إلاّ حسنةً من حسنات أبي! لأن سليمان هو ولي عمر بن عبد العزيز.

٣٨٢

جواب في تفحّش

خطب خالد بن عبد الله القسري فقال:

يا أهل البادية، ما أخشن بلدكم وأغلظ معاشكم وأجفى أخلاقكم، لا تشهدون جُمُعة ولا تجالسون عالماً. فقام إليه رجل منهم دميم فقال: أمّا ما ذكرت من خشونة بلدنا وغِلَظ طعامنا فهو كذلك، ولكنكم معشر أهل الحضر فيكم ثلاث خصال هي شرّ من كل ما ذكرت.

قال له خالد: وما هي؟

قال: تنقُبُون الدّور، وتنبشون القبور، وتنكحون الذكور.

قال: قبّحك الله وقبّح ما جئت به.

*

الفرزدق والمرأة التي أعيتهُ والصبيّ والنبطيّ

قال الفرزدق: ما عييت بجواب قطّ ما عييت بجواب امرأة وصبيّ نبطيّ.

فأمّا المرأة فإني ذهبت ببغلتي أسقيها في النهر، فإذا معشر نسوة، فلما همزت البغلة حبقت[1]، فاستضحك النسوة فقلت لهن: ما أضحككنّ؟ فوالله ما حملتني أنثى قطّ إلاَّ فعلتْ مثلها.

فقالت امرأة منهن: فكيف كان ضراط أمّك مقبرة، فقد حملتك في بطنها تسعة أشهر! فما وجدت لها جواباً.

وأمّا الصبيّ فإني كنت أنشد بجامع البصرة، وفي حلقتي الكميت بن زيد وهو صبيّ، فأعجبني حسن استماعه فقلت له: كيف سمعت يا بنيَّ؟

قال لي: حسن!

قلت: فسرَّك أني أبوك؟

قال: أمّا أبي فلا أريد به بديلاً، ولكن وددت أن تكون أمّي!

قلت: استرها عليّ يا ابن أخي فما لقيت مثلها.

وأمّا النبطيّ، فإنّي لقيت نبطياً بيثرب فقال لي: أنت الفرزدق؟

قلت: نعم.

قال: أنت الذي يخاف الناس لسانك؟

قلت: نعم.

قال: فأنت الذي إذا هجوتني يموت فرسي هذا؟

قلت: لا.

قال: فيموت ولدي؟

قلت: لا.

قال: فأموت أنا.

قلت: لا.

---

(١) حبقت: بمعنى ضرطت.

قال: فأدخلني الله في حِرِ أمّ الفرزدق من رجلي إلى عنقي.
فقلت: ويلك! ولِمَ تركت رأسك؟
قال: حتى أرى ما تصنع الزانية.

٣٨٤

مسبّبة حرب الفجار الثاني

كان حرب الفجار الثاني بين قريش وهوازن في الجاهلية، وكان الذي هاجه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر بن صعصعة وضيئة وجميلة بسوق عكاظ.

وقالوا: بل طاف بها شباب من بني كنانة وعليها برقع وهي في ثوب شفّاف، فأعجبهم ما رأوا من هيئتها، فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم، فأتى أحدهم من خلفها فشدّ مؤخر ثوبها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تدري، فلما قامت تقلّص الثوب عن دبرها، فضحكوا وقالوا: مَنَعْتِنَا النظر إلى وجهها فقد رأينا دبرها، فنادت المرأة يا آل عامر، فتحاور الناس وكان بينهم قتال ودماء، فحملها حرب بن أميّة وأصلح بينهم.

٣٨٥

الحِيَلُ في الحروب

قال ابن إسحاق: لما خرج رسول الله (ص) إلى بدر، مرَّ حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن محمد وقريش وما بلغه من خبر الفريقين. فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبروني ممّن أنتم.

فقال رسول الله (ص): إذا أخبرتنا أخبرناك.

فقال الشيخ: خُبِّرت أن قريشاً خرجت من مكة وقت كذا، فإن كان الذي خبّرني صدق فهي اليوم بمكان كذا، للموضع الذي به قريش. وخُبِّرتُ أن محمداً خرج من المدينة وقت كذا، فإن كان الذي خبّرني صدق فهو اليوم بمكان كذا، للموضع الذي به رسول الله (ص). ثم قال: من أنتم؟ فقال رسول الله (ص):

نحن من ماء، ثم انصرف. فجعل الشيخ يقول: نحن من مـاء! من ماء العـراق أو ماء كذا أو ماء كذا!

٣٨٦

المتعاديات

بين البوم والغـراب عداوة. وبـين الفأرة والعقـرب عداوة. وبـين الغراب وابن عِرس عداوة. وبين الحِدأة والغراب عداوة. وبين العنكبوت وبـين العظاءة عـداوة. وبين الحية وبين ابن عِرس عـداوة. وبين ابن آوى والـدجاج عـداوة. وبين السنـور والحمام عداوة. وبـين البوم وبـين جميع الـطير عداوة، لأن البـومة رديئـة البصر ذليلة بالنهار، فإذا كان الليل لم يقوَ عليها شيء والطير تعـرف ذلك من حـالها فهي بـالنهار تضربها وتنتف ريشها، ولحرصها على ذلك صار الصائد ينصبها للطير.

وبـين الحـمار وعصفـور الشـوك عـداوة، ومتى نهق الحـمار سقط بيض عصفـور الشوك، وبين الحـمار وبين الغـراب عداوة. وبـين الحيّة والخنـزير عـداوة. والغراب مصادق للثعلب، والثعلب مصادق للحيّة. والجمل يكره قرب الفرس أبداً ويقـاتله. وبـين الأسد وبـين الفيل عـداوة. ويقال إن الأسـد والنّمر مختلفـان. والأسد والبـبر متفقان.

٣٨٧

السباع وما شاكلها

يقال: إنه ليس شيء من السبـاع أطيب أفواهـاً من الكلاب، ولا في الـوحوش أطيب أفواهاً من الـظباء. وليس في الأرض فحـلٌ من جميع أجنـاس الحيوان لـذكره حجـم ظاهر إلاّ الانسـان والكلب. والأسد لا يـأكل الحـارّ ولا يدنـو من النار ولا يأكل الحامض وكذلك أكثر السباع. وتقول الروم: إنّ الأسد يُـذعر بصـوت الديـك ولا يدنو من المـرأة الطامث. والأسـد إذا بال شغـر[1] كما يشغـر الكلب، وهو قليـل

(١) شغر الكلب: رفع إحدى رجليه بال أو لم يبل.

الشرب للماء ونجوه يشبه نجو الكلب ودواء عضّته دواء عضّة الكلب الكلِب.

وقالوا: العيون التي تضيء بالليل عيون الأسد والنمور والسنانير والإفاعي. والعرب تقول: هو أحمق من جهيزة، وهي الذئبة لأنها تدع ولدها وتُرضع ولد الضّبع. ويقولون: الضّبع إذا صيدت أو قُتلت عال الذئب أولادها وأتاها باللّحم.

وقالوا: ثلاثة من الحيوان ترجع في قيئها: الأسد والكلب والسنّور، ويقال: الضب أيضاً. وأمراض الكلاب ثلاثة: الكَلَب وهو جنون، والذبحة والنّقرس. والعرب تقول: دماء الملوك شفاء من عضّة الكلب الكَلِب والجنون والخَبَل. والكلب الكلِب إذا عضّ إنساناً فربّما أحاله نبّاحاً مثله ثم أحبله وألقحه بجراء صغار تراها علقاً في صور الكلاب.

والذئب إذا سفد الذئبة فالتحم الفرجان وهجم عليهما هاجم قتلهما كيف شاء، إلاّ أنهما لا يكادان يوجدان كذلك، لأن الذئب إذا أراد السفاد توخّى موضعاً لا يطؤه أنيس خوفاً على نفسه.

وقالوا في طبع الذئب محبة الدم، ويبلغ به طبعه أنه يرى الذئب مثله قد دمي فيثب عليه فيمزّقه. ويقولون: إن الذئب ربّما نام بإحدى عينيه وفتح الأُخرى. والذئب أشد السباع مطالبةً، وإذا عجز عوى عواءَ استغاثة فتسامعت الذئاب فأقبلت حتى تجتمع على الإنسان فتأكله.

والفيل يفزع من السنّور، وليس في جميع الحيوان شيء لذكوره ثدي في صدره إلاّ الانسان والفيل. ويعتري الفهد داء يقال له خانقة الفهود فإذا اعتراه أكل العذرة فبرأ.

قالوا: والأرنب تحيض، وقضيب الذكر من الأرانب ربما كان من عظم وكذلك قضيب الثعلب، والأرنب تنام مفتوحة العين. وإنفحة الأرنب إذا شربتها المرأة من بعد أن تطهر من المحيض مُنعت من الحَبَل. والكَلَفُ إذا طُلي بدم الأرنب أذهبه. والأرانب تتبدّل فيصير الذكر منها أُنثى وتصير الأُنثى ذكراً..

وليس شيء يجتمع فيه الزواج والغيرة إلاّ الانسان والقرد. وقال عمرو بن ميمون: زنت قردة في الجاهلية فرجمها القرود ورجمتُها معهم.

والخُفاش تحبل وتلِد وتحيض وتُرضع وتطير بلا ريش وربما ولدت وهي تطير،

ولها أذنان وأسنان وجناحان متصلان برجليها.

والزرزور يتبع الربيع وتُقلَع إحدى عينيه فترجع.

وأذناب الإفاعي تقطع فتنبت، ونابها يقطع بالعكّاز فينبت حتى يعود في ثلاث ليال. ومن الناس من يبصق في فم الحيّة فيقتلها بريقه. وليس في الأرض حيوان أصبر على جوع من حيّة ثم الضبّ بعدها. ومن جيّد ما يعالج به الملسوع أن يشق بطن الضفدع ثم يرفد به موضع لسعة العقرب. والضفدع لا يصيح حتى يُدخل حنكه الأسفل في الماء، فإذا صار في فيه بعض الماء صاح، ولذلك لا تسمع للضفادع نقيقاً إذا خرجنَ من الماء.

وكل شيء يأكل فهو يحرك فكّه الأسفل إلاّ التمساح فإنه يحرّك فكه الأعلى.

والضبّ يذبح فيمكث ليلة ثم يقرّب من النار فيتحرّك. والأفعى إذ ذُبحت تبقى أياماً تتحرك وإن وطئها واطىء نهشته. وللضب ذكران وللضبّة فرجان هكذا قال الأصمعي. وليس شيء يذخر إلاّ الإنسان والنملة والفأرة. والذرّة تدخّر في الصيف للشتاء فإذا خافت العفن على الحبوب أخرجتها إلى ظاهر الأرض تعرّضها للشمس، فإن خافت أن ينبت الحبّ نقرت وسط الحبّة لئلاّ تنبت.

٣٨٨

من ارتجّ عليه في الكلام

خطب أحدهم فارتجّ[١] عليه فلما بلغ «أمّا بعد» بقي صامتاً متحيراً، ونظر فإذا إنسان ينظر إليه فقال: لعنك الله! ترى ما أنا فيه وتلمحني ببصرك أيضاً!!

* وصعد اليربوعي فخطب فقال: أمّا بعد فوالله ما أدري ما أقول ولا فيمَ أقمتموني، أقول ماذا؟

فقال بعضهم: قُلْ في الزيت.

فقال: الزيت مبارك، فكلوا منه وادهنوا.

قال: فهو قول أهل التنكيت الظرّاف اليوم إذا قيل: لِمَ فعلت ذا، فقل في شأن

(١) ارتجّ عليه: امتنع عليه الكلام.

الزيت وفي حال الزيت.

* ولما أتى يزيد بن أبي سفيان الشام والياً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه خطب فارتجّ عليه، فعاد إلى الحمد لله فارتجّ عليه، فعاد إلى الحمد لله ثم ارتجّ عليه فقال: يا أهل الشام عسى الله أن يجعل من بعد عسرٍ يسراً، ومن بعد عيٍّ بياناً، وأنتم إلى أمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل. ثم نزل.

فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه.

* وارتجّ على عبد الله بن عامر بالبصرة يوم أضحى، فمكث ساعة ثم قال: والله لا أجمع[1] عليكم عِياً ولؤماً، من أخذ شاةً من السوق فهي له وثمنها عليَّ.

* وارتجّ على معن بن زائدة فضرب المنبر برجله ثم قال: أنا فتى حروب لا فتى منابر.

* وكان عبد ربّه اليشكري عاملاً لعيسى بن موسى على المدائن فصعد المنبر فحمد الله وارتجَّ عليه فسكت ثم قال: والله إني لأكون في بيتي فتجيء على لساني ألف كلمة، فإذا قمت إلى هذا المنبر جاء الشيطان فمحاها من صدري. ولقد كنتُ وما في الأيام يوم أحبُّ إليَّ من يوم الجمعة، فصرت وما في الأيام يوم أبغض إليَّ من يوم الجمعة، وما ذلك إلاّ لخطبتكم هذه.

٣٨٩

الحجاج وقارىء

قرأ الحجاج من سورة هود: ﴿قال يا نوحُ إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غير صالحٍ﴾ فلم يدرِ كيف يقرأ: عملٌ بالضم والتنوين، أو عَمِلَ بالفتح. فبعث حارساً فقال: إيتني بقارىء. فأتى به وقد ارتفع الحجاج عن مجلسه، فحبسه ونسيه حتى عرض الحجاج حبسه بعد ستة أشهر. فلما انتهى إليه قال له:

---

(١) أجمع: احضر الجمعة وأقيمها.

فيمَ حُبستَ؟

قال: في ابن نوح، أصلح الله الأمير، فضحك وأمر بإطلاقه.

٣٩٠

ما رأى إلّا شهباً

دخل بعض(١) الشعراء على بشر بن مروان فأنشده:

أعفيتُ عند الصبح نوم مُسهَّدٍ   في ساعةٍ ما كنتُ قبلُ أنامُها
فحلمتُ أنك رُعتني بوليدةٍ   مغنوجةٍ حسنٍ عليَّ قيامُها
وَببَدْرَةٍ(٢) حُملتْ إليَّ وبغلةٍ   دهماء(٣) مشرفةٍ(٤) يصلُّ لجامُها
دعوت ربّي أن يثيبك جنّةً   عِوضاً يصيبك بردُها وسلامُها

فقال له بشر: في كل شيء أصبت إلاَّ في البغلة فإنّي لا أملك إلاَّ شهباً(٥).

فقال: إنّي والله ما رأيت إلاَّ شهباً.

٣٩١

يستخير الله

عن خالد الحذاء قال:

خطبتُ امرأة من بني أسد فجئت لأنظر إليها وبيني وبينها رِواق(٦) يشفّ فدعت بجفنة مملوءة ثريداً(٧) مكلّلة باللّحم فأتتْ على آخرها، وأتتْ بإناء مملوءٍ لبناً أو نبيذاً

(١) هو الحكم بن عبدل كما في «الأغاني».
(٢) البدرة: كيس توضع فيه الدراهم.
(٣) البغلة الدهماء: السوداء.
(٤) المشرفة: السريعة العدو.
(٥) شهباء: بيضاء.
(٦) الرواق: كساء مرسل على مقدّم البيت من أعلاه إلى الأرض.
(٧) الثريد: نوع من الأكل.

فشربتُهُ حتى كفأته على وجهها ثم قالت: يا جارية ارفعي السجف[1] فإذا هي جالسة على جلد أسد وإذا شابة جميلة فقالت: يا عبد الله: أنا أَسَدة من بني أسد على جلد أسد وهذا مطعمي ومشربي فإن أحببتَ أن تتقدّم فافعلْ.

فقلتُ: أستخير الله وأنظر، فخرجت مسرعاً ولم أعدْ.

٣٩٢

انصرف رحمك الله

خطب خالد بن صفوان امرأة فقال: أنا خالد بن صفوان، والحسبُ على ما قد علمته، وكثرة المال على ما قد بلغك، وفيَّ خصال سأبيّنها لك فتقدمين عليَّ أو تدعين.

قالت: وما هي؟

قال: إن الحرّة إذا دنت منّي أملّتني، وإذا تباعدتْ عنّي أعلّتني، ولا سبيل إلى درهمي وديناري. ويأتي عليَّ ساعة من الملال لو أن رأسي في يدي نبذته.

فقالت: فقد فهمنا مقالتك ووعينا ما ذكرت، وفيك بحمد الله خصالٌ لا نرضاها لبنات ابليس فانصرفْ رحمك الله.

٣٩٣

وصايا الأولياء للبنات عند الزفاف

قالت امرأة لابنتها عند زفافها: اقلعي زجّ رمحه، فإنْ أقرّ فاقلعي سنانه، فإنْ أقرّ فاكسري العظام بسيفه، فإنْ أقرّ فاقطعي اللحم على تُرسه، فإنْ أقرّ فضعي الإكاف[2] على ظهره فإنّما هو حمار.

* وقال أبو الأسود الدؤلي لابنته: إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة، وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطّيب، وأطيب الطّيب إسباغ الوضوء،

---

(١) السجف: الستر.

(٢) الإكاف: السرج أو ما يوضع على ظهر الحمار.

وكوني كما قلت لأمّك في بعض الأحايين.

خــذي العفــو منّي تستــديمي مــودّتي ولا تنــطقي في سَــوْرتي حــين أغضبُ
فــإنّي وجـدت الحبّ في الصـدر والأذى إذا اجـتمـعـا لم يلبـث الحبُّ يــذهـبُ

٣٩٤

هذا طالب ولد

قال رجل لأعرابي: ما الزّنا عندكم؟

قال: القبلة والضمّة.

قال: ليس هذا زناً عندنا.

قال: فما هو؟

قال: أن يجلس بين شُعَبِها(١) الأربع ثم يجهد نفسه.

فقال الأعرابي: ليس هذا زِنا، هذا طالب ولد.

٣٩٥

ليلة الدّير

قيل لأبي الطمحان القيني: خبّرنا عن أدنى ذنوبك.

قال: ليلة الدّير.

قالوا: وما ليلة الدّير؟

قال: نزلت على ديرانية(٢) فأكلت مرقاً بلحم خنزير، وشربت من خمرها وزينت بها وسرقت كساءها ومضيت.

*

(١) شعب المرأة الأربع: يداها ورجلاها.

(٢) الديرانية: صاحبة الدير.

لم يخطىء قلب حبيبته

عن أبي مسكين قال:

خرج أناس من بني حنيفة يتنزهون إلى جبل لهم، فبصر فتىً منهم يقال له عباس بجارية فهويها وقال لأصحابه: والله لا أنصرف حتى أرسل إليها، فطلبوا إليه أن يكفّ وأن ينصرف معهم فأبى، وأقبل يراسل الجارية حتى وقع في نفسها، فأقبل في ليلةٍ مضيئة واضعاً قوسه على منكبه وهي بين أخوتها نائمة، فأيقظها، فقالت: انصرف وإلاَّ أيقظتُ أُخوتي فقتلوك.

فقال: والله الموت أيسر مّما أنا فيه، ولكن لله عليَّ أن أعطيتيني يدك حتى أضعها على فؤادي أن انصرف، فأمكنته من يدها، فوضعها على فؤاده ثم انصرف، فلما كان في الليلة التالية أتاها وهي في مثل حالها، فقالت له مثل مقالتها، وردّ عليها وقال: إن أمكنتيني من شفتيك أرشفهما انصرفت ثم لا أعود إليك، فأمكنته من شفتيها فرشفها ثم انصرف، فوقع في قلبها منه مثل النار، وعلم به الحيّ فقالوا: ما لهذا الفاسق في هذا الجبل! انهضوا بنا إليه حتى نخرجه منه، فأرسلت إليه: إن القوم يأتونك الليلة فاحذرْ، فلمّا أمسى قعد على مرقب[1] ومعه قوسه وأسهمه وأصاب الحيّ من آخر النهار مطر وندىً فلهوا عنه، فلما كان في آخر الليل وذهب السحاب وطلع القمر خرجتْ وهي تريده وقد أصابها الطلّ[2]، فنشرت شعرها وأعجبتها نفسها ومعها جارية من الحيّ، فقالت: هل لكِ في عبّاس؟ فخرجتا تمشيان، ونظر إليهما وهو على المرقب فظن أنهما ممن يطلبه، فرمى بسهم فما أخطأ قلب الجارية ففلقه. وصاحت الأخرى فانحدر من الجبل وإذا هو بالجارية في دمها، فقال:

نعب الغراب بما كرهـ ـتُ ولا إزالة للقَدَرْ
تبكي وأنت قتلتها فاصبرْ وإلاَّ فانتحرْ

ثم ضرب في أوداجه بحدّ سهمه، وجاء الحيّ فوجدوهما مقتولين فدفنوهما.

---

(١) المرقب: المكان العالي الذي يراقب منه.

(٢) الطلّ: الندى.

القسّ وسلاّمة

قال خلاّد الأرقط:

سمعت مشايخنا من أهل مكة يذكرون أن القسّ[1]، وهو مولى لبني مخزوم، كان عند أهل مكة في الفقه بمنزلة عطاء بن أبي رباح، وأنه مرّ يوماً بسلاّمة[2] وهي تغنّي، فوقف يسمع، فرآه مولاها فدنا منه فقال:

هل لك في أن تدخل وتستمع؟ فأبى، ولم يزل به فقال: أقعِدك في موضع لا تراها ولا تراك، ففعل، ثم غنّت فأعجبته، فقال: هل لك في أن أُحوّلها إليك؟ فتأبّى ثم أجاب، فلم يزل به حتى شغف بها وشغفت به، وعلم ذلك أهل مكة.

فقالت له يوماً وقد خَلَوَا: أنا والله أُحبّك.

فقال: وأنا والله أُحبّك.

قالت: فأنا أحبّ أن أضع فمي على فمك.

قال: وأنا والله.

قالت: وأنا أحب أن أضع صدري على صدرك.

قال: وأنا والله.

قالت: فما يمنعك؟ والله إن الموضع لخالٍ! فأطرق ساعة ثم قال: إني سمعتُ الله يقول: ﴿الأخِلاَّء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌّ إلاَّ المتّقين﴾ وأنا والله أكره أن تكون خُلّةُ[3] ما بيني بينك عداوةً يوم القيامة. ونهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها.

*

---

(١) القس: هو عبد الرحمن بن أبي عمار، كان فقيهاً وسمي القس لعبادته (راجع «الأغاني»).

(٢) سلاّمة: مغنية يقال لها سلامة القس نسبة إلى عبد الرحمن المذكور.

(٣) الخلّة: الصداقة والمحبة.

٣٩٨

الصمت وصون اللسان

قالوا: إن قس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟

فقال: هي أكثر من أن تُحصر، وقد وجدتُ خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلّها.

قال: وما هي؟

قال: حفظ اللسان.

٣٩٩

النساء يطلقن الرجال في الجاهلية

كانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية وكان طلاقهن إن يكنّ في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قِبَلِ المشرق حوّلنه إلى المغرب، وإن كان من قِبَلِ اليمن حولنه إلى الشام، وإن كان من قِبَلِ الشام حوّلنه إلى اليمن، فإذا رأى الرجل ذلك علم أن امرأته قد طلّقته فلم يأتها.

٤٠٠

ابن عبيد الله سئل فأحسن وأجاد

حُكي أن رجلاً كان جاراً لابن عبيد الله، فأصاب الناس قحط بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد في طلب المعيشة، وكانت له زوجة لا تقدر على السّفر، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له: إذا سافرت من الذي ينفق علينا؟

قال: إن لي على ابن عبيد الله ديناراً ومعي به أشهاد عليه شرعي. فخذي الأشهاد وقدميه إليه فإذا قرأه أنفق عليكِ مما عنده حتى أحضر ثم ناولها رقعة كتب فيها هذين البيتين:

قالت وقد رأت الاحمال محدجة[1] والبين قد جمّع المشكوّ والشاكي
من لي إذا غبت في ذا المحل قلت لها الله وابن عبيد الله مولاكُ

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها وأخبرته بسفره وناولته الرقعة فقرأها وقال: صدق زوجك، وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبر والاحسان إلى أن قدم زوجها فشكره على فضله وإحسانه.

٤٠١

وصية أم لابنتها ليلة زفافها

لما خطب عمرو بن حجر الكندي إلى عوف بن محلّم الشيباني ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك، أقبلت عليها أمّها ليلة دخوله بها توصيها. فكان ممّا أوصتها به أن قالت:

أي بنيّة إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت وعشك الذي منه درجتِ إلى رجل لم تعرفيه وقرينٍ لم تألفيه، فكوني له أَمَة ليكون لكِ عبداً، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لكِ ذخراً.

فأمّا الأولى والثانية، فالرضا بالقناعة وحسن السّمع له والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقّد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشمّ أنفه إلّا أطيب الريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقّد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدّة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالاحتراز لماله والارعاء على حشمه وعياله.

وأمّا التاسعة والعاشرة: فهي لا تعصي له أمراً، ولا تفشي له سراً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سرّه لم تأمني غدره، وإياكِ والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً.

فقبلت وصية أمّها فأنجبت له الحارث بن عمرو جدّ امرىء القيس الملك الشاعر.

---

(١) المحدجة: المحملة.

٤٠٢

من نوادر النحاة

جاء نحوي يعود مريضاً. فطرق بابه، فخرج إليه ولده فقال: كيف وجدت أباك؟

قال: يا عمّ، ورِمتْ رجليه.

قال: لا تلحن، قُلْ رجلاه. ثم ماذا؟

قال: ثم وصل الورم إلى ركبتاه.

قال: لا تلحن قُلْ إلى ركبتيه، ثم ماذا؟

قال: مات وأدخله الله في بظر عيالك وعيال سيبويه ونفطويه وجحشويه.

٤٠٣

الجاحظ ونوادر المعلمين

قال الجاحظ: مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكرة وطبل وبوق. فقلت ما هذه؟

فقال: عندي صغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفّر لي بضرطة. فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخّر فأضربه بالعصا الطويلة، فيفرّ من بين يديّ فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجه، فيقوم إليّ الصغار كلّهم بالألواح فأجعل الطبل في عنقي والبوق في فمي وأضرب الطبل وأنفخ في البوق فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إليّ ويخلّصوني منهم.

٤٠٤

هموم العاشق

قالت أعرابية: مسكين العاشق، كلّ شيء عدوّه: هبوب الرياح يقلقه، ولمعان البرق يؤرقه، ورسوم الدار تحرقه، والعذل يؤلمه، والتذكر يسقمه، والبعد ينحله، والقرب يهيّجه، والليل يضاعف بلاه، والرقاد يهرب منه، ولقد تداويت بالقرب

والبعد فلم ينجح فيه دواء، ولا عزّى فيه عزاء، ولقد أحسن الذي يقول:

وقد زعموا أن المحب إذا دنا يملُّ وأن النأي يشفي من الوجد
بكلٍ تداوينا فلم يشفِ ما بنا على أنَّ قرب الدار خير من البُعد

٤٠٥

العبرى الموَلَّهة

قال الأصمعي: دخلت على بعض مقابر الأعراب ومعي صاحب لي، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال، وعليها من الحُليّ والحُلل ما لم أرَ مثله، وهي تبكي بعينٍ غزيرةٍ، وصوت شجيّ. فالتفتُّ إلى صاحبي وقلت: هل رأيت أعجب من هذه؟

قال: لا، والله، ولا أحسبني أراه.

ثم قلت لها: يا هذه، إني أراك حزينة ما عليك زيّ الحزن.

فأنشأت تقول:

فإن تسألاني فيمَ حزني، فإنني رهينة هذا القبر يا فتيان
وإنّي لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه حين يراني

ثم اندفعت في البكاء، وجعلت تقول:

يا صاحب القبر، يا مَنْ كان ينعم بي بالاً، ويكثر في الدنيا مُواساتي
قد زرت قبرك في حُليّ وفي حُلَلي كأنني لستُ من أهل المصيباتِ
أردت آتيك فيما كنتُ أعرفه أن قد تسرُّ به من بعض هيئاتي
فمن رآني رأى عبرى موَلَّهةً عجيبة الزيّ تبكي بين أمواتِ

*

لـغـز

قال أحدهم:

وشيء مـن الأجسـام غـيرُ مجسَّـمٍ   لـه حـركـاتٌ تـارةً وسـكـونُ
إذا بـانت[١] الأنـوار بـان لنـاظـري   وأمّـا إذا بـانـت[٢] فـليس يـبـين[٣]

الخنساء الأمّ المثالية

قيل: حضرت الخنساء بنت عمرو الشريد حرب القادسيّة ومعها بنوها أربعة رجالٍ، فقالت لهم من أول الليل: «إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنتُ أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجّنت حسبكم، ولا غيّرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدنيا الفانية. يقول الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فاذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها واضطرمت لظىً عن سيَّاقها، وجلّلت ناراً على أوراقها، فتيمّموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغُنم والكرامة في دار الخلد والمقامة.

فخرج بنوها قابلين لنصحها، عازمين على قولها، فلـمَّا أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم وقاتلوا قتالاً قاسياً حتى استشهدوا.

فبلغها الخبر فقالت: «الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته».

---

(١) بانت: ظهرت. (٢) بانت: اختفت. (٣) اللغز هو: الظلّ.

٤٠٨

الشوقُ يمنعه

قال عباس بن الأحنف:

قــالــوا تنــام، فقلت الشــوق يمنعـني ... من أن أنــام وعيني حشــوهــا السُّهُــدُ
أبـكـي الـذيـن أذاقـوني مـودّتهـم ... حتى إذا أيـقـظوني لـلهـوى رقـدوا
هم قـد دعـوني فلمّا قمتُ مـقتضيـاً ... للحبّ نحـوهُمُ من قُـربهم بـعـدوا
لأخـرجنَّ مـن الـدنـيـا وحبّـهُـمُ ... بـين الجـوانـح لم يـشعـر بـه أحـدُ

٤٠٩

حُسن المرأة

قال بعض حكماء أهل الأدب: كمال حُسن المرأة أن تكون أربعة أشياء منها شديدة البياض، وأربعة شديدة السواد، وأربعة شديدة الحمرة، وأربعة أشياء مدوّرة، وأربعة واسعة، وأربعة ضيّقة، وأربعة رقيقة، وأربعة عظيمة، وأربعة صغاراً، وأربعة طيّبة الريح.

فأمّا الأربعة الشديدة البياض: فبياض اللون، وبياض العين، وبياض الأسنان، وبياض الظُّفْر.

وأمّا الأربعة الشديدة السواد: فشعر الرأس، والحاجبين، والحدقة، والأهداب.

وأما الشديدة الحمرة: فاللسان، والشفتان، والوجنتان، واللّثة.

وأمّا المدوّرة: فالرأس، والعين، والساعد، والعرقوبان[١].

وأمّا الواسعة: فالجبهة، والعين والصدر، والوركان.

وأمّا الضّيقة: فالمنخران، والأذنان، والسرّة، والفرج.

وأمّا الرقاق: فالحاجب، والأنف، والشفتان، والخصر.

وأمّا العظيمة: فالهامة، والمنكبان، والأضلاع، والعجز.

---

(١) العرقوب: عصب غليظ فوق مؤخر القدم.

وأمّا الصغار: فالأذنان، والفم، واليدان، والرجلان.
وأمّا الطيبة الريح: فالأنف، والفم، والإبط، والفرج.

٤١٠

من أنباك أن أباك ذيبُ

رُوي عن الأصمعي أنه قال: دخلت البادية فاذا عجوز بين يديها شاةٌ مقتولة وجرو ذئب جالس على مؤخرته فنظرت إليها فقالت: أتدري ما هذا؟ قلت: لا. جرو ذئب أخذناه وأدخلناه بيتنا، فلما كبر قتل شاتنا وقد قلت في ذلك شعراً. قلت لها: ما هو؟ فأنشدته:

بقرتَ شويهتي[1] وفجعت قلبي ... وأنت لشاتنا ولدٌ ربيبُ
غُذيت بدرّها وربيت فينا ... فمن أنباك[2] أن أباك ذيبُ؟
إذا كان الطباع طباع سوءٍ ... فليس بنافع فيها الأديبُ

٤١١

احتفظي بالدّيك

وُلّي رجل مُقِلّ[3] قضاء الأهواز[4]، فأبطأ عليه رزقه، وحضر عيد الأضحى وليس عنده ما يضحّي به ولا ما ينفق، فشكا ذلك إلى زوجته، فقالت له: لا تغتمّ، فإن عندي ديكاً جليلاً سمّنته، فإذا كان عيد الأضحى ذبحناه. فلما كان يوم الأضحى، وأرادوا الديك للذبح، طار على سقوف الجيران، فطلبوه. وفشا الخبر في الجيران وكانوا مياسير[5]، فرقّوا للقاضي، ورثوا لقلّة ذات يده، فأهدى إليه كل واحد

(١) شويهتي: شاتي.
(٢) أنباك: أنبأك وأخبرك.
(٣) المقل: الفقير الحال.
(٤) الأهواز: إقليم في فارس.
(٥) المياسير: الأغنياء.

منهم كبشاً، فاجتمعت في داره أكبش كثيرة، وهو في المصلّى ولا يعلم. فلما صار إلى منزله، ورأى ما فيه من الأضاحي قال لامرأته: من أين هذا؟

قالت: أهدى إلينا فلان وفلان ـ حتى سمّت جماعتهم ـ ما ترى.

قال: ويحك! احتفظي بديكنا هذا فما فُديَ إسحاق بن إبراهيم[1] إلاَّ كبش واحد، وقد فُدِيَ ديكنا بهذا العدد.

٤١٢

فكّرْ واحسبْ

قال الشيخ تاج الدين الحموي:

اثنان من بعدهما تسعة   وسبعة من قبلها أربعُ
وخمسةٌ ثم ثلاث ومِنْ   بعد ثلاثٍ ستةٌ تتبعُ
ثم ثمانٍ قبلها واحدٌ   فرتّب الأعداد إذ تُجمع[2]

٤١٣

التسابق في الجود

تراهن ثلاثة نفر من الأجواد، فقال بعضهم: أجود الناس في عصرنا قيس بن سعد بن علقمة، وقال آخر أجود الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر وقال آخر: أجود الناس في عصرنا هذا عرابة الأوسي. فتشاجروا في ذلك فأكثروا. فقال لهم الناس: يمضي كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العِيان.

---

(١) المعروف ان المفدى هو اسماعيل بن ابراهيم وليس إسحق.

(٢) هذه صورة اللغز. وفي علم الرياضيات، هي صورة «مربع سحري» حيث مجموع كل ثلاثة من أعداده، أفقياً أو عمودياً أو قطرياً، هو نفسه ويساوي ١٥.

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦
١٥	١٥	١٥

فقام صاحب عبد الله بن جعفر فصادفه وهو يجهّز لبعض أسفاره على راحلته، فقال: يا ابن عم رسول الله (ص) أنا ابن سبيل منقطع أريد رفدك[1] لأستعين به، وكان قد وضع رجله على ظهر الدابة فأخرج رجله وقال: خذها (أي الدابة) بما عليها. فأخذها فإذا عليها مطارف خزٍ[2] وألفا دينار.

ومضى صاحب قيس بن سعد فصادفه نائماً فقرع الباب، فخرجت إليه جارية فقالت: ما حاجتك فإنه نائم؟

قال: ابن سبيل منقطع أتيت إليه يعينني على طريقي.

فقالت الجارية: حاجتك أهون عليَّ من إيقاظه. ثم أخرجت له صرّة فيها ثلاثمائة دينار، وقالت له: امضِ إلى معاطن[3] الإبل، فاختر لك منها راحلة فاركبها وامضِ راشداً. فمضى الرجل فأخذ المال والراحلة. ولما استيقظ قيس بن منامه أخبرته الجارية بالخبر فأعتقها[4] ومضى صاحب عرابة فوجده قد عميَ، وقد خرج من منزله يريد المسجد، وهو يمشي بين عبدين، فقال: يا عرابة، ابن سبيلٍ منقطع يريد رفدك. فقال: واسوأتاه!! والله ما تركت الحقوق في بيت عرابة الدرهم الفرد، ولكن يا ابن أخي خذ هذين العبدين.

فقال الرجل: ما كنت بالذي أقصُّ جناحيك.

فقال: والله، لا بدّ من ذلك، وإن لم تأخذهما فإنهما حُرّان، فنزع يديه من العبدين ورجع إلى بيته، وهذا الجدار يلطمه، وهذا الجدار يصدمه حتى أثّر في وجهه.

فلما اجتمعوا حكموا لصاحب «عرابة» بالجود.

*

(١) الرفد: العطاء.
(٢) مطارف الخزّ: الأردية الحريرية.
(٣) المعاطن: أمكنة بروك الإبل.
(٤) اعتقها: أطلق سراحها وجعلها حرّة.

٤١٤

أوصيك بالصبيّة خيراً

قال الأصمعي: حضر أعرابي عند الحجاج، فَقُدّم إليه فطيراً طيباً، فلما أكل الأعرابي منه قليلاً وتذوَّق لذّته، قال الحجاج: من أكل هذا ضربت عنقه، فامتنع الناس، فجعل الأعرابي ينظر إلى الحجاج مرّة وإلى الطعام مرّة، ثم قال: أُوصيك أيها الأمير بالصبية خيراً! وابتدأ يأكل.

فضحك الحجاج حتى استلقى على ظهره، وأمر له بجائزة.

٤١٥

أيكون أكرم من حاتم؟!

قيل: سأل رجل حاتماً الطائي فقال: يا حاتم هل غلبك أحد في الكرم؟

قال: نعم غلام يتيم من طيء نزلت بفنائه، وكانت له عشرة أرؤس من الغنم، فعمد إلى رأس منها فذبحه، وأصلح من لحمه، وقدّم إليَّ، وكان فيما قدّم إليَّ الدماغ، فتناولت منه فاستطبته فقلت: طيّب والله. فخرج من بين يدي، وجعل يذبح رأساً رأساً، ويقدم إليَّ الدماغ وأنا لا أعلم. فلما خرجت لأرحل نظرت حول بيته دماً عظيماً، وإذا هو قد ذبح الغنم بأسره. فقلت له: لِمَ فعلت ذلك؟ فقال: يا سبحان الله تستطيب شيئاً أملكه فأبخل عليك به، إن ذلك لسبّة[1] على العرب قبيحه.

قيل: يا حاتم: فما الذي عوّضته؟

قال: ثلاثمائة ناقة حمراء، وخمسمائة رأس من الغنم.

فقيل: أنت إذاً أكرم منه.

فقال: بل هو أكرم، لأنه جاد بكل ما يملكه وإنّما جدت بقليلٍ من كثير.

---

(١) السُبَة: العار.

٤١٦

غداً تفرغي للدمع والسهر

قال أُسامة بن منقذ

يا عينُ في ساعة التوديع يشغلك الـ ... ـبُكاء عن لذّة التوديع والنظرِ
خذي بحظّكِ منهم قبل بينهمُ ... ففي غدٍ تفرغي للدمع والسّهرِ

٤١٧

ما أكثر أسماءه وأقلّ ثمنه

قيل: إن أعرابياً صاد سِنّوراً فلم يعرفه، فتلقّاه رجل فقال: ما هذا السنّور؟ ولقي آخر فقال: ما هذا الهرّ؟ ثم لقي آخر فقال: ما هذا القطّ؟ ثم لقي آخر فقال: ما هذا الخيطل؟ ثم لقي آخر فقال: ما هذا الدّمُ؟

فقال: أحمله وأبيعه لعلّ الله تعالى يجعل لي فيه مالاً كثيراً. فلمّا أتى به إلى السوق قيل له: بكم هذا؟

فقال: بمائة.

فقيل له: إنه يساوي نصف درهم.

فرمى به وقال: لعنه الله، ما أكثر أسماءه وأقلّ ثمنه.

٤١٨

القليل الخبرة بالمساحة

يحكى أن أعرابياً راود امرأة عن نفسها فأنعمت له[1]، فلما قعد بين شعبتيها[2] قام عنها ولم يقض وطره[3] ولا عفى من غرضه أثراً[4] فقالت له: يا هناهْ[5] ما الذي أصابك وقد بلغت مناك؟

---

(١) أنعمت له: لانت ووافقت.
(٢) شعبتاها: فخذاها.
(٣) الوطر: الحاجة.
(٤) أي لم يصل إلى شيء مما كان عازماً عليه.
(٥) هناه: أي: يا رجل.

فقال: إن رجلاً يبيع جنّةً عرضها السموات والأرض بإصبعين بين فخذيكِ لقليل الخبرة بالمساحة.

٤١٩

البخل

قال بعضهم: دخلت الكوفة فرأيت صبياً قائماً عند شقّ حائطٍ ومعه خبز وهو يكسر اللقمة ويتركها في شقّ الحائط ويأكلها، فبينما أنا أنظر إليه إذ أقبل أبوه فرأى ما يفعل فقال: إيْش تصنع؟

قال: يا أبتِ هؤلاء قد طبخوا سكباجة[1] ويأتي النسيم بريحها فآكل خبزي.

فلطمه أبوه وقال: تتصوّر من صغرك أن لا تأكل خبزاً إلّا بإدام.

٤٢٠

يأخذ بالإحتياط

خرج رجل إلى قرية فأضافه خطيبها فأقام عنده أياماً، فقال له الخطيب: أنا منذ مدّة أصلّي بهؤلاء القوم وقد أشكل عليَّ في القرآن بعض مواضع.

قال: سَلْني عنها.

قال: منها في «الحمد لله» إيّان نعبد وإيّاك أي شيء تستعين أو سبعين؟ أشكلت عليّ فأنا أقولها تسعين آخذ بالإحتياط.

٤٢١

الرجال أربعة

قال الخليل: الرجال أربعة:

رجل يدري أنه يدري، ذلك هو العالم، فسلوه.

---

(١) السكباج: مرق يعمل من اللحم والخلّ.

ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك الناسي فذكّروه.
ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فعلّموه.
ورجل لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فذلك الأحمق فارفضوه.

٤٢٢

قسم قلبه رياضياً

قال أحدهم لحبيبه:

لك الثلثان من قلبي وثُلثا ثُلثه الباقي
وثُلثا ثُلث ما يبقى وثُلث الثُلث للساقي
وتبقى أسهم سِتٌ تُقسَّم بين عشّاقي

فانظر إلى هذا الشاعر وبلاغته وتحسين عبارته، كيف أغمض كلامه وقسّم قلبه وجعله مجزّأً على أحد وثمانين جزءاً هي مضروب ثلاثة في ثلاثة، ليصحّ منها مخرج ثُلث ثُلث الثُلث، فجعل لمن خاطبه أربعة وسبعين جزءاً من قلبه، وجعل للساقي جزءاً وبقي الستة الأجزاء ففرّقها فيمن يحبّ.

٤٢٣

مروان بن الحكم وحويطب

قيل:

كان حُويطب بن عبد العزّى قد بلغ عشرين ومائة سنة، ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام.

فلما ولي مروان بن الحكم المدينة، دخل عليه حويطب فقال له مروان:
ما سنّك؟ فأخبره.
فقال له: تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث.
فقال: والله، لقد هممت بالاسلام غير مرّة، وكان يعوقني أبوك عنه، وينهاني

ويقول: أتدع دين آبائك لدين محدث؟
قال: فأسكَتَ مروان، وندم على ما كان منه.

٤٢٤

في الألغاز

* قال أحدهم ملغّزاً في غزال(١):

اسم من قد هويته ظاهر في صروفه
فإذا زال ربعه زال باقي حروفه

* وقال أحدهم ملغّزاً في دواة:

وما أمٌّ يجامعها بنوها وليس عليهمُ تجب الحدودُ
كأنهمُ إذا ولجوا حشاها أفاعي في أماكنها رقودُ

* وقال أحدهم ملغّزاً في قلم:

وأهيف مذبوح على صدر غيره يترجم عن ذي منطق وهو أبكمُ
تراه قصيراً كلما طال عمره ويضحى بليغاً وهو لا يتكلّمُ

وفيه أيضاً:

بصير بما يوحى إليه وما له لسان ولا قلب ولا هو سامعُ
كأن ضمير القلب باح بسرّه إليه إذا ما حرّكته الأصابعُ

* وقال أحدهم ملغّزاً في كتاب:

وذي أوجهٍ لكنه غير بائحٍ بسرٍّ وذو الوجهين للسرّ يظهر
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه فتسمعها بالعين ما دمت تبصر

(١) «المستطرف»، ٢: ٤٤١.

* وقال أحدهم ملغّزاً في ساقية:

وجـاريـة لـولا الحـوافـر مـا جـرت ... أشـاهـدهـا تجري وليس لهـا رجـلُ
وتـرضـع أطـفـالاً ولا هـي أمّـهـم ... ولـيس لهـا ثـدي ولـيس لهـا بـعـلُ

* وقال أحدهم ملغّزاً في دملج:

إلى الـنـسـاء يـلـتـجـي ... وعـنـدهـنَّ يـوجـدُ
الجـسـمُ مـنـه فـضـةٌ ... والـقـلب مـنـه جـلمـد

* وقال أحدهم ملغّزاً في نار:

ومـا اسم ثـلاثيّ بـه النفع والضـرْ ... لـه طلعـة تغني عن الشمس والـقمـر
ولـيس لـه وجـه ولـيس لـه قـفـا ... ولـيس لـه سـمـع ولـيس لـه بصر
يمـدُّ لسانـاً يختشي الـرمـح بـأسـه ... ويهـزأ يـوم الضرب بـالصارم الـذكر
يمـوت إذا مـا قمت تسقيـه عـامـداً ... ويـأكـل مـا يلقى من النبت والشجر
فيـا قـارىء الأبيـات دونـك شرحهـا ... وإلاَّ فـنـم عـنـهـا ونـبّـه لهـا عـمـر

* وقال أحدهم ملغّزاً في اسم علي:

اسـم الـذي أعـشـقـه ... أوّلـه في نـاظـره
إن فـاتـنـي أوّلـه ... فـإن لي في آخـره

* وقال أحدهم ملغّزاً في البيضة[1]:

ألا قُل لأهـل الـرأي والعلم والأدب ... وكـلّ بـصـير بـالأمـور أخـي أرب
ألَا خـبّروني أيّ شيءٍ رأيـتـمُ ... من الـطير في أرضٍ الأعـاجم والعـرب
قـديم حـديث وهـو بـادٍ وحـاضرٌ ... يُصـادُ بـلا صيدٍ وإن جدَّ في الـطلب
ويـؤكـل أحيـانـاً طـبيخـاً وتـارةً ... قـليـاً ومـشـويـاً إذا دُسَّ في الـلّهـب
ولـيس لـه لحـمٌ ولـيس لـه دمٌ ... ولـيس لـه عـظمٌ وليس لـه عَـصَـب

(١) «العقد الفريد»، ٦: ٤٧٣.

وليس له رجل وليس له يدٌ ... وليس له رأس وليس له ذنب
ولا هو حيٌّ، لا، ولا هو ميّتٌ ... ألا خبّروني إن هذا هو العجب

* وقال آخر ملغّزاً في الموز:

ما اسم لشيءٍ حسنٍ شكله ... تلقاه عند الناس موزونا
تراه معدوداً فان زدته ... واواً ونوناً صار موزونا؟

٤٢٥

بذل الدراهم يرضي كلَّ إنسان

قيل: إن بصرياً دخل مدينة بغداد مرّة، فلم يزل يمضي في محالّها حتى انتهى إلى قطيعة الربيع، فاذا بجارية مشرفة تنظر إلى الطريق فهويها، فلم يزل يكتب إليها فلا تجيبه، فكتب إليها يوماً رقعةً يشكو فيها شوقه وفي آخرها:

هل تعلمين وراء الحب منزلةً ... تُدني إليك فإنَّ الحبّ أقصاني

فكتبت إليه:

نعم حبيبي وراء الحبّ منزلةٌ ... بذلُ الدراهم يُرضي كلَّ إنسانِ
من زاد في الوزن زدنا في محبّته ... ما يطلب الدهر إلاَّ فضل رُجحانِ

٤٢٦

في نوادر العرب

* صلى أعرابي مع قوم فقرأ الإمام:

﴿قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا﴾[1].

فقال الأعرابي: أهلكك الله وحدك. ايش كان ذنب الذين معك. فقطع القوم الصلاة من شدّة الضحك.

---

(١) سورة الملك: الآية ٤٨.

* وقيل:
دخلت أعرابية على قوم يصلون. فقرأ الإمام:
﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾.

وجعل يردّدها، فجعلت الأعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لأختها فقالت يا أُختاه: ما زال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا عليَّ.

وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندمائه فاحتاج إلى بيت الخلاء، فدلوه عليه، فلما دخل جعل يضرط ضرطاً شنيعاً، فضحكوا عليه فأنشد يقول:

إذا ما خلا الانسان في بيت غائطٍ تراخت بلا شك مصاريع فتحه
فمن كان ذا عقلٍ فيعذر ضارطاً ومن كان ذا جهلٍ ففي وسط لحيته

* وصلّى أعرابي خلف إمام فقرأ «إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه». ثم وقف وجعل يردّدها، فقال الأعرابي، أرسل غيره يرحمك الله، وأرحنا وأرح نفسك.

* وصلّى آخر خلف إمام فقرأ «فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي».
ووقف وجعل يرددها، فقال الأعرابي: يا فقيه إذا لم يأذن ذلك أبوك في هذا الليل نظلّ نحن وقوفاً إلى الصباح، ثم تركه وانصرف.

* وكان لبعضهم ولد نحوي يتقعّر في كلامه، فاعتلّ أبوه علّة شديدة أشرف منها على الموت. فاجتمع عليه أولاده، وقالوا له: ندعو لك فلاناً أخانا.
قال: لا إن جاءني قتلني.
فقالوا: نحن نوصيه أن لا يتكلّم، فدعوه، فلما دخل عليه قال له يا أبتِ: قل لا إله إلاّ الله تدخل بها الجنة وتفوز من النار، يا أبتِ: والله ما أشغلني عنك إلاّ فلان، فإنه دعاني بالأمس فأهرس وأعدس واستبذج وسكبج وطهبج وأفرج ودجّج وأبصل وأمضر ولوزج وافلوزج.
فصاح أبوه غمّضوني، فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحي.

* وقال أبو عثمان الجاحظ:
وقف سائل بقوم فقال: إني جائع.

فقالوا له: كذبت.

فقال: جرّبوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم.

* ووقف سائل على باب، فقالوا يفتح الله عليك.

فقال: كسرة.

فقالوا: ما نقدر عليها.

قال: فقليل من برٍّ أو فول أو شعير.

قالوا: لا نقدر عليه.

قال: فقطعة من دهن أو قليل زيت أو لبن.

قالوا: لا نجده.

قال: فشربة ماء.

قالوا: وليس عندنا ماء.

قال: فما جلوسكم ههنا، قوموا فاسألوا: فأنتم أحقّ منّي بالسؤال.

* وقال بعضهم:

رأيت مؤذناً أذّن ثم غدا يهرول، فقلت له: إلى أين؟

فقال: أحب أن أسمع أذاني أين بلغ.

* وشوهد مؤذّن يؤذّن من رقعة، فقيل له: ما تحفظ الأذان؟

فقال: سلوا القاضي.

فأتوه، فقالوا: السلام عليكم، فأخرج دفتراً وتصحيفة وقال: وعليكم، فعذروا المؤذّن.

٤٢٧

الرشيد وعود زرياب

قالوا:

لما استقبل هارون الرشيد زرياب المغنّي وسأله عن شأنه في الغناء أجابه:

أُحسن منه ما يحسنه الناس، وأكثر ما أُحسنه. وممّا لا يحسنونه، ولا يُحسن إلاّ

عندك، ولا يدخر إلّا لك، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك.

فاستدعى له الرشيد بعود اسحاق الموصلّي فأبى زرياب وقال: لي عود نحته بيدي، وأرهفته بأحكامي ولا أرتضي غيره.

فأمر الرشيد بإحضار ذلك العود. ولما رآه لا يختلف عن عود إسحاق قال له: ما منعك أن تستعمل عود استاذك؟ فأجاب:

إن كان مولاي يرغب في غناء استاذي غنيته بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بدّ لي من عودي.

فقال الرشيد: ولكني ما أراهما إلّا واحداً.

فقال زرياب: صدقت يا مولاي، ولا يؤدي النظير غير ذلك ولكن عودي وإن كان في قدر حجم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع في وزنه في الثلث أو نحوه، وأوتاري من حرير لم يغسل بماء سخن يكسبها أنوثه ورخاوة وبمّها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدّة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب ما ليس لغيرها.

٤٢٨

كتاب الشكوك

مات لصالح بن عبد القدوس ـ وكان من المعتزلة ـ غلام فمضى إليه أبو الهذيل ومعه النظّام وهو غلام حدث، فرآه حزيناً. فقال له:

لا أعرف لجزعك وجهاً إلّا إذا كان الإنسان عندك كالزرع حصاده في وقت معيّن.

فقال: إنما أجزع لأنه لم يقرأ كتاب «الشكوك».

قال أبو الهذيل: وما كتاب الشكوك؟

قال: كتاب وضعته من قرأ فيه شكَّ في ما كان، حتى يتوهَّم أنه لم يكن، وشكَّ فيما لم يكن، حتى يظن أنه قد كان.

قال أبو الهذيل: فشكّ أنت في موت ابنك واعملْ على أنه لم يمتْ، وإن كان قد مات. وشكَّ أنه قد قرأ ذلك الكتاب، وإن كان لم يقرأه.

٤٢٩

الله يحب مكارم الأخلاق

روى صاحب الأغاني أن بنت حاتم الطائي كانت في نساء سباها المسلمون، فلما طلبها أحدهم إلى النبي (ص) قالت:

يا محمد، هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عنّي، فلا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيّد قومي، كان أبي يفك العاني، ويحمي الذمار، ويقري الضعيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردّ طالب حاجة قط، ثم هتفت في عزّة وإباء: أنا بنت حاتم الطائي.

ففاضت نفس النبي تأثراً وقال لها:

يا جارية هذه صفة المؤمن. خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق.

٤٣٠

الفقر في النفس لا في المال

روى ابن الأنباري أن سليمان بن علي وجّه وهو بالأهواز إلى الخليل بن أحمد رسولاً يدعوه لتأديب ولده فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً وقال له: كل فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان.

فقال الرسول: فما أبلغه؟

فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سعةٍ ... وفي غنىً غير أني لست ذا مالِ
والفقر في النفس لا في المال تعرفه ... ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

*

٤٣١

الإمام عليّ والأعرابي

كان الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول:

من كانت له إليّ حاجة فليرفعها في كتاب لأصون وجهه عن المسألة.

وذات يوم جاء أعرابي فقال:

يا أمير المؤمنين. إن لي إليك حاجةً يمنعني من ذكرها الحياء. ولست أملك ما أشتري به قرطاساً ولا قلماً.

فقال له: خُطّها في الأرض.

فكتب الأعرابي: إني فقير.

فقال الإمام: يا قنبر، اكسُهُ حلّتي.

٤٣٢

رغبتها كلها في عبادة الله

دخل تاجر على رابعة العدوية، وقدّم لها ألف درهم من الذهب وبيتاً تسكنه. وبعد إلحاح قبلت الهدية، ولكنها ما كادت تدخل البيت حتى استغرقت في تأمّل الزخرف والطلاء، فأحسّت كأنها خرجت من طورها، فانتفضت مستغفرةً لهذا الاستغراب وارتدت إلى صاحب البيت تردّ هديته قائلة:

أخشى أن يتعلّق قلبي ببيتك فيشغلني عن عمل الآخرة. إن رغبتي كلّها أن أفرغ لعبادة الله.

٤٣٣

الشاة لا يضرّها السلخ بعد الذبح

لبث عبد الله بن الزبير على إمرة المؤمنين ثماني سنوات ثم بدأ ينهزم أمام جيوش عبد الملك بن مروان، حتى لم يبق له إلّا مكة المحاصرة بجند الحجاج، ولما طلب منه الحجاج أن يغمد سيفه ليبسط للأمويين يد البيعة، دخل عبد الله على أمّه أسماء بنت

أبي بكر وقال لها:

يا أمه، خذلني حتى أهلي وولدي، وقد أعطاني القوم ما أردت من العهد.

فأجابته: الله الله يا بنيّ. إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه فامضِ عليه، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت.

أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت إنك كنت على حقّ فلما وهن أصحابك ضعفت فليس هذا فعل الأحرار، كم خلودك في الدنيا؟ ألقتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير ووالله لضربة بالسيف في عزٍ أحبّ إليّ من ضربة بالسّوط في ذلّ.

فقال عبد الله: يا أمّاه، إن قتلني أهل الشام فسوف يمثلون بي ويصلبوني.

فأجابته: يا بنيّ إن الشاة لا يضرّها السّلخ بعد الذبح. امضِ غير متردد ولا هيَّاب.

٤٣٤

رزقها على الله

قالوا:

ضربت بدوية فقيرة خباء من شعر، في بستان صغير، كانت تعيش على محصوله. وذات ليلة، غامت السماء وأرعدت، ثم تساقط برد أفسد الزرع. فلمّا هدأت العاصفة أطلّت الأعرابية برأسها من الخباء. ونظرت إلى الزرع وقد ذوى.

ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت:

اصنعْ يا إلهي ما شئت، فإنّ رزقي عليك.

٤٣٥

اصنعْ ما أحبّ الله

تغيّظ عبد الملك بن مروان من رجاء بن حيّان فقال:

والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا.

فلما صار بين يديه قال له رجاء:

يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحبَّ الله.

فعفا عنه وأمر له بصلة.

٤٣٦

الخنساء تصف أخويها

قيل للخنساء: صفي لنا أخويك صخراً ومعاوية.

فقالت: كان صخر جنة الزمان الأغبر، وزعاف الخميس الأحمر، وكان معاوية القائل الفاعل.

فقيل لها: فأيهما أسخى وأفخر؟

قالت: أما صخر فحر الشتاء، وأمّا معاوية فبرد الهواء.

قيل لها: فأيهما أوجع وأفجع؟

قالت: أمّا صخر فجمر الكبد، وأمّا معاوية فسقام الجسد.

٤٣٧

من أقوال الخلفاء

قال عمر بن الخطاب: رحم الله أمرأً أهدى إليَّ عيوبي.

وقال الإمام علي: فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها.

وقال عثمان بن عفان: يكفيك من حاسد أنه يغتمّ وقت سرورك.

وقال الامام الحسن بن علي: ما تمّ دين رجل حتى يتمّ عقله.

وقال عمر بن عبد العزيز لمزاحم مولاه: إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي، فان سمعت منيّ كلمة تربأ بي عنها، أو فعالاً لا تحبّه فعظني فيه وانهني عنه.

٤٣٨

معاوية والأحنف

خطب معاوية يوماً فقال:

إن الله تعالى يقول: وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه، وما ننزله إلاّ بقدر معلوم. فعلام تلومونني إذا أنا قصّرت في عطاياكم؟

فأجابه الأحنف قائلاً:

نحن لا نلومك على ما في خزائن الله . . . ولكن على ما أنـزل الله من خزائنـه، فجعلته في خزائنك وحُلت بيننا وبينه.

٤٣٩

عمر بن الخطاب والمستعطي

سمع عمر بن الخطاب سائلاً يستعطي بعد المغرب، فقال لرجل في مجلسه: قم وعشِّ الـرجل، فعشّـاه ثم سمعه ثـانيـة يسـأل فقـال للرجـل: ألم أقـل لـك عشّ الرجل؟!

قـال: قد عشّيتـه، فنظر عمـر فإذا تحت يـده مخلاة مملوءة خبـزاً فقال لـه عمر: لست سائلاً ولكنك تاجر، ثم أخذ المخـلاة ونثرهـا بين يـدي أهل الصـدقة وضربـه بالدرّة وقال له: لا تعدْ.

٤٤٠

استيقظ وأنصف الناس

قال الطرطوشي:

أرق عبد الملك بن مروان فاستدعى من يحدثه، فكان مما قيل له:

كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة، فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة ابنتهـا لابنها. فقالت بومة البصرة.

لا أفعل إن لم تجعلي لي صداقها مئة ضيعة خراب.

فقالت بومة الموصل: لا أقدر على ذلك الآن ولكن إن دام حكم والينـا ـ سلّمه الله ـ سنة واحدة فعلت.

قال: فاستيقظ عبد الملك، وجلس للمظالم وأنصف الناس.

*

٤٤١

حدود الله

استشفع أسامة بن زيد النبي محمد (ص) برجلٍ وجب عليه حد السرقة، فانتهره النبي بقوله:

أتشفع في حدٍ من حدود الله. والله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

٤٤٢

زفرات المظلومين

اتّجر شرّير بشقاء الحطّابين، فكان يستنزف جهودهم، ويستثمر جهادهم، دون أن يصغي إلى إرشاد ناصح.

وذات ليلة امتدّت نار موقدة إلى داره فالتهمتها، وأتت على كل ما جمعه في باحتها من أكوام الحطب، ولم يبق له من وسائد الحرير إلاّ ركام من رماد. فلمّا طفق يندب سوء طالعه، ويعجب للنار كيف علقت داره، قال له أحد الحكماء:

أتعجب لذلك؟ والتي أحرقت دارك هي زفرات من ظلمتهم من البائسين.

٤٤٣

أمر الدنيا والآخرة

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري يطلب إليه أن يجمع له أمر الدنيا وأمر الآخرة في كتاب فأجابه:

إنما الدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط.. ونحن في أضغاث الأحلام. من حاسب نفسه، ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضلّ، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل. فإذا زللت فارجع وإذا ندمت فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فامسكْ.

٤٤٤

بين المنصور وجعفر الصادق

كتب المنصور إلى الإمام جعفر الصادق:

لِمَ لا تغشانا كما تغشانا الناس؟

فأجابه: ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه، وما عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنئك بها، ولا نعدّها نقمةً فنعزّيك لها!

فكتب إليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا.

فأجابه: من يطلب الدنيا لا ينصحك، ومن يطلب الآخرة لا يصحبك.

٤٤٥

الثائر خليل مطران

قال خليل مطران:

كسّروا الأقلام هل تكسيرها ... يمنع الأيدي أن تنقش صخرا
قطعوا الأيدي، هل تقطيعها ... يمنع الأعين أن تنظر شزرا
واطفئوا الأعين هل اطفاؤها ... يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا
اخمدوا الأنفاس هذا جهدكم ... وبه منجاتنا منكم فشكرا

٤٤٦

سواي خالك

كتب بديع الزمان الهمذاني إلى ابن أخته:

أنت ولدي ما دمت والعلم شأنك والدرس مكانك، والمحبرة أليفك، فإن قصّرت ـ ولا إخالك ـ فسواي خالك والسلام عليك.

*

وداع الحياة

* قال النبي محمد (ص) لمّا شعر بالموت:
بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى.

* وقال الخليفة عمر بن الخطاب:
ثكلت عمر أمّه إن لم يغفر له ربّه.

* وقال الإمام علي وقد سأله القوم أن يعظهم، وكان يجود بنفسه الكريمة:
يعظكم سكوتي وخفوت أطرافي.

* وقال المامون:
يا من لا يموت ارحمْ من يموت.

* وقال الحجاج بن يوسف:
اللهمَّ اغفر لي.. فإنهم يزعمون أنك لا تغفر لي.

* وقال شوقي:
إني امرؤ انتهى، فسلام على أولادي وأصدقائي.

* وقال أمين تقي الدين:

إلى هنا تنتهي الدنيا بصاحبها ... فلا خلودٌ له إلاّ بذكراه
فارقتُ دنياي لم أجزعْ لآخرتي ... فالمرءُ دنياه مرآة لأُخراه

* وقال اسماعيل صبري:

يا موت خُذْ ما أَبْـ ـقتِ الأيامُ والساعات منّي
بيني وبينك خطوةٌ إنْ تخطُها خفّفت عني

*

٤٤٨

أهمية السّفر

قال الإمام الشافعي:

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدب ... من راحةٍ فدع الأوطان واغتربِ
سافرْ تجدْ عوضاً عمّن تفارقهُ ... وانصب فإنّ لذيذ العيش في النّصب
إني رأيت وقوف الماء يُفسده ... إن سار طاب وإن لم يسرِ لم يطبِ
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يُصب
والتّبر كالتّرب ملقىً في أماكنه ... والعودُ في أرضه نوعٌ من الحطب
فان تغرَّبَ هذا عزَّ مطلبهُ ... وإن تغرّب ذاك اعتزَّ كالذهب

٤٤٩

أطلقه وفاءً لوعده

كان الحارث بن عباد في حرب، وأراد أن يظفر بعدّي بن أبي ربيعة ليثأر منه. وبينما هو في معمعة الحرب أسر رجلاً فطلب منه أن يدلّه على ربيعة، فقال له الأسير:

أتطلقني من أسري إن دللتك عليه؟

قال: نعم.

فقال له: أنا عدي بن أبي ربيعة.

فأطلقه وفاءً لوعده.

٤٥٠

أكلت الفأرة عينه

ممّا رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء وأخرجه الصولي قال:

لمّا اشتدّت علّة الخليفة الواثق، دخل عليه مستشاره «ايتاخ» ينظر إليه هل مات أم لا، فلما دنا منه نظر إليه الواثق بمؤخر عينه ففزع وخرج القهقرى فسقط على

سيفه حتى اندقّ عنقه هيبةً منه لنظرة الواثق إليه.

وبعد ساعة، مات الواثق فعزل في بيت ليغسّل فيه فجاءت فأرة فأكلت عينه التي نظر بها إلى ايتاخ.

٤٥١

أكلت الهرة لسانه

لما جيء برأس مروان بن محمد الملقّب بـ «مروان الحمار» إلى عبد الله بن علي أمر بعزله، فجاءت هرّة فقلعت لسانه وجعلت تمضغه، فقال عبد الله لمن حضر في مجلسه: لو لم يسرّنا الدهر إلاّ بلسان مروان في هرّة لكفانا.

٤٥٢

ليتك تسلم

سأل الإمام أحمد بن حنبل حاتم الأصمّ وكان من الحكماء: كيف السبيل إلى السلامة من الناس؟

فأجاب: تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم، ويؤذونك ولا تؤذيهم، وتقضي مصالحهم ولا تكلّفهم بقضاء مصالحك.

قال: إنها صعبة يا حاتم.

فأجاب: وليتك تسلم.

٤٥٣

طلاق أبي الأسود لامرأته

كان أبو الأسود الدؤلي من أبرّ الناس عند معاوية وأقربهم منه مجلساً. فبينما هو ذات يوم عنده، وعنده الأشراف ووجوه الناس، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود حتى حاذت معاوية فقالت: سلام عليك يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعلك خليفة في البلاد ورقيباً على العباد، فكفَّ بك الأهواء، وآمن بك الخائف، وروّع بك

الحائف، فأسأل لك النعمة في غير تغيير والعافية في غير تقدير. وقد ألجأني إليك يا أمير المؤمنين أمر ضاق عليَّ فيه المنهج، وتفاقم عليَّ فيه المخرج، كرهت بوائقه، واثقلتني عوائقه، فلينصفني أمير المؤمنين من خصمي فإنّي أعوذ بعقوته من العار الوبيل، والشين الجليل، الذي يبهر ذوات العقول.

فعجب الأشراف ووجوه الناس الحاضرون من بلاغة هذه المرأة وفصاحتها، وشخصوا بأبصارهم إليها، وامتدت أعناقهم نحوها وهم إليها مصغون وإلى حديثها بأسماعهم مصيخون، ينتظرون كشف الجلاء عن هذا المعمَّى الذي هدر به لسانها كالسّيل.

إلاَّ أن معاوية قد أدرك ما تريد، وعرف من كلامها المعنى القريب والبعيد، وشاء أن يمتّع جلساءه بمناظرة بين الزوجين فقال للمرأة: من بعلك هذا الذي تنتصفين منه؟

فقالت: هو أبو الأسود.

فابتسم معاوية وبهت الحاضرون وندّت منهم أصوات خافتة تدل على الإستغراب فقطع معاوية هذا كلّه بسؤال أبي الأسود قائلاً:

يا أبا الأسود! ما تقول هذه المرأة.

فقال أبو الأسود:

يا أمير المؤمنين إنها تقول من الحقّ بعضاً. أمّا ما تذكر من طلاقها فهو حقّ وأنا مخبر أمير المؤمنين عنه بصدق: والله يا أمير المؤمنين ما طلّقتها عن ريبة ظهرت، ولا في هفوة حضرت ولكنّي كرهت شمائلها فقطعتُ عني حبائلها.

فعاد معاوية يسأل أبا الأسود: وأي شمائلها كرهت؟

فقال أبو الأسود، وقد عرف ما في طويّة الخليفة:

يا أمير المؤمنين، إنك مهيّجها عليَّ بجواب عنيد ولسان شديد.

ولكن رغبة معاوية في سماع الحوار كانت أكبر من هذا الإعتذار اللطيف فألحّ على أبي الأسود وقال:

لا بدّ لك من محاورتها فازدد عليها قولها عند مراجعتها. فلم يسع أبا الأسود إلاَّ أن يستجيب إلى رغبة الخليفة فقال:

يـا أمير المؤمنـين، إنّها لكثـيرة الصّخب، دائمـة الـذرب، مهينـة الأهـل مؤذيـة البعل، مسيئة إلى الجار، إن رأت خيراً كتمته وإن رأت شراً أذاعته.

فقالت المرأة:

والله لولا أمير المؤمنـين، وحضور من حضره من المسلمـين لرددت عليـك بوادر كلامك بنوافذ أفرغ بها كـل سهامـك، وإن كان لا يجمـل بالحـرّة أن تشتم بعلاً ولا تظهر جهلاً.

فـازداد عجب الأشراف، ورغب معاويـة في استمرار حـديثها فقـال لها بلهجـة الخلفاء: عزمت عليك إلاَّ أجبته، فانصاعت لأمر الخليفة وقالت:

يا أمير المؤمنين! هو ما علمته سؤول جهـول، ملحّ بخيل، إن قـال فشرُّ قائـل، وإن سكت فذو دغائل، ليث حيث يأمن، ثعلب حين يخاف، شحيح حين يضاف، ذُكر الجود انقمع، لما يعرف من قصور شأنه. صيفه جائـع، وجاره ضـائع، لا يحفظ جاراً، ولا يحمي ذماراً، ولا يدرك ثاراً، أكرم الناس عليه من أهانه، وأهونهم عليـه من أكرمه.

فطرب معاوية لكلامها وطمع في مزيد من اللجاجة بينها وبين مطلّقها، فـالتفت إلى أبي الأسود وقال له: سبحان الله لما تأتي به امرأة يا أبا الأسود.

فأطرق أبو الأسود وقال:

أصلح الله أمير المؤمنين إنها مطلقة ومن أكثر كلاماً من مطلقة.

ورأى معـاويـة أن المجلس ينبغي أن يختم فقـال للزوجـة: إذا كـان الـرواح فـاحضري حتى أفصل بينـك وبينه. فلما كـان الرواح وخـلا المجلس، جـاءت وقـد احتضنت ابنها، فلما رآها أبو الأسود، هاجت بين ضلوعه عواطف الأبـوة، . ومزّقـه الحنان لولده فقام لينتزعه منها. فعاودت معاوية الـرغبة في الحديث الذي انقـطع قبل رواح الأشراف ووجوه الناس فقال لأبي الأسود: مـاذا يا أبـا الأسود، لا تعجـل على المرأة أن تنطق بحجّتها، فسبق أبو الأسود مطلقته بالكلام فقال:

يا أمير المؤمنين: أنا أحقّ بابني منها وأنا الأب وإليَّ ينسب.

فتبسّمت المـرأة ابتسامـة الساخـر وأقبلت نحو الخليفـة تقـول: صـدق يـا أمـير المؤمنين! حمله خفاً، وحملته ثقلاً، ووضعته شهوة، ووضعته كرهـاً، لم أحمله في غبر،

ولم أُرضعه غيلاً فبطني له وعاء وحجري له وقاء.

وحسب أبو الأسود على جلالة قدره، وما تحلّى به من وافر العلم، ونصيبه من العقل والحلم أن هذا المجلس لن يحسمه إلاَّ الشعر فهو وحده الذي يقيه جواب هذه المرأة الفذّة التي كتب له أو عليه أن يكون لها بعلاً فأنشد:

مرحباً بالتي تجور علينا ثم سهلاً بالحامل المحمول
أغلقتْ بابها عليَّ وقالت إنَّ خير النسا لذات البعول
شغلت نفسها عليَّ فراغاً هل سمعتم بالفارغ المشغول؟

إلاَّ أن أبا الأسود قد خانه ذكاؤه، فاندفعت المرأة تجيبه شعراً من نفس البحر والروي:

ليس من قال بالصواب وبالحق كمن حاد عن منار السبيل
كان ثديي سقاءه حين يضحى ثم حجري وقاءه بالأصيل
لست أبغي بواحدٍ يا ابن حربٍ بدلاً ما علمته والخليل

ولم يكن في وسع معاوية الخليفة القرشي أن يقصر عنهما في ميدان الشعر، كما لم يكن في وسعه أن يفصل في أمر الطلاق، وإنما اقتصر حكمه على حضانة الصبي فقال:

ليس من قد غذاه حيناً صغيراً ثم سقّاه ثديه بجدول
هي أولى به وأقرب رحماً من أبيه وفي قضاء الرسول
أمّه ما حنت عليه وقامت هي أولى بحمل هذا الفصيل

ولّما سمعت المرأة أبيات معاوية نهضت، فلعنت أبا الأسود، وحملت ابنها ومضتْ.

٤٥٤

الفكاهة

* مرّ بالشعبي حمّال على ظهره دنّ خلّ، فوضع الدنّ وقال له: ما كان اسم امرأة إبليس؟

فقال الشعبي: ذلك نكاح ما شهدناه.

* وتقدّم رجلان إلى شريح القاضي في خصومة، فأقرّ أحدهما بما ادّعي عليه. وهو لا يدري، فقضى شريح عليه فقال: أصلحك الله، أتقضي عليَّ بغير بيّنة؟

قال: بلى! شهد عندي ثقة.

قال: ومن هو؟

قال: ابن أخت خالتك.

* وجاء عبد الرحمن بن عوف إلى باب عمر بن الخطاب، فوجده مستلقياً على مرفقة له، رافعاً إحدى رجليه على الأخرى منشداً بصوت عالٍ:

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما ... قضى وطراً منها جميلُ بن معمرِ

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال عمر: يا أبا محمد، إنّا إذا خلونا قُلنا كما يقول الناس.

* وجاء في الخبر أن يحي عليه السلام لقي عيسى عليه السلام، وعيسى مبتسم، فقال يحي: ما لي أراك لاهياً كأنك آمن؟

فقال عيسى: ما لي أراك عابساً كأنّك آيس.

فقالا: لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي.

فأوحى الله إليهما: أحبّكما إليَّ الطّلق البسَّام، أحسنكم ظناً بي.

٤٥٥

نوادر الشعر

* قال المأمون لمحمد بن الجهم: أنشدني بيتاً أوّله ذم وآخره مدح، أُوَلّك به كورة. فأنشده:

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم ... حسنت مناظرهم لحسن المخبر

فقال له: زدني. فأنشده:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّه ... فطيب تراب القبر دلَّ على القبر

فولاّه الدينور.

* وقال هارون الرشيد للمفضل الضّبي: أنشدنا بيتاً أوّله أعرابي في شملته هبَّ من نومه، وآخره مدني رقيق، غذي بماء العقيق.

قال المفضّل: هوّلت عليَّ يا أمير المؤمنين، فليت شعري بأي مهر نفتضّ عروس هذا الخدر؟ قال هارون: هو بيت جميل حيث يقول:

ألا أيّها النيّام ويحكم هبّوا أسائلكم هل يقتل الرجلَ الحبُّ

فقال له المفضل: فأخبرني يا أمير المؤمنين عن بيت أوله أكثم بن صيفي في إصابة الرأي وآخره بقراط الطبيب في معرفته بالداء والدواء.

قال له هارون: ما هو؟

قال: هو بيت الحسن بن هانىء حيث يقول:

دعْ عنك لومي فإنّ اللّوم إغراءُ ودواني بالتي كانت هي الداءُ

قال: صدقت.

* وقال الربيع: خرجنا مع المنصور منصرفنا من الحج، فنزلنا الرضمة، ثم راح المنصور ورحنا معه في يوم شديد الحرّ، وقد قابلته الشمس، وعليه جبة وشي، فالتفت إلينا وقال: إني أقول بيتاً من شعر، فمن أجازه منكم فله جبّتي هذه! قلنا: يقول أمير المؤمنين. فقال:

وهاجرةٍ نصبتُ لها جبيني يقطّع حرّها ظهر العظايهْ

فبدر بشّار الأعمى فقال:

وقفت بها القلوص ففاض دمعي على خدّي وأقصر واعظايهْ

فخرج له من الجبّة.

فلقيته بعد ذلك فقلت له:

ما فعلت بالجبّة؟

قال: بعتها بأربعة آلاف درهم.

أشعب المغني

عن اسحاق بن يحي بن طلحة قال:

قدم علينا جرير المدينة فحشدنا له. فبينا نحن عنده ذات يوم إذ قام لحاجته، وجاء الأحوص فقال: أين هذا؟ فقلنا: قام آنفاً، ما تريد منه؟ قال: أخزيه والله إن الفرزدق لأشعر منه وأشرف. فأقبل جرير علينا وقال: مَنِ الرجل؟ قلنا: الأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح. قال: هذا الخبيث ابن الطيّب ثم أقبل عليه فقال: قد قلت:

يقرّ بعيني ما يقرّ بعينها   وأحسنُ شيءٍ ما به العينُ قُرّتِ

فإنه يقرّ بعينها أن يدخل فيها مثل ذراع البَكْر، أَفَيَقرّ ذلك بعينك؟

قال: وكان الأحوص يُرمى بالعيب، فانصرف وأرسل إليه بتمر وفاكهة. وأقبلنا نسأل جريراً وهو في مؤخر البيت وأشعب عنده بالباب، فأقبل أشعب يسأله، فقال له جرير: والله إنك لأقبحهم وجهاً ولكني أراك أطولهم حسباً، وقد أبرمتني.

فقال: أنا والله أنفعهم لك. فانتبه جرير فقال: كيف؟

قال: إني لأُملّح شعرك واندفع يغنيه قوله:

يا أُخت ناجية السلام عليكمُ   قبل الفراق وقبل لَوْم العُذّل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم   يوم الفراق فعلتُ ما لم أفعل

قال: فأدناه جرير منه حتى ألصق ركبته بركبته وجعله قريباً منه ثم قال:

أجل! والله إنك لأنفعهم وأحسنهم تزييناً لشعري. أعدْ، فأعاده عليه وجرير يبكي حتى اخضلّت لحيته.

ثم وهب لأشعب دراهم كانت معه وكساه حلّة من حلل الملوك. وكان يرسل إليه طول مقامه بالمدينة فيغنيه أشعب ويعطيه جرير شعره فيغنّي فيه.

قال: وكان أشعب من أحسن الناس صوتاً.

قال حماد: والغناء الذي غنّاه فيه أشعب لابن سُريج.

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

روى أبو الفرج الأصفهاني القصة الطريفة التالية، قال:

حجّ هشام بن عبد الملك في خلافة الوليد أخيه، ومعه رؤساء أهل الشام، فجهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يقدر من ازدحام الناس، فنُصب له منبر فجلس عليه ينظر إلى الناس، وأقبل عليّ بن الحسين وهو أحسن الناس وجهاً وأنظفهم ثوباً وأطيبهم رائحة، فطاف بالبيت، فلما بلغ الحجر الأسود تنحّى الناس كلّهم وأخلوا له الحجر ليستلمه، هيبةً وإجلالاً له، فغاظ ذلك هشاماً وبلغ منه فقال رجل لهشام.

- من هذا أصلح الله الأمير؟
- لا أعرفه.

وكان به عارفاً، ولكنه خاف أن يرغب فيه أهل الشام ويسمعوا منه.

فقال الفرزدق وكان لذلك كلّه حاضراً:

- أنا أعرفه، فسلني يا شامي.
- ومن هو؟

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلُّ والحَرَمُ
هذا ابن خير عباد الله كلّهِمُ ... هذا التقيّ النقيُّ الطاهر العَلَمُ
إذا رأته قريش قال قائلها: ... إلى المكارم هذا ينتهي الكرم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... رُكن الحطيم إذا ما جاء يستلم
فليس قولك: من هذا؟ بضائره ... العرب تعرفُ من أنكرت والعجمُ
أيّ الخلائق ليس في رقابهمُ ... لأوّلية هذا أو له نِعَمُ
من يعرف الله يعرفْ أوّلية ذا ... فالدّين من بيت هذا ناله الأمم

وما أسرع ما وصلت الأبيات إلى هشام، فضاق بها صدراً ولم يحتمل مديح سبط الرسول الذي بلغ ندى يديه بيوت المستورين، فحبس الفرزدق.

فقال وهو في حبسه (وكان هشام أحول):

أيحسبني بين المدينة والتي ... إليها قلوب الناس يهوي منيبها

يقلّب رأساً لم يكن رأس سيدٍ وعيناً له حولاء بادٍ عيوبها

فبعث إليه هشام، فأخرجه، ووجّه إليه عليّ بن الحسين عشرة آلاف درهم وقال:

- إعذرْ يا أبا فراس؟ فلو كان عندنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به.

فردّها وقال:

- الذي قلت ما كان إلاّ لله، وما كنت لأرزأ عليه شيئاً.

- قد رأى مكانك فشكرك، ولكنّا أهل بيت إذا أنفذنا شيئاً ما نرجع فيه.

فأقسم عليه فقبلها.

٤٥٨

أبو العتاهية إن شَعَر

قالوا:

أجرى هارون الرشيد الخيل، فجاءه فرس يقال له المشمّر سابقاً، وكان الرشيد معجباً بذلك الفرس، فأمر الشعراء أن يقولوا فيه، فبدرهم أبو العتاهية فقال:

جاء المشمّر والأفراسُ يقدمها هوناً على رِسْله منها وما انبهرا
وخلّف الريح حسرى وهي جاهدةٌ ومرّ يختطف الأبصار والنظرا

فاجزل صلته، وما جسر أحدٌ بعد أبي العتاهية أن يقول فيه شيئاً.

٤٥٩

أجاد والله أبو العتاهية

قال حبيب بن الجهم النمري:

حضرت الفضل بن الربيع طالباً جائزتي وفرضي، فلم يدخل عليه أحد قبلي، فإذا عَوْنٌ حاجبه قد جاء فقال: هذا أبو العتاهية يسلّم عليك وقد قدم من مكة فقال: أعفني منه الساعة يشغلني عن ركوبي. فخرج إليه عون فقال: إنه على الركوب إلى أمير المؤمنين. فأخرج من كمّه نعلاً عليها شراك فقال: قل له إن أبا

العتاهية أهداها إليك جعلت فداءك.

قال: فدخل بها فقال: ما هذه؟

فقال: نعلٌ وعلى شراكها مكتوب كتاب.

فقال: يا حبيب اقرأ ما عليها. فقرأته فإذا هو:

نعلٌ بعثت بها ليلبسها قرمٌ بها يمشي إلى المجدِ
لو كان يصلح أن أشرّكها خدّي جعلتُ شراكها خدّي

فقال لحاجبه عون: احملها معنا، فحملها، فلما دخل على الأمين قال له: يا عباسي، ما هذه النعل؟

فقال: أهداها إليّ أبو العتاهية وكتب عليها بيتين، وكان أمير المؤمنين أولى بلبسها لما وصف به لابسها.

فقال: وما هما؟

فقرأهما، فقال: أجاد والله! وما سبقه إلى هذا المعنى أحد. هبوا له عشرة آلاف درهم.

فأخرجت والله في بدرة وهو راكب على حماره. فقبضها وانصرف.

٤٦٠

خالد يشكو الوليد إلى أبيه عبد الملك

حدّث مصعب بن عثمان قال:

دخل عبد الله بن يزيد بن معاوية على أخيه خالد فقال: لقد هممت اليوم بقتل الوليد بن عبد الملك، فقال له خالد: بئس ما هممت به في ابن أمير المؤمنين وليّ عهد المسلمين. قال: إنه لقي خيلي فنفرها وتلاعب بها. فقال له خالد: أنا أكفيكه إن شاء الله.

فدخل خالد على عبد الملك، وعنده الوليد فقال له: يا أمير المؤمنين، إنّ وليّ عهد المسلمين الوليد بن أمير المؤمنين لقي خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فنفرها وتلعب بها، فشق ذلك على عبد الله، فنكس عبد الملك رأسه وقرع الأرض بقضيب في يده، ثم رفع رأسه إليه فقال:

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة وكذلك يفعلون﴾.

فقال له خالد:

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمّرناها تدميراً﴾.

فقال له عبد الملك: أتكلّمني فيه، وقد دخل عليَّ لا يقيم لسانه لحناً.

فقال له خالد: يا أمير المؤمنين، أفعلى الوليد تعوّل في اللحن؟

فقال عبد الملك: إن يكن الوليد لحّاناً فأخوه سليمان.

قال خالد: وإن يكن عبد الله لحّاناً فأخوه خالد. قال الوليد لخالد: أتكلّمني ولست في عِيْرٍ ولا نفير! قال: ألا تسمع يا أمير المؤمنين ما يقول هذا؟ أنا والله ابن العير والنفير، سيد العير جدي أبو سفيان، وسيد النفير جدي عُتبة بن ربيعة، ولكن لو قلت: حُبيلات - يعني حبلة العنب - وغُنيمات والطائف لقلنا: صدقت، ورحم الله عثمان.

قال أبو الفرج الأصفهاني: يعيّره بأم مروان، وأنها من الطائف، ويعيّره بالحكم، وأنّ رسول الله (ص) طرده إلى الطائف، وترحّم على عثمان لردّه إيّاه.

٤٦١

إياكم ومعاشرة أهل السوء

حدث عافية بن شبيب قال:

كان لمطيع بن إياس مُعامِل من تجار الكوفة، فطالت صحبته إياه وعشرته له حتى شرب النبيذ وعاشر تلك الطبقة، وأفسدوا دينه، فكان إذا شرب يعمل كما يعملون وقال كمايقولون، وإذا صحا تهيّب ذلك وخافه، فمرّ يوماً بمطيع بن إياس وهو جالس على باب داره فقال له: من أين أقبلت؟

قال: شيّعت صديقاً لي حجّ ورجعتُ كما ترى ميتاً من ألم الحرّ والجوع والعطش.

فدعا مطيع بغلامه وقال له: أي شيء عندك؟ فقال له: عندي من الفاكهة كذا

ومن البوادر والحار كذا ومن الأشربة والثلج والرياحين كذا وقد رُشّ الخيش وفُرغ من الطعام. فقال له: كيف ترى هذا؟

فقال: هذا والله العيش وشبه الجنّة.

قال: أنت الشريك فيه على شريطة إن وفيت بها وإلاّ انصرفت.

قال: وما هي؟

قال: تشتمم الملائكة وتنزل.

فنفر التاجر وقال: قبّح الله عشرتكم قد فضحتموني وهتكتموني. ومضى فلم يبعد حتّى لقيه حماد عجرد فقال له: مالي أراك نافراً جزعاً؟ فحدّثه حديثه فقال: أساء مطيع ـ قبّحه الله ـ وأخطأ، وعندي والله ضعف ما وصف لك، فهل لك فيه؟

فقال: أجل، بي والله إليه أعظم فاقة.

قال: أنت الشريك فيه على أن تشتم الأنبياء فإنّهم تعبدونا بكل أمرٍ معنتٍ متعب ولا ذنب للملائكة فنشتمهم.

فنفر التاجر وقال: أنت أيضاً قبّحك الله، لا أدخل!

ومضى فاجتاز بيحي بن زياد الحارثي فقال له: مالي أراك يا أبا فلان مرتاعاً؟ فحدّثه بقصّته فقال: قبحهما الله لقد كلّفاك شططاً، وأنت تعلم أن مروءتي فوق مروءتهما، وعندي والله أضعاف ما عندهما وأنت الشريك فيه على خصلةٍ تنفعك ولا تضرك وهي خلاف ما كلّفناك إياه من الكفر.

قال: وما هي؟

قال: تصلي ركعتين تُطيل ركوعهما وسجودهما وتصليهما وتجلس، فنأخذ في شأننا.

فضجر التاجر وتأفّف وقال: هذا شرٌّ من ذاك، أنا تعبٌ ميّت، تكلّفني صلاة طويلة في غير برٍّ ولا لإطاعةٍ يكون ثمنها أكل سُحتَ وشرب خمر وعشرة فجرة وسماع مغنيات قحاب.

وسبّه وسبّهما ومضى مغضباً. فبعث خلفه غلاماً وأمره بردّه، فردّه كُرْهاً وقال: انزل الآن على ألّا تصلي اليوم بتّةً. فشتمه أيضاً وقال: ولا هذا.

فقال: انزل الآن كيف شئت وأنت ثقيل غير مساعد. فنزل عنده. ودعا يحي مطيعاً وحماداً فعبث بالتاجر ساعةً وشتماه، ثم قدم الطعام، فأكلوا وشربوا وصلّى

التاجر الظهر والعصر، فلما دبّت الكاس فيه قال له مطيع: أيّما أحب إليك: تشتم الملائكة أو تنصرف؟ فشتمهم. فقال: له حماد: أيّما أحبّ إليك تشتم الأنبياء أو تنصرف؟ فشتمهم. فقال له يحي: أيّما أحب إليك: تصلي ركعتين أو تنصرف؟

فقام فصلّى الركعتين، ثم جلس فقالوا له: أيّما أحب إليك: تترك باقي صلاتك اليوم أن تنصرف؟

قال: بل أتركها يا بني الزانية ولا أنصرف.

ففعل كل ما أرادوه منه.

٤٦٢

اشترى بها ضيعته الصالحية

حدّث محمد بن أحمد قال: حدث علوية، قال:

قال ابراهيم الموصلّي يوماً: إني قد صنعت لحناً وما سمعه مني أحد بعد، وقد أحببت أن أنفعك وأرفع منك بأن القيه عليه وأهبه لك، ووالله ما فعلت هذا بإسحاق الموصلّي قط ولا خصصتك به فانتحِلْهُ وادّعِه فلست أنسبه إلى نفسي وستكسب به مالاً. فألقي عليّ قوله:

إذا كان لي شيئان يا أمّ مالكٍ فإنّ لجاري منهما ما تخيّرا

فأخذته وادّعيته وسترته طوال أيام الرشيد خوفاً من أن أُتّهم فيه وطول أيام الأمين حتى حدث عليه ما حدث.

وقدم المأمون من خراسان وكان يخرج إلى الشماسيّة دائماً يتنزّه، فركبت في زورق صغير وجئت أتبعه، فرأيت سفينة حربية كانت لعلي بن هشام فقلت للملّاح: اطرح زورقي على السفينة ففعل، واستُؤذن لي فدخلت وهو يشرب مع الجواري ـ وما كانوا يحجبون جواريهم في ذلك الوقت ما لم يَلِدْنَ ـ فإذا بين يديه المغنية متيَّم والمغنية بذل من جواريه. فغنيته الصوت فاستحسنه جداً وطرب عليه وقال: لمن هذا؟ فقلت: هذا صوت صنعته واهديته لك، ولم يسمعه أحد قبلك. فازداد به عجباً وطرباً وقال لها: خُذيه عنه، فألقيته عليها حتى أخذته. فسُرّ بذلك وطرب وقال لي: ما أجد لك مكافأة على هذه الهدية إلاّ أن أتحول عن هذه السفينة بما فيها وأسلمه إليك أجمع.

فتحوّل إلى أخرى، وسُلّمتِ السفينةُ بخزانتها وجميع آلاتها إليَّ وكل شيء فيها، فبعت ذلك بمائة وخمسين ألف درهم واشتريت بها ضيعتي الصالحية.

٤٦٣

ابطحوه

عن أبي عبّاد قال حدثني أبي قال:

لما خرج المعتصم إلى عموريّة. استخلف الواثق بسامراء، فكانت أموره كلّها كأمور أبيه، فوجه إلى الجلساء والمغنين أن يبكروا إليه يوماً حدّد لهم ووجّه إلى إسحاق فحضر الجميع. فقال لهم الواثق: إني عزمت على الصبوح ولست أجلس على سرير حتى اختلط بكم ونكون كالشيء الواحد، فاجلسوا معي حلقة، وليكن كل جليس إلى جانبه مغنٍ، فجلسوا كذلك.

فقال الواثق: أنا أبدأ، فأخذ عوداً فغنى وشربوا وغنّى من بعده، حتى انتهى إلى إسحاق الموصليّ فأُعطي العود فلم يأخذه.

فقال: دعوه.

ثم غنّوا دوراً آخر. فلما بلغ الغناء إلى إسحاق لم يغنِّ، وفعل هذا ثلاث مرات. فوثب الواثق فجلس على سريره وأمر بالناس فأُدخلوا، فما قال لأحد منهم: اجلسْ.

ثم قال: عليَّ باسحاق! فلما رآه قال: يا خوزيُّ يا كلب! أتنزَّل لك وأُغنّي وترتفع عنّي! أترى لو أني قتلتك كان المعتصم يقيدني بك! ابطحوه! فَبُطح فضرب ثلاثين مقرعة ضرباً حفيفاً، وحلف ألاّ يغني سائر يومه سواه. فاعتذر وتكلّمت الجماعة فيه، فأخذ العود وما زال يغني حتى انقضى ذلك اليوم، وعاد الواثق إلى مجلسه.

*

اكتبوا لها ولقومها

قال الشعبي:

قدمت سودة بنت عمارة على معاوية فلمّا دخلت عليه وسلّمت قال لها: كيف أنت يا ابنة عمارة؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين.

قال: أنسيت قولك لأخيك يوم صفّين.

قالت: وما هو يا أمير المؤمنين؟

قال:

شمّر كفعل أخيك يابن عمارة   يوم الطعان وملتقى الشجعان
وانصر علياً والحسين ورهطه   واقصد لهندٍ وابنها بهوان

قالت: يا أمير المؤمنين، ما مثلي من رغب عن حق، واعتذر بباطل. قد كان ذلك مني يا أمير المؤمنين.

قال: فما حملك على مثل هذا؟

قالت: حب عليّ كرُّم الله وجهه واتباعه الحق.

قال: فما أرى عليك من أثر عليّ شيئاً.

قالت: بلى! والله، كانت آثاره جميلة، وعدله شامل.

فبالله عليك يا أمير المؤمنين، ألا صرفت عنك تذكار ما نسي.

قال: هيهات! ليس مثل مقام أخيك ينسى.

قالت: صدقت. فما كان خفيّ المقام، ولا ذميم المكان، كان والله هو كما قالت الخنساء:

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به   كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ

ثم قالت: بالله يا أمير المؤمنين، دعني من مثل هذا.

قال: قد فعلت، قولي حاجتك.

قالت: والله يا أمير المؤمنين، انك أصبحت للناس سيداً ولأمرهم مقلداً، والله

سائلك عمّا فرضه عليك من حقّنا، وأنت مقدم من يبوء بعزّك ويبطش بسلطانك، فيحصدنا حصاد السنبل ويدرسنا درس البقر.

قال: من هو؟

قالت: ابن أرطأة عديّ قدم إلى أرضنا فقتل رجالي وأخذ أموالي ولولا الطاعة لكانت النقمة. فان عزلته شكرناك، وإن لم تعزله عرفناك.

قال: أتهدّديني بقومك. والله لقد هممت أن أردّك إليه على كور قتب ينفذ فيه حكمه.

فقالت:

صلّى الاله على روح تضمّنها قبر فأصبح فيه الحق مدفونا
قد خالف الحقّ لا يبغي له بدلاً فصار بالحقّ والإيمان مقرونا

فقال معاوية: من هو؟

قالت: علي بن أبي طالب.

قال: ما الذي جرى لك معه.

قالت: أتيته في رجل ولّاه الصدقات ولم يكن بيننا وبينه إلاّ أن ترك الغثّ وأخذ السمين فوجدته قائماً يصلّي، فلما أحسّ بي سلّم من صلاته والتفت إليّ برحمة ورفق ورأفة وقال: ألكِ حاجة.

فأخبرته الخبر فبكى ورفع بصره ويده إلى السماء وقال: اللّهم أنت الشاهد عليّ وعليهم. إني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك.

ثم أخذ قطعة من جلد وكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. قد جاءتكم موعظة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ. فإذا قرأت كتابي هذا فاحفظ ما في يديك من عملك حتى يردّ عليك من يقبضه منك والسلام.

فصرفه من عمله وولّى علينا غيره.

فقال معاوية: اكتبوا لها بالعدل والانصاف.

فقالت: ألي خاصة أم لقومي عامة؟

فقال: لكِ خاصة.
قالت: إن هذا الكرم عظيم إن كان عدلاً شاملاً، وإلّا فأنا كسائر الناس.
فقال معاوية: اكتبوا لها ولقومها.

٤٦٥

هل بقيتْ لك من حاجة؟

حدث محمد بن الضحاك عن أبيه قال:

استأذن عبيد الله بن قيس الرقيات على حمزة بن عبد الله بن الزبير، فقالت له الجارية: ليس عليه إذنٌ الآن.

فقال: أما إنه لو علم بمكاني ما احتجب عني.

قال: فدخلتِ الجارية على حمزة فأخبرته فقال: ينبغي أن يكون هذا ابن قيس الرقيات ائذني له، فأذنت له. فقال: مرحباً بك يا بن قيس، هل من حاجة نزعت بك؟

قال: نعم، زوّجت بنين لي ثلاثةً ببنات أخٍ لي ثلاثٍ، وزوّجت ثلاثة من بني أخ لي بثلاث بنات لي.

قال: فلبنيك الثلاثة أربعمائة دينار أربعمائة دينار، ولبني أخيك الثلاثة أربعمائة دينار أربعمائة دينار، ولبناتك الثلاث ثلثمائة دينار ثلثمائة دينار، ولبنات أخيك الثلاث ثلثمائة دينار ثلثمائة دينار، هل بقيتْ لك من حاجة يا ابن قيس؟

قال: لا والله إلّا مؤونة السفر.

فأمر له بما يصلحه لسفره حتى رقاع أخفاف الإبل.

٤٦٦

أعرابي يرثي ولده

قال أحد الأعراب يرثي ولده:

هوى ابني من عُلا شرفٍ   يهول عقابه صعدُهْ

هوى من رأس مرقبةٍ فزلّت رجلُهُ ويدُهْ
فلا أمّ فتبكيه ولا أختٌ فتفتقدُهْ
هوى عن صخرةٍ صلدٍ ففرّت تحتها كبدُهْ
ألام على تبكّيهِ وألمسه فلا أجدُهْ
وكيف يُلام محزونٌ كبيرٌ فاته ولدُهْ

٤٦٧

أصابها ما أصاب الناس

دخل النبي محمد (ص) على زوجته عائشة فوجد عندها امرأة رثة الهيئة، فسأل عن أمرها، فقيل له إنها زوجة الصحابي عثمان بن مظعون، وأنها تشكو بثها وحزنها، فعثمان مشغول عنها بالعبادة يقوم ليله ويصوم نهاره.

وذهب الرسول حيث لقي ابن مظعون فقال له: أما لك بي أُسوة؟

قال: بأبي وأمّي، وما ذاك؟

قال الرسول الكريم: تصوم النهار وتقوم الليل؟

قال: إنّي لأفعل.

قال الرسول: لا تفعلْ، إن لجسدك عليك حقاً وإن لأهلك حقاً.

وجاءت زوجته في اليوم التالي لزيارة بيت الرسول وهي عطرة نضرة، ولما قيل لها في ذلك قالت:

أصابنا ما أصاب الناس.

٤٦٨

المتزندق

رفع رجل من العامة ببغداد إلى بعض ولاتها على جار له يتزندق، فسأله الوالي عن قوله الذي نسبه إلى الزندقة، فقال: هو مرجىء قدريّ ناصبيّ رافضي من الخوارج، يبغض معاوية بن الخطاب الذي قتل عليّ بن العاص.

فقال له ذلك الوالي: ما أدري على أي شيء أحسدك؟ أعلى علمك بالمقالات، أم على بصرك بالأنساب؟

٤٦٩

ما هي بحيّة ولا بعقرب

قال رجل لطفل: ابن كم أنت؟

قال: ابن رجلٍ واحد!

قال: إنما سألتك عن عمرك.

فقال: فقل كم عمرك؟ فقال له كذلك، قال: ثمانية أعوام.

قال: أحيّة أمّك؟

قال: ما هي بحيّة ولا بعقرب، ولكنها امرأة.

فقال: فكيف أقول؟

فقال له: قل: أفي الأحياء أمك؟

فقال له كذلك.

فقال له: نعم.

٤٧٠

المـروءة

* قيل لبعض حكماء الفرس:

أيّ شيء للمروءة أشدّ تهجيناً؟

فقال: للملوك صِغرٌ في الهمّة، وللعامة الصّلف، وللفقهاء الهـوى، وللنساء قلّة الحياء، وللعامة الكذب، والصبر على المروءة صعب وتحمّلها عبء.

* وقال خالد بن صفوان: لولا أن المروءة اشتدت مؤونتها وثقـل حملها مـا ترك اللئام للكرام منها شيئاً، ولكنـه لما ثقـل محملهـا واشتـدت مؤونتها حـاد عنها اللئـام فاحتملها الكرام.

* وقال بعضهم: المكارم لا تكون إلاّ بالمكاره، ولو كانت خفيفة لتناولها السفلة بالغلبة.

وقال ابن عمر: ما حمل رجل حملاً أثقل من المروءة، فقال له أصحابه: صف لنا ذلك، فقال: ما له عندي حدّ أعرفه إلاّ أني ما استحييت من شيء قط علانية، إلاّ استحييت منه سراً.

* وقام رجل من بني مجاشع إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله ألستُ أفضل قومي؟

فقال: إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك خلق فلك مروءة وإن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك دين فلك تُقىً، وإن كان لك تُقىً فلك دين.

* وقال عمر بن الخطاب: حسبُ المرء ماله، وكرمه دينه، وأصله عقله، ومروءته خلقه.

* وقال علي بن أبي طالب: مروءة الرجل حيث يضع نفسه.

٤٧١

علامات الهوى

قالوا:

إن أول علامات الهوى على ذي الأدب: نحول الجسم، وطول السقم، واصفرار اللون، وقلّة النوم، وخشوع النظر، وإدمان الفكر، وسرعة الدموع، وإظهار الخشوع، وكثرة الأنين، وإعلان الحنين، وانسكاب العبرات، وتتابع الزفرات، ولن يخفى المحبّ وإن تستّر، ولا ينكتم هواه وإن تصبّر، ولن يخفى ادّعاء أنه قد قارن العشق والهوى، لأن علامات الهوى مضيئة، وآيات الادعاء ظاهرة، وقد قال الأحوص الأنصاري:

ما عالج الناس مثل الحب من سقمٍ ولا يرى مثله عظماً ولا جسدا
ما يلبث الحبّ أن تبدو شواهده من المحبّ وإن لم يُبده أبدا

وقال آخر:

ما يعرف الحزن إلّا كل من عشقا | وليس من قال إنّي عاشق صَدَقا
للعاشقين نحول يُعرفون به | من طول ما حالفوا الأحزان والأرقا

٤٧٢

الصديق

قال عمر بن أبي ربيعة:

لا تجعلن أحداً عليك إذا | أحببته وهويته ربّا
وصِلِ الصديق إذا كلفت به | واطرِ الزيارة دونه غبّا
فلذاك خيرٌ من مواصلةٍ | ليست تزيدك عنده قُربا
لا بل يملّك عند دعوته | فيقول: آه، وطالما لبّى

وقال آخر:

عليك بإقلال الزيارة إنها | تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكا
فإني رأيت القطر يُسأمُ دائباً | ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

٤٧٣

المقلّ والمكثر

قال الجاحظ: قال أبو حسان: كان عندنا رجل مقلّ، وكان له أخ مكثر، وكان مفرط البخل شديد النفخ كثير الافتخار بما ليس عنده. فقال له يوماً أخوه: ويحك! أنا فقير معيل وأنت غنيّ خفيف الظهر، لا تعينني على الزمان، ولا تؤاسيني ببعض مالك، ولا تنفرج لي عن شيء؟ والله ما رأيت قطّ ولا سمعت بأبخل منك!

قال: ويحك! ليس الأمر كما تظن في الغنى، ولا المال كما تحسب في الانفاق، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليُسر، والله لو ملكتُ ألف ألف درهم لوهبتُ لك منها خمس مائة ألف درهم، يا هؤلاء، رجل يهبُ بضربةٍ واحدة خمس مائة ألف يُقال له بخيل!

٤٧٤

ذكرك نور القلب والبصر

قال جمال الدين أبو الدر الكاتب البغدادي:

تُجدِّدُ الشمس شوقي كلما طلعت ... إلى مُحياكِ يا سمعي ويا بصري
وأسهر الليل ذا أنسٍ بوحشته ... يا طيبُ ذكراك في ظلمائه سَمَري
وكل يومٍ مشى لي لا أراك به ... فلست محتسباً ماضيه من عُمُري
ليلي نهار إذا ما درتِ في خَلَدي ... لأن ذكرك نور القلب والبصرِ

٤٧٥

ذكاء الثعلب

ذكر الشافعي قال:

كنا في أرض اليمن، فوضعنا سفرتنا لنتعشّى، وحضرت صلاة المغرب، فقمنا نصلي ثم نتعشّى. فتركنا السفرة كما هي وقمنا إلى الصلاة، وكان فيها دجاجتان. فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين.

فلما قضينا الصلاة أسفنا عليها وقلنا حرمنا طعامنا. فبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فمه شيء كأنه الدجاجة فوضعه. فبادرنا إليه ليأخذه، ونحن نحسبه الدجاجة قد ردّها. فلما قمنا، جاء إلى الأخرى وأخذها من السّفرة، وأصبنا الذي قمنا إليه لنأخذه، فاذا هو ليف قد هيأه مثل الدجاجة.

٤٧٦

مسامير الحب

حدث أبو العيناء قال: حدثني الجاحظ قال:

كتب بعض الظرفاء إلى مُلْك جارية أبي جعفر:

يا مُلْك قد صرت إلى خطةٍ ... وكنت فيها منكِ ذا ضيمِ
يلومني الناس على حبكم ... والناس أولى فيكِ باللّوم

فكتبت إليه:

إن تكن الغلمة هاجتْ بكم ... فسكّن الغلمة بالصومِ
ليس بك الشوق ولكنّما ... تدور من هذا على الكوم[1]

٤٧٧

كذاك الهوى بعد الذهاب يعود

رُوي أن امرأة من نساء العرب تزوّجت رجلاً من خثعم، فوجد كل واحد منهما بصاحبه وجداً شديداً، وأنهما تحالفا أن لا يتزوج أحدهما بعد صاحبه، فمات قبلها، فتزوجت، فلامها بعض أهلها، وقالوا: أين ما كنت تجدين به؟ فأنشأت تقول:

وقد كان حبّي ذاك حباً مبرحاً ... وحبي لذا إذ مات ذاك شديدُ
وكان هواي عند ذاك صبابةً ... وحبي لذا، طول الحياة، يزيدُ
فلما مضى عادت لهذا مودّتي ... كذاك الهوى بعد الذهاب يعودُ

٤٧٨

كرم معن بن زائدة

قالوا:

كان لمعن بن زائدة شاعر يغشى مجلسه في كل يوم فانقطع عنه أياماً، فلما دخل عليه قال:

ما أبطأك؟

قال: وُلد لي مولود.

قال: فما سمّيته؟

قال:

سمّيت معناً بمعنٍ ثم قلت له ... هذا سُمّي عقيد المجد والجود

---

(١) الكوم: النكاح.

قال يا غلام، أعطه ألف دينار، وقل بيتاً آخر، فقال:

سما بجودك جود الناس كلّهم	فصار جودك محراب الأجاويد

قال: يا غلام، أعطه ألف دينار، وقل بيتاً آخر، فقال:

أنت الجواد ومنك الجود أوله	فإنْ فُقدت فما جودٌ بموجود

فقال: يا غلام، أعطه ألف دينار، وقل بيتاً آخر، فقال:

من نور وجهك تضحى الأرض مشرقة	ومن بنانك يجري الماءُ في العود

فقال: يا غلام، أعطه ألف دينار، وقل بيتاً آخر.

فقال الغلام: لا تقل. والله، لم يبقَ في بيت المال إلاّ ما أخذت.

فانصرف.

٤٧٩

كثيّر وعزّة

قيل لكثيّر عزّة: هل نِلتَ من عزّة شيئاً طول مدتك؟

قال: لا والله، إلاّ أنه ربما كان يشتد بي الأمر فآخذ يدها، فأضعها على جبيني فأجد لذلك راحةً.

٤٨٠

لا حاجة لي في هذا الديوان

بلغ من حمق رجل اسمه هبنَّقة أنه ضلّ له بعير، فجعل ينادي: من وجد بعيري فهو له. فقيل له: ولِمَ تنشده؟

قال: وأين حلاوة الظفر والوجدان؟

واختصمت إليه الطفاوة وبنو راسب في رجل ادّعى هؤلاء فيه. فقالوا: قد رضينا بحكم أول طالع يطلع علينا، فطلع عليهم هبنّقة. فلمّا رأوه قالوا: انظروا بالله من طلع علينا. فلما دنا قصّوا عليه القصّة. فقال هبنّقة: الحكم في هذا بيّن،

اذهبوا به إلى نهر البصرة فألقوه فيه، فان كان راسبياً رسب، وإن كان طفاوياً طفاً.

فقال الرجل: لا أريد أن أكون من أحد هـذين الحيّين، ولا حاجة لي في هـذا الديوان[1].

٤٨١

أبكي على كريم مثلك يواريه التراب

روي عن الأصمعي قال: لقي أعرابي «طلحة الطلحات» فقال: إن ترى أن تفيض عليَّ ممّا أفاض الله عليك.

قال: فقال: يا غلام، أحثُ له ممّا في خرجك.

قال: فحثا له حتى امتلأ كمّه دنانير.

فبكى الأعرابي.

قال: فقال له: ما يبكيك يا أعرابي؟ لعلّك لم يكفك ما أخذته واستقللته.

قال: لا والله ولكني أبكي على كريم مثلك، يواريه التراب.

فقال: يا غلام، إدفعْ الخرج كما هو.

٤٨٢

المصفوع

حُكي بن بشار الطفيلي أنه قال: رحلت إلى البصرة، فلـمّا دخلتها قيل لي: إن هنا عريفاً للطفيليين يبرهم ويكسوهم، ويردّهم إلى الأعمال ويقاسمهم، فسرت إليه، فبرّني وكساني. وأقمت معه ثلاثة أيام وله خلق يأتونه بما يأخذون، فيأخذ النصف ويعطيهم النصف. فوجّهني معهم في اليوم الرابع، فحصلت في وليمة، فأكلت وأخذت شيئاً كثيراً، فجئته به، فأخذ النصف وأعطاني النصف، فبعث ما وقع إليّ بدراهم. فلم أزل على هذا أياماً، ثم دخلت يوماً على عرس جليل، فأكلت

---

(١) الديوان: المكان الذي يُجتمع فيه لفصل الدعاوى بين الناس.

وخرجت بشيء كثير، فلقيني إنسان فاشتراه مني بدينار، فأخذته وكتمت أمره. فأخذني عريف الطفيليين وقال: إن هذا الطفيلي البغدادي خان، وظنّ أني لا أعلم ما فعل! فأصفعوه وعرّفوه ما كَتَمنا. فأجلسوني شئتُ أم أبيتُ، فما زالوا يصفعونني واحداً بعد واحد، يصفعني الأول منهم ويشمّ يدي ويقول: أكلت مضيرة[1]، ويصفعني الآخر ويشمّ يدي ويقول: أكلت بقيلة، حتى ذكروا كل شيء أكلته، ما غلطوا بزيادة ولا نقصان. ثم صفعني منهم شيخ صفعة عظيمة وقال: بعت ما أخذت بدينار! وصفعني آخر وقال:

هات الدينار. فدفعته إليه وجردني الثياب التي أعطانيها وقال: اخرج يا خائن في غير حفظ الله.

فخرجت إلى بغداد وحلفت أن لا أُقيم ببلد طفيليّوه يعلمون الغيب.

٤٨٣

ما لأبي حمزة لا يأتينا؟

كان أحدهم يلقب بأبي حمزة الضبيّ، وقد ولدت له زوجته بضع بنات ولم تنجب له غلاماً يكنّى به، ولما حملت قال لها: إذا وضعتِ أُنثى فأنتِ طالق، ولـمّا وضعت أنثى هجرها.

وخطر له مرّة أن يطلّ عليها وتطلّع من ثقب في الباب وإذا به يراها ترقص إحدى بناتها في حضنها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا
تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أُعطينا

(١) مضيرة: طعام يُطبخ باللبن.

ونحـن كـالأرض لـزارعـيـنـا
نـنـبـت مـا قـدر زرعـوه فـيـنـا

فعاد إليها واعتذر منها.

٤٨٤

عجب من فصاحته وقضى حاجته

تظلّم رجل إلى المأمون من عامل له فقال:

يا أمير المؤمنين، ما ترك لي فضة إلاّ فضّها، ولا ذهباً إلاّ ذهب بـه، ولا غلة إلاّ غلّها، ولا ضيعةً إلاّ أضاعها، ولا عرضاً إلاّ عرض له، ولا ماشيةً إلاّ امتشّهـا، ولا جليلاً إلاّ أجلاه، ولا دقيقاً إلاّ دقّه، فعجب من فصاحته، وقضى حاجته.

٤٨٥

يا أخت خير البدو

خرج سهل بن مالك الفزاري يريد النعمان، فمرّ ببعض أحياء طيء، فسأل عن سيّد الحي فقيل له: حارثة بن لأم، فأمّ رحله فلم يصبه شاهـداً، فقالت لـه أخته: انزل في الرّحب والسّعة. فنزل فأكرمته ولاطفته، ثم خرجت من خبائهـا. فرأى أجمل أهل دهرها وأكملهم، وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائها فوقـع في نفسه منهـا شيء، فجعل لا يدري كيف يرسل إليها ولا ما يوافقها من ذلك. فجلس بفناء الخباء يومـاً وهي تسمع كلامه فجعل ينشد ويقول:

يـا أخـت خـير الـبـدو والحـضـارَهْ   كـيـف تـريـنَ في فـتى فـزارَهْ؟
أصـبـح يهـوى حـرّة مـعـطارَهْ   إيّـاكِ أعـني واسـمـعـي يـا جـارَهْ

فلما سمعت قوله عرفت أنه إياها يعني فقـالت: ماذا بقـول ذي عقل أريب ولا رأي مُصيب ولا أنف نجيب. فـأقم ما أقمت مكرماً، ثم ارتحـل متى شئت مسلماً. ويقال أجابته نظماً فقالت:

إني أقـول يـا فـتى فـزاره   لا ابـتـغـي الـزوج ولا الـدعـاره

ولا فـراق أهـل هـذي الجـاره فـارحـل إلى أهـلك بـاسـتـخـاره

فاستحيا الفتى وقال: ما أردت منكراً، واسوأتاه!

قالت: صدقت.

فكأنها استحيت من تسرّعها إلى تهمته. فارتحل فأتى النعمان فحيّاه، وأكرمه. فلما رجع نزل على أخيها. فبينما هو مقيم عندهم تطلّعت إليه نفسها وكان جميلاً، فأرسلت إليه أن اخطبني إن كان لك إليَّ حاجة يوماً من الدهر، فإني سريعة إلى ما تريد. فخطبها وتزوجها وسار بها إلى قومه.

٤٨٦

مدّعي النبوّة

ادعى رجل النبوة في البصرة، فأُتي به سليمان بن علي مقيداً، فقال له: أنت نبي مرسل؟

قال: أمّا الساعة، فإنّي نبيٌّ مقيّد!

قال: ويلك من بعثك؟

قال: ما هذه مخاطبة الأنبياء يا ضعيف العقل، والله لولا أني مقيّدٌ لأمرت جبريل يدمدمها عليكم.

قال: والمقيّد لا تجاب دعوته؟

قال: نعم، الأنبياء خاصة إذا قُيّدوا لا يرتفع دعاؤهم.

فضحك سليمان وقال: إني أُطلقك، الآن، فأمر جبريل، فإن أطاعك آمنّا بك وصدّقناك.

قال: صدق الله حيث يقول: ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾. فضحك سليمان، وسأل عنه، فشهد له محرور مغيظ، فخلّى سبيله.

*

٤٨٧

عليّ ومعاوية

ارتفع إلى قاض يشيّع خصمان: اسم أحدهما عليّ واسم الآخر معاوية، فانحنى القاضي على معاوية فضربه مائة سوط من غير أن اتّجهت عليه حجّة. ففطن معاوية من أين أُتيَ. فقال للقاضي:

أصلحك الله! سَلْ خصمي عن كنيته، فاذا هو أبو عبد الرحمن ـ وكانت كنية معاوية بن أبي سفيان ـ فبطحه وضربه مائة سوط. فقال لصاحبه: ما أخذته منّي بالاسم استرجعته منك بالكنية.

٤٨٨

ابشرْ يا أمير المؤمنين

قيل إن المنصور بن أبي عامر الأندلسي كان إذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة، ولم يسرِ إلى الغزاة إلاّ من الجامع. فاتفق أنه في بعض حركاته للغزاة توجّه إلى الجامع لعقد اللواء. فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة. فرفع حامل اللواءَ اللواءَ، فصادف ثُريّا من قناديل الجامع، فانكسرت على اللواء، وتبدّد عليه الزيت. فتطيّر[1] الحاضرون من ذلك، وتغيّر وجه المنصور. فقال رجل: أبشرْ يا أمير المؤمنين بغزاة هيّنة، وغنيمة سارّة. فقد بلغت أعلامك الثريا، وسقاها الله من شجرة مباركة.

٤٨٩

أماتك الله وإيّاه

حكى الأصمعي قال: كان رجل من ألأم الناس وأبخلهم، وكان عنده لبن كثير، فسمع به رجل ظريف، فقال: أموت أو أشرب من لبنه. فأقبل ومعه صاحب

(١) تطيّر: تشاءم.

له حتّى إذا كان بباب صاحب اللبن غُشي عليه وتماوت، فقعد صاحبه عند رأسه يسترجع، فخرج إليه صاحب اللبن، فقال له: ما باله؟

فقال: هذا سيد بني تميم أتاه أمر الله ها هنا، وكان قال: أسقني لبناً! فقال صاحب اللبن: هذا هيّن موجود! يا غلام ائتني بقدح من لبن، فأتاه فأسنده صاحبه إلى صدره، وسقاه حتى أتى عليه، وتجشّأ[1] فقال صاحبه لصاحب اللبن: تقول هذه راحة الموت؟

ففطن لهما وقال: أماتك الله وإيّاه!

٤٩٠

كأنه في إيوان كسرى

قيل لأعرابي: كيف تبترد بالبادية إذا انتصف النهار، وانتقل كل شيء ظلّه؟ فقال: وهل العيش إلاّ هناك؟ يركض أحدنا ميلاً فيرفضّ عرقاً كالجمان، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه وتقبل عليه الرياح من كل جانب، فكأنه في إيوان كسرى.

٤٩١

محبة الوطن

قال المعتمد بن عبّاد:

إن يسلب القوم العِدى وطني وتسلمني الجموعُ
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلبَ الضلوعُ
قد رمت يوم نزالهم ألّا تحصّنني الدروعُ
وبرزت ليس سوى القميـ ـص ِ على الحشاشيء دفوعُ

---

(١) تجشّأ: أراد أن يتقيّأ.

مـا سـرتُ قطّ إلى الـقـتـا ل ِ وكـان مـن أمـلي الـرجـوعُ
شـيـمُ الأُلى أنـا مـنـهـمُ والأصـل تـتـبـعـه الـفـروعُ

٤٩٢

فضيلة زبيدة

لما حجّت زبيدة زوجة هارون الرشيد، ورأت ما يعانيه أهل مكة من المشاق للحصول على الماء الذي يشربون، أمرت خازن أموالها أن يدعو المهندسين والعمال ليبدأوا الحفر وشق الطرق من كل خفض ورفع، وسهل وجبل، حتى تصل الماء إلى مكة، ولـمّا ظهر التردّد على خازن الأموال من كثرة التكاليف قالت له:

اعملْ ولو كلّفتك ضربة المعول ديناراً، فعمل وتمّ المشروع، ولا يزال يحمل اسمها إلى اليوم. وقد بلغت تكاليفه مليون و ٧٠٠ ألف دينار.

٤٩٣

إنه بالإصلاح أحقّ من أهل الكوفة

كان بالكوفة رجل يُقال له مصلح، فبلغه أن بالبصرة رجلًا من المصلحين مقدّماً في شأنه، فسار الكوفي إلى البصرة. فلما قدم عليه قال له: من أنت؟

قال: أنا مصلح جئتك من الكوفة لـمّا بلغني خبرك. فرحّب به وأدخله موضعه، وخرج يشتري له ما يأكل. فأتى جبّاناً فقال له: أعندك جُبن؟

قال: عندي جبنٌ كأنه سمن.

فقال في نفسه: لِمَ أشتري سمناً حين هو يُضرب به المثل؟

فذهب إلى من يبيع السمن فقال له: أعندك سمن؟

فقال: عندي سمن كأنه زيت.

فقال في نفسه: لِمَ لا أشتري زيتاً حين هو يُضرب به المثل؟

فذهب إلى زيّات وقال: أعندك زيت؟

قال: عندي زيت صافٍ كأنه الماء. فقال في نفسه، لِمَ لا أشتري ماء حين يُضرب به المثل؟

فرجع إلى بيته، وأخذ صحفة وملأها ماء، وقدّمها للضيف مع كسيرات يابسة، وعرّفه كيف جرى له. فقال الكوفي: أنا أشهد أنك بالاصلاح أحقّ من أهل الكوفة.

٤٩٤

لن يعشق من يعشق نقده

كان أشعب يختلف إلى جارية في المدينة ويظهر لها التعاشق إلى أن سألته يوماً سُلفةً بنصفٍ درهم، فانقطع عنها، وكان إذا لقيها في الطريق سلك طريقاً أخرى. فصنعت له نشوقاً[1] وأقبلت به إليه. فقال لها:

ما هذا؟

قالت: نشوق عملته لك لهذا الفزع الذي بك، فقال: اشربيه أنتِ للطمع. فلو انقطع طمعك انقطع فزعي، وأنشأ يقول:

أخلفي ما شئتِ وعدي ... وامنحيني كلَّ صدِّ
قد سلا[2] بعدك قلبي ... فاعشقي مَنْ شئتِ بعدي
إنّني آليت لا أعـ ... ـشقُ مَنْ يعشق نقدي

٤٩٥

يختصمان في رأس

قال عمر بن ميمون: مررتُ ببعض طرق الكوفة، فاذا أنا باثنين يختصمان، فقلت: ما بكما؟ فقال أحدهما: إن صديقاً زارني، فاشتهى رأساً، فاشتريته وتغدّينا، وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمّل بها، فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره ليوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس.

---

(١) نُشوق: كل دواء يُنشّق عن طريق الأنف.

(٢) سلا: هجر.

الحيلة الموفقة

قيل: إن جارية من جواري الرشيد تمطّت ولم تستطع أن تمدّ يدها، فلـمّا أرادت أن تمدّ يدهـا لم تُطق، وحصـل فيها الـورم، فصاحت وآلمهـا. فشقّ على الـرشيد، وعجز الأطباء عن علاجها. فقال له طبيب حاذق: يا أمـير المؤمنين، لا دواء لهـا إلّا أن يـدخل إليهـا رجل أجنبي غـريب، فيخلو بها ويمـرخها[1] بـدهن نعرفـه. فأجـابه الخليفة إلى ذلك رغبة في عافيتها. فأحضر الطبيبُ الرجـل والداهن وقـال: أريد من أمير المؤمنين أن يأمر بتعريتها حتى يمرخ جميع أعضائها بهذا الدّهن. فشقّ ذلـك على الخليفة وأمره أن يفعل، وأضمر في نفسـه قتل الـرجل وقـال للخادم: خـذه وأدخله عليها بعد أن تعرّيها. فعرّيت الجاريـة وأُقيمت. فلما دخل عليهـا وقرب منهـا وسعى إليها وأومأ بيده إلى فرجها ليمسّه غطّت الجارية فرجها بيدهـا التي كانت قـد عُطّلت حركتها، ولشدة ما داخلها من الحياء والجزع حمي جسمها بانتشار الحرارة الغريـزية، فأعانها على ما أرادت من تغطية فرجها واستعمال يدها.

فلـمّا غطّت فرجها قال لها الرجل: الحمد لله على العافية، فأخـذه الخادم وجـاء به إلى الرشيد وأعلمه بالحال وما اتفق. فقال الرشيد للرجل: فكيف نعمل في رجـل نظر إلى حَرَمنـا. فمدّ الـطبيب يده إلى لحيـة الرجـل فانتزعها فـإذا هي مُلصقة، وإذا الشخص جارية، وقـال: يا أمـير المؤمنين، مـا كنت لأبذل حـرمك للرجـل، ولكن خشية أن أكشف لك الخبر فيتّصل بالجاريـة، فتبطل الحيلة، ولا يفيـد العلاج، لأني أردت أن أُدخل على قلبها فزعاً شديداً ليحمي طبعها ويقودها إلى تحريك يدها وتمشي الحرارة الغريزية في سائر أعضائها بهذه الواسطة، فسُرّي[2] عند الرشيد مـا كان وَقَـر في صدره من الرجل وأجزل عطيته.

*

---

(١) يمرخها: يدهنها.

(٢) سُرّي عنه: زال عنه ما كان يجده من الهم.

مباراة في الكرم

عن عقال بن صعصعة قال:

أجدبت بلاد تميم، وأصابت بني حنظلة سنة[١] في خلافة عثمان، فبلغهم خصب عن بلاد كلب بن وبرة، فانتجعتها بنو حنظلة، فنزلوا أقصى الوادي، وتسرّع غالب بن صعصعة فيهم وحده دون بني مالك بن حنظلة، ولم يكن مع بني يربوع من بني مالك غير غالب، فنحر ناقته فأطعمهم إياها، فلمّا وردت إبل سُحيم بن وثيل الرياحي حبس منها ناقة، فنحرها من غد، فقيل لغالب: إنما نحر سُحيم مواءمة لك ـ أي مساواة لك ـ فضحك غالب وقال:

كلا، ولكنه امرؤ كريم، وسوف أنظر في ذلك، فلما وردت إبل غالب حبس منها ناقتين، فنحرهما، فأطعمهما بني يربوع، فعقر سُحيم ناقتين، فقال غالب: الآن علمت أنه يوائمني، فعقر غالب عشراً، فأطعمها بني يربوع، فعقر سحيم عشراً، فلما بلغ غالباً فعله ضحك، وكانت إبله ترد لخمس، فلما وردت عقرها كلها عن آخرها، فالمكثر يقول: كانت أربعمائة، والمقلّ يقول كانت مائة فأمسك[٢] سحيم حينئذٍ، ثم أنه عقر في خلافة علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بكناسة الكوفة مائتي ناقة وبعير. فخرج الناس بالزنابيل والأطباق والحبال لأخذ اللّحم، ورآهم عليّ فقال: أيها الناس لا يحلّ لكم، إنّما أُهلّ بها لغير الله عز وجل.

قال: فحدثني من حضر ذلك قال: كان الفرزدق يومئذٍ مع أبيه وهو غلام فجعل غالب يقول: يا بنيّ اردد عليّ، والفرزدق يردّها عليه ويقول له: يا أبتِ أعقر.

قال جهم: فلم يُغْنِ عن سُحيم فعله، ولم يجعل كغالب إذ لم يُطق فعله.

*

(١) السنة: الجدب.

(٢) أمسك: امتنع وكفّ.

٤٩٨

أمّه تقتل زوجها مروان بن الحكم

عن يزيد بن حصين بن نمير قال:

أن مروان بن الحكم تزوّج أم خالد بن يزيد بن معاوية، فناظر خالداً يوماً وأراد أن يقع منه في شيء جرى بينهما، فقال له: يا ابن الرّطبة، فقال له خالد: إنك لأمّي مختبر، وأنت بهذا أعلم.

ثم أتى أمه فأخبرها، وقال: أنتِ صنعتِ بي هذا. فقالت له: دعه فإنه لا يقولها لك بعد اليوم.

فدخل مروان عليهما فقال لها: هل أخبرك خالد بشيء؟

فقالت: يا أمير المؤمنين، خالد أشدّ تعظيماً لك من أن يذكر لي خبراً جرى بينك وبينه.

فلما أمسى وضعت مرفقة على وجهه وقعدت عليها وهي وجواريها حتى مات.

٤٩٩

ابنة عبد الملك والمحبوس

قال الوشّاء:

خُبّرت أن عبد الملك بن مروان وجد على بعض عماله فقيده وحبسه في داره، فأشرفت عليه ابنة لعبد الملك، فنظر إليها فأنشأت تقول:

أيّها الرامي بالطرفِ وفي الطرف الحتوفُ
إن تُردْ وصلاً فقد أوْ كنك الظبيّ الألوف

فأجابها الفتى، فقال:

إن تريني زانيَ العينين فالفرجُ عفيفُ
ليس إلاّ النظر الفاتنُ والشعر الظريفُ

فأجابته الجارية:

قد أردناك على أن تعتنق ظبياً ألوفا
فتأبيت فلا زِلْتَ لقيديك حليفا

فذاع الشعر، وبلغ عبد الملك، فدعا به فزوّجه إياها، ودفعها إليه.

٥٠٠

علي بن أبي طالب والمؤذن

كان لعلي بن أبي طالب، عليه السلام، جارية تدخل وتخرج، وكان له مؤذن شاب، فكان إذا نظر إليها قال لها: أنا، والله، أحبك، فلما طال ذلك عليها أتت علياً فأخبرته فقال لها: إذا قال لك ذلك فقولي: أنا والله أحبك فماذا؟

فأعاد عليها الفتى قوله فقالت له: وأنا والله أحبك فماذا؟

فقال: تصبرين ونصبر حتى يوفينا من يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، فأعلمت علياً، فدعا به فزوّجه منها ودفعها إليه.

٥٠١

ما يكتب على الجبين والخدّ ويطرف به ذوو الصبابة والوجد

قال الوشّاء:

قرأت على جبين جارية لنخّاس بالغالية، وقد أخرجها للعرض:

وشادنٍ أحسن خلق الله في كفّه سيف رسول الله
قد كتب الحسن على وجههِ سطرين بالعنبر باسم الله
على يديْ رضوان منسوجةٌ صنعةُ حسنٍ في طراز الله
أنا غريق في بحار الهوى شبه قتيل في سبيل الله

وقال الوشّاء:

وأخبرني من رأى على جبين جارية نخّاسٍ مكتوباً في سطرين:

إذا حُجبت لم يكفك البدرُ فقدها ... وتكفيك فقد البدر إن حُجب البدرُ
وحسبك من خمرٍ تفوتك ريقها ... ووالله ما من ريقها حسبك الخمرُ

وقال علي بن الجهم: رأيت على خدّ جارية لفاطمة بنت محمد بن عمران الكاتب مكتوباً بالمسك:

رضيتُ على رُغمي بحبّكِ فاعدلي ... ولا تُسرفي إذ صار في يدك الحكمُ
متى يظفر المظلوم منك بحقّه ... إذا كنتِ قاضيه وأنتِ له خصمُ

قال المازني: كان على جبين جارية شريط مكتوب بالغالية:

صرمتني ثم لا كلّمتني أبداً ... إن كنتُ خنتُكَ في حالٍ من الحال
ولا هممتُ ولا نفسي تحدّثني ... قلبي بذاك ولا يجري على بالِ

وقال الجاحظ: كتبت مؤلف جارية الصخري على جبينها:

ومحسودةٍ بالحسن كالبدر وجهها ... وألحاظ عينيها تجورُ وتظلمُ
ملكت عليها طاعة الشوق والهوى ... وعلّمتها ما لم تكن منه تعلمُ

٥٠٢

لابراهيم الموصليّ في صفة سنبوسج

قال ابراهيم بن الموصلي يصف سنبوسج في حضرة المستكفي:

يا سائلي عن أطيب الطعام ... سألت عنه أبصر الأنام
اعمد إلى اللحم اللطيف الأحمر ... فدقّه بالشحم غير مكثرِ
واطرح عليه بصلاً مدوّرا ... وكرنباً رطباً جنياً اخضرا
والق السذاب بعده موفرا ... وداره صيني وكفّ كزبرا
وبعده شيء من القرنفل ... وزنجبيلٍ صالح وفلفلِ
وكفّ كمّونٍ وشيء من مري ... وملء كفّين بملحٍ تدمرِ
فدقّهُ يا سيّدي شديدا ... ثم أوقد النار له وقودا

واجعله في القدر وصبّ الماء   من فوقه واجعل له غطاء
حتى إذا الماء فنى وقلّا   ونشّفته النار عنه كلّا
فلفّه إن شئت في رقاقِ   ثم احكم الأطراف بالإلزاقِ
أو شئت خذ جزءاً من العجين   معتدل التفريك مستلين
فابسطه بالسويق مستديرا   ثم اطفرن أطرافه تطفيرا
وصُبّ في الطابق زيتاً طيباً   ثم اَقْلُهُ بالزيت قلياً عجبا
وضعه في جامٍ له لطيفِ   ووسطه في خردلٍ حرّيفِ
وكله أكلاً طيباً بخردلِ   فهو ألذّ المأكل المعجّل

٥٠٣

باب ما وجد للمتظرفات والظراف مكتوباً على النعال والخفاف

قال الماردي: كتبتْ جارية للمارقي على نعلها بالذهب:

لم ألقَ ذا شجنٍ يبوح بحبّه   إلّا حسبتك ذلك المحبوبا
حذراً عليك وإنني بك واثقٌ   أن لا ينال سواي منك نصيبا

وكان على نعل جارية سعيد الفارسي:

لا تأنفنّ من الخضوعِ لمن تحبّ ودارِهِ
اخضع له فلطالما مُلّكتَ حلّ إزارِهِ

وكتبتْ مَلَك جارية ابن عاصم على خُفّ لها رهاوي بذهب:

وإني لإشفاقي عليك وصبوتي   إليك كأنّي في المنام أراكا
تحدّثني نفسي إذا غبتَ ساعةً   بأن لقاء الموت دون لقاكا

وأهدى سعيد بن حُمَيد نعلاً إلى صديق له وكتب عليها:

نعلٌ بعثت بها لتلبسها   قَدَمٌ بها تسعى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشركها   خدّي جعلتُ شراكها خدّي

وأهدى بعض الكتاب نعلاً وكتب على شراكها:

لي فؤاد شفّه الحز نُ وأضناهُ الصدودُ
وهوايَ كلَّ يومٍ هو ينمي ويزيدُ

وأُهديت نعل من فضّة مكتوب عليها:

بأبي أنت سيّدي ومنايَ جعل الله والديَّ فِداكا
لك خدّي من الثرى لك نعلاً قُدّ للنعل من فؤادي شِراكا

٥٠٤

البلاغة

قيل ليوناني: ما البلاغة؟

قال: تصحيح الأقسام، واعتدال الكلام[١].

وقيل لرومي: ما البلاغة؟

قال: حسن الاقتصاد عند البديهة والغزارة يوم الاطالة.

وقيل لفارسي: ما البلاغة؟

قال: معرفة الفصل من الوصل.

وقيل لأعرابي: ما البلاغة؟

قال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب في غير خَطَل.

٥٠٥

هذا رجل لُقّن حجّته

حدّث رجل من أهل الرقة عن عبد الملك بن عمرة قال: أخذ زياد رجلاً من الخوارج فأفلت منه، فأخذ أخاً له فقال: إن جئت بأخيك عفوت عنك وإلاّ ضربت عنقك.

---

(١) في «البيان والتبيين» (١ : ٨٨): واختيار الكلام.

قال: أرأيت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين، أخلّي سبيله؟

قال: نعم.

قال: أنا آتيك بكتاب من العزيز الرحيم، وأقيم عليه شاهدين: ابراهيم وموسى عليهما السلام ﴿أم لم يُنبّأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى: ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾[1].

فقال زياد: خلّوا سبيله، هذا رجل لُقّن حجّته.

٥٠٦

سمّوه العريان

قالوا:

دخل مخنَّث على العريان بن الهيثم وهو أمير الكوفة فقال: يا عدو الله أتتخنّث وأنت شيخ؟

فقال: مكذوب عليّ، كما هو مكذوب على الأمير ـ أعزّه الله ـ فاستوى الأمير جالساً.

قال: وما قيل فيَّ؟

قال: سمّوك العريان وأنت صاحب عشرين جُبّة.

٥٠٧

من هذا يضحك

حكي أن رجلاً ضاف آخر، فانتبه صاحب الدار بالليل، فسمع ضحك الرجل من الغرفة فصاح به: فلان!!

فقال: لبيّك.

قال: أنت كنت في أسفل الدار فما الذي رقّاك إلى الغرفة؟

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣٧ ـ ٣٨.

قال: تدحرجت.

فقال: الناس يتدحرجون من فوق إلى أسفل، فكيف تدحرجت أنت؟

قال: فمن هذا أضحك.

٥٠٨

ما ينقشه أهل الهوى على خواتيمهم

- من كثرت لحظاته دامت حسراته. ومن تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه، ومن قدم هواه دام أساه.
- العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير.
- إذا كثر الجفاء قلّ الوفاء.
- إذا صحَّ الظفر وقعت الغِيَر.
- إذا صحّت القلوب اغتفرت الذنوب.
- قلّ من سلا إلاّ استفزّه الهوى.
- من مُنع من النظر اقتصر على الأثر.
- من مُنع من الوصال قنع بالخيال.

٥٠٩

محمد بن عبد الملك الزيات وبعض الجواري

كان محمد بن عبد الملك الزيات يحب بعض جواري القيان، ثم تنكر لها فكتبت على خاتمٍ لفظاً له تعرّض له فيه بالعتاب، فبلغه ذلك فكتب على خاتمه ضد ما كتبت، فبلغها، فمحت ما كان على خاتمها وكتبت ضد ما كتب، فبلغه ذلك فمحا ما كان على خاتمه وكتب ضد ذلك في أبيات يقول فيها:

كتبتْ على فصٍّ لخاتمها: مَن ملَّ مِن أحبابه رقدا
فكتبتُ في فصّي ليبلغها: مَن نام لم يشعر بمن سهدا
فمحته واكتتبت ليبلغني ما نام من يهوى ولا هجدا

فمحوته ثم اكتبتُ: أنا والله أول ميِّتٍ كمدا
قالت: يعارضني بخاتمه والله لا كلّمته أبدا

٥١٠

أفضل صفات المرأة

قيل لأعرابي: أتحسن صفات النساء؟

قال: نعم.

قيل: فما أفضل صفات المرأة؟

قال: إذا سهل خداها، ونهد ثدياها، ولطف كفّاها، وعضّ ساعداها، وعرض وركاها، والتفّت فخذاها، وعظم إليتاها، وجدل ساقاها، فتلك هي النفس ومناها.

٥١١

نومي شتات وذهني تارات

قيل:

دخل عامر بن يزيد الكلابي على معاوية بن أبي سفيان بعدما أسنّ، فقال له معاوية:

كيف أنت؟ وكيف نجدك، يا عمّ.

فقال له: يا ابن أخي: ابيضّ منّي ما كنت أحبُّ أن يسودّ، واسودّ منّي ما كنت أحبّ أن يبيضّ. لان منّي ما كنت أحبّ أن يشتدّ، واشتدّ منّي ما كنت أحبّ أن يلين. وثقلت على الأرض أقدامي، وقرب بعضي من بعض، فنومي شتات، وعيشي رفات وذهني تارات.

*

٥١٢

الأعرابيّ والعصاة

قيل:

لقي الحجاج يوماً اعرابياً فقال له: من أين أقبلت؟

قال: من البادية.

قال: وما في يدك؟

قال: عصاي أركزها لصلاتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، واعتمد بها في مشيتي لتتّسع خطوتي، وأثب بها النهر، وتؤمنني العثر.

وألقي عليها كسائي فتقيني الحرّ، وتؤمنني القرّ، وتدني إليَّ ما بَعُدَ منّي وهي محل سفرتي وعلاّقة أدواتي.

أعصى بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب، وتنوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند مبارزة الأقران، ورثتها عن أبي، وأورثتها بعدي ابني، وأهشّ بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى كثيرة لا تُحصى.

٥١٣

الثقيل

قيل لجالينوس[1]: كم كان الرجل الثقيل أثقل من الجمل الميّت؟

قال: لأن الجمل الميّت ثقله على الأرض، والرجل الثقيل ثقله على القلب.

٥١٤

إنّها ليست وثائق عليكم

ذكر أبو العباس الشيباني، قال:

لما مرض أبو دلف بالعلة التي مات فيها، أقام شهراً ملازماً الوسادة، فأفاق يوماً

(١) الخبر في «غرر الخصائص»، ص ٤٥٧، منسوب لارسطوطاليس.

فقال لخادمه بشر كم لي على هذا الحال؟

قال: شهراً.

فبكى وقال: أيمرّ عليَّ من عمري شهر لا أبرّ فيه أحداً من الناس؟

يا غلام، أخرج إلى الباب فإن قلبي يشهد أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج فلا تمنع أحداً من الدخول إلينا.

فخرج فإذا عشرة من آل أبي طالب، فأمرهم بالدخول فدخلوا فابتدر رجل منهم وقال: أصلحك الله! نحن قوم من بني أبي طالب، من أهل بيت رسول الله (ص) وفينا من ولده، وقد أحاطت بنا المصائب، وأجحفت بنا النوائب، فإن رأيت أن تجبر كسرنا، وتغني فقرنا فعجّل.

فقال لخادمه: خذ بيدي واجلسني. ففعل.

فقال: ليأخذ كل واحد منكم ورقة ويكتب فيها بخطه أنه قبض مني مائة ألف درهم، فتحيّروا عند ذلك، فلما كتبوا الرقاع، وصفوها بين يديه، فقال لخادمه:

عليَّ بالمال، فأحضره، فأعطى كل واحد منهم مائة ألف درهم. فلما تسلّموا المال قال له رجل منهم: بالآباء نفديك، وبالأمهات نقيك. والله ما لنا مال، ولا عقار، وخطوطنا عندك ما تصنع بها؟

فبكى وقال:

أتظنّون أنها وثائق عليكم، لا، والله.

ثم قال لخادمه: إذا أنا متّ فاجعل هذه الرقاع في ألفاني ألقى بها محمداً (ص) في عَرَصَات القيامة.

ثم قال له: أوصل لكل واحد منهم ألف دينار لنفقة طريقه. انصرفوا بارك الله فيكم.

٥١٥

الحسن والعجوز

حدّث أبو الحسن المدائني قال:

خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم حجاجاً فسبقتهم

القافلة، وفاتهم أثقالهم فجاعوا، فمرّوا بعجوز في خبائها فقالوا لها: هل من شراب؟

فقالت: نعم، فأناخوا بها، وليس لها إلاّ شويهة واحدة، فقامت وحلبت الشاة، وأتتهم بلبنها فشربوا فقالوا: هل من طعام تحيينا به؟

فقالت: أذنتُ لكم أن تذبحوا هذه الشاة، فما عندي سواها، فقام إليها أحدهم فذبحها وقطّعها، فهيّأت لهم العجوز منها طعاماً، فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا، فلمّا ارتحلوا قالوا لها: إنّا قوم من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا لمّ بنا فإنا صانعون لك خيراً - إن شاء الله - ثم ارتحلوا.

وجاء زوج المرأة فأخبرته خبر القوم وما قالوا لها، فغضب وقال: ويحك! أتذبحين شاةً ما لنا سواها لقوم لم نعرفهم؟

ثم بعد مدّة ألجأتها الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا يبيعان البعر ويعيشان بثمنه، فمرّت العجوز في بعض طرق المدينة وإذا الحسن على باب داره فعرف العجوز ولم تعرفه، فبعث إليها غلامه فدعاها إليه فقال لها: يا أمة الله هل تعرفينني؟

قالت: لا.

قال: أنا أحد ضيوفك يوم صنعت الشاة.

قالت: بأبي أنت وأمّي.

فأمر أن يشتري لها من غنم الصدقة ألف شاة وأمر لها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى أخيه الحسين فدفع لها ألف شاة وألف دينار ثم بعث بها إلى عبد الله بن جعفر فقال: بكم وصلك الحسن والحسين؟

قالت: بألفي شاة وألفيْ دينار.

قال: لو بدأت بي لأتبعتهما ثم دفع لها ألفيْ دينار فرجعت العجوز لزوجها بالمال والأغنام.

*

أخبار الكرم

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): إذا كان امراؤكم خياركم، واغنياؤكم سمحاءكم. وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها.

* وقال ابن عباس رضي الله عنهما: شيب الرجل من مقدم رأسه من الكرم، وفي قفاه من اللؤم.

* وقال عبد الله بن عمير: اللئيم لا تنفع عنده معرفة إلّا عن رغبة أو رهبة.

* وقال ابراهيم بن أدهم:

بخلت بالدنيا على أصدقائك، وسخوت بآخرتك على أعدائك فلا أنت بما بخلت به معذور، ولا بما سمحت به محمود، وأنشد شعراً:

من أظهر الاحسان من فعله وعمّ بالفضل جميع الأنام
ازدحم الناس على بابه والمنهل العذب كثير الزّحام

قال: وورث عبد الملك بن الجزّ خمسين ألفاً فبعث بها إلى إخوانه صُرراً وقال: كنت أسأل لاخواني في صلاتي الجنة، أفأبخل عليهم اليوم بالدنيا؟

* وقال ابن سيرين: كان أصحابنا يتهادون الدراهم في الجوالقات وعلى الأطباق.

* وقيل: كانت خالة حاتم الطائي سخية لا تترك شيئاً إلّا جادت به. فحضر عليها أخوتها حتى ضاقت طعم الفقر والجوع، فظنوا أنها قد وجدت ألم الضيق فأطلقوها، ودفعوا لها صرّة فيها مال، فأتتها سائلة فقالت: دونك الصرّة، لقد عظّني الجوع فلا أمنع بعده سائلاً أبداً.

*

٥١٧

تحبّ محمد بن القاسم

يروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، مرّ طائفاً بالمدينة في خلافته، وإذا بجارية تبكي وتقول:

وهويته من قبل قطع تمائمي متناسباً مثل القضيب الناعم
وكأنَّ نور البدر يشبه وجهه يمشي ويصعد في ذؤابة هاشم

فقرع أبو بكر رضي الله عنه الباب، فخرجت إليه، فقال: أحرّة أنت أم أمة؟

قالت: أمة.

قالت: مَنْ هويت؟

فبكت وقالت: سألتك بالله إلَّا انصرفت عنّي.

قال: لا بدّ.

فقالت:

وأنا الذي قدح الفراق بقلبها فبكتْ لحبّ محمد بن القاسم

فسار أبو بكر رضي الله عنه إلى المسجد، وبعث إلى مولاها فاشتراها منه وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

٥١٨

رأي الحسن بن علي بالزواج

قال رجل للإمام الحسن بن علي عليه السلام:

إنّ لي بنيّة فمن ترى أزوّجها؟

فأجابه:

زوّجها لمن يتّقي الله، فإن أحبّها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

وقيل له:

فلان خطب إلينا فلانة. فسألهم:

أهو موسر من عقل ودين؟

قالوا: نعم.

قال: إذن فزوّجوه.

٥١٩

بكاءٌ وكاسٌ كيف يتفقان؟

قال مسلم بن الوليد يرثي زوجته، وقد حاول بعضهم أن يسلّيه، فقدّم له الشراب فامتنع وقال:

بكاءٌ وكاسٌ كيف يتفقان ... سبيلاهما في القلب مختلفانِ
دعاني وافراط البكاء فإنني ... أرى اليوم فيه غير ما تريانِ
فما الحزن حتى تنزف العين ماءها ... وتصطفق الأحشاء بالخفقانِ
وكيف بدفع اليأس والوجد بعدها ... وسهماهما في القلب يعتلجانِ

* * *

المصادر والمراجع

١ - ابن خلكان: «وفيات الأعيان»، دار صادر، بيروت.

٢ - الثعالبي: «اليتيمة».

٣ - ابن طيفور: «تاريخ بغداد»، سويسرا، ١٩٠٨.

٤ - الجاحظ: «كتاب الحيوان».

٥ - الجاحظ: «كتاب البخلاء».

٦ - أبو الفرج الأصبهاني: «الأغاني»، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧ - المقري: «المختار من نوادر الأخبار».

٨ - الكتبي: «فوات الأفيات».

٩ - «تاريخ الطبري».

١٠ - «كنايات الجرجاني».

١١ - «الهفوات النادرة».

١٢ - «الكامل».

١٣ - التبريزي: «شرح التبريزي».

١٤ - «المعارف».

١٥ - «ابن رستة».

١٦ - «الروض الأنف».

١٧ - «تاريخ ابن عساكر.

١٨ - الصفدي: «الوافي بالوفيات».

١٩ - «أخبار الوزراء».

٢٠ - «الغيث المنسجم».

٢١ - المسعودي: «مروج الذهب».

٢٢ - «شروح السقت».

٢٣ - «الجذوة».

٢٤ - «طبقات ابن المعتز».

٢٥ - عبد الأمير مهنا: «ديوان ابن الرومي»، دار الهلال، بيروت.

٢٦ - التيفاشي: «سرور النفس».

٢٧ - «الهدايا والتحف».

٢٨ - «سيرة عمر».

٢٩ - الأبشيهي: «المستطرف».

٣٠ - «بلاغات النساء».

٣١ - «سيرة ابن هشام».

٣٢ - «شعراء عباسيون».

٣٣ - «درّة الغواص».

٣٤ - الزوزني: «شرح المعلقات السبع».

٣٥ - الميداني: «مجمع الأمثال».

٣٦ - ياقوت الحموي: «معجم البلدان».

٣٧ - ابن عبد ربه: «العقد الفريد».

٣٨ - «إعلام الناس بما وقع للبرامكة».

٣٩ - «طبقات السبكي».

٤٠ - «عيون الأخبار»، دار الكتب.

٤١ - ابن الجوزي: «ذم الهوى».

٤٢ - ابن قيم الجوزية: «أخبار النساء».

٤٣ - ابن عبد البرّ: «بهجة المجالس».

٤٤ - عيسى: «لطائف النساء».

٤٥ - «حدائق الأزاهر».

٤٦ - التنوخي: «المستجاد».

٤٧ ـ ابن منقذ: «لباب الآداب».
٤٨ ـ الدميري: «حياة الحيوان».
٤٩ ـ الشهابي: «الغرر».
٥٠ ـ ابن الجوزي: «أخبار الحمقى».
٥١ ـ ابن عاصم: «الحدائق».
٥٢ ـ العاملي: «المخلاة».
٥٣ ـ محمد قره علي: «سنابل الزمن».
٥٤ ـ «الموشى».
٥٥ ـ محمد قره علي: «الضاحكون».
٥٦ ـ ابن حجة: «ثمرات الأوراق».
٥٧ ـ «المحاسن والأضداد».
٥٨ ـ الميداني: «مجمع الأمثال».
٥٩ ـ «شرح ديوان ابن أبي الحديد».
٦٠ ـ عبد النبي: «المختار».
٦١ ـ الخطيب: «متعة الأديب».
٦٢ ـ التيفاشي: «سرور النفس».
٦٣ ـ «ديوان الصنوبري».
٦٤ ـ ابن سريرة: «التحفة السنية».

* * *

فهرس الطرائف ومصادرها

* * *